جان جاك روسو

حياته وكتبه



مقدمة

نحن فى الحياة أشبه بالزورق الصغير السابح فوق أمواج المحيط الضخمة إذا لم تكن له شواخص وأعلام تهديه طريقه كان قميناً أن يضل السبيل وأن يبتلعه الخضم الهائل المحيط به . فهذه اللانهايات غير المتناهية من الزمان الماضى الذى يثقل كواهلنا . ومثلها من لا نهايات المستقبل الجون لا ندرى سواده من بياضه . ولا نهايات المكان والفضاء المترامية حولنا من فوقنا وأسفل منا ، وما هو محتجب وراء أفق ما أقربه ، أو مختف طى اليبس والماء مما يسهل أن يغيب عنا علمه . ذلك المحيط المخوف الذى يشتملنا ونحن فيه ذرة تافهة لا يعنى بها أينما تحل ولا كيف تتطور ، والذى يشتمل مع ذلك كل ما فى الحياة من معنى ونعيم لا سبيل لنا إلى سلوك لجته ما لم نجد هادياً يسير بنا بين متلاطم أمواجها متقياً مخاطرها ملتمساً سكينتها حتى يصل بنا إلى شاطئ سكينة الخلد .

هذا الهادى هو فطرة الاحتفاظ بالحياة فطرة مركبة فى النفس الإنسانية كما هى مركبة فى النفس الحيوانية بل فى ذرات النبات والجماد . ألا ترى إلى أعواد القصب الرفيعة كيف تنحنى لقاء العاصفة فلا تجىء عليها إلا أن يصبح الانحناء بالغاً غايته ولا سبيل للمزيد منه . ثم ألا ترى إلى كل أنواع الحيوان كيف تسعى لتعيش فى أكثر الأوساط ملاءمة لها . لكن هذه الفطرة التى يبدأ مظهرها الإرادى عند الحيوان على شكل بسيط تنتقل إلى حال من التركيب عند الإنسان يجعل ملاحظتها أكثر صعوبة وأشد للدقة احتياجاً . ولعل ذلك راجع إلى أنا معشر بنى الإنسان نحن الذين نريد ملاحظة فطرتنا . وملاحظة الموجود ذاته صعبة إن لم تكن غير ممكنة . أو لعله راجع إلى أن فطرتنا مركبة حقيقة على اعتبار أنها مزيج مركب من فطرة جميع الخلائق التى يقال إنها دوننا فى مراتب الحياة .

ولو صحت هذه الفكرة الأخيرة . لو صح أن الفطرة الإنسانية هى مزيج

جميع فطرات الخلائق الأخرى التى هى دون الإنسان فى مراتب الحياة ، وتخيل بينا أنها صحيحة . إذن لوجب أن تعرف الجماعة الإنسانية فى كل عصر فى أى نوع من أنواع حياة هذه الخلائق هى أقرب حتى تجعل الغلبة فى اتجاهها الفطرى فى ما قابل فطرة هذا النوع الأدنى فتكون أدنى إلى الصواب وأبعد عن مواضع الزلل . وقد يكون التاريخ نفسه مؤديا إلى أن بنى آدم اتبعوا بسليقتهم ومن تلقاء أنفسهم هذه السبيل . فكان البدو أكثر أخذاً بفطرة كواسر الوحش ، كما أن العلماء اليوم يعنون بالتنقيب فى عالم الحيوانات الاجتماعية التكدسية كالنمل والنحل ليجعل الإنسان من فطرتها البسيطة هادياً له فى توجيه فطرته المركبة . وذلك لأنه كلما كان الشىء أكثر بساطة كان أكثر فى معركة الحياة سلاماً . فلا سبيل للإنسان ،وهو أشد المخلوقات تركيباً وتعقيداً ، إلا أن يسير على هدى السلائق الحيوانية البسيطة .

وليس البحث وراء معرفة الفطرة البسيطة التى تتقابل حياتها مع نوع خاص من حياة الإنسان بالأمر السهل . لأن عقولنا وهى المكلفة بتحمل هذا العناء محملة بميراث ماض طويل مركب مضطرب ، فهى ليست حرة الحرية الكافية لإمكان إلهامها إلهاماً صحيحاً . وكثيراً ما يقع لها فضلا عن هذا القيد المثقلة به ، أن تواجه نوعاً مركباً من الحياة الإنسانية تضل فى تكييف مكوناته الأساسية أشد الضلال . ثم إذا صادف أن فتح أمامها شعاع من نور الأمل فى الهداية فكثيراً ما تطمس العقائد والعوائد الحاكمة وما إليها من ميراث الماضى ومن ضرورات الحياة ومن تحكم الشرائع ومن استبداد الحكام على هذا الشعاع فيقع صاحبه إما فى تيهاء الضلال وإما فى لجة سوداء من ظلمة اليأس ، ويذهب ما كان ممكناً أن يلهمه هباء . وأكثر ما يكون هذا الفشل فى تلمّس الطريق لمعرفة أوفق وجوه الفطرة للعيش فى عصر معين حين يكون البناء الجماعى القائم قوياً صلباً لا تهزه ضربات النقد . فى هذه الحال تكون قوة البناء حائلا دون الإلهام الأسمى . أما إذا تصدعت جدران الاجتماع وبدأ الفساد يدب إليه ولم تسحر قوة الحاضر الأنظار عن التطلع إلى المستقبل هنالك يكون للإلهام صدى يزيد أمل صاحبه فى توسيع فرجة يطل منها على ما حوله وإلى ما أمامه ، ويقيس على أثر ذلك نوع الحياة المتوقعة على السلائق البسيطة التى تقابلها ، ثم يرسم خطة الحياة فى كلمة

يقولها . فإذا نادى بهذه الكلمة وسمعها الناس اتجهوا صوبها واهتدوا بهديها وساروا فى حياتهم على نورها .

على أن الرسول الذى يلقى الكلمة المرجوة التى توجه الناس وجهتهم فى الحياة المستقبل لا يظهر فجأة على مسرح الاجتماع . كلا ولا هو ينادى بشىء جديد لم يسمع الناس فى حياتهم به . ولكنه يمركز فى رسالته الآمال والنزعات المبهمة التى تجول فى أنفس المجموع العاجز تحت حمل الوراثة والوسط والتحكم عن تبينها جلية ظاهرة محددة . فإذا سمعها الناس اجتمعوا حولها وتعلقوا بها وبصاحبها لأنها عبارة عن مرآة صافية تعكس صورة ما كان فى نفوسهم مضطرباً . وصاحب الرسالة – وهو أصفى أهل زمانه ذهناً وسليقة لا عن دقة فى المنطق ولكن عن نقاء فى جوهر الذهن وقوة فى العاطفة تدفع إلى الإيمان بالرأى – هو الذى يسير أمام الجماعة ويكون هاديها ومرشدها .

فى تاريخ الإنسانية من هؤلاء الهداة والمرشدين شخوص ظاهرة يقف المؤرخ عند كل واحد منهم وقفة الحادى فى كل مرحلة من مراحل سفرته . يقف عنده فيحلل حياته ويحلل أعماله ويحلل أفكاره وكل ما تعلق أو أحاط به على اعتبار أنه ممثل الجماعة كلها ممن حوله وأنه لذلك صورة التطور فى تمام ظهورها . وإنك لترى فى مراجعة هذه التواريخ أن صور هؤلاء الهداة هى المثال الدقيق الواضح للنزعات التى سبقته أو عاصرته والتى لم تستطع الظهور لضعفها أمام سلطان الجمعية حتى جاء ذلك الإنسان الممتاز فارتفع بروحه وبذهنه فوق متداول مصالح الحياة محتقراً ما قد يضيعه ذلك عليه من المصالح ، عاملا على بناء الجديد أكثر من عنايته بهدم القديم الذى طالما هزت عرشه تلك النزعات فى إبان ظهورها وقبل أن يمركزها رجل التاريخ . حينذاك ترى الجماعة أسرع ما تكون لاتباعه والسير على ما يقرره لها من خطة وسنن .

على أنها كثيراً ما تتردد فى اتباعه بادئ الأمر وكثيراً ما تعرض عنه وكثيراً ما يموت هو قبل أن تثمر فكرته الثمرة المرجوة . لكنه يتحكم بعد ذلك – على حد قول كارليل – فيحكم من قبره الأمم والعصور التى كانت تذره مدى حياته فى ملابسه البالية ولا تكاد تجود عليه بالكفاف يقيم به أوده . هنالك ترى ذكراه ابتدأت تعود إلى الوجود لتجلس منه فى الذروة وعلى عرش الخلود . وهنالك ترى

الصور والتماثيل والمقاصير والمحاريب تقام ذكراً له واحتفاظاً بأثر من آثاره . وما كان أحوجه أيام حياته إلى بعض مما ينفق فى هذا السبيل يحفظ به على نفسه نعمة العيش .

من هؤلاء الهداة جان جاك روسو . فقد خرج هذا الطريد من منبته فى سويسرا ، وعلى دين آبائه البروتستانتيين ، إلى فرنسا مقر عظمته ومهبط أفكاره ، وللكثلكة دين مدام دفارنس التى التقطته وربته أيام تشرده وبؤسه . وبعد أن ظل أربعين سنة يعالج الفقر والفقر يقعده ويطرق أبواب التعليم والموسيقى وخدمة الحكومات المختلفة من غير نجاح أو توفيق إذا به نطق فى أول خطاب ألقاه بكلمة كانت تتردد فى الصدور وتقف فى الحناجر . تلك الكلمة هى القيامة فى وجه الترف . ونطق بها صريحة قوية مرعبة حتى اهتزت لها عروش الأغنياء والمترفين هزة عنيفة بعد ما كانت قد واجهت غيرها من الصيحات الضعيفة المستحيية بشىء غير قليل من الثبات والطمأنينة . وعقب على كلمته هذه بكلمة فى المساواة طعن فيها نظام ذلك العصر ونادى :

« إن الملكية الخاصة والترف والإمعان فى الشهوات هى سبب كل التعاسات المكدسة التى تقع على رءوس ملايين الفقراء ، والتى يحتملها الشعب لما طال إيهامه أنها أصلح الأنظمة للوجود الاجتماعى . وإنه لا سبيل لتخلص الأغلبية من هذا الشقاء إلا بعودة الإنسانية إلى حالتها الطبيعية » .

هذه هى الفكرة القائدة فى كتب روسو كلها . وعلى أساسها وجه النقد المر لما اعتقده خروجاً على الطبيعة من علوم وفنون ومناظر وملاه وسوء تربية الناشئة وتحكم الاستبداد فى رقاب البشر . وعلى أساسها كذلك وضع قواعد الإصلاح التى اعتقد وجوب الأخذ بها لإسعاد الإنسانية . على أن فكرته فى الإصلاح لم تكن فكرة تدريجية تبدأ عند الأنظمة الحاضرة وتسعى لتحويرها رويداً رويداً فى اتجاه معين ، ولكنها كانت فكرة متطرفة ثورية ترمى إلى هدم نظام وإقامة نظام جديد على أنقاضه . ويجب أن يقوم هذا النظام الجديد على مقتضى إلهام الطبيعة ووحيها . والعيش على مقتضى الإلهام الطبيعى هو هذا العيش البسيط الذى كان الناس يعيشونه حين كانوا لا يزالون قبائل لا تعرف الملكية ولم تندس بينهم الفوارق الاجتماعية .

لتهدم نظم التربية إذن من أساسها ليحل محلها نظام طبيعى قائم على فكرة استقلال الفرد فى حكم البساطة الطبيعية . ولتهدم النظم السياسية المبنية على أساس من الأثرة والملكية الخاصة والتحكم والاستبداد ، لتحل محل ذلك كله الجمهورية الاشتراكية القائمة على أساس من التعاقد الحر بين جميع أفراد الاجتماع . ولتهدم كل الفوارق الصناعية التى أقامها التحكم والإرهاق بين الناس ، ولتكن الفطرة الطبيعية هى القائد والمرشد فى كل حال .

هذه هى الفكرة الأساسية التى صدر عنها روسو وعليها رتب الحياة الفردية والحياة الاجتماعية . وهذه هى الفكرة التى استفزت النفوس ووجهت الأمة الفرنسية حين ثورتها الكبرى فى سبيلها ، فرسمت لها خطتها ووضعت لها أسلوباً وقررت لها أنواع لهوها وأنظمة حكمها . على أنها لم تكن فكرة روسو خاصة ، بل نادى بها من قبله كتّاب ذوو مركز ومكانة . ولكنها خلدها روسو وخلدت هى اسمه بصيغة تحريرها وأسلوبها الكتابى . فهى صادرة من قلب روسو وتصوره أكثر مما هى صادرة عن رويته وتفكيره . وهى لذلك تخاطب القلب والخيال بقوة وحرارة وثورة تدفع إليهما من الإيمان والإذعان ما يخضع معه الفكر ويستسلم له اللب . ذلك ما يشعر به الإنسان حين يقرأ روسو على بعد عصرنا عن عصره واختلاف وسطنا عن وسطه . ما بالك إذن بشعور أهل القرن الثامن عشر الذين كانوا يقاسون الضغط والإرهاق وأبشع أنواع التحكم والاستبداد . لهذا لم يلبثوا حين انفجر بركان الثورة أن اتخذوها إنجيلا لإيمانهم السياسى .

إلى جانب ما تتركه هذه الكتب من الأثر فى النفس بما تثيره من الأفكار يجب ألا نغفل ما تبعثه إليها من اللذة الرقيقة أو الهزة القوية على حسب تموجات أسلوبها الكتابى . فقد قضى روسو حياته موسيقياً قبل أن يكون كاتباً . فلما انتقل إلى حياة الأدب والتحرير لم ينس التجاوب الموسيقى فى أسلوبه . وكان كلما ازداد تقدماً فى السن وفى المكانة ازداد هذا التجاوب جمالا وإبداعاً حتى لتجده وقد بلغ الذروة منهما فى كتابيه الأخيرين « الاعترافات » و « أحلام المتنزه المنفرد » . وبهذا الأسلوب الموسيقى الوجدانى الممتاز وبنغمات تستهوى الفؤاد توقع عليها أقوى الأفكار وأسماها وأبدعها سالت الكتب القليلة التى تركها جان جاك فترك بها ميراثاً خالداً يتشارك فيه أهل هذه الأجيال والأجيال التى بعدها إلى أن ينقلب

نوع الحياة الذى نعرف انقلاباً ليس فى مقدورنا توسمه . وقد ربا هذا الميراث ونما وزاد بكثرة استغلاله ، وبحسن القيام عليه ، ونفى قليل ما فيه من الخبث وحسن تفهم الطيب العظيم الكثير الذى يحتويه .

وهذا الميراث هو النور الذى يبين لنا فى خلال دياجير المستقبل الوجه الأصح من وجوه فطرتنا الإنسانية المركبة الذى تكون هدايته لنا أضمن لسعادتنا فى الحياة أو على الأقل أضمن لاحتمالنا فترة الزمن التى تمر فى أثنائها بأقل ما يمكن من الشقاوة والألم .

ولست أريد فى الصحائف القليلة التى أعرض بها حياة روسو وكتبه فى هذا الجزء والجزء الذى يتممه أن أعرف إلى أى مقدار أخذت الإنسانية بهدى آراء المرشد ولا إلى أى حد زاغت عن نور أفكاره . ولكنى كمصرى أولا وكشرقى ثانياً أريد أن أعرض على أبناء مصر والشرق صورة من قوة حيوية قامت فى الغرب لعل فى عرضها ما يجعل الصلة بين الشرق والغرب ممكنة على أساس التفاهم الحر المخلص لا على مجرد القوة الغاشمة المتحكمة بتعرف وجوه شبه ولو قليلة بين أبطال هناك وهنا تجعل المشابهة الظاهرية فى الوجود الإنسانى بين جميع سكان المعمورة دليلا على إمكان المشابهة الروحية والعقلية التى هى فى جوهرها أساس المساواة القائمة على المودة والتجاذب .

يجب أن أفسر ما أريد . قال كاتب غربى من شعراء الإنجليز : « الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا » . ولقد يكون فى التاريخ مصداق لهذه الكلمة . فقد رأينا دائماً شيئاً من الخلاف غير قليل بين فلسفة كل ناحية من هاتين الناحيتين للوجود . فالشرق المضىء المشمس الخصب الجواد أبو المدنيات والديانات الأولى والزاهد فى نعم الحياة لكثرة ما تغصه هذه النعم بوفرتها وكثرتها لم يلتق يوماً مع الغرب ملتقى الأخ بالأخ والصديق بالصديق ، ولكنهما كانا ولا يزالان كلما تلاقيا كانت أيديهما شاكية السلاح أو شفاهما تنم عن ابتسامات الغدر والخديعة . والفكرة التى تعلن فى أحدهما سلاماً وسعادة للإنسانية تنقلب فى الآخر دماً وموتاً زؤاما . وهل ترى المسيحية الزاهدة بنت الشرق الخصب . هل ترى هذه الديانة البديعة سداها ولحمتها المودة والحب والتسامح . هل تراها تنبت ما أنبتت فى الغرب من كراهية وغل ودم ونار وموت إلا أن تكون طبيعة هذا الغرب متنافية

مع الموض الذى أنبت هذا الدين الجميل . والغريب الذى لا نجد له تفسيراً إلا من سخرية الأقدار وطبيعة التناقض الإنسانى أن هذه الديانة البرة المتسامحة هى وحدها التى تبقى فى الغرب موضع النضال والنزال الدائم .

على أن بقاءها وحدها فيه وبقاء الديانات الأخرى فى الشرق ، وعدم ملابسة الأديان جميعاً ومخالطتها بعضها لبعض هو مصداق الكلمة السابقة : الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا . وكيف يلتقى قوم من طباع متخالفة مقدار اختلاف طبيعة هذه الأقطار وأجوائها . كيف يلتقى الشرقى القانع السعيد فى أحضان الطبيعة الكريمة الطقس والجو والمنبت بالغربى العائش بين الجبال والثلوج والزمهرير وعاديات الطبيعة . حقاً إنهما من جنس واحد وطينة واحدة وذوى طبائع متقاربة . لكن الجنس يحتمل أنواعاً والطينة تأخذ أشكالا واختلاف الطبائع لا يتنافى مع تقاربها . ولن يكون تلاق بين أفراد الجنس ولا اتفاق فى أشكال الطينة إلا إذا بلغ من تقارب الطبائع أن تطابقت . وليس التطابق محالا فى عالم النظر الاجتماعى ، ولكنا بحاجة إلى عصور تمر وتفاهم دائم ومودة متبادلة وإخاء صحيح ومساواة عادلة يمكن ذلك التطابق . ومن أدوات ذلك نقل الأفكار المتبادلة فى مختلف الأقطار نقلا أميناً صحيحاً ووصف حياة الأبطال الهداة وصفاً دقيقاً بعيداً عن كل تحيز . وربما كانت هذه الأداة ، من بين الأدوات الكثيرة الواجب توافرها لتمام التطابق ، هى التى لجأ إليها الكتاب والعلماء من أنصار السلام ، ولكنها من غير نزاع لا تكفى وحدها للوصول إلى هذه الغاية الشاقة العظيمة الراقية التى هى منتهى أمل الإنسانية .

هذا إذن هو الدافع الذى حدا بى لبحث حياة روسو وكتبه ، ولكنى فوق ما قدمت لا أدعى استطاعة القيام بهذا البحث على وجه كامل . أولا لأنى لم أتخصص له وإنما هويته فأخذ منى وقتا ومجهودا كانا من خير الأوقات والمجهودات التى أنفقت فى حياتى . فلم أشعر معهما بألم ولا بملال بل كنت أتنقل من تذوق أنواع من اللذة ، وأشعر فى أعماق روحى بدسم ما يصل إليها فى أثنائهما من الغذاء . ولكنى على كل حال لم أتخصص . والبحث الكامل لا يتأتى إلا بالانقطاع والمزاولة والإمعان وطول التفكير فى الساعات والأيام والأشهر المختلفة . وعند مراجعة المؤلف ومن كتب عنه من الكتاب الكثيرين جداً . وإذا كنت قد

قرأت كتباً كثيرة فهى على كل حال قليلة إلى جانب ما كتب أو أخذ عن روسو . على أن ما وجدته من الفائدة واللذة فى مطالعتى وبحوثى وحرصى على وضع شىء مهما يكن قليلا فى البناء الواجب إقامته لإحكام روابط إخاء الإنسانية وإزالة الفوارق والحدود الدولية والطبيعية والفكرية هو الذى دفعنى لأجترئ على القيام بوضع هذا الكتاب .

وقد كان ما حبب إلىَّ روسو وجعلنى أميل إليه بنوع خاص أمران : الأول طريقته فى التفكير تكاد تكون شرقية . والثانى شخصية المفكر الذى خلد على الدهر على ما كان عليه من فقر واضطراب نفسانى يقارب الجنون ، وعلل وأمراض ونقائص لا حد ولا نهاية لها . وفوق هذا وذاك حببه إلىَّ فكرة سامية قائمة على أساسين متينين من العدالة الاجتماعية والإيمان بالعمل .

فأما طريقته فى التفكير فتكاد تكون شرقية لأنها نوع من إجلال الطبيعة والإيمان بأنها مصدر الخير وأصل نعمة الحياة والحياة الناعمة وبأن ضمان السعادة فى القناعة بما تهبه وحسن عرفانه والمتاع بمعناه أكثر من المتاع بمادته . ولو أنك رجعت إلى كبار المفكرين فى الشرق ومن جاءوا بالأديان من رسله وأنبيائه لرأيت هذه المعانى متجلية عندهم مع هذا الفرق دائماً ، وهو أن روسو يدعو إلى القناعة والتنعم فى حين يرى الأكثرون من رسل الشرق وجوب التخلى عن كل نعمة والانقطاع والترك والجهاد للخلوص من نير الحياة الدنيا على أمل الخلود هناك فى الحياة الآخرة .

ولا شك أن روسو كان جريئاً فى تأييد إيمانه هذا . فقد كان فى وسط جمعية مترعة بالترف متمرغة فى حمأته مؤمنة به إيمان المجوسى بناره والوثنى بصنمه . فالقيامة فى وجه هذا الإيمان تقتضى قوة فى النفس وجرأة وإقداماً لم تتوافر للأكثرين ممن سبقوا روسو لمواجهة هذه الحقيقة فكتموها فى أنفسهم . والباقون ممن استطاعوا إعلانها أعلنوها فى استحياء وضعف فمرت ولم يعن بها أحد ولم يهتز لها إنسان .

وهذه الجرأة فى إعلان الفكرة هى التى خلدت اسم روسو لاقترانه بها . وهل خالد على الحياة غير الفكرة ، بل هل لغير الفكرة حياة . لقد فنى روسو وفنى ڤولتير وفنى روفائيل وفنى بتهوفن ، ولقد فنى من قبلهم كبار الفلاسفة والكتاب

والأنبياء ، ولكن اسمهم جميعاً بقى خالداً لأنه اقترن بالفكرة الخالدة فى مظاهرها المتعددة ، خلدوا على الحياة لأن الفكرة وحدها هى الحياة ، الفكرة هى القوة المنظمة للعالم والمسيطرة عليه والمحتلة كل ذرة من ذراته والممسكة بمظاهره المختلفة فى دقيق نظامها وبديع أحكامها ، هى الروح التى تحمل الحياة والوجود والأزل والخلود ، أما المادة فلباس كثيف كثير التحول والاضطراب توجهه الفكرة كما تشاء وتوقفه حيث تريد .

ولا شك أن روسو مثل من الأمثال العليا ومظهر من مظاهر الفكرة الحية الخالدة ، فهذا هو أمام أهل عصره متشرد وضيع محكوم عليه بالبؤس وبفساد الخلق وبالأمراض التى لا تنفك تعكر صفو الحياة ، ثم ها هو ذا رجل يعيش لا من وراء الفكرة التى كانت تهزل جسده النحيل ولكن من عرق جبينه لنقل نوت الموسيقى ، ثم ها هو ذا يموت يائساً مشرداً ضال الصواب طائر العقل ، ولكن جسده النحيل كان يحوى قلباً عظيماً وحياته الفقيرة كانت فى قيادة عقل غنى . لذلك ارتفع بقلبه وعقله على أن يخضع خضوع السواد إلى حكم المادة وأن يفنى تحت أحمالها وأثقالها وحلق بهما فى جو الفكرة جو الحياة والقوة فحكم العوالم والوجود واستحق نعمة الخلود .

وإنى أناشد القارئ أن يرجع البصر إلى التاريخ هل يرى لمظاهر المادة عليه من بقاء ، بل هل لهذه الأسماء الضخمة من أسماء الملوك والقياصرة وقادة الجيوش ورجال السياسة التى اغتصبت على الزمان حق البقاء من معنى فى الحياة أو أثر ؟ هذا نابليون أبو الغزو والفتح وصاحب الصولة والسلطان ، ماذا بقى من أثره فى فرنسا . اسم يشاد به ولا أثر فى الحياة الخالدة له . وهذا بسمرك داهية سواس العصر الأخير لم يمض على موته نصف قرن حتى انهار صرح ما شاد ودكت قوائمه . ذلك لأن هؤلاء الرجال كانوا يعنون بقوة أشخاصهم لا بقوة الحياة الخالدة الماثلة فى الفكرة الصحيحة التى تحكم العالم فى مختلف عصوره وأجياله ، كانوا يحسبون أنفسهم محور الوجود فإذا هم فيه ذرات فانية ، وكانوا يمجدون أنفسهم مدى حياتهم فإذا انقضت حياتهم انقضى مجدهم . أما المسيح ومحمد وشكسبير ورفائيل وروسو فكانوا يعلمون أنهم فى عالم المادة ذرات فانية ، ولكن هذه الذرات كانت تحوى قوة الفكرة فلما اندمجت فيما سواها من مثلها

تخلصت تلك القوة التى كانت تنقصها فانضمت إلى القوة الكبرى المضيئة للعالم وللوجود من أزله إلى أبده .

والعجب أن يكون ذلك شأن روسو وهو القائل بأن التفكير أقتل الأمراض للجماعات ، لكن التفكير فى طبيعة الحى الإنسانى بل هو حياته . ولولا الفكرة العامة ولولا التفكير لهلك الجنس فى مهده . لذلك لم يكن روسو يقصد بكلمته معناها الظاهر ، ولكنه كان يرمى بها إلى معنى قام بوجود جمعية عصره وساقها إلى الابتعاد عن الفكرة الطبيعية الطيبة الصحيحة القوية الحية وأوقفها أو كاد على هاوية من هاويات الفناء مزينة بزخرف الترف مما يفتّ فى حياة الإنسانية ويسوقها فى سبيل الضعف والتخاذل إلى المذلة ، ثم إلى الزوال . لذلك كان واجباً أن تستدرك أن الفكرة الخالدة والتى تخلد صاحبها هى الفكرة الحية الصحيحة وليست أى فكرة وإن آذنت بزوال الآخذين بها .

ولعل أبدع ما فى فكرة روسو نزعته إلى الفضيلة القائمة على أساس العدالة الاجتماعية . فقد كان بطل المساواة والداعى لإزالة الفوارق الظالمة بين الناس ، ولعمرك هل رأيت ظلماً أفدح من الظلم القائم عليه نظام ذلك العصر والذى لا يزال نظام عصرنا الحاضر قائماً عليه إلى حد كبير . يقولون إن القاعدة الأساسية القائمة عليها جمعيتنا الحاضرة هى الحرية المطلقة . ولسنا ندرى أى شىء يراد بالحرية المطلقة ولا أين هى فى العالم الذى نعرفه . هل الحرية المطلقة تكون للطفل يوم يولد ؟ وهل تكون له فى السنين الأولى من حياته . ما نحسب أحداً يقول بهذا الرأى ، ومع ذلك فالسائد أن يترك الطفل لعناية أبويه سواء أكانا من الأشرار أم من الأخيار ، وهما اللذان يقدمانه للحياة . ويومئذ . يوم يسلك الطفل الذى شب وترعرع حرية العمل . إذا به يجد حريته مقيدة من كل جانب ، ثم إذا به يرى نفسه وقد قذف به فى ميدان الحياة ولا سلاح له ليحارب ويناضل من سلحتهم الحياة بأقوى الأسلحة . فتراه جاهلاً . وفقيراً . ومريضاً . وتعيساً ينزل ليقف فى صف المجاهدين أمام المتعلمين ، والأغنياء . والأقوياء . والسعداء ، ويقال له يومئذ أنت حر وهذا هو الميدان أمامك فتقدم ولك ما تحوزه بفضل جهادك .

ومع ذلك نرى من ينادى لنا بأسماء الإخاء والمحبة . والتضامن . بين أهل هذا الميدان المتنافسين المتطاحنين يفتك قويهم بضعيفهم وغنيهم بفقيرهم وحاكمهم

بمحكومهم ما دامت حريته مطلقة فى هذا الفتك ، أى ما دام القانون لم يرتب عليه قصاصاً .

هذا لعمر الحق هو الظلم وهو الاستعباد الصارخ فى أبشع أشكاله ومظاهره ، ولا شىء يضمن زواله إلا أن تطبق قواعد العدالة الاجتماعية بأن تكفل الجمعية الأطفال فتسلحهم جميعاً بمعدات الحياة من صحة طيبة وتعليم صحيح وإعداد للسعادة والنعمة ، حتى إذا دخلوا إلى الميدان لم يكونوا عزلاً من السلاح بل وبما يدافعون به عن أنفسهم . وما دام الناس جميعاً مسلحين بقوة الحياة الصحيحة على نحو ما يقضى به العصر الحاضر كان تشابههم وتكافؤهم من أقرب الدواعى التى تقرب فيما بينهم وتجعل العلاقات التى يمكن ترتيبها علاقات محبة وتضامن وتعاون لا علاقات إذلال وإشفاق واستعلاء ومرحمة ، وعندى أن هذه الفضائل التى نسمع أسماءها اليوم : الرحمة ، والجود ، والإحسان ، وأمثالها ، ليست هى إلا من خلق مدنيتنا الظالمة التعيسة التى تريد أن تستدر رحمات الظالمين بدلا من تقوية روح التضامن عندهم ، والتى تريد إلى جانب ذلك أن تهدئ المظلومين المنكوبين ليظلوا فيما هم فيه من بؤس ثم لا يثورون .

ولن تتحقق هذه العدالة الاجتماعية إلا إذا قامت على أساس متين من الإيمان بالعمل . إن الإله الحاكم اليوم والذى تعنو له الوجوه وترتعد أمام سلطانه الأفئدة وجلا إنما هو عجل الذهب ؛ وقد بلغ الإيمان به أن أصبح الاعتداء عليه داعية أشد العقوبات . بلى . فأنت إذا اعتديت على شخص أو على عاطفته أو على شرفه فإن القانون لا يعاقبك إلا بما يشفى غل من اعتديت عليه . أما إن أنت اعتديت على المال فلك الويل من عقوبات هائلة تنصب على رأسك .

هذا لا شك نظام تعيس . هذا نظام يزرع فى النفوس التنافس لا على الفضيلة ولا على الكرامة ولا على الحرية ولا على الحق ولكن على المال . والتنافس على المال أساس كل تعاسة ومصدر كل جريمة وداعية كل ظلم . وما دامت عبادة الذهب هى الصورة البارزة لإيمان بنى آدم فستبقى التعاسات وكل الجرائم وكل المظالم . أما إذا انقلبت الحال وأصبح العمل هو موضع العبادة والإيمان به هو الإيمان القائم فى أعماق القلوب وكان كلٌّ يجزى بمقدار عمله وكان العمل يحمى المال اليوم وكان الاعتداء عليه ينال الجزاء القاسى : إذا وصلت الإنسانية من التطور

نحو الرق إلى هذا الحد فأذن فى الناس بانقضاء القسم الأكبر من تعاساتهم وجرائمهم وظلمهم .

ليس هنا موضع عرض فكرة العدالة الاجتماعية القائمة على عقيدة الإيمان بالعمل ولا هذا مكان شرحها وتطبيقها ، وإنما أشرنا إلى الفكرة لأنها من بعض الأفكار التى سبق روسو بالإشارة إليها وإن لم يحللها ، ولما كانت هذه الفكرة هى عندنا التى تقابل تلك الفطرة التى تلتئم مع نوع حياتنا الحاضرة أكثر الالتئام فلم نر بدأ من الإشارة إليها فى هذه المقدمة الوجيزة .

وإنا الآن نترك القارئ يستعرض حياة روسو وبعضاً من كتبه فى هذا الجزء راجين أن نكون قد قدمنا لقرائنا وشبيبتنا مثلا من أمثلة العظمة الفكرية المرتبطة بحياة الكون العليا .

محمد حسين هيكل

الجزء الأول

جان جاك روسو

١

ولد جان جاك روسو بمدينة جنيف من أعمال سويسرا فى ٢٨ من يوليو سنة ١٧١٢ من أبوين من أواسط الناس هما إسحاق روسو صانع ساعات وسوزان برنار ابنة رجل أنعم من زوجها حالاً ويشتغل بمهنة التعليم . ولقد كان رابع جد لروسو لأبيه من باعة الكتب فى باريس ومن بين الذين اضطرتهم الفظائع والاضطهادات الدينية التى شهدها القرن السادس عشر ليهجروا فرنسا ، أما جده لأمه فكان راهباً بروتستانتياً ممن احتموا فى الجمهورية السويسرية من اضطهاد الكثلكة فى ذلك العهد . وقد قضى ميلاد جان جاك على حياة أمه فبعث موتها إلى نفس أبيه أكبر الحزن والأسى ، ذلك لما كان بين الزوجين من حب لا يكاد يتصوره العقل . حب نشأ معهما حيث بدأ وكلاهما فى التاسعة من عمره ثم نما وتجسم وبلغ حد الهيام حتى اضطر إسحاق للسفر طلباً لنسيان فتاة ربما منعها تفوق مركزها عليه عن الارتباط معه برباط الزوجية . لكن سفره لم يزده إلا هياماً ولوعة ، ورجع فوجد محبوبته على عهده ووجد أخا سوزان قد علق أخته هو وطلبها لنفسه فطلب إسحاق يد سوزان مقابل أخته وهكذا تم زواجهما .

وكانت سوزان جميلة حية أدبية وموسيقية محاطة بالمعجبين إلى حد جعلها برغم طهرها منظوراً إليها فى مدينة (كالفن)[1] بعين الشك . أما إسحاق فكان صانع ساعات ومعلم رقص خفيف الروح خيالى الطبع ميالاً إلى الكسل كثير المشاغبة . ولقد رزق منها ولداً بعيد زواجهما ثم اغترب إلى القسطنطينية ليكون صانع ساعات فى سراى السلطان كما يقول جان جاك أو عامل ساعات لسكان بيريه البروتستانتيين فى رأى أوجين رتر . وبقى هناك ست سنوات (من ١٧٠٥ إلى

(١) كالفن أحد مؤسسى البروتستانتية ومدينته جنيف .

١٧١١) كانت زوجته فى خلالها موضع ميول وأهواء الكثيرين . وأخيراً استرجعته . وكان جان جاك الثمرة التعيسة لتلك العودة إذ قضت أمه نحبها بعد ثمانية أيام من ولادته وهى فى حمى النفاس .

ولم يتعز إسحاق عنها ولم يجد ما يخفف من ألمه ويهون عليه مصابه إلا البقاء إلى جنب ابنه . وظل معه السنين الأولى من حياته . ولما بلغ الغلام السادسة من عمره ابتدأ يعوده القراءة . وجعلا يقضيان الليالى فى قراءة روايات تركتها أمه ويصرفان فى ذلك معظم الليل . وكثيراً ما آذن الصبح وهما على هذه الحال فكان داعيهما إلى الهجوع والنوم .

واستمرا كذلك زمناً ، وكان أحب الكتب إلى جان جاك « بلوتارك » عن حياة العظماء . وبعد ستتين اضطرت بعض الحوادث أباه ليغترب عن سويسرا . ذلك أن شحناء قامت بينهم وبين من يدعى بول جوتييه ورأى أن مآله السجن لا محالة ، ففضل الهرب وعهد بروسو إلى خاله برنار الذى أرسله مع ابن له إلى (بوسى) عند معلم يدعى لامبرسييه . ولهذا المعلم أخت فى الأربعين من عمرها كانت تقوم على الطفلين قيام الأم وتعنى بتربيتهما.

قضى روسو قسماً من أسعد أيام حياته عند المسيو لامبرسييه . كان معززاً محبوباً يعلمه أستاذه على طريقة من أحسن الطرق ويحبب إليه العمل بكل الوسائل .

وكانت مدموازل لامبرسييه لا تترك فرصة فى الليل ولا فى النهار إلا أرادت أن تجعل للطفلين منها ربحاً للحياة ومكسباً ، ولقد دعت هذه العناية من جانبها أن يتعلق جان جاك بها أشد التعلق ، وكان فى هذا كما كان فى غيره ذا طبع خيالى دنف أورثته إياه أمه وخيال قوى متشرد أورثه إياه أبوه . لذلك فما أسرع ما انتقل تعلقه بمربيته إلى هيام دفعه ليجعل منها موضع حبه ويتودد إليها تودد المدنف إلى معشوقته . وما كانت هى لتظن شيئاً من هذا . فإن طفلاً فى العاشرة أو الحادية عشرة من عمره لا يمكن أن يتصور فيه مثل ذلك الميل وخصوصاً إلى فتاة تبلغ الأربعين .

لكن هكذا كان . وإلى القارئ بعض أقوال روسو فى اعترافاته عن ذلك :

« ولما كانت مدموازل لامبرسييه تحبنا حب الأم فلقد كان لها علينا سلطتها ، وكانت تصل بهذه السلطة إلى معاقبتنا كلما استحققنا العقاب ، وقد قصرت عقابها

زمناً على تهديد كنت أخشى أشد الخشية تحققه ، غير أنه لما تحقق تبين لى أنه أقل شدة بكثير مما كنت أتوقع ، بل الغريب أن العقوبة زادتنى حباً فى تلك التى أوقعتها ، ولولا كل حبى لها ورقتى الطبيعية لما امتنعت عن استثارة ما يستحق هذا العقاب ، فقد وجدت فى الألم والخجل الذى يعقبه شيئاً من اللذة زاد عندى الرغبة فى أن ينالنى من التى أنالتنيه على الخوف من أثره » .

وانحصر حب روسو لمدموازل لامبرسييه فى تصورات وأحلام لا يمكن لطفل فى سنه أن يصل إليها مهما بلغ من خياله . وقد استشعرت الفتاة ميله فلم تعد تسمح له ولابن خاله بالنوم فى غرفتها واعتبرتهما فى سن لا يجوز ذلك معها .

وسيرى القارئ أن هذا النوع الخيالى من الحب هو الذى تخلل حياة جان جاك كلها وأنه سيكون ذا أثر كبير فى كتاباته ومؤلفاته . وهو يرتكز على خيال قوى وعلى حياء كثير . ولروسو حظ وافر من الصفتين كثيراً ما جعله يخطئ فى النظر لنفسه وللأشياء فيعد إحجامه المبنى على الحياء أنفة وخيالاته الموهومة حقائق وأفكاراً .

ومع هذه الثورة التى يحكى لنا عنها روسو فى وصف حبه لمربيته فإن هذا الحب لم يكن إلا عاطفة قلبية بريئة أصح أن تسمى عطفاً وتعلقاً كبر فى نفسه بتأثير خياله المتوقد وميوله النفسية التى صرّفت حياته إلى حد كبير ، بل التى أثر بها أكبر الأثر فى أدب عصره .

وبعد أن ظل خمس سنين عند المسيو لامبرسييه ومعه ابن خاله الذى كان مرتبطاً وإياه برباط صداقة فى غاية المتانة – خمس سنين عرفا فيها كثيراً وجال فيها جان جاك جولات واسعة وسط الأحراش والمزارع التى تحيط (ببوسى) وملأ منها عينه واختزنها فى مخه لتخرج يوماً إلى الناس من نفثات قلمه – حدثت مسألة تافهة كانت السبب فى تركهما هذا المكان الذى متعهما بسعادة طويلة . ذلك أن كسر مشط لمدموازل لامبرسييه واتهم روسو بأنه الذى كسره فأنكر وأصر على الإنكار وازداد إصراراً لما انتهره معلمه ودعى خاله برنار لتحقيق المسألة وانتهت أخيراً بانفصال الغلامين عن معلمهما .

فلما ترك جان جاك معلمه خطر له أن يذهب فيزور أباه فى (نيون) وهناك التقى بمدموازل (فلسن) مع أمها . وما كاد يراها حتى نسى ما كان له من

علاقة سابقة مع مدموازل لامبرسييه وابتدأ خياله يصور له نوعاً من الحب جديداً . ولقد كان إذ ذاك فى سن تسمح له بتصور شىء من معنى اختلاط الجنسين . لكنه لم يعبأ بذلك وجعل كل ميله إليها ميل عطف مشوب بشىء من حب الاستئثار بها حتى لم يكن ليسمح لأحد فى حضرته أن يقترب منها . على أن ذلك لم يمنعه من أن تكون له بفتاة أخرى تكاد تعدله فى السن وتدعى مدموازل (جوتن) علاقات عطف من نوع آخر . وكأن هذا الطفل المتدرج إلى الشباب كان يريد أن يرضى كل شهوات خياله على مختلف ما يصور له من أنواع الميل والعطف . ففى حين كان ميله لمدموازل (فلسن) — وكانت يومئذ تبلغ الثلاثين من عمرها — ميل ظهور أمام الناس حتى إذا خلا بها اعتاده الخجل واحتار فى أمره إلى أن تنجيه الجماعة فترجع إليه صبوته ونشوته ، كان ميله لمدموازل (جوتن) ممزوجاً بشىء من الخضوع لإرادتها والإذعان لسلطانها ، وبينما كان يريد الاستئثار بفلسن كانت جوتن هى المستأثرة به المنسية إياه ما سواها فى كل لحظة يجد معها . ولم يعلم أحد بحبه لهاته الأخيرة إلا متأخراً وما كادوا يعلمون حتى فصلوه عنها .

ولقد أعان جان جاك على كسب عطف هاتيك الفتيات جمال فى صورته وبريق غير عادى فى نظراته ودقة فى فمه أقرب لأن تكون نسائية مبدعة . هذا فوق أن الخجل فى الشبان يستدعى عطف الكثيرات من الفتيات اللائى يرين فيه ما يسمح لهن من غير خجل أن يتلهين بمن يعطفن عليه . وجان جاك على ما عرف القارئ خجول كثير الحياء .

ولقد كانت هذه الزيارة لأبيه آخر سعد طفولته . وكانت عودته بعد ذلك إلى خاله برنار فى جنيف مبدأ نحس طويل . فبعد أن أقام زمناً فى (نيون) وغادرها راجعاً إلى مستقره أرسل به خاله إلى أحد (الكتبة العموميين) ليأخذ عنه الحرفة. وأطراه خاله للمسيو (ماسرون) عندما ذهب به إليه . لكن تلك الحرفة لم ترق فى عين روسو وصدف عنها وأظهر فيها التباطؤ والخمول إلى حد اضطر معلمه أخيراً لطرده بعد أن أرهقه سوء معاملة ظناً منه أن ذلك ربما يرد إلى تلميذه بعض النشاط والاهتمام .

هنالك أرسل به خاله ليحترف النقش عند معلم يدعى (دكمون) ليعده

للاشتغال من بعد ذلك فى صناعة الساعات ويزاول المهنة التى زاولها أبوه من قبله . وأحس الغلام بشىء من الميل إلى هذه الحرفة . لكن معلمه وكان فظاً غليظاً كان يحسب أن الوسيلة الوحيدة لتعليم الأولاد هى إرهاقهم بالعقاب ، لذلك ولما كان يجده روسو من الميل إلى النقش ابتدأ يشتغل سراً ومن وراء معلمه بأعمال أخرى متعلقة بالنقش . من ذلك أنه ابتدأ ينقش لأصحابه طرزاً يلعبون بها . غير أن معلمه ما لبث أن اكتشف ما يعمل حتى انهال عليه وأوسعه ضرباً مدعياً أنه يقلد نقود الجمهورية .

« ولقد كان من أثر ظلم معلمى واستبداده أن كرّه لنفسى عملا ربما كنت أحببته وحمّل نفسى رذائل كنت لولاها أبغضها ، وكان من بين هذه الرذائل الكذب والكسل والسرقة » . وابتدأت نفس روسو حينذاك تخبث وتنحط وابتدأ ما كان كسبه من قراءته أيام الطفولة ومن تعاليم المسيو لامبرسييه ومن عطف الناس عليه يتدثر بدثار كثيف من النقائض المشينة . فكثرت أكاذيبه وسرقاته وازدادا خمولاً وضعة ، وبمقدار ما كان يوغل فى ذلك كانت عقوبات معلمه تزداد وتشتد . وصغر هو أمام ذلك إلى حد أصبح العقاب معه أمراً عادياً بسيطاً يحتمله من غير ألم وبلا امتعاض ، وكأنه كان يراه المقابل الطبيعى لعمله ولمركزه .

ولقد ظل على هذه الحال زمناً طويلاً . لذلك لا يعجب القارئ إذا قلنا له إن هذه الصفات التى نمت فيه فى أثناء هذه الفترة من حياته بقيت معه إلى حد ما طول أيامه . بل لقد حكى هو فى اعترافاته أنه فى الخمسين من عمره اختلس نقودًا بأن رد (تذكرة) فى (الأوبرا) كان اشتراها له صديقه (فرانكى) ليقضى الليلة معه وأخذ ثمن التذكرة من جديد وخرج . ولولا ذلك الزمن النحس الذى قضاه يقاسى الألم والتعس لما وجدت كل هذه المفاسد إلى نفسه سبيلا .

وكان حظ روسو من سرقاته أيام اشتغاله بتعلم النقش أن يصل إلى شىء من النقود يشارك به خلانه فى مسراتهم . فلما طال به ذلك ابتدأ يعاوده الملال وراجع نفسه شىء من سابق أنفتها ، فأكب من جديد على القراءة ، وانصب عليها بشكل جنونى . فلم يترك كتاباً وقع تحت يده إلا قرأه ولا ترك وسيلة يقتنى بها الكتب لا عمد إليها . وكان ينفق ما يصل ليده من زهيد النقد فى استعارة الكتب من تاجرة

هناك كانت لا تأبى إقراضه . وألهاه ذلك عن سابق مفاسده فنسي ما تورطت فيه نفسه من النقص ولم يترك فرصة يستطيع فيها القراءة من غير أن يغتنمها .

ولم ينس الخروج إلى الغابات والمزارع للرياضة الوقت بعد الوقت من بعد أن أحس بعظيم لذة الطبيعة فى نضرتها أيام مقامه (ببوسى) لكنه تأخر أكثر من مرة عن الدخول قبل إقفال أبواب المدينة فأنحى معلمه عليه لطماً ولكماً . وبينا كان فى الغاب يوماً ورجع إذا الأبواب تقفل فى وجهه وفى وجه إخوان معه . هنالك حلف لا دخل المدينة ولا رجع إلى ما كان فيه وغادر جنيف هائماً على وجهه .

إلى ذلك اليوم كان جان جاك بروتستانتياً كما ولد . وإلى ذلك اليوم عاش تحت سيطرة أهله ؛ إن أباه أو خاله ، وعاش عيش أمثاله الشبان الذين هم فى سنه ، لكنه امتاز دائماً بحدة خيال غريبة ما أكثر ما كانت سبب شقائه . ومن يومئذ انتهى ذلك العيش المنتظم على ما يظن الكافة ، وابتدأ جان جاك حياته المتشردة . وكان إذ ذاك فى السادسة عشرة من عمره .

خرج من جنيف وقد اعتقد نفسه فك من رباط الأسر وأصبح قديراً على الوصول لأرقى الغايات . قال : ودخلت العالم العظيم بكل ثقة آملاً أن مواهبى ستحف به وأنى سأجد عند كل خطوة أخطوها أعياداً وغنائم وأصدقاء يرجون خدمتى ورفيقات كل غرضهن أن يعجبننى . على أنى لم أكن أريد أن يشتغل بى العالم كله بل كنت مكتفياً بأن تحيط بى جمعية جميلة تنسينى ما سواها . ووقفت أطماعى على الوجود فى قصر تخصنى فيه عناية السيد والسيدة وتصبح البنية فيه رفيقتى والابن صديقى والمجاورون فى حمايتى » .

هذه أطماعه يومئذ ومن خلالها يرى القارئ جان جاك الخيالى السابح فى بحار الوهم البعيد عن حقيقة ما يحط ببنى آدم الذين يتشردون . على أن أول أسفاره لم تكن من التعس لتصده وترجعه إلى أهله وعشيرته ، بل كان فيها ما شجعه على الاستمرار ليقذف به ذلك فى مهاوى الشقاء .

ترك جنيف واستمر فى سياحاته حتى وصل إلى (كونفنيون) فى بلاد السافوا وهناك التقى بقسيس هذا البلد المسيو (بنفير) . فأحسن القسيس لقاءه وأكرم رفده وأجلسه وإياه على مائدة ما كان روسو ليحلم بها وحل يكلمه فى أمر عقيدته طمعاً فى نقله من بروتستانتيته إلى الكثلكة . وما كان مثل هذا الخاطر ليمر ببال

شاب كجان جاك ولا هو فكر فيه ساعة كان يكلمه القس فى أمره ، وإنما سكت استبقاء لحسن اللقيا وكرم المضيف . وحين أراد هذا الأخير وداع جان جاك زوده برسالة إلى سيدة فى (أنسى) هى مدام دى فارنس التى شغلت قسماً مهماً من حياة روسو على ما سيرى القارئ . فظل يتلكأ طوال الطريق حتى بلغ (أنسى) بعد ثلاثة أيام قضاها فى التجوال وشبه السؤال . وهنا نترك الكلمة لجان جاك نفسه ينقل للقارئ شيئاً من اعترافاته :

« كنت يومئذ فى منتصف السادسة عشرة من عمرى . ومن غير أن أكون شاباً جميلاً قد كنت منتظم القامة جميل القدم دقيق الساق حى الوجه صغير الفم فاحم لون الشعر صغير العينين داخلهما ولكنهما كانتا شديدتى البصيص تقذفان كل ما فى دمى من حرارة . على أنى مع الأسف لم أكن على علم بهذا وما علمته فى حياتى إلا بعد أن أصبح علمى به غير مجد نفعاً » .

« ولقد كان يخيل إلىّ أن تلك السيدة التى دلنى عليها المسيو بونفير لا يمكن أن تكون إلا بتولا شمطاء فما رأيت (حين التفاتها إلىّ وفى ممر وراء منزلها) إلا وجهاً خلق من حسن وعيوناً جميلة زرقاء تملؤها الرقة والعطف ولوناً باهراً وعنقاً ساحراً . ولم يفتنى منها شىء لأول ما نظرتها وأصبحت لحظتئذ أسيرها موقناً أن ديناً يدعو إليه مثل أولئك الرسل لابد سائق إلى الجنة » .

« وكانت يومئذ فى الثامنة والعشرين من عمرها . وكان جمالها من ذلك الجمال الباقى ، لأنه فى الخلقة كلها لا فى القسمات منفردة . لذلك كان جمالها لا يزال فى كل نضرته وكانت ذات روح مملوءة حناناً ونظرات كلها الرقة وابتسامة ملائكية وفم على قياس فمى وشعر نادر نوع جماله . وكانت صغيرة الحجم نوعاً بل قصيرة متقاربة فى قوامها من غير تشويه . لكنها يستحيل أن تجد مثل جمال رأسها وصدرها ويديها وذراعيها » .

هذه هى مدام دى فارانس التى نزل عندها روسو لتدله على دين حق وتخرجه عن دين آبائه ، وما أقرب ما خلقت بينهما صلة الود والتوافق ، ولولا أن راهباً لاحظ ما هنالك وبحث وراء إقصاء روسو واضطر مدام دى فارانس . محافظة على مركزها ، لتوافقه على هذا الإقصاء لعاش روسو إلى جانبها من ذلك اليوم سعيداً . لكن كأنما قضى عليه أن يغادرها بعد أيام من وصوله ليرجع إليها من جديد

بعد زمن يمضيه فى البؤس والنحس فيتمتع بعد ذلك بحب يتعدى حب الخيال ويمازجه شيء من الخسة والخذلان .

وترك (أنسى) ذاهباً إلى (تورين) ومعه ذلك الراهب الذى أوعز إليه بسفره وزوجته . وظلوا فى سياحتهم بين ربوع السافوا وسويسرا يقطعون أبدع بلاد الله وأجملها مناظر فتعزى ذلك الطريد بعض العزاء. وجعل يمتع ناظره بجمال الطبيعة الباهر . ولقد كان على ما عرفنا من عشاق الطبيعة ومحبيها والمولعين بها إلى حد الهيام . لذلك فلقد ساءه أن يصل تورين على عجل تاركاً وراءه الجبال بما عليها من الشجر والزهر محيطة بالبحيرات البديعة الرائعة .

وصل إلى تورين وابتدأ خياله يلعب به من جديد وخيل إليه أن حياة كلها السعادة والعظمة تنتظره . على أن جيبه كان قد خلا . فلم يجد وسيلة أمامه إلا أن يقدم الخطاب الذى زوده به رئيس دير أنسى إلى رئيس دير تورين وهناك أدخل ليتعلم الدين الجديد .

وكان معه فى الدير جماعة من الشبان ظهر له بعد أن عرفهم أنهم أفاقون وجدوا فى الاتجار بدينهم مرتزقاً . أما الفتيات اللاتى كن هناك فلم يكن من بينهن من يسر مرآها إلا فتاة فى الثامنة عشرة من عمرها أراد روسو أن يأتلف وإياها وأن يشغل خياله بها ولكن أمنيته ذهبت سدى وخرجت الفتاة بعد شهرين من مقامه بالدير ولم يجرؤ أن يخاطبها إلا فى خياله .

وقضى فى الدير زمناً وهو فى جدال مستمر مع أساتذته الذين كرسوا أنفسهم لإدخال الكثلكة إلى قلبه وقلب أمثاله ، وكان كثيراً ما يحاججهم بما قرأ فى أيامه الأولى . أما من معه من الشبان فلم يكن من يأبه له إلا شاباً ابتدأ الصداقة معه ثم انقلبت الصداقة عند ذلك الشاب إلى حب شهوانى حتى إنه راود روسو عن نفسه ، إذ أراد أن يفسق به ؟ ! فأذاع روسو الخبر فى الدير . لكن الرهبان هناك انتهروه بحجة أن الأمر تافه لا يستحق كل هذا الاهتمام بل أخبره أحدهم أنه فى صغره مر بالدور الذى أراد صديق روسو أن يخضعه له وأنه لم يجد فى ذلك ألماً . وبعد ثمانية أيام من هذه الحادثة ألبس ذلك الغلام الفاجر الثياب البيضاء علامة الطهر وصبت عليه كأس الكثلكة .

وأراد روسو النجاة من الدير بشكل ما . لكنه لم يفلت إلا بعد شهر من الزمن .

وأفلت حين اعتبر كاثوليكياً وأفرج عنه وأعطى عشرين فرنكاً . فخرج فى المدينة هائماً يقدر لمستقبله وينتظر حياة طيبة . لكنه كان يخشى نفاد ما فى جيبه فعمد إلى بيت حقير قبلته فيه صاحبته مع جماعة آخرين على أن يدفع ثلاثة صلديات كل ليلة . وفكر هو فى احتراف النقش وجعل يبحث عمن يجد عنده عملاً ، ولقد أخفق مرات حين عرض للسؤال عن نفسه . وفيما هو يوماً فى جولاته مر بحانوت به سيدة جذابة عرض عليها خدمته فأحسنت تلقيه وقدمت إليه ما طلب من معدات العمل . وقبلته قبولاً حسناً .

تلك السيدة هى (مدام بازيل) التى شغلت خيال روسو زمن بقائه معها والتى أنسته من كان قبلها من أمثالها . ولقد كان زوج هذه السيدة على سفر وكلف أحد عماله أن يقوم بما تطلبه زوجه من الخدمة. فلما رأى هذا العامل أن روسو ابتدأ يأخذ مكاناً من قلبها عاودته الغيرة وصمم على الوقيعة به بعد أن ألهب خياله بنار الغرام .

وإن روسو ليذكر هذه المسألة فى اعترافاته وفى مذكرة وجدت فى مكتبة نوشاتل على طريقة تدل على أن السيدة اهتمت له حقيقة وإن كان هو قد سار معها على طريقته فى الحب ، طريقة الاستكانة والهمس . قال : تبعتها يوماً بينما صعدت إلى غرفتها وجلست إلى جانب النافذة المقابلة للباب وفى يدها بعض النسيج . ولا شك أنها لم ترنى ولم تسمع حركة دخولى لقيام ضجة العربات فى الطريق . ولقد كان منظرها بديعاً ونمّ رأسها المنحنى بعض الشيء عن بياض عنقها وزانت شعورها المرفوعة برشاقة أزهارٌ رصّعتها ، وعم شكلها كله بهاءٌ سمح لى الوقت أن أملأ منه ناظرىّ حتى لقد خرجت عن طوقى فركعت عند الباب ومددت نحوها ذراعى فى حركة مهتاجة واثقاً كل الثقة أنها لا تستطيع أن ترانى . ولكن مرآة فوق المدفأ خانتنى . ولست أدرى أى أثر تركته حركتى هذه فى نفسها ، فإنها لم تنظر إلىّ ولم تكلمنى بل أرتنى بإشارة من أصبعها الفرش المطروح عند قدميها . ولقد كان يتساوى عندى أن أرتعد وأصيح أو أطير إلى المكان الذى أشارت إليه . ولكن المدهش الغريب أنى فى هذه اللحظة لم أجرؤ على شيء من هذا فلم أنبس بكلمة ولا استبحت منها لمحة ولا مسستها لأعتمد لحظة على ركبتها بل كنت أخرس لا عن سكينة . ونطق كل شيء فى خلا الصوت بمعانى السرور والاضطراب

والشكر والرغبات المتباينة غير المحددة الموضوع المنكمشة خشية أن يصدر منها ما لا يسر . ولم تكن هي الأخرى أكثر مني هدوءاً ولا أقل استياء ، ولم تستطع في اختلاطها حين رأتني حضرت إثر إشارة صدرت عنها من غير روية ، أن تقبل عليّ ولا أن تبعدني فلم ترفع نظرها عن نسيجها وجاهدت أن تظهر كأن لم ترني عند أقدامها . وحسبت في غفلتي أنها شاركتني في اختلاطي بل في رغباتي وإنما منعها خجل كخجلي . على أن ذلك لم يسمح لي أن أستعلي على ما عندي وقد قدرت أنها ، وهي تزيد عني في السن خمس سنين أو ستاً ، يجب أن يكون لها هي كل الجراءة . وقلت في نفسي إن سكونها عن استفزاز إقدامي دليل عدم رغبتها فيه . ولست أدري كيف كان لهذا المنظر الصامت أن ينتهي ولا كم من الزمن كنت أبقى حيث كنت لولا أن فوجئنا . حين ذلك قالت : قم فتلك روزينا . فقمت مسرعاً وأمسكت بيد مدتها إليّ وأودعت فوقها قبلتين تتقدان أحسست في ثانيتهما أنها كانت تلصق بشدة يدها على شفتي ..... تلك كانت لحظة ما رأيت مثلها رقة في حياتي ، وفرصة أضعتها ولم تعد وبقي حبنا الوليد عندها » .

ومن ذلك اليوم جعلت مدام بازيل ترقيه في مدارج العمل وتزيد بذلك غيرة زميله الذي لم يصبر ، فأبلغ زوجها بعض ما رأى ، فلما كان في بعض الليالي وقد قدمت لأضياف عندها وليمة فاخرة وأجلست روسو وزميله على مائدة خاصة إذا زوجها يدخل ، وكان أول ما عمل بعد تهادي التحية مع الحاضرين أن سأل عن سبب وجود روسو وأن طرده أشنع الطرد .

ولقد ذكر روسو هذه المسألة في اعترافاته على شكل يدل على قوة ذاكرة في غاية الغرابة فيما يتعلق بالأماكن والحركات قال : « وفي منتصف العشاء سمعنا عربة تقف على الباب وشخصاً يصعد هو المسيو بازيل . وإني لأراه وكأنه داخل في هذه اللحظة وعليه رداء قاتم الحمرة بأزرار من ذهب كرهتها نفسي وكرهت ذلك اللون من يومئذ ، وكان المسيو بازيل طويلاً وسيم الطلعة حسن اللقيا . فدخل بجلبة وعليه مظهر من يدهش قومه . فعانقته زوجته وأمسكت بيديه وأبدت له عطفاً استقبله من غير أن يرده وسلم على الحاضرين وجلس يتناول الطعام ، وما كادوا يفاتحونه الحديث عن سياحته حتى حانت منه التفاتة لمائدتنا الصغيرة

وسأل بلهجة شديدة عن ذلك الشاب الصغير الجالس إليها » . هذا مع أن روسو لم ير المسيو بازيل إلا في ذلك اليوم ولم يره بعدها .

وخرج من عند مدام بازيل ورجع إلى ما كان فيه من تشرد تعينه دريهمات جادت عليه هي بها . ثم رجع إلى الوكر الذي كان قد نزل فيه يدفع عن الليلة ثلاثة صلديات وظل فيه حتى دله صاحبه على الخدمة عند الكونتس دي فرسليس . وكانت هذه سيدة عاقلة مفكرة متعلمة محبة للأدب ولكنها مريضة لا تستطيع الكتابة بيدها . فاتخذت روسو لتملي عليه ما شاءت من خطاباتها الرقيقة البديعة . فخشي سائر الخدم ما سيكون من نتيجة هذا المركز الجديد في إعلاء شأن زميلهم وسعوا حتى جعلوا الطبيب ينصح للكونتس بالعدول عن التفكير والكتابة . وبذلك أصبح روسو عندها نسياً منسياً .

« ولم تُسمعني مدام فرسليس يوماً كلمة حنان أو عطف أو رحمة ، بل كانت تسألني ببرود فأجيبها بتحفظ . وكانت إجاباتي لها مملوءة حياء حتى عدتها وضيعة وأنفتها ولم تسألني بعد ذلك عن شيء ولم تخاطبني إلا فيما يخص خدمتي ، وأصبح تقديرها لي لا بما أستحق ولكن على نسبة المركز الذي وضعتني فيه فلم تعتبرني إلا خادماً ومنعتني أن أكون شيئاً آخر . . ومن ذلك اليوم تولدت عندي الكراهية لنظام ينتج هذه المناصب » .

وتوفيت مدام فرسليس وروسو في خدمة بيتها . وبالرغم من أنها أوصت لخدمها فلم تترك له هو شيئاً . فأعطاه ابن أختها الكونت دلارك ثلاثين ديناراً وترك له الملابس التي عليه والتي أراد رئيس الخدم أن ينزعها منه .

وفيما هم في جلبة الوفاة وما يعقبها فقدت مدموازيل بونتال ابنة ربة البيت شريطاً من شرائط الرأس وردي اللون ببعض الفضة وبالبحث عنه وجد عند جان جاك : « ولقد كانت أشياء كثيرة أغلى سعراً من هذا الشريط تحت يدي . لكنه وحده الذي استغواني فسرقته . فلما سئلت من أين أخذته اختلط عليّ الأمر وتأتأت ثم قلت في خجل إن (ماريون) هي التي أعطتني إياه » وماريون هذه هي طاهية مدام فرسليس . وكانت ذات جمال ونضرة لون ورقة ولطف لا مثيل لها « ونودي بها إلى جمعية كان من بين من حضرها الكونت دلارك وأظهر لها الشريط وسئلت عنه فاتهمتها بتبجح فبهتت وصمتت ثم أرسلت إليّ نظرة كانت كافية

لتصعق الشياطين . لكن قلبي القاسي تحجر . فنفت عن نفسها التهمة بثبات ولكن من غير قوة وطلبت إليّ أن أراجع نفسي فلا أدنس فتاة بريئة لم ترتكب فى حياتها نكراً . لكنى ثبتُ على إنكارى بتبجح جهنمى وأعدت أنها هى التى أعطتنى الشريط . فبكت الفتاة المسكينة واقتصرت أن وجهت إلى هذه الكلمات : (إيه روسو . لقد اعتقدتك ذا خلق حسن . وهأنتذا تقذف بى إلى التعس وما أود وأيم الله أن أكون مكانك » .

ودافعت المسكينة عن نفسها ولكن ثبات روسو على كذبه بقحة وقوة أدخل الشك إلى نفس الكونت دلارك أى الاثنين جنى . فطردهما جميعاً . .

« وإنى أجهل ما آل إليه أمر فريسة سبتى ولكن لا شئ يدل على أنها وجدت بعد ذلك مكاناً تخدم فيه . فقد حملت وصمة قاسية أساءت لشرفها من كل الوجوه . وإذا لم تكن هاته السرقة إلا سرقة بسيطة فهى على كل حال سرقة ، وسرقة أتتها لتستغوى بها شاباً ! ! ومن يدرى أين ذهب بها وهى فى تلك السن خذلان الطهر المهان » .

هذه هى الجريمة التى أقلقت نفس روسو طول حياته والتى لم يفض بها لإنسان إلا بعد أن نشرتها اعترافاته عقب موته . وهذه هى الجريمة التى دفعه إليها خياله المتوقد وحساسيته الشديدة وغروره الكبير . هاته الصفات التى امتاز بها والتى دفعته فى أحيان كثيرة إلى عمل الخير . وإنك لتقرأ تبريره لنفسه عن هاته الجريمة فتحس بهذه الصفات متجلية واضحة :

« على أن حب الشر لم يكن أبعد منى يوماً كما كان فى تلك اللحظة القاسية . وغريب أن تكون صداقتى لهاته الفتاة التعسة هى التى دفعتنى لاتهامى إياها حيث كانت حاضرة لذهنى فدفعت التهمة عن نفسى بأن ألقيتها على أول من عرض نفسه واتهمتها بأنها عملت ما أردت أن أعمله وبأنها أعطتنى الشريط لأننى كنت أقصد إعطاءه إياها . . فلما رأيتها بعد ذلك تمزق قلبى . لكن وجود ذلك الجمع منع عليّ سبيل التوبة . وما كان ذلك منى خشية العقاب وإنما خشيت الخجل . خشيته أكثر من الموت ومن الإجرام ومن كل شىء فى العالم . ولقد كنت أود لو ابتلعتنى الأرض . ولكن الخجل تغلب على كل شىء ودفعنى إلى التبجح .

وكلما ازددت إجراماً ازددت تمنعاً عن الاعتراف بالجريمة خشية ظهورى أمام الناس كسارق سبّاب كاذب » .

وإن الإنسان ليحس فى هذا التبرير من روسو لعمله بمعارضته قيمة هذا العمل بحقيقة مقصده . ولكأنه يريد أن يقول إن عملى ليس نكراً لأن طبيعتى تأبى الشر وتنبو عن كل سوء قصد .

وخرج من بيت فرسليس ورجع إلى منزله الحقير فأقام به أسابيع عدة دفعته فيها البطالة ليفكر فى الشهوات فجعل يتجول فى أنحاء تورين رجاء الوقوع على ما يمتعها . بل لقد بلغ من تحكمها فيه أن دفعته إلى شبه جنون كان يذهب معه إلى أماكن قصية ينتظر فيها مرور النسوة فيحملق فيهن ويأتى أمامهن أفعالا منكرة . واسترسل فى ذلك وجعل يذهب إلى عين ماء يتردد إليها الفتيات ليستقين ويأخذن الماء منها . ووجد عندها كهفاً يتدرك إليه بسلم اتخذه درءاً يلجأ إليه إذا أصابته داهية من هاتيك الفتيات وما كان يحسب أن سيصيبه أضعاف ما يتوقع . ففيما هو يغازل إحداهن على طريقته الجنونية صاحت فى وجهه فهرول إلى ملجئه فتبعه رجل معه سيف وتبعه العجائز يتأبطن أيدى المكانس . ولما أدركوه توسل إلى الرجل وادعى أنه ابن أسرة كبيرة وأنه فر من أهله الذين أرادوا حبسه لجنة قامت به . فتركه الرجل وأنجاه من العجائز ومكانسهن .

وكان من أثر هذه الحادثة أن ردت إليه بعض هدوئه وعقله فاستعاد فى ذاكرته من عرف أيام كان فى خدمة مدام دى فرسليس وجعل يتردد على أحدهم ، وهو قس من السافوا اسمه (جيم) ، وكان رجلا متعقلا بصيراً . فشرح لجان جاك مسائل كثيرة مما يتعلق بالعقيدة ، وعرض عليه كذلك نظريات عدة كان أعلقها بذهنه أن لو استطاع كلّ أن يقرأ ما فى قلوب الآخرين لكان طلاب الهبوط أكثر من طلاب الرفعة .

وفى هذه الأثناء طلبه الكونت دلارك وعرض عليه أن يخدم فى بيت الكونت (جوفون) فقبل ذلك وإن ساءه فى نفسه أن يكون دائماً خادماً . ودخل عند الكونت فأحسن استقباله وقدمه لابنه ولزوجة ابنه فسر من ذلك الابتداء وحسب أن سيكون عما قريب أرقى مما دخل . وأظهر لذلك اهتماماً فائقاً فى عمله وبقى بمنزل (الجوفون) مكرماً محبوباً لا يعهد إليه من أمور الخدم إلا خدمة المائدة .

وما أسرع ما تعلق خياله بابنة البيت مدموازل (ديربل) كعادته فى الإسراع فى الحب . وكعادته لم يلق معها أى نجاح .

وبعد زمن ابتدأت كفاياته تظهر فيه ، أراد رجال الدار إعداده ليتبعهم فى مراكز سياسية خطيرة واتخذه ابن الكونت جوفون سكرتيراً وخادماً وجعل يعلمه اللاتينية وأتقن معه الطليانية . لكن هذا الشاب كان وكأنه محكوم عليه أن يقضى شبيبته بل حياته متشرداً . فإنه بعد أن نال الحظوة فى القصر وبعد أن وجد من يثقف له عقله ومن يرتب له المعلومات المشتتة التى كان حصلها من قراءاته ويزيد له فيهـا ويكملها صادف صديقـاً له قديماً من أهل جنيف ، شاباً من سنه يدعى باكل . وما أسرع ما ازدادت الألفة بينهما وبلغت حد التعلق وأصبحا لا يفترقان . فيجىء « باكل » عند روسو كل يوم فى القصر ويعطله عن عمله . فلما استحس أهل القصر ذلك حرّموا على باكل دخوله فجعل روسو يخرج إليه . فلامه ابن الكونت جوفون ومن معه فلم يرجع . وأخيراً أعفى من الخدمة وما كان أكثره بذلك سروراً . فقد رتب مع باكل أن يرجع إلى سويسرا راجلا يقطع الطريق الذى جاء منها ممتعاً بكامل الحرية .

ورجعا معاً يقطعان طريقاً زانته الطبيعة بأبدع ما أحدق به بقعة فى العالم ، فيمتع روسو نفسه من ذلك بكل ما تطلبه حواسه وإحساساته المتوقدة . وبقيا يعرجان كلما جنهما الليل على القرى المنثورة بين الجبال والخضرة فينالان من أهلها حسن الاستقبال وكرم الرفد . وكذلك ظلا حتى إذا وصلا إلى (شمبرى) فكر روسو فى التخلص من صديقه لاقترابـه من (أنسى) موضع إقامة مدام دى فارنس ، كما ابتدأ يفكر فيا سيكون لعودته عليها من الأثر . فلما استحس صديقه ذلك منه ووصلا إلى (أنسى) قبله قبلة الوداع وافترقا فراق الأبد .

وهنا تنتهى الحياة المتشردة المملوءة بالصغائر ويفتح أمام روسو باب جديد من أبواب الحياة . هنا يرجع لتلتقطه مدام دفارانس من تشرده وخدمته فتحتفظ به زمناً غير قصير لا يغادرها فيه إلا قليلا وليتركها عند آخره فيذهب إلى باريس حيث تنتظره الحياة التى تخلد اسمه .

٢

ترك روسو صديقه عندما وصل إلى أنسى . ودخل البلد وقلبه مشتت وباله مشتغل بحسب للقيـا من لم تشغله عنها مدام بازيل ولا مدموازيل ديربل ولا فتيات البئر ، والتى لم يفتأ طول مدة غيابه يخاطبها وتكاتبه . فلما رأته ألقت عليه نظرة عطف واشتياق ردت إلى باله الهدوء وإلى قلبه الطمأنينة . وهنا بدأ روسو حياة سعيدة ملأى بالإحساسات الرقيقة المتبادلة .

وتبودلت بينهما محبة بلغت حد الهيام وأعدت هى له فى بيتها غرفة مطلة على حدائق وأعناب تنتهى بالمزارع الواسعة ، ولم يكن معهما بالمنزل سوى خادم يدعى (آنيه) وخادمة تسمى (مرسريه) كانا يقومان بنظام المنزل وجميع شئونه . لذلك ، وبالرغم من أن الحياة الجديدة لم يكن فيها من السعة مثلما كان فى الحياة التى مر بها روسو فى تورين . ولهذا الإحساس المتبادل بينه وبين ربة البيت ، فقد أحس فى حياته الجديدة بنعيم لم يكن يخطر له من قبل ببال .

وتزايد الحب بينهما حتى صار يشغل بال روسو أيما شغل . على أن ميل مدام دفارانس له لم يكن ذلك العطف المتبادل بين رجل وامرأة ، بل كان عطف سيدة على شاب يستحق الحنان . ولهذا فلقد كانت تدعوه (صغيرى) ويدعوها (أمى) ولهذا أيضاً لم تمتنع هى عن الاستمرار فيا كانت فيه من قبل من تبادل الصلات الجنسية مع أشخاص غير روسو .

وما كان هو ليفكر فى مثل هذه الصلة أول الأمر . بل لقد بقى معها كما كان مع سواها خياليًا عذريًا ذاهباً بتصوراته فى سحب الآمال والمنى . يرى فى كل ما أحـاط بها موضع سعادة ويرى فى قربها نعمة وهناءة .

وإلى القارئ صحيفة من اعترافاته غاية فى الإبداع عن ذلك الوقت من أيام حياته :

« يموت الهوى منى إذا ما لقيتهـا

ويحيـا إذا فارقتهـا فيعـــود

« وكثيراً ما دفعتنى حاجة القربى منها إلى مواقف حنان تستدر مدامعى .
وإنى لأذكر دائماً يوم عيد ذهبتُ فيه لأداء صلوات الصبح وخرجتُ أنا لأتنزه بعيداً عن المدينة مملوء القلب من صورتها ومن الأمل القوى فى قضاء أيامى . على أن تعذر ذلك يومئذ كان واضحاً أمامى وكنت شاعراً تمام الشعور أن سعادة ذلك مبلغ متاعى بها هى لابد قصيرة المدى . ولقد أرسل هذا الإحساس إلى أحلامى شيئاً من الحزن وإن لم يبلغ ذلك الحزن الكآبة ولا هو حرم من أمل يخفف وقعه . واستثارت عندى دقات الأجراس وأغاريد الطير وجمال النهار ورقة المنظر والمنازل المشتتة بين الأشجار حيث تخيلت مستقرى وإياها ، هزة رقيقة حية حزينة مؤثرة تصورتها نقلتنى إلى ذلك المستقر البديع فى تلك الأوقات السعيدة يتذوقها قلبى على ما يحب من غير تفكير فى الشهوات ما دام قد حصل من الهناء على كل ما يريد » .

وكذلك راجع روسو السلام والسكينة بعد إذ فارقاه طويلا ورجع إلى الاستقرار والهدوء بعد أن قضى زمناً متشرداً أو فى مراكز وضيعة وجعل يقرأ من جديد مالئاً بالقراءة كل أوقات فراغه مستعيناً فى قراءته بصاحبته التى قرأت كثيراً والتى كانت بذلك ذات عقل وحسن اختيار .

وفيما هو يتذوق هذه السعادة زار مدام دفارانس ذو قرابة لها هو المسيو (دوبون) وكان رجلا راجح العقل كثير العمل فقامت بإيجاد التعارف بينه وبين روسو وسألته عما يصلح جان جاك له فبعد إذ رآه وكلمه ووقف على ما تبين له منه ، حكم بأنه لا يصلح لشىء ، فهو ضيق العقل أكثر ما يمكن أن يصل إليه مع التساهل فى الحكم أن يكون قساً فى قرية .

ولم يكن المسيو دوبون وحده هو الذى حكم على روسو هذا الحكم بل لقد وجهه إليه كثير غيره . وإنا ننقل للقارئ تفسير روسو لهذه المسألة وسيرى منها مركز جان جاك العقلى وقوته التصورية وما كان من أثرهما على حياته بعد ذلك ككاتب ومفكر . قال :

« يجتمع فىّ شيئان متضادان أو يكادان لا أستطيع أن أتصور اجتماعهما . إحساس شديد وعواطف قوية وشهوات متحكمة يقابلها أفكار بطيئة التبين لا تظهر إلا بعد زمن فكأنما فىّ قلب رجل وعقل رجل آخر . فأما العواطف فتسرع إلىّ

كالبرق تملأ كل نفسى ثم لا تضىء شيئاً أمامى بل تغشانى وتتركنى محساً بكل شىء ، غير مبصر شيئاً ، ثم أبقى متبلداً يعوزنى الهدوء المطلق كما أفكر .

« وهذا البطء فى التفكير والتوقد فى الإحساس يلازمنى فى وحدتى وعملى كما يلازمنى فى محادثاتى واجتماعاتى . فلا تترتب الأفكار فى ذهنى إلا بأقصى الصعوبة فهى تدور فيه أولا ثم تتقارب حتى تستفزنى وتستدعى اهتزازات عصبية عندى . وفى هذه الأثناء لا أبصر شيئاً ولا أستطيع أن أكتب كلمة واحدة . بل يجب أن أتريث وأنتظر حتى تهدأ هذه الحركة فى مخى ويأخذ كل شىء فيه مكانه ببطء وبعد لأى شديد » .

وكان روسو لهذه الصفة عنده لا يحسن الكلام فى أى مجتمع يوجد فيه . ولا شك فى أن ذلك من الأشياء التى جعلته مؤثراً للوحدة مبغضاً للاجتماع محبًّا للحياة وسط الطبيعة الصامتة كما أن توقد إحساسه كان يسمح له بالتمتع بجمال الطبيعة أكبر متاع .

ولكأنما صادقت مدام دفارانس على رأى مسيو دوبون فرأت أن يتعلم روسو ليكون قسًّا فى مستقبله . وأرسلت به إلى دير فى البلد تحت حماية راهب اسمه المسيو (جرو) طيب القلب حسن العشرة فأسلمه هذا الراهب إلى قسيس غليظ القلب سمج الطبع بعلمه ، فسئم روسو هذا المعلم . حينذاك نقله حاميه تحت إمرة معلم آخر هو المسيو (جاتيه) وكان شاباً رزيناً عاقلا ودوداً . فعنى بروسو خير عناية وجعل يدرس له قدر جهده . على أن ذلك لم ينتج كثيراً وصدقت نبوءة (دوبون) وحكم بأن روسو لا يصلح ليلبس رداء الرهبنة .

على أن صداقة المسيو (جاتيه) له أفادته فى معلوماته ، كما أفادته من قبل ذلك محادثاته مع المسيو (جيم) . وكان لهما من الأثر فى حياته بعد ذلك أن اتخذهما مثلا لبطله فى (الاعتراف بالإيمان لقس من السافوا) . وكان معه حين مقامه بالدير كتاب موسيقى أخذه معه يوم ذهابه إليه واجتهد أن يستمر ليتعلم فيه ما كانت مدام دفارانس قد بدأت تعلمه إياه . فلم يتقدم إلا قليلا برغم إدمانه قراءته . فلما خرج من الدير ورأت (أمه) هذا الميل عنده عهدت به لرئيس موسيقى كتدرائية البلد المدعو مسيو (لمتر) . ومع أنه بقى زمناً معه ، فلم يستفد فائدة تذكر وكأنما لم يقدر له أن يتعلم على معلم طول حياته .

وبينما كان فى صحبة المسيو لمتر وصل إلى (أنسى) شاب اسمه (فنتور) ادعى معرفة الموسيقى وأظهر عند التجربة كفاية ممدوحة . وما أسرع ما تعلق روسو به عندما رآه . تعلق به تعلقه (بباكل) وبغيره من قبل . وكان فنتور متعلماً ذكياً له فى المجون . وازداد تعلقه به حتى أخذه معه يوماً إلى مدام دفارانس فلما رأته وحادثها رأته شخصاً فاسداً فحرمت على روسو أن يجيء به لمنزلها مرة أخرى ونصحت إليه ألا يصاحبه .

وفى هذه الأثناء قام سوء تفاهم بين مسيو (لمتر) ورؤساء الكتدرائية أساسه ما فى نفوس هؤلاء الرؤساء من الكبرياء والعظمة واعتبارهم من ليس من رجال الدين فى مركز ضعة إلى جانبهم . فصمم (لمتر) على الهرب حتى يتركهم فى حيص بيص خصوصاً وقد كان عيد الفصح مقترباً يومئذ . وفاتح مدام دفارانس عزمه ولما يئست من إمكان صده عنه رأت أن تعينه بمن ينقل معه متاعه فعهدت لروسو بهذه المهمة وخرج مع أستاذه بليل ، واجتازوا سويسرا إلى فرنسا حيث كان (لمتر) ذاهبًا إلى باريس بلده ومسقط رأسه . فلما وصلا إلى ليون عاودت (لمتر) نوبة عصبية من النوبات التى تعاوده لإدمانه شرب الخمر لكنها عاودته هذه المرة بقوة فأرغى فمه واحمرت عيناه وسقط إلى الأرض لا يعى . فصاح روسو حتى إذا اجتمع الناس لم يكن منه إلا أن تركهم وترك صاحبه وعرج لا يلوى على شيء قاصداً تركه وشأنه .

وهذه هى الجريمة الثانية بعد جريمة اتهام (ماريون) كذباً بسرقة شريط الرأس وإن تكن أقل منها شناعة وفظاعة . على أنها استدعت من روسو أسفاً واستلزمت منه استدامة التوبة عنها . وإنها فى ذاتها ، مضافة إلى هذه الميول الغريبة التى سبق مرورها بالقارئ لتدل على حساسية مريضة وعقل غير منتظم . والعجيب أن هذه الميول وتلك الحساسية لزمت روسو طول حياته وكانت سبب عظمته ومصدر فلسفته .

وما لبث أن ترك مسيو لمتر حتى فكر فى الرجوع إلى (أنسى) واتخذ طريقه تواً إليها ، فلما بلغها وذهب إلى المنزل لم يجد مدام دفارانس وعلم أنها سافرت إلى باريس لمهمة لم يتح له أن يقف عليها . فهمه ذلك واستثار شجنه وزاد من أسفه لتركه مسيو (لمتر) على نحو ما فعل . غير أنه لم يبق على ذلك طويلا وسرعان ما رجع

فبحث عن صديقه فنتور الذى أحسن لقاءه وقبل أن يبقى جان جاك مقيماً معه . وجعلا يقضيان معظم النهار مفترقين ، فنتور فى جمعيات (أنسى) ومع سيداتها اللاتى بدأن يتعشقنه وروسو فى جولاته وسط الطبيعة وأحلامه التى لا تنتهى .

فى هذه الأيام عرف مدموازل جالى ومدموازل جرافنريد . وإنى لأحبس قلمى الآن لأترك روسو يقص على القارئ ملقاه بهما وتوطيد معرفته إياهما فى الحكاية الآتية التى بلغت أقصى حدود الإبداع فى الكتابة فلا يكاد يوجد فرنسى لا يعرفها قال :

« تبدى لى الفجر يوماً بديع الجمال فارتديت ملابسى على عجل وخرجت مسرعاً أريد المزارع لأرى مطلع الشمس . فذقت تلك اللذة فى كل بهائها : لبست الأرض زخرفها وازينت بالزهر والعشب وزادتها البلابل زخرفاً وبهجة . والطير كلها تنادى تودع الخريف وتحيى مولد يوم صيف جميل . يوم من تلك الأيام البديعة التى لا يراها الإنسان فى سنى والتى لم تر أبداً فى هذه الأرض المكتئبة التى سكنتها اليوم .

« وابتعدت عن المدينة على غير شعور منى وتزايد الحر فالتجأت إلى ظل أشجار تحيط غديراً . ثم سمعت وقع حوافر خيل فأصوات بنيات تبين عليهن الحيرة وإن لم يمنعهن ذلك من الضحك عن قلب طيب . فالتفت فناديننى باسمى فاقتربت فإذا بى أرى طفلتين من معارفى هما مدموازل جرافنريد ومدموازيل جالى وكانتا لم تستطيعا إكراه جواديهما على عبور الغدير لقلة دربتهما فى الركوب .

« وكانت مدموازل جرافنريد طفلة من (برن) غاية فى الرقة دفعها جنون سنها فتركت بلدها وأقامت مع مدموازل جالى التى أخذت على أمها عهداً أن تبقى معها هذه الصديقة الرقيقة حتى تستقر على حال .

« أما مدموازيل جالى فكانت أصغر من صاحبتها سناً وأكثر جمالا ويشوب هذا الجمال إبداع ودقة . وكانت صغيرة الحجم تامة التكوين فى وقت معاً . أى فى أجمل اللحظات التى تمر بها كل فتاة . وكان بينهما جميعاً حب حلو ضمن حسن علاقتهما بقاءه ما لم يعكر صفوه محب متعشق .

« وكانتا ذاهبتين إلى تون Thones حيث يقوم قصر قديم مملوك لمدموازل جالى . فاستعانتا بى كى أستعدى الخيل الغدير لعدم استطاعتهما ذلك وحدهما .

فأردت أن أضرب الخيل بالسوط لكنهما خافتا على الرقص وعلى أنفسهما السقوط . فلجأت إلى وسيلة أخرى فأمسكت بلجام حصان مدموازل جالى وشددته ورائى وخضت الغدير حتى بلغ الماء منتصف ساقى . وتبعنا الحصان الآخر من غير مشقة . فلما فرغنا من ذلك أردت أن أحييهما وأذهب . فتسارّتا ثم وجهت مدموازل جرافنريد الكلام إلىّ قائلة : كلا كلا لن تفلت منا هكذا . لقد ابتللت فى خدمتنا فيجب عدلا أن نأخذ على مسؤوليتنا إعادتك إلى سابق حالك . يجب يا صاح أن تجىء معنا . إنا نستوقفك سجيناً ، فدق قلبى وحولت نظرتى إلى مدموازل جالى فأضافت ضاحكة مما أنا فيه من الاختلاط : نعم نعم أسير حرب ! امتط الجواد وراءها فإنا مسئولتان عنك » فقلت : لكن يا آنسة لم أتشرف من قبل بمعرفة السيدة والدتك فماذا عساها تقول حين ترانى : فأجابت عنها مدموازل جرافنريد : أمها ليست فى تون ونحن وحدنا وسنرجع الليلة وترجع معنا .

« ليست الكهرباء أسرع أثراً من هذه الكلمات على نفسى . وقد اهتز قلبى سروراً ساعة امتطيت جواد مدموازل جرافنريد . وطوقتها بذراعى فازداد قلبى اهتزازاً حتى شعرت هى به . ولقد أخبرتنى أن قلبها هى الأخرى يهتز خيفة أن نقع .

« ودفعنى السرور بالنزهة وحديث الطفلتين لأتحدث أنا كذلك . ولقد قضينا حتى المساء لا نسكت لحظة . وأمتعتانى بالطمأنينة فبقى لسانى يتكلم بمقدار ما تنطق عيناى وإن لم يقل ما إليه ترميان .

« ولما وصلنا إلى تون وزال ما بردائى من بلل طعمنا غداءنا ثم قمنا لتحضير أمر العشاء . وتعشينا وجلست بينهما فأى عشاء . ألا ما ألذ ذكراه .

ومضى اليوم وقد لعبنا به على ما شئنا وبكل وقار . فلم تصدر كلمة مبهمة ولا عبارة سيئة » .

وافترقوا على موعد بينهم . ولكن ما أقل ما تصدق مثل هذه المواعيد . فرجع جان جاك إلى حياته مع فنتور يقضى النهار هائماً يتمتع بالطبيعة وجمالها ويؤوب الليل إلى بيت صاحبه يقضيه سعيداً مرتاح الفكر والخاطر .

وطالت غيبة مدام دفارانس ففكرت خادمتها (مرسيريه) فى الرجوع إلى بلدها (فريبور) وسألت جان جاك أن يصحبها . وذهبا جميعاً ومرا فى

طريقهما (بنين) حيث أبوه فعرج عليه وترك عنده بعض متاعه وودعه وذهب مع الخادمة حتى دار أهلها . وبعد يومين أقامهما عندها تركها إلى لوزان ووصلها خالى الجيب لا يملك فلساً فأكل ونام عند رجل أنف أن يأخذ منه فى الصباح رهناً عما استحق عليه .

لكن تسول شاب قوى حال لا يمكن أن تدوم . فذهب إلى نُزل وادعى عند صاحبه أنه مغن ماهر وأن فقراً يقعد به عن كل شىء . ولقد مر بالقارئ أنه أخفق فى تعلم الموسيقى وفى الغناء . لكنه لم يجد غيرهما مرتزقاً . ووعده صاحب النزل خيراً ونشر عنه ورتب معه ليلة طرب ليغنى فيها وحصل له على بعض تلاميذ (كانوا بلداء بمقدار ما كان جاهلا) . ولما ذهب إلى هذه الليلة وغنّى لم يكن من السامعين إلا كل ساخط عليه مشمئز منه . وأورثته الخيبة ألماً وحزناً لم يكن له عنهما من عزاء إلا بعض مكاتبات كانت ترد إليه من صاحبتيه جالى وجرافنريد فتحمل إليه ريحهما وتعزيه بعض الشىء عن همه .

صرف هذا الفشل عنه تلاميذه وهدده بفقر أكثر من عدمه الأول . فعوّل على ترك لوزان وعلى أن يمر ببلد مدام دفارانس ، وتوجه إلى (فيفى) يمتع الناظر منهـا بذلك الجمال الساحر الذى تمتاز به . وأقام بها يومين أحبها فيهما حباً استرجعه إليها مرات فى حياته وجعله يتخذ منها فيما بعد مقر أبطال روايته الكبرى (هلويز الجديدة) .

وأخيراً ساقه طالعه وألقت به عصا التسيار إلى نوشاتل ، وهو يدعى دائماً أنه موسيقى ماهر . لكنه كان يعلم علم اليقين أن الفشل ينتظره لا محالة . لذلك ما لبث أن رأى قسيساً إيطالياً لا يتكلم الفرنسية حتى تقرب منه واتصل به كمترجم . وكان القسيس داعياً يطوف أنحاء أوربا يجمع الصدقات من كبار رجال الحكومات ليردها على بيت المقدس . ولقد سر روسو أكبر السرور أن علم أنه يرمى من هذه السياحات المترامية ليصل أخيراً إلى مهبط الوحى ومسقط رأس السيد المسيح . لكن أحلامه لم تتحقق فإنه بعد أن مر مع القسيس (بفريبور) و(برن) وصلا إلى (سولير) حيث كان المركيز (دبناك) قنصلا لفرنسا . فلما استقبلهما ورأى روسو وعرف منه حقيقة حاله منعه من الاستمرار مع صاحبه وحجزه عنده ولم يعطه الفرصة حتى ولا ليودعه .

وبعد زمن قضاه فى بيت القنصل صمم أهل البيت على إرساله لباريس سكرتيراً لأحد الشبان المشتغلين فى الوظائف العسكرية من أقاربهم . وأعطى ما يلزمه للسفر وراح يقطع الطريق بين بدائع الطبيعة وغرائب أحلامه حتى وصل باريس وكانت فى خياله مدينة بابلونية ليس فيها إلا شوارع فخمة والا قصور من المرمر والذهب . فلما تبدت له أطرافها وبها منازل صغيرة سوداء تمر من أمامها طرقات ضيقة قذرة يسير فيها المتسولون والباعة اضمحلت أحلامه وتلاشت أوهامه وداخله إحساس اشمئزاز بقى عنده بعد ذلك برغم ما ظهر له من إبداع فيها وجمال .

وأحسن من قدم نفسه إليهم استقباله ، إلا جماعة من كان يريد الخدمة عندهم . فاعتراه هم كبير . ولولا أن سيدة اهتمت له وبحثت وإياه عن مدام دفارانس وعرفت أنها سافرت لكان أسوأ حالاً وأتعس مصيراً . وما كاد يعلم بسفر (أمه) حتى غادر باريس مسروراً بفراقها ورجع قاصداً السافوا ليبحث عنها . فلما مر بليون قصد بيت مدموازل دشاتليه إحدى صاحبات مدام دفارانس آملا أن يقف منها على خبر صديقته . فعلم أنها غادرت ليون من زمن . لكن مدموازل دشاتليه لم تضن عليه بالبحث عن محل وجود صاحبتها .

كان روسو يومئذ قد وصل من الفقر إلى قراراته : وأبى عليه غروره أن يظهر ذلك لمضيفته فترك بيتها وانطلق هائماً وسط المدينة يبيت مرة فى العراء ويعرض نفسه أخرى للمبيت بمنزل قسيس يراوده عن نفسه قصد أن يفسق به . وفيما هو سائر يغنى بعد ليلة قضاها تحت السماء قابله الميسو روليشون وعلم منه أنه يقدر على نقل الموسيقى . فاستخدمه عنده زمناً فلما فرغ من العمل رجع ومعه ما يقيم صلبه وبقى مع مدموازيل دوشاتليه أياماً يستفيد من ملاحظاتها حتى إذا جاء الخبر أن مدام دفارانس مقيمة فى شمبرى ودع مضيفته ومضى .

وصل (شمبرى) فوجد أمه مقيمة فى بيت أقل فخامة بكثير من بيتها فى (أنسى) . ووجدها وقد أعدت له غرفة من غرفه . وكان (كلودآنيه) لا يزال متصلاً بمدام دفارانس اتصال خدمة واتصال مخاللة ومزاولة . فلما علم روسو بذلك لم يتعض ولم يتضايق بل تزايد حبه لآنيه وعطفه عليه . قال : « وكذلك كان من الأدلة على سمو أخلاق هاته المرأة الرقيقة أن يرتبط جميع محبيها برابطة المحبة فيما بينهم . وأن تخضع الغيرة ويخضع التنافس إلى عاطفة الود التى توحى هى بها

لهم جميعاً فلا يريد أحد منهم بالآخر شراً » هذا هو حكم روسو وهو حكم ينطق بعدم اعتداده بالفضائل المقررة .

ووجدت هى له فى تعداد الأنفس وقتئذ وظيفة اشتغل بأدائها سنتين تعلم فى خلالهما الحساب والرسم كما انكب فى أخريات أيامهما على القراءة انكباباً شديداً . ثم ترك التعداد وانقطع للموسيقى وكان قد بلغ منها بعض المبلغ لكثرة ما زاولها أيام كان لها معلماً . وكثر لذلك تلاميذه وانقطع لهم وكان من بينهم فتيات غاية فى الجمال ومن بين أمهات هاته الفتيات من افتتن بشكل جان جاك وأردن منه ما لم يكن يفهم إلى ذلك اليوم من صلات الجنسين . فلما رأته مدام دفارانس على هاوية الوقوع فيما تدفعه إليه سنه من الشهوات لم تجد إلا طريقاً واحداً ينجيه من هذا الشر ، وذلك بأن تهب له نفسها . وقبل هو هذه الهبة فدنس حبه الطاهر وأصبح شريكاً لكلود آنيه من غير ضجر ولا ملال .

والمدهش أنه يبرر فى اعترافاته عمل مدام دفارانس بقوله إنها إنما كانت تريد به الخير فيما فعلت . ذلك لأنها لم تكن تهتم بالعلاقة الشهوية أو تعيرها أية أهمية . فلم يكن فى عملها ما يمكن اعتباره خطيئة من جانبها ولا كان فى مخاللة من تسميه ابنها ما يمكن أن يمس أخلاقها . واعتذار روسو عن معشوقته الكريمة على هذه الطريقة لا يقل عن حكمه السابق دلالة وبياناً .

وبعد زمن قضاه شريكاً لكلود آنيه فى مضاجعة مدام دفارانس توفى كلود مأسوفاً عليه منهما جميعاً وأصبح روسو سيد البيت والمكلف بتصريف أموره . وإنه ليعزو ما عرف عنه من بخل طول حياته إلى ذلك الوقت حين اضطره النظر فى شؤون (أمه) للتدبير والحذر . وأصبح مركزه كرفيق لمدام دفارانس معقولاً بعض الشىء مهما ناله من اللوم .

ولطول ما اشتغل بالموسيقى راق له أن يؤلف فيها . لكنه لم يكن من العلم بها بحيث يستطيع الوصول لذلك وحده . ولم يجد فى شمبرى ولا ما جاورها من يعلمه إياها . فذكر أن صديقه فنتور تعلم على أستاذ فى (بزانسون) اسمه (بلانشار) فصمم على الذهاب إليه . ولم تقف مدام دفارانس دون إرادته بل ساعدته عليها وأعدت له عدته . فلما مر فى طريقه (بنين) عهد إلى أبيه أن يرسل له متاعه . لكن متاعه صودر على حدود فرنسا بحجة أن عمال الجمرك وجدوا بين أوراقه

ورقة فيها ما يطعن على الكثلكة وخشوا نشرها فى البلاد فاضطر روسو بعد مقابلته المسيو بلانشار أن يرجع على عقبه إلى شمبرى ولم يكسب من سفرته شيئاً . .

أقام فى شمبرى يتمتع وحده برفيقته ويعلم الموسيقى ممتعاً بالسكون الأعم والراحة الكاملة . وأتيح له يومئذ تلميذ شغف به هو المسيو (دكونزيه) . وكان شاباً ذكياً متعلماً مطلعاً ولا يأخذ ميله للموسيقى الكثير من وقت جان جاك . بل كان يقضى معظم حصته فى الحديث عما ظهر من الكتب وبالأخص من كتب الأدب . ولقد قرأ مع روسو أكثر خطابات فولتير مع فردينان البرنس البروسى . وكان سبباً فى تعلقه بقراءة ما يظهر من كتب الأدب . فلما ظهرت (خطابات فولتير الفلسفية) جاء عليها وتعلق بها أى تعلق .

وبينا هو فى متاعه فاجأته حادثة كانت مقدمة لحادثة أخرى زادت إلى سابق أمراضه . ذلك أنه كان يوماً يحضر دواء فى زجاجة فأصاب عينيه بعض ما فيها فاعتل بهما ستة أسابيع كان لا يبصر فى أثنائها شيئاً . وما كاد يشفى من هذا المرض حتى أصابه مرض آخر ألزمه الفراش وأتى على قواه . فعنيت به مدام دفارانس خير عناية . لكنه بقى بعد إذ أبل من مرضه زمناً طويلا فى دور النقاهة . هنالك رأى أن البقاء بين جدران شمبرى لا يمكن أن يلائم صحته أو يوافق مزاجه فطلب إلى صاحبته الخروج معه إلى الريف . وبعد تردد عزما على الذهاب إلى (الشارمت) على مقربة من شمبرى مع إبقاء منزلهما فى هذا البلد .

وقضى جان جاك فى (الشارمت) أسعد أيام حياته . وإلى القارئ كلمة من اعترافاته فى وصف ذلك الزمن من عمره قال :

« هنا يبتدئ الزمن القصير السعيد من أزمنة حياتى . هنا تجىء البرهات السريعة الهادئة التى تجعلنى أقول إننى حييت . إيه أيتها اللحظات الثمينة المأسوف عليها . ارجعى فاسترجعى مسراك الهنى . انسابى فى ذاكرتى إن استطعت أكثر بطئاً مما كنت فى سرعة مرك . ما عساى أعمل لأطيل كما أريد هذه الذكرى البسيطة المؤثرة ولأقول وأعيد الأشياء نفسها.ولا يمل قارئ بإعادتها كما لا أمل أنا باستعادة ذكراها ؟ ولو أن ما كان يومئذ كونته الوقائع والأعمال والكلمات لاستطعت وصفه وتبيانه . ولكن ماذا أذكر عن شىء لم يقل ولم يعمل بل ولم يأخذ أى مكان من الفكر ولكنه ذيق بل أحس وليس عندى ما استظهر به قيمة سعادتى غير ذلك

الإحساس نفسه ؟ كنت أستيقظ مع الشمس وكنت سعيداً . كنت أتنزه وكنت سعيداً . كنت أرى أمى وكنت سعيداً . وكنت أتركها وكنت سعيداً . كنت أقطع الغابات والأحراش وكنت أجوب الأودية وكنت أقرأ وأسكت وأشتغل فى الحديقة وأجمع الفاكهة والسعادة تتبعنى حيث كنت ولا تستطيع تركى لحظة لأنها لم تكن فى شىء معين بل كانت ممتزجة بنفسى وروحى » .

على أن انغماسه فى السعادة لم يقطع على المرض طريق سريانه ولم يعد إلى المريض صحته . بل لقد تزايدت آثاره بما زاد روسو يأساً من الحياة وطلباً للموت . ومن بعض هذه الأمراض ما لا أستطيع وصفه بأبلغ من كلمات روسو نفسه . وها هى ذى :

« بينا أنا ذات يوم ، ولم أكن أسوأ حالاً منى عادة ، بينا أنا أرتب منضدة إذا بى أحسست بثوران فى جسمى أشبه شىء بعاصفة هاجت دمى وامتدت منه فى لمح البصر إلى كل أعضائى . وابتدأت شراييني تدق بقوة لم أقف عند الإحساس بها بل كنت أسمعها ، وصحب ذلك دوى فى آذانى تنوع إلى ثلاثة أو أربعة أنواع . فصرير قوى أصم . وخرير أكثر وضوحاً كأنه خرير الماء الجارى . وصفير حاد . وذلك الدق الذى سبقت الإشارة إليه . وتبينت أمامى الدقات من غير حاجة منى لأحس أعصابى أو ألمس جسمى بيدى . ومنع على ذلك الدوى الداخلى الشديد ما كان عندى قبل يومئذ من دقة الأذن وجعلنى وإن لم أكن أصم قليل السمع ، كما بقيت من ذلك الحين » .

وأعقب ذلك عند روسو قلقاً وأرقاً . وأصبحت الحياة عنده محلا لليأس كما أصبح انتظار الموت من بعض آماله .

جاء الشتاء واضطر روسو للرجوع من الشارمت حيث الطبيعة البكر والمناظر البديعة التى امتازت بها السافوا ودخل كنّة فى (شمبرى) ووثق علاقته بالدكتور (سالومون) الذى أصبح طبيب البيت . وكان الدكتور سالمون رزيناً مطلعاً فصرف روسو معظم وقته فى الاستفادة من علمه ، كما أنه استمر دائماً على القراءة والبحث . وفى هذه المرة جعل بحثه علمياً مرتباً مبنياً

تؤدى إلى الإلمام بالعلم والإحاطة بما تعلق به . وكان له فى مطالعاته

البلد الذى يعيش فيه ، كما أنها كانت تنسيه بعض ما هو فيه مر

فلما انتهى الشتاء ورجعوا إلى الشارمت عمل على إضافة بعض أعمال يدوية إلى قراءاته . غير أنه لما اشتغل فى الحقل أحس بضعفه المطلق عن القيام بأعماله التى أربت على قواه والتى كانت تورثه الخفقان والدوار . فاشتغل بتربية الحمام وجعل يملأ به من فراغ وقته مالم تشغله المطالعة .

وأصبح يعيش إلى حد ما عيشا مرتباً منتظماً : «فكنت أستيقظ كل يوم قبل مطلع الشمس وأصعد إلى أعناب تجاورنا ينساب بينها طريق جميل تحيط به الكروم حتى يصل إلى شمبرى . وهناك فى نزهتى كنت أقيم صلواتى . ولم تكن هاته الصلوات مجرد كلمات تنطق بها الشفاه بل كانت صعوداً مخلصاً بقلبى إلى مبدع هاته الطبيعة الحلوة التى تمتد أمام ناظرى . وما أردت يوماً أن أصلى لله فى غرفتى إذ كان يخيل إلىّ أن الجدران ونحوها من الأشياء الضئيلة التى صنعتها يد الإنسان تحول بينى وبين الله . وإنما وددت دائماً أن أشاهد صنعه فى حين يرتفع قلبى إليه . وكانت صلواتى طاهرة وتستحق لذلك إن صح القول أن تجاب . . على أن عبادتى إنما كانت مشاهدة وإعجاباً لا طلباً . . ثم أرجع من نزهتى من أطول الطرق تشغلنى مناجاة ما يحيط بى ويسحرنى من مناظر الحقول بلذة وشهوة . هاته المناظر التى تسترعى وحدها القلب والعين فلا يكلان أبداً عن مشاهدتها » .

فإذا رجع جلس إلى (أمه) يحادثها وتحادثه ثم يتركها إلى كتبه حتى تحين الظهيرة ويجىء موعد الغداء . . ويقضى بعد الظهر فى زيارة طيوره ومحادثة أصحابه وقراءة كتبه .

وكان يومئذ قد بلغ رشده ففكر فى المطالبة بميراثه عن أمه وذهب إلى جنيف لهذه الغاية . وأسعده الحظ فلم يلق فى سبيله العراقيل التى لا تفتأ تقوم كلما طرحت مسألة أمام القضاء . واقتسم ذلك الميراث الضئيل مع أبيه وأخذ نصيبه وتصرف فيه واشترى بقسم من ثمنه كتباً ثم حمل الباقى إلى مدام دفارانس . ورجع إلى العيش معها وبين رياضاته ومطالعاته .

وفيما كان يدرس كتب الطب دخل إلى نفسه الاعتقاد أنه مصاب بمرض فى القلب هو أصل كل بلواه . فعزم على علاج نفسه من ذلك المرض . لكن أطباء بلاده لم يكونوا بحيث يصلون إلى معرفة دوائه . فذكر أن (كلود آنيه)

كان قد أخبرهم بعد رجوعه من سفره إلى مونبلييه أن الدكتور « فيز » يداوى مرض القلب بدقة ومهارة . هنالك صمم على الذهاب إليه . ولم يقف دون تصميمه أى حائل لأن ما حمل من ميراث أمه ضمن نفقات سفره . كما أن إرادة مدام دفارانس لم تكن لتقف دون سفر غايته أن يعود سليماً معافى .

وأعد أهبته للسفر وسافر حتى إذا بلغ جرنبل تقابل مع عروس مسافرة مع حاشيتها وصحبتها سيدة تدعى مدام (دلارناج) . واستمر فى الطريق الذى فيه يسيرون من غير أن يكون بينه وبينهم أى تعارف . لكن السفر من شأنه أن يخلق المعرفة . فجعلت السيدتان تسألان كل صباح عن صحة هذا المسافر معهما بل لقد سألتاه أحياناً كيف قضى ليله .

ومن غرائب جان جاك التى لا تنتهى أنه لما سئل عن اسمه وبلده ادعى أنه إنجليزى ذاهب للتداوى بمونبلييه . فكأنه برغم تقدمه فى العلم والسن وبرغم حسن الحال الذى كان فيه لم تزل تعاوده نزوات الكذب التى اعتاد صغيرا .

وتركته العروس وحاشيتها عند رومان وتركت معه مدام دلارناج . فلم يمض زمن حتى وقع حبه من قلبها أى موقع . وقع منها بحيث لم تستطع بعد يوم من انفرادهما وبرغم خجله الشديد دون أن تهبه نفسها وتجعله يقول بعد سنين من ذلك فى اعترافاته : « ولولا مدام دلارناج لمتُّ من غير أن أعرف الملذات » .

وكان اسمه عندها (ددنج) وهو الاسم الإنجليزى الذى اختاره لنفسه وبقيت معه أياماً قصيرة أنسته فيها مرضه وألمه . فلما حان لهما أن يفترقا أخذت عليه عهداً أن يعرج عليها « بسانت انديول » حين رجوعه من مونبلييه ووعدها بذلك وعداً صادقاً . ولما وصل إلى مونبلييه استمرت المخاطبات بينه وبينها من غير انقطاع .

على أنه لم يجد فى مونبلييه فائدة تذكر بعد إذ أقام بها ستة أسابيع كاملة . وكل ما ظهر له أن الأطباء الذين بها والدكتور (فيز) نفسه لا يعرفون مرضه بل يدعون أنه ليس مريضاً . فصمم على الخروج منها والذهاب إلى سنت انديول حيث صاحبته التى أنسته فى سابق تعارفهما كل ألم . لكنه لما تنصف الطريق فكر فى أمره ونسيانه المشين لمدام دفارانس وفيما يؤول إليه حاله إذا هو ذهب إلى مدام دلارناج وخشى أن يفتضح أمره وألا يجد هناك من السعادة ما وجد من قبل

فى شمبرى وفى الشارمت . لذلك عدل عن عزمه ومضى قاصداً السافوا مقره القديم .

ووصل إلى شامبرى . فلما قابل مدام دفارانس قابلته ببرود أشد ما يكون مغايرة لما كانت تلقاه به من الجذل قبل يومئذ . فهمه ذلك كثيراً . ثم عرف أن شاباً آخر أخذ مكانه وأصبح عشيق « أمه » المحبوبة لديه .

طبيعى أن يهتاج روسو أمام هذا المنظر الخسيس . طبيعى أن يدق برأس هاته الفاجرة الأرض . طبيعى أن تعروه جنة تدفع به إلى كل المواقف . لكن شيئاً من ذلك لم يكن . وإنما شعر بشيء من الأسى دفعه إلى أن احتجب فى غرفته بعد ما عرضت هى عليه أن يشارك « فنتز نريد » فيها كما شارك كلود آنيه من قبل . وقد رفض مملوءاً أسفاً وحزناً .

وبقى فى البيت ولم يسافر إلا بعدما أظهر له كل من فيه الإغضاء عنه بل الامتعاض منه . هنالك نفد صبره وأخبر صاحبته القديمة بعزمه على السفر إلى ليون . فابتهجت لذلك وزودته بخطاب لصديقة لها كان سبباً فى اشتغاله مربياً لأولاد المسيو (دمابلى) حيث أقام يعلمهم سنة كاملة .

ولقد لقى مدة إقامته رحباً وسعة . ومع أنه أظهر العجز المطلق دون القيام بالمهمة التى عهد بها إليه كما أظهر عدم الاستعداد لما أرادت مدام دمابلى أن تعوده إياه من رقة المعاشرة ، فإن رب الدار لم يبادله إلا كل عطف وود . بالرغم من ذلك فقد تاقت نفسه للنبيذ مرة فلم يجد من غضاضة فى اختلاس زجاجات مما فى البيت ولم ينسه طول الزمن الالتجاء إلى السرقات الضئيلة التى اعتاد أيام صغره وأيام كان فى الضنك والضيق .

ولما استحس من نفسه العجز عن القيام بمهمته استقال منها فأقيل . ورجع إلى الشارمت حيث قابلته مدام دفارانس ومعها صاحبها الجديد بالفتور الذى قابلته به المرة السابقة . فلما أقام عندها زمناً لاحظ أن حالها تتدهور لكثرة ما كان يكلفها (فنتزنريد) من النفقات وصمم على العمل لإيجاد ما يقيمه ويعينها . فعنى بوضع طريقة جديدة لرقم الموسيقى حتى إذا استكملها فكر فى الذهاب إلى باريس لعرضها على الأكاديمية هناك . ولما استتمت هذه الفكرة وأصبح قديراً على إنفاذها تأهب للسفر . فترك الشارمت متخذاً إلى باريس طريق ليون حيث

قوبل بالترحاب والتحية وحيث زود بالخطابات إلى جماعة من كبار الرجال فى العاصمة الفرنسية ممن يؤمل فيهم معونته .

* * *

هنا ينتهى العصر الأول من حياة روسو . هنا ينتهى الزمن الذى قضاه مشتتاً متشرداً لا صناعة له ولا حرفة يعيش كَلًّا على غيره وعيالا على غير أهله . وإذا كان لم يقم يوماً من أيام حياته مقام ثبات واستقلال فإن ذلك الزمن الذى مر بالقارئ ذكره هو أكثر أزمنة حياته تشرداً وضياعاً .

وهنا نترك روسو شاباً حلو الطلعة دمث الخلق قوى الحس متوقد الخيال عظيم الحياء والخجل قليل الاعتداد بالفضائل العامة سريعاً إلى الكذب والسرقة لا يحسن عملا خاصاً يمتاز به . ونتركه مريضاً عانى الآلام أنواعاً وقاسى الأمراض ضروباً . فأصابه فوق ما منى به من أول أيام حياته من انقباض المثانة والخفقان والدوار وما تبعهما من الأرق وحب الوحدة .

نتركه ونترك جانباً صلاته النسائية وجولاته القديمة لنفكر وإياه فى الانتقال إلى العاصمة الهائلة طلباً للثروة والعظمة .

٣

ترك روسو مدام دفارانس مع رفيقها الجديد (فنتزنريد) وسافر قاصداً باريس ليعرض على أكاديميتها طريقته فى رقم الموسيقى . فمر فى طريقه بليون ومكث بها أياماً زار فيها أصدقاءه العديدين الذين عرف أيام كان معلماً لأبناء المسيو (مابلى) . ولقد استفاد من هذه الزيارات كثيراً حيث زود بخطابات تقدمه إلى جماعة من كبراء باريس ومن يستطيعون نفعه . فأعطاه المسيو (مابلى) خطابات إلى (فونتنل) وإلى الكونت (دكايلوس) وقدمه المسيو (بورد) إلى الدوق (ريشليو) الذى كان يومئذ بليون والذى وعد جان جاك أن يراه فى باريس .

ولم يفته فى ذلك الزمن القصير الذى قضاه بليون أن يتعلق بمدموازل « دلاسير » حتى يشغل بها خياله زمناً ما . ولقد كانت هاته الآنسة فى مثل مركزه الاجتماعى لا تملك شيئاً غير جمالها ومعرفتها . ولولا أنها كانت مخطوبة لأحد التجار لما امتنع عن التفكير فى البقاء معها، كما كان مع مدام دفارانس وكما فكر فى أن يكون مع مدام دلارناج .

وأخيراً ارتحل حتى وصل باريس . ولم يرها هاته المرة بالعين التى رآها بها لأول ما نزلها . بل لقد ظهر له ما فيها من إبداع وجمال متحلياً فى أحسن مظاهره . ولكأن هذه المدينة الكبيرة بما ينبعث عنها من الخيال الغريب للنفس قبل أن تترتب فى الذهن فكرة صحيحة عنها لا تظهر بما هى عليه من عظمة لأول مرآها . فإذا غادرها الرائى ورجع إليها وقارنها بما رأى تبدى له كل ما فيها من معانى الإبداع والعظمة .

قال : « حللت باريس فى خريف سنة ١٧٤١ ولا أملك إلا خمسة عشر جنيهاً فرنسياً وروايتى (نارسيس) واقتراحى بشأن الموسيقى . لذلك كنت فى أشد الحاجة للاستفادة من وقتى الضيق فأسرعت إلى عرض خطابات التقدمة . والشاب

الذى يصل باريس ويكون مقبول الشكل ويظهر عليه أثر المواهب واثق دائماً من أن يجد قبولا حسناً . وكان ذلك شأنى » .

وكان من بين من تقدم إليهم يومئذ المسيو (بوز) ومن طريقه عرف المسيو (ريومير) الذى مكنه من عرض طريقته فى رقم الموسيقى على أكاديمية العلوم ولم يجد أعضاء المجمع بأساً من النظر فى الاقتراح بعد أن تفحصه لجنة عينت لهذا الغرض . وبعد مناقشات طويلة بين أعضاء هذه اللجنة وبين روسو انتهى الأمر بعدم قبول الاقتراح ورجع روسو يعض بنان الندم على ما أضاع من وقته ويذرف دموع الأسى على انهدام صروح أحلامه .

وبعد فشله هذا كتب كتاباً يعرض فيه على الرأى العام اقتراحه طالباً إنصافه مما وقع به من الحيف والظلم فلم يكن كتابه أكثر رواجاً وقبولا عند الناس من طريقته أمام اللجنة . وضاع عليه من جديد ما صرفه من الوقت والمجهود فى كتابة هذا الكتاب .

غير أن مساعيه هذه وإن لم تفده مباشرة إلا أنها سمحت له بمعرفة عدد غير قليل من العلماء وذوى الرأى فى البلد . مع هذا فقد اضطره فقره ليقصر زياراته على عدد قليل من الناس حتى لا يعرّض ماء وجهه لكل إنسان . ولا يعجبن القارئ لذلك بعد أن عرف ما اجتمع فى روسو من الحياء والغرور . فكان يزور ماريفو وفونتنل . وقد اطلع الأول على روايته (نارسيس) فأعجبته وأراها لشاب من سن جان جاك يومئذ هو (ديدرو) الذى صادق روسو بعد ذلك زمناً غير قليل .

وكان يقضى القسم الكبير من فراغه فى لعب الشطرنج بقهوة (موجى) . ومرت الأيام على هذا النحو يقضيها بين أصحابه وبين الشطرنج ويرى بعينه نفاد ثروته الضئيلة . وفيما هو يوماً كذلك وقد أفلس أو كاد قابله القس (كاستل) وقال له : « إذا كان الموسيقيون والعلماء لا يتبعون طريقتك فادلف إلى النساء فقد يصادفك النجح عندهن ، ولقد سبق لى أن حدثتك عن مدام (دبزنفال) فاذهب إليها من جانبى وسترى عندها ابنتها مدام « دبرجلى » وهى سيدة ذات ذكاء وعقل ومدام (دوبن) وهى كذلك سيدة عاقلة تود بعد أن خاطبتها فى أمرك أن تراك وستحسن لقاءك . واعلم أن الإنسان لا يستطيع فى باريس شيئاً إلا بمعونة النساء » .

وبعد شيء من التردد ذهب فزار مدام (دبزنفال) وابنتها فأحسنتا وفده وطلبا

إليه أن يتردد عليهما . ولقد كانت علاقته بهما مما جعله يتوقع قرب الفرج والخروج مما كان فيه من ضنك وبؤس .

وفى هذه الفترة زار مدام (دوبن) وقدم لها كتابه الذى دافع به عن طريقته فى الموسيقى فقبلت هديته وأحسنت استقباله وخاطبته فى أمر اقتراحه مخاطبة علم بالموسيقى وحجزته عندها للعشاء . هنالك جن بها . ما لبث أن سمحت له بالتردد عليهما حتى جعل يذهب إليها كل يوم ويتناول العشاء عندها مرات فى الأسبوع . ولما كانت من صاحبات الصالونات الفخمة التى يتردد إليها السيدات والكبراء والكتّاب أمثال فونتنل وبوفن وفولتير فقد استفاد روسو من زيارته لها أكبر الفائدة ، غير أنه كان على ما عرف القارئ عيا وسط الجماعات لا يستطيع التفوق فى الحديث ، بل ولا ينطق صواباً . لذلك كان أغلب وقته صامتاً لا يبين .

لكن تعلقه بمدام دوبن لم يترك له الهدوء والسكينة . ففكر فى أن يكتب برسمها رواية موسيقية أسماها « الميزجالانت أى الشيطانات الرقيقات » . وبدأ عمله واستمر فيه . وقبل أن يتمه تعين بعناية مدام « دبزنفال » سكرتيراً « للمسيو منتاجو » قنصل فرنسا بالبندقية فسافر إليها وكله الأمل فى مستقبل باهر . وما كان أسرعه إلى الأمل عند كل فكرة أو حادثة جديدة تصادفه . واستمر مشتغلا بالرواية التى يكتب وبالموسيقى التى كان يعدها لها .

ووصل إلى البندقية وتسلم أعماله وحاز ثقة القنصل الذى كان على ما يخبرنا روسو رجلا ضيق العقل ضئيل الفكر ضعيف الخلق حتى اختلف معه آخر الأمر خلافاً انتهى بانفصال جان جاك بعد ما حاز ثقة الجالية الفرنسية بسبب ما عمل جهده لخيرها : قال : « وكنت أعمل دائماً باستقامة وهمة ونشاط تستحق من جانب « القنصل » مكافأة غير التى نالنى بها آخر العهد. ويومئذ حان الزمن الذى يظهر فيه عملى مقدار ما حبتنى به السماء من مواهب وما أفادتنى إياه خير النساء من تربية وما حصلته بنفسى من علم . وقمت بأداء واجبى وخدمت فرنسا ولم أكن مديناً لها بشىء خدمة صادقة كما خدمت القنصل بعدل فى كل ما تعلق بى . وقمت بذلك برغم وحدتى وغيبة الصديق وانقطاع الناصح وقلة التجربة وخدمتى أمة أجنبية وبرغم أنى كنت محاطاً بحثالة من أهل السوء الذين كانوا يغروننى دائماً بمجانستهم خدمة لهم ، ولكى لا يكون وجود المثل الحسن قذى

فى عيونهم . ولقد استحققت لحسن قيامى بالعمل فى هذا المركز المحسود احترام الجمهورية واحترام جميع القناصل الذين كانوا يراسلوننا وعطف جميع الفرنسيين المقيمين بالبندقية وحصلت عليه » .

على أن حسن علاقته برجال القنصلية وشديد مقاومته لأهل السوء منهم لم يفده كثيراً واستطاع الأخيرون تغيير قلب القنصل عليه واستنفاد صبره هو حتى اضطروه لترك (هذا المركز المحسود) فخرج منه ساخطاً على نظام السفارات والحكومات وإن تعزى ببعض ما كان من عطف الناس عليه .

والغريب أن روسو لم يترك فى اعترافاته شيئاً عن أثر جمال البندقية على نفسه . غريب حقيقة أن يوجد هذا المولع بالطبيعة الوصاف ولآثارها الذاكر الشارمت وڤيڤى وغيرهما أطول الذكر وسط جمال هذا البلد الغريب ومبانيه الفخمة وعظمته ورقته ثم هو ينسى كل ما تعلق بذلك من أمره وشأنه .

لكنه إلى جنب ذلك لم ينس أن يذكر نوادره النسائية هناك . فبعد أن أقام زمناً طويلاً متبعاً أقسى نظام الطهر والفضيلة دلف مع صاحب له إلى بغىّ تدعى (البادونا) . ثم تقابل بعد ذلك مع فتاة اسمها (زوليتا) تركت فى نفسه أثراً يكاد يعدل ما يترك العطف الحلو والميل الرقيق من الأثر . ولقد كانت هذه المقابلة الأخيرة مثاراً فى اعترافاته لهذه الكلمة الجميلة الخالدة :

« دخلت غرفة البغى فكأنما دخلت معبد الجمال والحب وتبدى شخصها لناظرى لابساً ثوب القداسة . ولولا هذا الاحترام الذى كان عندى لما أحسست بمثل ما أحسست به أمامها . وما لبثت حين رفعت الكلفة بيننا وعرفت ثمن جمالها ونوالها حتى أسرعت أريد أن أجنى ثمرها خيفة أن تضيع منى . ولكنى شعرت فجأة بدل النيران التى كانت تأكلنى ببرد قاتل ينساب فى عروقى فارتعدت رجلاى وجلست أبكى كأنى الطفل .

« من ذا يستطيع أن يعرف سبب بكائى وما مر برأسى فى هاته اللحظة ؟ إنما قلت فى نفسى : هذا المتاع الذى أصرفه هو أبهى ما أبدعت الطبيعة وأنتج الحب . فعقلها وجسمها وكل ما فيها كامل وطيبها وكرمها يوازيان جمالها ورقتها . يجب أن يكون الكبراء والأمراء عبيدها وأن تكون الصوالج تحت أقدامها . مع

هذا فها هى ذى متجولة بائسة مسلمة إلى الكافة يلهو بها ربان مركب تجارية ثم تجىء وتلق نفسها بين يدى وهى تعلم أنى لست شيئاً » .

فى هاته الكلمة روح جديدة لم تكن معروفة قبل روسو . روح العطف على المرأة الساقطة . وهى روح ما كان لغير ابن الشعب الشريد روسو أن يلمسها أو أن يحس بها وسط جمعية ذلك العصر المترفة الدعية . وما كان لغيره من الهيابين للفضائل المقررة أن يتقدم بها بهذه القوة . فلما نشرها امتدت وتشعبت بمقدار امتداد الرومانتزم وتشعبه .

ورجع روسو من البندقية إلى باريس وجعل يعرض شكواه على ذوى الأمر فلم يحفل بشأنه أحد ولا أصغى لشكواه إنسان . فثارت نفسه واشمأز من الظلم المبنى على المبادئ الحكومية لذلك الوقت . وصمم تصميماً أخيراً على ألا يشتغل فى السفارات ما عاش . ورجع إلى البيت الذى أقام فيه من قبل بشارع (سان كنتان) وشرع فى إتمام روايته « الشيطانات الرقيقات » .

حدث فى ذلك الحين أمر كان له أكبر الأثر فى حياة روسو ، فقد عرف فتاة كانت معه فى النزل تدعى « تريزلفاسير » شاركته بعد ذلك حياته وظلت معه حتى يوم وفاته .

جاءت تريزلفاسير إلى النزل فاستلفتت نظر الحاضرين بما ظهر على شكلها من بساطة أهل الريف وبلههم . لكن روسو أعجب منها بتواضعها ورقتها . فلما جعل الحاضرون يمزحون معها ويغازلونها أخذ هو على عاتقه حمايتها والدفاع عنها . وسرعان ما تعلق بها وخالطها وجعل منها الشطر الذى خلق له من يوم خلق الحياة .

وتريزلفاسير ابنة تمتهن تنظيف الملابس وغسلها وأمها تاجرة صغيرة فى أورليان وكان أبوها عاملاً فى دار المسكوكات ثم تدهورت حاله وترك وظيفته .

لم تثن هذه المعلومات من عزم جان جاك على ضمها إليه . بل لقد وجد فيها الشخص المكمل له والذى لا غنى له عنه . وهذا برغم عقلها الذى بقى على فطرته لا يعلق به تهذيب ولا تقيده تربية : « ولست أخجل حين أعترف أنها لم تحسن أبداً القراءة وإن كانت تكتب كتابة مقبولة . ولما أقمت فى شارع (بتى شان) كان مقابل نوافذى فى قصر (بونتشارترن) ساعة كبيرة جاهدت أكثر من شهر لأعلمها فيها معرفة الوقت وهى الآن لا تكاد تعرفه . وما استطاعت يوما

أن تفهم نظام الاثنى عشر شهرا السنوية . وهى لا تعرف رقما واحدا برغم المجهودات التى أنفقت لإفهامها الأرقام فلا تعرف عد النقود ولا ثمن شىء ما . والكلمة التى تنطق بها هى أغلب الأمر عكس ما تريد أن تقوله . على أنها برغم مبلغها هذا من الغباوة – بل من البلادة إذا أراد القارئ – فبها نصائح ثمينة فى أحرج الأوقات . وكثيراً ما رأت ما لم أره أنا أيام كانت تحيط بى الخطوب فى سويسرا وإنجلترا وفرنسا . وكثيراً ما انتشلتنى يومئذ من أخطار كنت أقدم عليها إقدام الأعمى . ولقد أكسبتها إحساساتها وحسن نظرها وسلوكها الاحترام العام أمام أرقى السيدات وأمام الكبراء والأمراء كما سمعت أنا من أجلها ثناء ظاهراً إخلاصه » .

هذه هى المرأة التى شاركت روسو حياته وهذا هو حكم روسو عليها .

ولقد استثارت هذه الحادثة فى نفس جميع الذين كتبوا عنه الأسف على هذه الرابطة غير اللائقة به ، والتى كانت تعيسة الأثر فى مستقبله . ولم يخرج على هذا الرأى إلا جول لمتر الذى يرى المسألة طبيعية بالنسبة لشخص روسو ولمركزه . ولا يفوت القارئ أن جول لمتر أشد النقاد كراهية لروسو وحقداً عليه حتى ليخيل لك حين تقرأ الكتاب الذى حوى محاضراته عنه أنه معاصر منافس له مع أن روسو ابن القرن الثامن عشر ولمتر لم يمت إلا عام ١٩١٤ . لذلك فإن تقديره بالنسبة لهذه المسألة كتقديره فى غيرها موضع للطعن والتزييف .

والذى لا شك فيه مطلقاً أن هذه العلاقة بين روسو وتريز كانت من أتعس ما منى به روسو فى حياته وبالأخص فى أخرياتها . فلقد بقيت أمراضه النفسية كميله للوحدة وسوء ظنه بالناس وعدم ثقته بأحد منهم تقوى حتى وصلت به أخيراً إلى الجنون . فلو أن رفيقة حياته كانت غير هاته البلهاء لما وقع فى كل هذا التعس الشنيع . كذلك فقد كانت رابطته بها سبباً لأكبر الجرائم التى ارتكبها فى حياته – إن كان قد ارتكبها حقيقة – جريمة التنازل عن أولاده لملجأ اللقطاء .

أما عن أثرها فى كتاباته فلا ينفى أحد ما لمعاشرينا وأصحابنا علينا من الأثر فى الإحساس والتفكير وبالتالى فى طريق نقلهما بالكلام والكتابة .

دخلت تريز إلى نزل سان كنتان واستحقت لبساطتها وشدة حيائها حماية جان جاك الشديد الحياء الكثير الخجل . وتعارفا وتحابا . ووعد جان جاك أنه لن يتركها ولن يتزوجها . ولما أخبرته فى خجل بأن شابا استغواها عن نفسها مبتدأ

الشباب لم يكن منه إلا أن صاح إنها كذلك أحب إليه . وفى قليل من الزمن توثقت المعرفة بينهما وأصبحت محبوبته ورفيقته .

وبعد أن فرغ من أوبرا (الميزجالانت) عرضها على مدام (دلابيلنيير) لتعرضها على أستاذهما « رامو » كبير كتاب الموسيقى فى ذلك العصر . فحكم بأن بعضاً منها يستحق الإعجاب فى حين يدل الآخر على جهل مؤلفه جهلاً مطبقاً فى الفن . فلما سمعت ربة البيت حكم أستاذها اعتبرته آية لا سبيل لنسخها أو تبديلها . لكن ريشليو ، وكان يكثر التردد على مدام « دلابيلنيير » ، أعجب بأوبرا روسو حين سمعها ووعد أن تمثل فى البلاط فى فرساى . وقد مثلت بالفعل وطلب الملك أن يقدم روسو إليه . فاعتذر بما هو عليه من سوء فهم نظام الاجتماعات الراقية وكان يومئذ قد لزم عيش التقشف والزهد وانقطع لتريزلفاسير .

ولشدة ما أعجب ريشليو بأوبرا روسو فقد عهد إليه ليصلح شأن أوبرا كان فولتير قد وضع شعرها ووقع موسيقاها « رامو » نفسه . فقام بذلك برغم المصاعب التى كانت محيطة به من مرض وفقر واحتفظ جهده بكل ما يمكن الاحتفاظ به من عمل المؤلفين ، ومع ما أنفق فى عمله من عناء فقد غمطه « رامو » واجتهد فلم يترك لاسم هذا المنافس الجديد أن يظهر فى « أعياد رامير » .

ولقد أثر هذا العمل فى نفس روسو حتى أمرضه وألزمه الفراش فبقى فى بيته ستة أسابيع لا يفارقه . ولم يتمكن من مقابلة « ريشليو » بعد ذلك فضاعت عليه أتعابه وضاع عليه وقته ولم يستفد من عمله فلساً فى وقت كانت يده قد خلت من الأصفر والأبيض . ولولا ما خصه من ميراث أبيه الذى توفى حوالى ذلك الحين لوقع فى أشد الضنك والبؤس .

« ومضى الوقت ومضى النقد معه . وكنا اثنين بل أربعة بل سبعة أو ثمانية . ذلك لأنه وإن كان إخلاص تريز لا مثيل له فإن أمها لم تشاركها إياه بل كانت كلما رأت أمر ابنتها صلح بعض الشىء جلبت كل عائلتها يقاسمون تريز صلاحه . فيجىء إخوتها وبناتها وأبناؤها وحفدتها خلا كبرى بناتها التى كانت متزوجة . وبذلك تختلس الأم منها كل ما أعمله أنا لها ولمصلحة هؤلاء الجياع . . وعجيب أن تكون صغرى بنات مدام لفاسير والوحيدة التى لم يمهرها أبواها ، هى الوحيدة التى تقوم على أمها وأبيها وتطعمهما . ثم أن يسرقها إخوتها وأخواتها . بل بنو أخواتها

بعد أن ينالوها بالضرب والأذى ولا تستطيع التخلص من ضربهم ولا دفع سرقتهم » .

ولم ييأس من كل معونة من جانب ريشليو ومدام دلابيلنيير وفيما هو فى همه وشجنه لخلو ذات يده صادفته عناية مدام دوبن والمسيو فرانكى فاتخذاه سكرتيراً لهما ورتبا له تسعمائة فرنك فى السنة وأنقذاه بذلك من مخالب الفاقة . وكان فرانكى يدرس الكيمياء فى ذلك الوقت وأعد لها فى بيته معملا . فاستفاد روسو درسها معه وصارت عدة جديدة فى جعبة معلوماته المملوءة بأغرب الأشياء وأكثرها اختلاطاً بالأدب والتاريخ والموسيقى والرياضيات والطبيعيات .

وانتقلوا وانتقل معهم من باريس إلى قصر بديع فى « شننسو » . قصر ملكى بنى على نهر الشير أقامه هنرى الثالث لتسكنه محبوبته « ديان دوبواتييه » الجميلة . وأمضوا الخريف هناك بين قصف ولهو وطرب . فكان روسو يكتب الروايات يقوم بتمثيلها المتنزهون أنفسهم . وقضوا زمناً حلواً زمن هناء وسعة . فلما رجع روسو إلى باريس وجد تريزلفاسير حبلى .

هنا تبدأ سلسلة الجرائم التى ارتكبها بإلقاء خمسة أبناء تباعاً فى ملجأ اللقطاء . وقد اعتذر روسو عن جريمته هذه بسفسطات طويلة سنذكرها للقارئ من غير تحيز . ولكنا نشير قبل ذلك إلى الخلاف القائم بين المؤرخين بشأن أبناء روسو .

تقدم بنا القول أن جان جاك كان مريضاً باحتباس فى المثانة . فلما رأى أنصاره والمعجبون به فظاعة هذه الجريمة لم يتصوروا صدورها من رجل إن كان قد تدنس فى صغره باختلاسات وأكاذيب فإن حياته كانت كلها حياة فضيلة مطلقة . فقال بعضهم إن ما اعترف به روسو إنما هو من أكاذيبه وإنه لم يخلف فى الحقيقة ابناً لأن مرضه أعقمه . وإنما ألجأه لاقتراف الكذب ما كان هو عليه من شدة الميل للنساء . فكان يخشى إن هن عرفن عقمه صدفن عنه ولم تقبل منهن واحدة عليه .

وقال آخرون إن روسو لم يقل فى اعترافاته إنه رأى أبناءه وإنما قال إن مدام لفاسير أم تريز هى التى كانت تخبره بخبر الحمل وهى التى كانت تأخذ على عاتقها إيداع الطفل عند ميلاده ملجأ اللقطاء . ومعروف أن مدام لفاسير كان لها مصلحة فى توثيق صلة روسو بابنتها لكى تستمر فى استغلاله . فكانت تكذب عليه بادعاء الحمل على ابنتها ، والدليل على ذلك أن تريز كانت تقضى

الكثير من وقتها فى صحبة السيدات من صاحبات جان جاك روسو أمثال مدام دوبن ومدام دلكمسبور ولم تلاحظ إحدى هاتيك السيدات الحمل مرة بل هن جميعاً يقررن أنهن إنما علمن بأبناء جان جاك روسو منه وحده ولم يعلمن بهم من أى طريق آخر .

ورأى ثالث أن تريز حملت حقيقة ولكن من غير جان جاك . وإذن فجريمته أقل فظاعة لأنه لم يكن يحس فى أعماق قلبه بهذا الإحساس الأبوى المملوء حناناً على الابن الذى ولد ولم يره أبوه .

هذه هى الآراء التى عرضت فى الموضوع . وعندنا وقد عرفنا جان جاك وأخلاقه وضعف إرادته وقلة اعتداده بالفضائل لكثرة ما مر به من المحن . إنه سواء كانت تريز حملت منه أو من غيره أو لم تحمل فإنه كان يعلم حقاً أو باطلاً أنها حامل ويرضى بعد علمه بالأمر أن يوضع الابن فى ملجأ اللقطاء .

وأما تبريره لعمله هذا فيختلف بمضى الزمن وتعاقب الأبناء .

وإنا نعتقد أن الجريمة مهما تكن كبيرة فى ذاتها فإن ما عرفناه حتى الآن عن حياة روسو المتشردة التى جعلته أقرب لأن يكون من اللقطاء من أن يكون من عائلة خاصة هى التى هونت الأمر على نفسه وهى التى تجعله أقل مسئولية عن عمله . وهذا هو السبب فى أن المعاذير التى قدمها عند ارتكابه هذا الأمر للمرة الأولى لم يكن فيها أى شىء من معنى الأسف أو الألم . وإنا سنوضح كل عذر قدمه فى الوقت الذى قدمه فيه .

رجع من شننسو ووجد تريز حاملاً . وكان فى ذلك الوقت يأكل فى مطعم عند الأوبرا يجتمع إليه أخلاط من الشبان زمراً .

« وقد عرفت هناك نوادر مضحكة . . عن أزواج خانهم نساؤهم ونساء غرر بهن ، وميلادات خفية . وكان من يحكى عنه أنه أكثر من غيره إيراداً فى تعمير ملاجئ اللقطاء موضع إعجاب مستمر . فاقتنعت بذلك وكونت فكرتى على مثال ما رأيته شائعاً عند قوم على جانب عظيم من الرقة والطيبة وقلت فى نفسى : مادامت تلك عادة البلاد فى طاقة الإنسان اتباعها مادام عائشاً فيها : وكذلك اخترت هذه الطريقة وصممت على إنفاذها بلا اكتراث ومن غير أن يعرونى أى هم » . وأعطى الطفل بعد ميلاده إلى مدام لفاسير فأودعته فى ملجأ اللقطاء .

وبعد سنة حملت تريز مرة أخرى وأرسل ابنها إلى ملجأ اللقطاء ولم يعر روسو المسألة اهتماماً أكثر مما أعار سابقتها ولا هو أسف أو تألم ولا عد فى عمله ما يوجب الرجوع عنه .

وفى سنة « ١٧٤٨ » عرف روسو مدام « دبناى » . أحدث التعارف بينهما المسيو « فرانكى » وزوجته وكان بينهما وبين هاته السيدة صلة متينة . وكانت مدام « دبناى » موسيقية قادرة . لذلك ولحسن علاقة روسو بمدام فرانكى بدأ شىء من الود بينه وبين صاحبته الجديدة وسهل له ذلك طريق معرفة الكومتس « هودتو » وأن تخاطبه طويلاً ليلة زفافها .

ألا يرى القارئ غريباً أن ينتقل روسو من عند رفيقته تريزلفاسير وهى على ما عرف من بله وجهل ومن بين أخواتها وأمها وكلهم وضيع حقير فيذهب إلى بيت السيدات « دبناى » و « هودتو » و « بزنفال » و « دوبن » ومثيلاتهن من العظيمات والكبيرات . ثم ألا يرى غريباً كذلك أن يتصل به بعضهن حتى يتركن فى حياته أثراً غير ضئيل وهن يعلمن أنه ذلك المتشرد الذى قطع كل شبيبته متنقلاً كما يعلمن أنه قضى شطراً منها عشيقاً لمدام دفارانس ؟

فهل سر ذلك كله أن الشاب الذى يصل باريس بطلعة وسيمة ومواهب واستعداد واثق دائماً من أن يجد القبول الحسن ؟ . . قد يكون ذلك . ولكن الذى لا شك فيه أن هذه الثقة إنما خلقها حال الجمعية الفرنسية فى ذلك العصر . وإنا لنرى واجباً أن نشرحها بعض الشىء حتى يكون لنا بها بعض الدراية والعلم فنتتبع روسو فى حركاته الفكرية والكتابية التى هو مقدم عليها .

كانت فرنسا فى القرن السابع عشر مثال الملكية المستبدة المطلقة السلطة . فكان الشعب صفراً لا وجود له ، وكان لويس الرابع عشر كل شىء إليه يرجع الأمر والنهى وعنه تصدر كل حركة من حركات الحياة فى البلاد . ولقد كان من العظمة بحيث أصبحت عبادته الصورة البارزة للإحساس الأمى . وكان الناس يقدسونه ويعتبرون فيه الحافظ على فرنسا ثروتها وعظمتها ومجدها .

ولما كانت الطبقات العالية من الأشراف هى التى تشتغل عادة إلى جانب الملك بأمر المصلحة العامة وكان لويس قد أغناها عن هذا الاشتغال باستئثاره بالسلطة فقد تيسر لأهلها فراغ من وقتهم لم يجدوا ما يملؤونه به إلا التقرب

والزلفى للكهم العظيم . فكان الواحد منهم ينتظر على باب غرفة الملك بلا ضجر ولا ملال من الصباح إلى المساء ، ويحس بأعظم السرور إن هو صادفته منه نظرة ود أو ابتسامة عطف . والملك فى عظمته لا يجود بشىء من هذا إلا على من خصهم بالقربى . لذلك فلم يكن ليصد الشريف عن الوصول إلى هذا المقام اعتبار من الاعتبارات . فهو يتقرب لكل شخص يرى فى تقربه ما يقربه إلى الملك . يتقرب لخادم الملك كما يتقرب لوزيره ويتقرب لمعشوقاته ولوصائف معشوقاته بل ولخدمهن إن أحوجه الأمر . وبيّن ما يوصل ذلك من الصغار إلى النفس وما يعودها عليه من النفاق والضعة .

وكان لويس متديناً فكان كل شعبه متديناً . كان الكتاب والعلماء والفلاسفة متدينين . وكان كل منهم يخصص مواهبه ليعلى من شأن الكثلكة وليزيد فى عظمة دين الملك العظيم . فصرف بوسويه وفنلون وأضرابهما كل قوتهم وبلاغتهم لإظهار عظمة الكثلكة وقوتها ، وكان الأدب الدينى قوام أمهات كتب النشر كما كانت الفصاحة الدينية هى فصاحة كل ذلك العصر . ولم يتعرض أحد مطلقاً للنظر فى قواعد الإيمان ولا ارتفع صوت لمهاجمة سلطان الكنيسة الزمنى . بل كانت كتابات الفلاسفة إنما تسعى لتزيد فى قوة كتابات الأدباء . وديكارت الذى بدأ مذهبه بنقض كل مذهب وبنيان كل شىء على أساس التفكير من جديد إنما كان يرمى ليصل إلى إثبات الإله ولا يتعرض بشىء للكنيسة .

وكان للصالونات التى أقامتها يومئذ مدام دمنتنون ومن حذا حذوها من السيدات أثر هائل على الأدب . فقد كان هم الشعراء إرضاء الملك . ورضا الملك يستلزم رضا صاحباته ومن حولهن . على أن سلطة الصالونات لم تكن مستبدة ولم يتأثر بها أجمل ما فى أدب راسين وكرنى وغيرهما . ولم يكن أدب كبار الكتّاب جميعاً أدباً دعياً ، بل كان أدباً إنشائياً (كلاسيك). والذوق الإنشائى هو ما جمع بين التعقل الوضعى والإحساس بالجمال .

ومن مميزات هذا الذوق الإنشائى أخذه بالعموميات وعدم ميله للدخول فى الدقائق أو اجتلاء الأحوال الغامضة والمسائل الاستثنائية والاكتفاء بالنتائج التى ينتجها المنطق البحت . ومن هنا جاء أن أشخاص روايات القرن السابع عشر على

عظمتهم العقلية لا يمثلون أحياء متحركة وإنما هم يمثلون أفكاراً بحتة لها ميزة الذهاب والجيئة معهم على المسرح .

على أن عظمة القرن السابع عشر كانت تتآكل لكثرة ما كانت تنفق من الجهود . وملكه العظيم كان يرهق الأمة وكأنه كان يظنها ستنتهى بنهايته فما أزفت ساعة لويس حتى كانت فرنسا منهوكة بالحروب والدين والترف وحتى كانت الكنيسة قد بدأ يداخلها الضعف . والغريب أن ما كان سبب عظمتها بالأمس هو الذى أعده لها خصومها ليكون وسيلة القضاء عليها . فقد استفادت اللادينية من مناقشات بوسويه وفنلون واتخذتها سلماً للطعن فى قضايا الدين ، وسرعان ما ارتاحت النفوس إلى الفكاك مما كانت فيه من أسر وانضمت إلى فولتير وطائفته لتتنفس بعيداً عن ذلك النفاق الدائم الذى اضطرها استبداد لويس للالتجاء إليه خوف غضبه ورجاء رضاه .

وبتدهور السلطة المستبدة وانحدار سلطان الكنيسة المطلق ابتدأ خذلان طائفة الأشراف التى كانت تعيش فى كنفهما . وبذلك ابتدأ القضاء المطلق على جميع قوى الحكم القديم .

وجاء القرن الثامن عشر معادياً للدين قاتلا لكل العقائد نافياً لكل العادات السابقة ثائراً ضد سلطة الفرد مطالباً بحال أحسن .

غير أن البناء الاجتماعى لما يخر صرحه . والنظام الذى كانت تسير عليه فرنسا القرن السابع عشر ورثته فرنسا التى خلفتها وتوسعت فيه . وبدل أن تقتصر الصالونات على جماعة سيدات البلاط فقد امتدت إلى مدام ديرتفال ومدام دوبن ومدام دبناى وأضرابهن من اللواتى أحلتهن السعة مكاناً أطلق لهن الحرية فى هذا النوع من الحياة . ورجع كتاب هذا القرن الجديد إلى هاته الصالونات وتركوا البلاط وما معه بعد أن خلفه لويس العظيم خلواً من العظمة .

إلى هذا الوسط غير المتدين الطاعن على العادات والعقائد ، المدعى لنفسه من غير أن يكون من البلاط أخلاق أهل البلاط ، المتطلع إلى جهة العلم بدل أن يخضع إلى سلطان الكنيسة ذهب جان جاك روسو البروتستانتى الأصل، الكاثوليكى المنقلب ، المتوقد الخيال ، الميال للوحدة ، العاشق للطبيعة البكر ، العاجز عن الظهور فى الجمعيات ، المصاب بالآفات والعلل . وصل فوجد من حسن الاستقبال

ما أذهب عن نفسه بعضاً مما كان بها من اليأس وفتح أمامه متنفساً من الأمل في الحياة .

ولكنه على تقدمه إلى الأربعين من سني حياته لم يكن قد اطمأن إلى نوع خاص من أنواع العيش . وكأن نفسه القلقة لم تكن لترضى بالنجاح الجزئي الذي ناله في الموسيقى وفي التعليم فكانت دائبة تطلب الكمال ولكنها لم تكن قد وفقت إليه بعد .

تركنا روسو عند مدام دبناي ومدام هودتو . وهناك زادت صلته بصاحبه القديم ديدرو وقويت رابطتهما . كذلك عرف (كندياك) وصار يصحبهما كل أسبوع لتناول طعام الغداء في مطعم (البانييه فليرى) مجتمع الشعراء والكتّاب . ولقد بلغت الصداقة فيما بينه وبين ديدرو حتى اتفقا على إصدار صحيفة باسم Le Persifleur أي الساخر . لكنهما لم يظهرا منها إلا العدد الأول . وسبب ذلك أن ديدرو ودالمبير اتفقا على القيام بعمل (الانسيكلوبيديا) فشغل ديدرو بها عن صحيفته . وشغل روسو كذلك حيث كلفه بكتابة القسم الخاص بالموسيقى .

على أن هذا العمل مع الأسف لم يستمر . فإن ديدرو نشر (كلمة عن العمى لفائدة من يبصرون) ضمنها ما جرح مدام (ديرى دسان مور) والمسيو (ريومير) فأخذ وحبس في سجن فانسن .

وكانت كلمة روسو عن الموسيقى آخر ما كتبه ولم ينل أي شهرة . على أن إكثاره من الكتابة مدة إقامته بباريس أعاد إليه ما علق بذهنه من قراءاته الطويلة السابقة وأعده لينال المكان الذي احتله في عالم الأدب من بعد ذلك .

٤

لما اعتقل ديدرو في حصن فانسن عكف روسو على منازل صويحباته يشتغل معهن بالموسيقى ويستفيد منهن معرفة أصدقاء جديدين . ثم انتقل من باريس إلى (فشناى سو ربوا) مع البارون دلابيلنيير وفيها عرف الألمانيين (كلبفل) و (جرم) وظلت جماعتهم زمناً متمتعة في القصر الجميل الذي نزلا به .

فلما رجع إلى باريس علم أن صديقه ديدرو قد سمح له بالانتقال من الحصن إلى حديقته ، وبأن يستقبل أصدقاءه . فجعل يذهب إليه وحيداً أحياناً ، ومع زوجة ديدرو أحياناً أخرى .

ولما كان صيف تلك السنة (١٧٤٩) قائظاً ولم يكن روسو في حال من السعة تسمح له بالذهاب في عربة فقد كان يأخذ معه كتاباً يتسلى بقراءته في أثناء الطريق . فإذا بدا عليه التعب جلس في ظل شجرة حتى تعاوده قواه فيعاود المسير .

وفيما هو في بعض هذه الرحلات وقع نظره في مجلة (المركير دفرانس) على مسألة طرحتها أكاديمية ديجون لتكون موضع السبق لمن يطمع من الكتاب في جائزتها السنوية . هذه المسألة هي ما إذا كان من أثر العلوم والفنون أن أفسدت الأخلاق أو أصلحتها .

« وساعة قرأت هذه المسألة رأيت عالماً آخر وأصبحت رجلاً آخر . . فلما وصلت إلى فانسن كنت في حالة من التهيج تكاد تصل إلى الدوار . ولاحظ ديدرو ذلك فأخبرته السبب وقرأت عليه ما مر بخاطري وما كتبته بالقلم الرصاص تحت شجرة من أشجار البلوط . فحضني على استكمال أفكاري والدخول في المسابقة .

« ولقد قمت بالعمل في كتابة هذا « الخطاب » على طريقة غريبة اتبعتها بعد ذلك في معظم كتاباتي . فلقد خصصت له ساعات أرقي وكنت أفكر فيه في سريري وعيوني مغمضة . فإذا ما نضجت الفكرة في رأسي ووصلت إلى حد الرضا عنها أودعتها ذاكرتي منتظراً الوقت الذي أضعها فيه على الورق . لكن ما كان يضيع من الزمن في قيامي وفي ارتداء ملابسي كان كافياً لينسيني كل شيء

فإذا جلست إلى أوراقي لم يبق في رأسي قليل مما كان من قبل فيها . فاتخذت مدام لفاسير سكرتيراً لي وجعلت أمليها حين وصولها لتوقد ناري في الصباح ما أتممته في أثناء الليل . ولقد أنجدتني هذه الطريقة التي اتبعت زمناً طويلاً من خطر النسيان » .

أما الأفكار التي أخبر بها صديقه ديدرو فحضه على استكمالها فهي الأفكار التي نادى بها من بعد ذلك طول أيام حياته وأساسها الطعن على الجمعية المدنية والنداء للرجوع إلى الحالة الطبيعية واعتبار العلوم والفنون مصائب وأهوالاً انصبت على رأس الإنسانية .

ولسنا نعجب مطلقاً أن نرى روسو بعد الذي عرفناه عنه يختار هذا الطريق طريق الطعن على العلوم والفنون . فإن العلوم والفنون أثر من آثار الاجتماع بل هي زينته وتاجه . وروسو لم يكن ليصادف أي نجح في الاجتماع . والفنون ومنها الموسيقى مصدر عظمة وثروة لكثير من الناس . وقد لاحظنا أن روسو صادفه النحس المستمر فيها . والترف الذي كان من مظاهر الحياة يومئذ كان منظوراً إليه بعين غير طيبة من كثيرين اعتقدوه مصدراً لشقاء بلادهم ، ولكنهم ضعفوا عن إظهار آرائهم أمام رأي عام ميال بكله للترف . ولم يكن روسو وهو الأجنبي عن فرنسا في ذلك الموقف ولا كان يهمه مع ما اشتهر من غرابته ومخالفته للناس في كل أموره ما يطعن به الناس عليه . لذلك كان هو الرجل المعين للقيام بالصيحة في وجه الترف وما أنتجه من العلوم والفنون .

هذا هو اعتقادنا وهو اعتقاد كثير من الكتاب . مع ذلك فقد روى ديدرو بعد أن تمت القطيعة بينه وبين جان جاك أنه هو الذي أوحى بالفكرة لروسو حينما جاءه في فانسن واستشاره عن الطريق الذي يختار . وشارك ديدرو في هذا القول جماعة من خصوم جان جاك .

ولقد عارض روسو الرجل الطبيعي المسترسل مع فطرته السعيد في جهله القانع من حياته بما حوله بالمتمدين المترف المدعي لنفسه التفوق في العلوم والفنون ، وقرر « أن نفوسنا تفسد بمقدار تقدم علومنا وفنوننا إلى جهة الكمال » والتجأ لإثبات ذلك إلى التاريخ متخذاً المثل من المصريين واليونان والرومان وغيرهم وما كان هؤلاء عليه من الشجاعة والكرم والنجدة والرقي في كل ما يتعلق بأخلاقهم .

ثم استظهر ما عليه أهل زمانه المنغمسين في الشهوات المتربعين في دست الملاذ الملوثين في حمأة اللهو وأدران التمدين « وكذلك كان الترف والانحلال والرق في كل زمان الجزاء الأوفى للمجهودات المتغطرسة التي صرفناها للخروج من الجهالة السعيدة التي اختارها لنا العقل الأزلي » .

والذي لا ريب فيه أن ابن الطبيعة الذي يدعو إليه روسو ويضربه مثلاً أعلى للإنسان إنما هو روسو الفطري الشهواني الأناني الضعيف العاجز عن أن يتبع قانوناً سوى ما يوحي له به قلبه من الإلهام الوقتي . هو ذلك المتشرد القديم القليل المعرفة بالحياة المدنية البالغ من الخجل منتهى درجاته . والجمعية على النظام الطبيعي إنما هي تلك الجمعية التي رآها في قرى سويسرا والتي هي منتهى ما يتصوره خيال رجل من العامة عدو للترف شديد الإعجاب بحياته البسيطة التي يستهين بها الرأي العام المدني ويحكم عليها بالانحطاط .

ولقد عزا روسو العلوم في أصولها إلى نقائص الإنسان . « فأصل الفلك الطيرة ، وأصل الفصاحة الطمع والكراهية والنفاق والكذب ، وأصل الهندسة البخل ، وأصل الطبيعة الطلعة الكاذبة ، وأصل كل العلوم والأخلاق التي ترتبت عليها إنما هو الكبرياء الإنسانية » .

وكذلك كان من أثر العلوم والفنون إضاعة الوقت وزيادة الترف زيادة نشأ عنها ضياع الفضائل المجيدة التي كانت شائعة بين الأمم القديمة ، كذلك كان من أثرها ضعف النفوس وخمود روح الحرية فيها .

« انظروا إلى مصر مدرسة العالم ذات الجو الخصب والسماء الصافية ، انظروا إلى هذه المملكة المجيدة التي خرج منها سيزوستريس ليحكم العالم . فإنها ما لبثت أن أصبحت أم العلوم والفنون حتى أغار عليها قمبيز ثم اليونان ثم الرومان ثم العرب والترك أخيراً » .

« وانظروا إلى اليونان التي كانت من قبل مسكن الأبطال الذين هزوا آسيا مرتين . مرة حين شنت فارس الغارة على طروادة والثانية حين غزا اليونان الآسيويين في عقر دارهم ولم تكن الآداب قد أفسدت بعد نفوس الغزاة . لكن تقدم الفنون وتحلل الأخلاق ونير المقدونيين تعاقبت كلها فلم تكسب اليونان من ثوراتها بعدما تورطت في علمها وشهواتها وعبوديتها إلا تغير المتحكمين في أمرها

وعجزت كل بلاغة ديموستين عن أن تجدد الحياة فى جسم هزله الترف وأنهكته الفنون » .

هذا كان شأن مصر وشأن اليونان . تدركت إلى المذلة والهوان على سلم العلم والفن بعد أن كانت فى جهالتها الطبيعية السعيدة جالسة على عرش المجد والأنفة . دب إلى جسمها القوى الصحيح مرض هو أقتل الأمراض للجمعيات . مرض التفكير . وساقها نحس الطالع أن تشعر بحاجات العقل بعد أن كان كل همها مقصوراً على حاجات الجسد . ومظهر حاجات العقل العلوم والفنون والآداب . وهذه وإن تك أقل استبداداً من مظاهر القوة التى تحفظ على الجسوم أمنها وسعادتها فإنها « تنشر باقات الزهر على ما يثقل الناس من أغلال الحديد وتخمد فيهم عاطفة الحرية التى ولدوا بها وتحبب إليهم رقهم وتجعل منهم ما يسمونه الشعوب المنظمة » .

وقد أصاب روما وأصاب القسطنطينية وأصاب كل أمة اندست إليها جراثيم العلوم والفنون ما أصاب مصر وما أصاب اليونان . بل لو جاء عظماء رجال هذه الأمم يوم كانت العظمة الحقة فى البقاء فى أحضان الطبيعة الجاهلة ورأوا ما لحق بأهل بلادهم لولوا عنها وجوههم ثم لولوا مدبرين هما ونكداً .

« إيه فابرسيوس . ماذا كان يجول بروحك العظيمة لو بعثك نكد الطالع مرة أخرى إلى الحياة ورأيت الصورة البديعة الحاضرة لروما التى أنجاها قديماً ذراعك وخلد لها وقار اسمك من الفخار أكثر مما أقامت لها كل غزواتها من المجد ؟ إنك كنت لا شك تقول : يا آلهة السماء . ماذا أصاب هذه السقوف وتلك المنازل الريفية التى كانت مستقر التواضع والفضيلة فى الماضى . أى فخامة متعوسة عقبت البساطة الرومانية . ما تلك اللغة الغريبة عنا وما هذه الأخلاق المخنثة . أى معنى لهذه النصب والتماثيل والصور والقصور . ماذا صنعتم بهؤلاء المجانين أصبحتم وأنتم سادة الأمم عبيد الرجال الطائشين الذين أخضعتم . أهم الثرثارون الذين يحكمونكم . وهل ليثرى البناءون والنقاشون والنحاتون والمهرجون رويتم بدمائكم اليونان وآسيا . وهل تكون آثار قرطاجنة ملهى لزمار ؟ ! ألا عجلوا أيها الرومانيون فاهدموا هذه المسارح وكسروا تلك النصب وحرقوا هذه الصور واطردوا أولئك العبيد الذين يذلونكم وتفسد نفوسكم فنونهم المتعوسة . ذرو تعبر أيديكم

أن تجد فى هذه الأمور التافهة محلا لمجد . أما روما فلن يليق بها إلا أمر واحد . ذلك أن تحكم العالم وأن تحكم فيه الفضيلة . وليست العظمة الكاذبة ولا التأنق والرقة هى التى بهرت سينياس حين حسب مجلسنا مجمع ملوك لما رآه . كلا ولا هو سمع فيه تلك البلاغة التافهة التى يدرسها ويعجب بها سخفاء الرجال . وإنما بهر سينياس منظر لم يكن لغنائكم يا قوم ولا لفنونكم أن تقدم مثله . فقد شهد مجمع مائتى رجل فاضل جديرين أن يقودوا روما وأن يحكموا العالم » .

إذن فلم ير العالم فى مختلف ممالكه وعصوره إلا خزياً وانحطاطاً من وراء العلوم والفنون ولم ينتبه إلى التدهور والخذلان . فهل من دواء شاف لهذه الأمراض والعلل . هنا لا يتردد روسو فى الدعوة للرجوع إلى الحالة الطبيعية والنجاة من الترف الذى أفسد على الناس عيشهم ، وهو يضرب المثل باسبرطة « تلك المدينة المجيدة بجهالتها السعيدة فى مجدها ، تلك الجمهورية التى بلغ من رفعة فضائل أهلها أن كانوا أنصاف آلهة أكثر مما كانوا أناساً » . ولا شك عنده فى أن علم الفضيلة المرفوع أمام النفوس البسيطة سهل أن تعرفه من غير حاجة لمشقات العلوم والفنون وآثارها السيئة . « أليست مبادئ الفضيلة منقوشة فى كل القلوب ، وهلا يكفى لمعرفة قوانينها أن يرجع الإنسان إلى نفسه ويسمع صوت ضميره حينما تصمت فيه الشهوات ، تلك هى الفلسفة الحقة لو نعرف كيف نقف عندها : وليست الفلسفة أن نرتمى فى أحضان التفكير المذل وما يجىء على أثره من تعاسة وشقاء » .

والقارئ لا شك يرى معنا ما فى فكرة روسو من غرابة ، لكن ما سبق وصفه من حالة جمعية يومئذ وما كان فى أسلوب ذلك الخطاب من الحرارة والثورة غطى على ما نقصه من منطق دقيق وفكر رائق وجعل الناس يستقبلون هذه الكلمة التى وصفت أدواءهم ولو وصفاً خيالياً بالتهليل والإكبار . وفى لحظة ارتفع روسو من مركزه كموسيقى مجهول إلى مكانة عظيمة من الشهرة والإعجاب به .

ولقد اعترف له معاصروه بهذا النجاح الباهر . فقال ديدرو إنه لم ير نجاحاً مثله . وقال جرم إنه أحدث ثورة فى باريس . وقال جارا : حينئذ ارتفع صوت لم يكن صاحبه شاباً ولكنه كان مجهولاً من الناس تمام الجهل ، وارتفع لا من أعماق الصحارى والغابات ، ولكن من بين هاته الجمعيات والأكاديميات ومن خلال هذه الفلسفة التى ولدت أنوارها آمالاً عدة . . وباسم الحقيقة وجه هذا الصوت التهمة

أمام الإنسانية ضد الآداب والفنون والعلوم والجمعية نفسها . . ولم يكن الاشمئزاز منه عاماً كما قيل بل الذى كان عاماً هو الإعجاب به ونوع من الوجل منه .

ونال خطاب روسو جائزة أكاديمية ديجون وأصبح روسو من الرجال الذين يشار إليهم بالبنان . وانتشر خطابه وقرأه الناس فى جمعياتهم ولقى منهم ما قدمنا من الإعجاب . لكن أصواتاً أخرى ارتفعت ضده مظهرة ما فيه من الدعوة إلى الخراب والدمار وما يترتب على الأخذ به من الرجوع بالإنسانية إلى البربرية والوحشية . ومن النكات الدقيقة التى طعن بها عليه فولتير قوله : « لو أن الناس اتبعوا قول هذا الصائح لسرهم أن يمشوا على أربع » . وممن وجهوا إليه الطعن المر والنقد الشديد ستانسلاس ملك سردينيا . والمسيو بورد صديق روسو أيام مقامه بليون . والأستاذ جوتييه وغيرهم . وكان أساس مطاعنهم جميعاً تناقض ما فى الخطاب مع فكرة التقدم تناقضاً بيناً .

والحقيقة أن روسو لم يقصد الرجوع بالناس إلى ما يشير إليه خطابه . ولكنه رأى الإنسانية الوضيعة من جماعة العمال وأضرابهم تبعث صيحات ألم عرف مضاضتها لكثرة ما أصابه من مثلها ، فخيل له أن ما يشاهد من ترف الأغنياء وصلفهم إنما هو المصدر الوحيد لكل هذه الآلام ، وإن ذلك الترف والصلف إنما أقامته العلوم والفنون فاندفع منادياً ضدها طالباً زوالها رجاء زوال هذه الآلام والمصائب من غير تفكير فى وضع خطة لذلك بل ولا فى إمكانه .

ولما لم يكن يقصد هذه الرجعة إلى الوراء أحس بدقة المركز وحرجه حين وجهت إليه انتقادات خصومه . أتراه يصر على طلب العودة إلى الحالة الطبيعية وإعدام آثار تقدم الإنسانية ؟ ألا لئن فعل ذلك لرماه الناس طراً بالجنون ولحسبوا فى صيحته الأولى ادعاء كاذباً أكبر كثيراً مما تعزوه هى للعلوم والفنون من النقائص أينكص على عقبه ويرجع عن رأيه وينزل إلى حالته الأولى حالة الموسيقى المجهول ؟ وأين ذلك من خلق جان جاك المملوء كبراً وأنانية وغروراً . أيسكت أمام النقاد ؟ إن مركزه الجديد يتنافى مع السكوت . فعاد إلى نفسه ورجع يقلب موضوعه ويمعن الفكرة فيه باحثاً عن طريق للخلاص من الورطة التى أرادها له خصومه . ولقد استطاع ذلك بدقة ومهارة فاقت حرارته وثورته فى خطابه الأول وتمكن من تخفيف ما كان عنده من غلواء من غير أن يبين ذلك عليه ، كما استطاع الإحاطة بكل

فكرة من أفكاره وتحديدها . قال فى رده على ستانسلاس : « ثم ماذا . أفيجب علينا أن نلغى من الأشياء كل ما ساء استعماله ؟ أجيب من غير تردد : نعم وبلا شك يجب إلغاء كل ما لم يكن مفيداً وكل ما كان الإغراق فيه أكثر ضرراً مما يأتى به استعماله من الفائدة ، ولكن حذار أن نستنتج مما تقدم ما يوجب علينا حالاً أن نحرق كل المكاتب وأن نخرب كل المدارس الجامعة والأكاديميات فإنا إن فعلنا ذلك رددنا أوربا إلى الهمجية من غير أن تكسب الأخلاق من وراء فعلتنا شيئاً » .

إذن فلتبق المكاتب والمدارس الجامعة أى فلتبق العلوم والفنون . وإذن فالمطاعن الأولى لم يبق لها مكان . هذا ما يوحى به المنطق ، ولكن روسو لا يستطيع التقهقر إلى هذا الحد ، بل هو يعارض نظريته ويقصد إقامتها وإحياءها ، وما فى أسلوبه من الجرأة والقوة يساعده على التغلب على خصومه .

وفيما هو فى تفكيراته جاءته أفكار جديدة رسمت أمامه الطريق إلى العظمة الكتابية التى تنتظره . وأعظم هذه الأفكار أثراً فى رسم الطريق فكرة وجوب المساواة لإمكان السعادة . قال فى ردوده على ستانسلاس أيضاً :

« ربما قيل إن الترف والشرف ليس أصلهما العلم ولكنهما يرجعان فى كل زمان ومكان إلى الثروة . وما قلت إن أصل الترف العلم ، ولكنى قلت إنهما ولدا معاً وإن أحدهما لا يعيش إلا مع الآخر . وإليك كيف رتبت المسألة : فالأصل الأول للشر هو عدم المساواة ، وعن عدم المساواة تنشأ الثروة ، والثروة تولد الترف والفراغ ، والترف أصل وجود الفنون والفراغ أصل وجود العلوم » .

ودخل فى يقينه أن عدم المساواة هى مصدر كل شر فردد الفكرة فى ردوده كما وضعها أساساً لخطاب كتبه فيما بعد عنهما . ومن بديع ترديده لها قوله رداً على كلمة بورد : إن الصناعات التى تقدم مواد الترف هى مصدر من مصادر الحياة لكثير من العمال قال روسو :

« يطعم الترف مائة فقير فى مدننا ويكون سبباً فى هلاك مائة ألف فى القرى . وما يتداوله الأغنياء والفنانون من المال لوفاء ملاذهم مضيع لما يقيم أود عامل لا يجد رداء لأن غيره يلبس الذهب ، وأما ما يذهب ضياعاً من المواد المستعملة فى غذاء هؤلاء الناس فيكفى وحده ليجعل الترف بشعاً أمام الإنسانية . . فلكى ندخل

التوابل فى طعامنا لا يجد كثير من المرضى مرقاً . ولكى تكون الخمور على موائدنا لا يشرب الفلاح إلا قراحاً . ولكى نصلح من شعرنا لا يجد الفقير لقمة » .

وكذلك انتصر روسو على خصومه ، واستطاع أن يضم إليه العدد الأوفى من القراء ، وتربع فى دست عظمته ونظر إلى نفسه وفكر فى أمره فخيل له أن من الواجب إدخال التغيير على حاله .

على أن روسو نفسه قد اعترف بأن خطابه لم يكن من المتانة والدقة بحيث يستحق ما ناله من التحبيذ والإعجاب . وهذا اعتراف حق . فإن الخطاب فضلاً عن تناقضه المنطقى لم يثر مسألة جديدة ولم يخرج إلى عالم الأدب فكرة نادرة . فقد كانت الدعوة للرجوع إلى الحالة الطبيعية وللنزوع عن الترف المفسد منتشرة تناولتها أقلام عدة . فجاء بها مونتسكيو فى (مكاتيبه الفارسية) واستظهرها ماريفو فى (جزيرة الرق وجزيرة العقل) وكتب عنها بوفن وغيره وكان جميع أولئك ينزعون إلى الطعن على شيوع الترف شيوعاً مضعفاً للنفوس مفسداً للأخلاق . على ذلك فلم يكن من جديد فيا كتب روسو إلا الصيغة الكتابية وإلا الشطط فى الاستنتاج .

على أن الفكرة إن صحت هى بالغة فى التطرف . فإن ما يفسد الترف لا يتعدى طبقة خاصة من أغنياء أهل المدن . أما سكان القرى ومتوسطو الثروة من أهل المدن فلم يفسد عليهم الترف شيئاً لأنه لم يحلّ بين أظهرهم ، وهؤلاء أفادتهم العلوم والفنون أجل الفائدة ويسرت لهم سبيل السعادة بما فتحت لهم من كنوز الأرض وخزائنها ، وبما أوضحت لهم مافى الطبيعة من جمال وإبداع فهل من أجل هذه الأقلية المترفة الفاسدة يقوم إنسان فى وجه العلم والفن وكل ما أبدع العقل الإنسانى تلك القيامة السوداء .

لكن ما قدمنا من تطلع الوسط لمثل هذه الكتابات وما امتاز به أسلوب روسو من الرنة الخاصة هو الذى استلفت الأنظار إلى خطابه واستفز النفوس لمناصرته .

وكان روسو فى أثناء نظر خطابه أمام أكاديمية ديجون مهموما لما رآه على (تريزلفاسير) من آثار الحمل . ففكر هذه المرة فى طريقة أقرب للجد بشأن ذلك الابن المنتظر وقد أصبح مركزه الجديد بحيث يسمح له أن يكون أباً وأن يربى أبناءه . لكن الغريب أن تصميمه بعد التفكير الطويل انتهى إلى أن يرسل بالوليد الجديد

أيضاً إلى ملجأ اللقطاء . وحجته هذه المرة أن إرسال أبنائه للملاجئ العامة لتخرجهم عمالا وفلاحين خير لهم من البقاء معه لينالهم فى مستقبل حياتهم ما ناله من قبل من الشقاء والتعس ، ولتكون غايتهم التشرد والبؤس . ومهما يكن من وهن هذه الحجة أمام نظر الكثيرين فإن ما عرفناه عن حياة روسو وأخلاقه يجعلنا نميل لتصديقه فى إمكان تأثير هذا السبب عليه حتى ليحمله على ارتكاب عمل يعده غيره جناية ولا يعده هو شيئاً مذكوراً .

وفى ذلك الحين أراد المسيو فرانكى أن يجد لروسو عملا ،عرض عليه أن يشتغل كصراف فى المالية . وبعد تجارب لم تظهر معها أى كفاية له فى هذا العمل تركه منهوكاً مريضاً ولزم فراشه ، فلما أبل من مرضه راجعته فكرة تغيير حاله ورأى أن يهجر ما يسعى إليه الناس من ثروة وعظمة وأن يرجع إلى ما تقتضيه الحال الطبيعية من الفقر والبساطة ، وتسلطت هذه الفكرة على نفسه واحتلت مخيلته واستولت عليه وكثر ورودها وتحكمها حتى عجز عن مقاومتها. فبدأ بتغيير زيه وترك ما كان يلبسه أهل زمانه وارتدى رداء بسيطاً فازداد بذلك غرابة وازداد القوم به إعجابا ! » وأراد الناس معرفة ذلك الرجل الغريب الذى لا يبحث عن أحد ولا يهتم لشىء إلا أن يعيش حرًّا سعيداً على ما يريد فكان ما أرادوا كافياً ليمنع عليه طريق السعادة ، وبقيت غرفتى يملؤها جماعة الذين كانوا يجيئون بحجج مختلفة فيغتصبون وقتى منى ، ولجأت السيدات إلى حيل لا آنس لها لأكون على موائدهم فى العشاء . . . وهناك أحسست أنه ليس من السهل أن يكون الإنسان فقيراً مستقلا على نحو ما كنت أتصور » .

ولما ترك الوظيفة التى أراد فرانكى أن يشغله بها وفكر فى عمل يعيش منه حرًّا مستقلا متبعاً مبادئه لجأ إلى نقل الموسيقى . ولقد عانى هذه الحرفة من قبل وأعانته على الحياة سنين طوالا فجعل منها شغله من يومه هذا إلى آخر حياته .

فلما عرف الناس عنه ذلك تباروا جميعاً وتبارت السيدات خصوصاً يريدون اقتناء نوت موسيقية من قلمه مما زاد فى عمله حتى أصبحت كثرة الزيارات معطلة له عن القيام به وعن إتقانه . ففكر فى الابتعاد زمنا عن باريس وذهب إلى مركو زيس أمضى فيها وقتاً جعله على قصره يحس بما يضيع عليه من الوقت فى العاصمة . لهذا فلما دعاه صديقه وقريبه المسيو (موسار) للذهاب عنده فى ضاحية باسى لم يجد من ذلك

بأساً . ولا رأى فيه أية غضاضة . وهناك قضى وقته بين نقل الموسيقى وعملها وترتيلها .

وفيما هو يتحادث مع مضيفه عن الموسيقى التى رأياها معاً فى إيطاليا خطر له أن يضع (أوبرا) على نسق الموسيقى الإيطالية ، وأمضى ليلته فى ترتيبها . وعجيب أن تطرأ هذه الفكرة على مؤلف الخطاب الطاعن على العلوم والفنون والداعى للرجوع إلى الطبيعة ، والأعجب أن تطرأ له بعد ما بدأ فى الخروج على الناس والرجوع فى ملبسه إلى وحى فطرته . ولكن روسو لم يكن قد آمن بعد بفكرته . بل كان لا يزال الموسيقى المتطلع للعظمة الروائية الغابط من ينالون إعجاب المتفرجين فى مسارح التمثيل وملاهى الموسيقى ، مما منع عليه أن يلاحظ مناقضته نفسه بنفسه . فانكب على عمله وأتمه وأخرجه للناس فى قليل من الزمان . وأسمى روايته هذه (آلة القرية) وضمنها مناظر ريفية كلها تدور حول ما يوحى به عجوز يدعى لنفسه السحر إلى بطلة الرواية التى تستغوى بطلها باستثارة الغيرة عنده . وتتخلل فصول الرواية مراقص ريفية تهزها موسيقى تسيل رقة وجمالا ، فلما تمت استعان بصديقه (دكلو) لتمثل على مسرح الأوبرا . ومثلت فلقيت أكبر الإعجاب بها والتصفيق لها .

ثم مثلت بعد ذلت أمام البلاط الملكى فى فونتيبلو . وكان روسو يومئذ هناك فى ردائه الجديد ، وقد أسدل ذقنه وأرخى شعره ولم يرض بتغيير شيء من زيه ليناسب المكان الذى حل فيه . وأجلس بهذا الشكل المستوحش بين سيدات قد لبسن ولبس من معهن من الرجال أبهى الحلل وأفخرها .

لكن ما نالته روايته من عظيم الإعجاب وكبير الثناء ألهاه عن حاله .

وإلى القارئ كلمة من اعترافاته عما خالج نفسه فى هاته اللحظة :

« سمعت حولى همس نساء تصورتهن الملائكة وتقول كل منهن لصاحبتها — إن هذا بديع باهر ليست فيه نغمة إلا تصل إلى القلب — فبلغ بى السرور أن استثرت شجن كل هاتيك الرقيقات حتى استهل مدمعى . . وتركت نفسى فى هذه اللحظة القصيرة أتذوق لذة عظمتى وأتذوقها بكامل معناها . . وإن الذين رأوا تمثيل يومئذ هم لا شك ذاكروه فقد ترك من الأثر ما لا مثال له » .

ولم يكن هذا النجاح الباهر مقصوراً على السيدات ، فقد بعث الدوق

(دمون) على أثره يخبر روسو أنه سيقدمه غداة الغد إلى الملك على أمل أن يجعل الملك له فى خزانته رزقاً .

« أفيظن أحد أن الليلة التى تلت ذلك اليوم البديع كانت ليلة هم وشجن . ذلك أنه لما عرضت فكرة تقديمى إلى الملك تصورت حاجتى إلى الخروج حاجة آلمتنى فى أثناء التمثيل ، وقد يمكن أن تضايقنى وأنا فى غرف الملك بين العظماء الذين ينتظرون مرور جلالته .

« ثم تصورت نفسى أمام الملك وقد قدمت لجلالته فتنازل فوقف وخاطبنى ، وهنا تجب الدقة وحضور الذهن للإجابة ، أفيتركنى ذلك الخجل التعيس الذى عندى والذى يجعلنى أختلط أمام أقل الناس ممن لا أعرف وأنا أمام ملك فرنسا فأوفق لاختيار اللفظ المناسب فى تلك اللحظة » .

لهذا رأى من الأصوب أن يرفض المقابلة . وإذا كان فى الرفض ما يضيع عليه ذلك الرزق ففيه أيضاً ما يوفر عليه حريته وينجيه من عبء ربما ناء به وربما اضطر معه لترك كثير من مبادئه . ورفض فعلا ورجع إلى باريس مكللا بالفخار منظورا إليه بعين الإعجاب ممن لا يعرفونه وبعين الغبطة من بعض أصحابه وبعين الحسد من البعض . فلما استحس هذا الحسد غلبته طبيعته الأنانية وابتدأ يظن الظنون . ومن ثمت نشأت عنده فكرة لازمته بقية عمره ؛ أن أصحابه يريدون الوقيعة به ويرومون هلاكه .

ومثلت روايته من بعد ذلك فى باريس وكان نجاحها باهراً . هنالك سمح لنفسه أن يشترك مع (جرم) فى الطعن على الموسيقى الفرنسية مما أغضب الكثيرين عليه .

ولما أحس بمكانته فى عالم الأدب والموسيقى دفع روايته القديمة (نارسيس) إلى (التياترو الفرنسى) ومثلت من غير أن يظهر عليها اسمه فلم تلق أى نجاح .

وفيما هو يتذوق فى هذه اللحظات اللذة والألم والانتصار والهزيمة طرحت أكادمية ديجون من جديد لمسابقة الكتاب المسألة الآتية : ما هى أصول عدم المساواة بين الناس ؟ وهل يرضاه القانون الطبيعى ؟

وظاهر أن أكادمية ديجون إنما وضعت هذه المسألة لروسو صاحبها وبطلها . فقد كانت ردوده على ستانسلاس وبورد مملوءة حمية وحماسة ضد عدم المساواة .

وروسو هو بطل القانون الطبيعي . فمادام قد أعلى شأن المسألة الأولى فهو الذى ينتظر ليعلى شأن المسألة الثانية .

وأحس روسو بذلك واقتطع من وقته جوابه . ولكنه يجيب على المسألة من طريق آخر ، ويضع للخطاب الذى يكتبه عنها عنواناً آخر ، ويكتبه على ما سيرى القارئ بحرارة وأسلوب ثورى تنطق أمامهما حرارة وقوة الخطاب الأول . ولذلك كنه لم تعطه الأكاديمية جائزتها .

٥

العلوم والفنون مفاسد للأخلاق وأثر من آثار نقائص بنى الإنسان ونتيجة لكبريائهم الفارغة . وإنما جاء شقاؤهم بسببها وحين خرجوا من جهالتهم الطبيعية . ولولاها ولولا ما جاءت به من الثروة وما أنتجته الثروة من عدم المساواة لما كان التعس الذى يتمرغ فيه ألوف بنى الإنسان . فإذا أراد الناس السعادة فليرجعوا إلى جنان الطبيعة .

هذه هى الأفكار التى عرضها روسو فى خطابه الأول . ولقد رأى القارئ غلوه فى طريقة عرضها أول الأمر وتعديله لها فى ردوده على من تعرض لنقده . ونقد جاء فى بعض هذه الردود قوله : إنى أعتقد أن الإنسان طيب بطبعه .

والطبع والفطرة والسليقة كلمات طالما عرضت فى مؤلفات روسو . ومع ذلك فلم يجد أحد لها تعريفاً واضحاً على صحائف هذه المؤلفات . وكل ما أمكن استنتاجه أن روسو كان يقصد بالطبيعة أو الفطرة ما جبل عليه الرجل أول خلقه من غرائز وإحساسات . فمعنى أن الإنسان طيب بطبعه وأن السعادة ترجع للناس إذا استمعوا إلى الطبيعة هو أن السعادة ترجع لهم إذا هم تركوا كل نتائج الفكر وما أبدعه من مدنيّة وحضارة ، ورجعوا إلى وحى الطبيعة الأول واتبعوا ما تدعو إليه من البساطة والسذاجة ، وهذه الفكرة التى كانت غامضة فى خطاب العلوم والفنون ستكون مصدر الإشعاع فى خطابه عن عدم المساواة وأصولها ونتائجها .

عرضت أكاديمية ديجون فى سنة ١٧٥٣ مسألة أصول عدم المساواة بين الناس . وهل يقرها القانون الطبيعى ؟ فلم يكن أحد أسبق من روسو للنظر فيها والكتابة عنها كيف لا وقد أمعن فيها البحث والنظر عند كتابة ردوده عن الخطاب الأول .

قال : « ولأفكر فى هذا الموضوع الكبير مطمئناً ذهبت مع تريز وربة البيت وصاحبة لها إلى سان جرمان وأمضينا فيها سبعة أو ثمانية أيام أعدها من أجمل أيام حياتى . فكان الطقس رائعاً وقامت هاتان السيدتان بأمر النفقة وأمضت تريز وقتها معهما مسرورة وكنت أرجع أنا إلهن ساعات الطعام لأتمتع بالسرور

ينهن سروراً لا تشوبه شائبة ، أما بقية النهار فكنت أقضيه كاسياً وسط الغابة .
وهنالك بحثت ووجدت صورة العصور الأولى فرسمت تاريخها مغضياً عما أحاطها
الناس به من الأكاذيب ، وعمدت إلى رفع الستار عن طبيعة بنى آدم وتتبعت سير
العصور واستظهرت الأشياء التى أفسدت هذه الطبيعة ، وأظهرت لهم بمقارنة
الإنسان الذى صنعه الإنسان بالإنسان الطبيعى أن الأصل الحقيقى لشقائهم إنما هو
ما يدعونه لأنفسهم من الكمال . وارتفعت نفسى وقد حفزتها هذه المشاهدات
العالية حتى كانت على مقربة الألوهية . ومن هناك رأيت أمثالى يسترسلون تدفعهم
عاداتهم العمياء فى طريق أغلاطهم ومصائبهم وجرائمهم فناديتهم بصوت ضعيف
غير مسموع قائلا : (أيها المجانين ، يا من لا تزالون تشكون من الطبيعة .
ألا فاعلموا أن مصائبكم إنما تأتيكم منكم) » ؟

وكانت تفكيراته فى غابة سان جرمان مصدر خطابه عن عدم المساواة . لذلك
لا نعجب إذا رأيناه صادفاً عن استقراء التاريخ مسلماً نفسه إلى خياله معتمداً
كل الاعتماد عليه . كما لا نعجب أن نراه يفتتح هذا الخطاب بقوله : « نبدأ
باستبعاد كل الوقائع فإنها لا تمس موضوعنا ، ثم لننظر إلى ما يمكن ممارسته من
الأبحاث فيه . ولننظر إلى ذلك لا كحقائق تاريخية ولكن كتعليلات افتراضية
أكثر ملاءمة لإيضاح طبيعة المسائل منها لإظهار حقيقة أصلها » : ثم يقول :
« أيها الإنسان إليك تاريخك كما أعتقد أنى قرأته لا فى بطون الكتب التى وضعها
أمثالك فإنهم كاذبون ولكن على صفحات الطبيعة التى لا تكذب أبداً » .

وأطلق لخياله العنان فتغلغل به فى ظلمات الماضى حتى وصل إلى حيث
اعتقد مبدأ الإنسانية جاعلا رائده فى هذا البحث الخيالى الوصول إلى تصور ذلك
الإنسان الأول الذى يعتقده « طيباً بالطبع » . وكما عمد فى خطابه الأول حين
أراد أن يستظهر الفرد على ما يجب أن يكون فى المستقبل إلى انتزاع صورة من
نفسه . كذلك كان متأثراً هنا عند رجعته للماضى بما يتمناه لنفسه وشخصه .
وليس ذلك بالغريب منه وقد قضى كل حياته مهتماً بنفسه جاهلا ما سواها متعلقاً
بها إلى أقصى حدود الأنانية .

الإنسان الأول فى خيال روسو هو ما يصوره حين يقول : « أرى عند
تصورى الإنسان كما لا بد قد كان حين أبدعته يد الطبيعة حيواناً أقل فى قوته

من البعض وأقل فى خفه حركته من الآخرين ؛ ولكنه مرتب فى مجموعه على
شكل أقرب لفائدته من أشكالهم جميعاً . وأراه جالساً يتناول طعامه تحت شجرة
بلوط ويشرب من أول غدير يصادفه ويجد مرقده عند جذع الشجرة التى قدمت له
طعامه . وهنالك يكون قد استكمل حوائجه . .

« وبما أنه لا يزال فى مرتبة الحيوانية فهو يقلد صناعة الحيوانات . . ويرتقى
إلى فطرة البهائم . . ويجمع بين مختلف طبائعها . . ويتغذى من أكثر المواد التى
تصلح لمختلف الحيوان ويجد حياته بذلك أسهل مما يجدها أى نوع منها » .

« ولما كان جسم الرجل المستوحش هو الآلة الوحيدة التى يعرف فهو يستعمله
فى وسائل شتى تعجز دونها جسومنا لقلة دربتها عليها » .

هذه هى الصورة المادية التى يراها جان جاك لابن الطبيعة أول ما خلقته .
فهو رجل متوسط القوة متوسط الحركة يهيم لا يدرى أين يذهب ويقضى حوائجه كما
يتاح له . يحل به الجوع فيتناول أيا ما يصادفه ليزيله به . ويحس بالعطش فيجد
عند أول غدير وأول بقعة ماء ما يروى أوامه . فإذا جاءه التعب مال إلى ظل أول
شجرة تقابله ، وإذا جنه الليل نام تحت هذه الشجرة غير متخوف شيئاً . هو
حيوان ككل الحيوانات الضالة الهائمة .

وهو يقضى حوائجه الجنسية بمثل ما يقضى به حوائجه الذاتية من البساطة
فلا يعرف الاختيار فى النساء ولا يعرف ما يتبع ذلك الاختيار من عواطف الحب
والهيام ، وهو فى ذلك إنما « ينصت للفطرة التى وهبتها إياه الطبيعة لا لذوق لم
يتكون له بعد . فكل امرأة حسنة فى نظره . وهو ينتظر بهدوء ومن غير تفكير دفعات
الطبيعة . فإذا جاءته أسلم نفسه لها من غير اختيار وكان سروره بذلك أكثر من
شدته فيه . ومتى انقضت حاجته انطفأت رغبته » .

فإذا تم اللقاح بين الرجل والمرأة على هذه الحال الحيوانية البحتة انفصلا
وبقيت المرأة حتى تضع ولدها ثم تسعى له سعى أنثى الحيوان لصغارها ،
فإذا شب الصغير وصار فى طوقه أن يجد قوته تركته يعمل له . ولا خوف فى نظر
روسو على هاته المخلوقات الضعيفة من عدوان غيرها عليها . « فإن الشفقة تحل
فى الحالة الطبيعية محل القوانين والأخلاق والفضائل . ولها على هذه النظم من
الفضل أنه لا أحد يفكر فى عدم الاستسلام لصوتها الرقيق ، فهى تمنع المستوحش

القوى عن أن يأخذ من الطفل الضعيف أو العجوز المريض ما يقيم أوده مما كسبته يده . ما دام ذلك القوى يأمل فى العثور على طعامه من طريق آخر » .

فى هذه الحالة الطبيعية الأولى وتلك الحيوانية المطلقة كان الناس جميعاً على تمام السعادة . كانوا ممتعين بنعيم الجهل وهناء القناعة لا يشغل بالهم شىء يستثير منهم هماً أو ألماً . ولا يداخل نفوسهم الطمع فينغص عليهم راحة الحياة السعيدة . كانوا يعيشون كل ساعة لساعتها وكل لحظة لنفسها غير مفكرين للمستقبل ولا ذاكرين الماضى ولا مريدين جديداً .

ولو أن السعادة كتبت للناس فى هذه الدنيا لظلوا عند هذه المرتبة الأولى حيث الهناء الأكمل ولما غادروا ما كانوا يرتعون فيه من نعمة المساواة وعدم التنافس . ولكن أنى لهم سكينة النفس بعدما خرجوا من أحضان الطبيعة ثم لا يفكر أحد منهم فى الرجوع إليها أو فى تنسم ريحها الجميل .

« بل لو أن الطبيعة كتبت للناس أن يكونوا سعداء لحق لى أن أؤكد أن حال التفكير حال مناقضة للطبيعة وأن الرجل الذى يفكر إنما هو حيوان فسد مزاجه » .

كلمة غريبة تلفظ بها روسو . كلمة قال جول لمتر إنه ما نطق بها إلا ليدهش فلاسفة عصره وجميلات ذلك الوقت . لكنا نعتقدها على غرابتها صادرة عن إيمان بها ويقين بما تحويه من حقيقة لا يشك جان جاك فى صحتها . كلمة نطق بها تحوى كل ما يخامره من الألم لما ارتكست فيه جمعية ذلك العصر من رذائل الترف عند قوم وبؤس الفاقة عند آخرين . وإنه فى تقريره هذه الفكرة الغريبة إنما يريد أن يقول : هاهى ذى آثار العقل الإنسانى بادية أمامنا بعظمتها وجلبتها . ها هى ذى المدنية التى أبدعها بنو آدم ملأى بالتعس والنقص وها هم أولاء الناس يضجون تحت نيرها ويحز الألم رقابهم . فماذا كسبوا ؟ ثم ما هى الغاية التى يرمون إليها ؟ أليست غايتهم جميعاً الفناء . وهل سعادتهم فى شىء غير العيش فى ظلال الحرية ؟ فإذا كانت المدنية التى أنتج الفكر هى أصل عدم المساواة ومصدر فناء الحرية وسبب الشقاوة والتعس فهلا يكون الفكر الذى أبدعها جميعاً أصل كل بلاء . وما دامت الطبيعة لا تريد بالناس إلا الخير فحالة التفكير حالة غير طبيعية » .

وليس غريباً صدور هذه الفكرة عن روسو مع عظيم ولعه بالسكون والطمأنينة .

ولكن الغريب إغراقه فيها وغلوه . وكأنما كانت هذه غريزة فيه يندفع وراءها حتى يجد من يرده لصوابه . فهو لا يقول باستبقاء المكاتب ونشرها إلا بعد أن يرد عليه ستانسلاس وبورد قائلين له إن خطأه عن العلوم والفنون راجعة بالإنسانية إلى البربرية والوحشية . وهنا كذلك يقول بعد أن يقرر أن من خصائص الإنسان التى يمتاز بها قدرته على الكمال قدرة مصدرها الفكر : « وإنا لنرى مع عظيم الأسف مضطرين للتسليم بأن هذه القوة المميزة التى لا حد لها — قوة استطاعة الكمال — هى مصدر تعاسات الإنسان كلها وهى التى تخرجه بزمان من تلك الحال الأولى التى كان يمضى فيها أياماً هادئة بريئة » .

واضح عنده إذن أن كل خروج على الطبيعة تدليك فى الشقاء : « واضح أن أول من خاط لنفسه ملابس أو أقام لنفسه مسكناً إنما قنى أشياء قليلة حاجته إليها بدليل أنه تمكن من الاستغناء عنها إلى يوم عملها . فليس ثمة ما يظهر لنا السبب الذى جعله عاجزاً عن أن يحتمل فى رجولته نوعاً من الحياة استطاع احتماله صغيراً » .

لكن الحيوانات نفسها تلجأ إلى أكنان تقيها البرد والريح وعاديات الطبيعة ويتزين بعضها بما يكاد يشبه لباس الإنسان الأول . فهل هى بذلك تتدرك إلى التعس أو تعمل على نقيض ما تريده الطبيعة ؟ ليس فى مقدور أحد ولا روسو نفسه أن يجيب عن ذلك إيجاباً . فإن الحيوان هو المثل الأعلى للمخلوق الحى الطبيعى وإليه « ارتقت فطرة » الإنسان الأول فى رأى روسو . كما أن القدرة على الكمال وهى التى تميز الإنسان عما سواه إنما هى ميزة وهبتها إياه الطبيعة فلا يمكن والحالة هذه أن تكون ضد الطبيعة .

ولكأن روسو يحس بذلك بعض الإحساس ويرى ما فى فكرته من غلو وإغراق . لذلك سمح لهذه القدرة الفطرية أن ترتقى إلى حال يجد الناس عندها السعادة هى حال القبائل البادية التى لم تعرف الملكية . ذلك بأن الناس عندها وإن كانوا قد أصبحوا أقل احتمالاً وكانت الشفقة الطبيعية المغروسة فيهم قد عانت بعض التغيير فإن هذا العصر من عصور رقى القوى الإنسانية . وقد قام وسطاً بين كسل الأيام القديمة وتراخيها والنشاط المفرط الذى امتازت به أنانيتنا . يجب أن يكون أسعد العصور وأهناها . وكلما فكر الإنسان تجلى له أن هذه الحال كانت

قل الحالات تعرضاً للثورات وأحسنها وأسعدها لبنى الإنسان فلم تخرجهم منها إلا مصادفة منحوسة . وجماعة المتوحشين الذين وجدوا ، ولا يزالون ، يعيشون هذا النوع من أنواع الحياة ، هم خير مثال يثبت أن النوع الإنسانى إنما أعد ليبقى فيه ، وإن تلك الحال هى حال شباب العالم الحقيقى ، وكل تقدم حصل بعدها إنما كان تقدماً نحو كمال الفرد بمقدار ما كان اقتراباً من فساد النوع » .

إذن « فالحياة البسيطة المتشابهة المنفردة التى قدرت لنا الطبيعة » ليست هى أحسن أنواع الحياة . وإنما يجب أن تتخطاها إلى حياة القبيلة وقبل أن توجد الملكية حتى يجد الناس المساواة ونعيم الجهالة وركود العقل ونعمة القناعة بما تحت يدهم وعدم التفكير لغدهم . فإذا هم ابتدءوا يفكرون للغد ابتدأت أعراض عدم المساواة تظهر وابتدأ يظهر معها البؤس والشقاء .

ولعل روسو رأى ما يكون من غلو غير معقول فى القول بأن الإنسان المستوحش المنفرد الذى يعيش عيشة الحيوان أفضل من الإنسان الممتاز بقدرة الكمال ، المستعمل لهذه القدرة . وخشى من يفاجئه بمثل الردود التى وجهت لخطابه عن العلوم والفنون . على أن الفكرة المعدلة نفسها بالغة فى الغلو وقائمة على أساس خاطئ . فليس للمستوحش ذلك القسط من الشفقة الذى يريد روسو أن يعزوه إليه ، كلا ولا هو أرق أخلاقاً من المتمدين . وإنما كانت فكرة « الطيبة الطبيعية » أو « الطيبة الوحشية » شائعة يومئذ ، وكانت فطرة روسو تدفعه ليؤمن بها . وخياله وتحمسه لعقيدته ضمنا له القوة فى استظهارها على شكل خطابى ثورى شديد .

وبعد أن أظهر أن عدم المساواة لم يكن موجوداً فى الحالة الطبيعية وفى الجمعيات الأولى غير المفكرة ، استطرد ليرى ما جاءت به المدنية من المصائب والأرزاء فظهر له أن أساس المدنية وأهوالها إنما هى فكرة الملكية .

« وأول من فكر حين أحاط قطعة أرض فى أن يقول — هذه لى — ووجد قوماً بلغ بهم العمى ليصدقوه هو الواضع الحقيقى للجمعية المدنية . وكم من الجرائم والحروب والدماء . وكم من التعس والبؤس كان يوفره على الإنسانية ذلك الذى يتقدم ساعتئذ فيقتلع الأعلام أو يردم الخندق المحيط ويصيح فى قومه : إياكم والاستماع لهذا الكذاب » .

وتلك الصيحة من روسو هى من الصيحات الأولى التى ارتفعت ضد

الملكية والتى تقدمت الآراء الاشتراكية . ولئن تقدم روسو كتاب آخرون نادوا بالمساواة وقرروا أو كادوا مبدأ (الكوميتزم) فإن أثر روسو بخطابه عن عدم المساواة وبعقده الاجتماعى طمس على ما كتبوا وظهر للأجيال التى تلته نبراساً وفرقاناً . كانت كتابات هذا البائس المتشرد على ما فيها من سفسطة غير قليلة تهز القرن الثامن عشر والأيام الأولى من القرن التاسع عشر هزات لم يطمع فيها فولتير ولا فكر فى شىء منها مونتسكيو حين وضع مكاتيبه الفارسية وكتابه روح الشرائع . وكيف لا تهزهم الفكرة الجديدة وقد كانوا جميعاً يشعرون فى أعماق صدورهم بشىء من القلق أمام نظام أساسه التمتع بالملكية الواسعة من أقلية تنفق عن سعة وسخاء لإرضاء ملاذها إرضاء لا يتم إلا بإذلال الأكثرية الفقيرة المحرومة من الملك والقضاء على حريتها . وقد كانت صيحات روسو الحارة الصادرة من أعماق نفسه الدالة على شديد إيمانه بما تحتويه قمينة أن تنبه هؤلاء الفقراء المستذلين إلى ما هم فيه من هم وحرمان وذل وأن تدفعهم للثورة عليه . وما كان أشدهم استعداداً يومئذ لذلك أمام ما رأوه من صلف الأغنياء وكبريائهم الفارغة واستمتاعهم بمذلة إخوانهم من بنى الإنسان وعدم اعترافهم بما لغيرهم من حق فى ثروة أقامها هذا الغير بعرق الجبين ويتمتعون هم بها من غير عمل وبلا عناء .

« بل لو رأيت جماعة من الأغنياء والأقوياء ممتعين بما بلغوا من مراقى العظمة والثروة وإن تردى المجموع فى الظلمة والتعس فذلك لتقدير الأولين متاعهم بالأشياء على نسبة حرمان سواهم منها ، ولو بقى لهم ما يمتعهم وزايل المجموع بؤسه وتعسه لانقطع عليهم سبيل السعادة » .

ولا دواء لهذه الحال إلا باستئصال أسبابها ، والسبب الأول هو هذه المدنية المترفة القاسية التى تحكم الإنسانية بنيرها الثقيل . ومهما قيل عن ذلك التقدم الموهوم فإن المتاع بالحرية الصحيحة المطلقة خير ألف مرة من هوان دائم نكره عليه باسم النظام والتمدين . والحرية لا تكون مع عدم المساواة ومع قيام شخص بالعمل يستمتع غيره بنتائجه . فإذا لم يكن من سبيل لهذه المساواة إلا العودة لما يسمونه الوحشية فلنعد إليها فهى خير وأبقى ما دامت الحرية فيها محترمة مصونة . وهل الرجل المستوحش وكل حيوان مستوحش إلا مثال الموجود الحر الكريم .

قال روسو :

« وكما أن الحصان غير المهذب ينفش شعره ويضرب الأرض برجله ويشتد جبه لمجرد إدناء اللجام من فمه فى حين يحتمل الحصان المدرب السوط والنخس بصبر وجلد ، كذلك لا يطأطئ الرجل المستوحش رأسه للنير الذى يحتمله المتمدين من غير ضجر بل يفضل الحرية مهما خالطها على الاستعباد وإن صحبه السكون والهدوء » .

ولكن الناس مع الأسف يصبرون على حريتهم المفقودة من غير ضجر ويرتضون الخضوع للرق وعدم المساواة فى الأرزاق والدرجات . بل ترى كل منهم يطمع فى الحصول على قسط من الترف الذى يتمرغ فيه غيره ، وهو يرى لذلك لازماً أن يقبل تعسف من هم أرقى منه فى الدرجة كى يستطيع العيش والعمل إلى جانبهم ببعض السكينة والهدوء وأن يرى حريته بتقلص ظلها ثم لا يستطيع التمسك بها مخافة أن يزيدها تمسكه بها ضياعاً . كما أنه يندفع بدافع الأمل والطمع رجاء الحصول على شيء مما يميز جماعة الأغنياء والأشراف . متى داخله الطمع رضى أن ينزل عن كثير من أنفة قد تقف فى سبيل أغراضه كما دخل نفسه وقلبه همّ غده . ومتى أهم المرء غده ، فقد أهم أركان السعادة .

وظل الناس ، بما يدعونه لأنفسهم من التقدم ، يتورطون فى فوضى عدم المساواة ويقاسون أهوالها . فإذا فكر فريق منهم فى الخروج على النظام القائم لم تقدهم حركتهم إلا إمعانا فى الألم وتورطاً . « ومن أعماق هذه الفوضى وتلك الثورات يرفع الاستبداد رأسه البشع رويداً رويداً ويلتهم كل ما تقع عليه عينه من طيب أو سحيح فى أجزاء الحكومة ثم يصل أخيراً ليطأ تحت قدميه القوانين والشعب وليقوم على أنقاض الجمهورية » . فإذا قام قائم ضد هذا الاستبداد لم يكن همه إلا تخفيف بعض ويلاته من غير تفكير فى الرجوع إلى حال المساواة الطبيعية . وبذلك تبقى الفروق ويبقى هم التفكير للغد ويبقى ما يجيء معها من المصائب والويلات .

هاته هى الأفكار التى عرضها روسو فى هذا الخطاب . ومع ما هى عليه من الحرارة والقوة فإن أثرها لم يظهر بعد نشرها بل بقيت زمناً حتى إذا قامت الثورة الفرنسية خامرت كل النفوس وأصبحت بعض قرآن ذلك العصر الملطخ بالدماء فى طلب الحقوق المهضومة . وتلخيصها الذى قدمناه ينم عن غرابتها .

على أن أغرب ما فيها هو صيغتها المملوءة قوة وحرارة وإيماناً . فأما الأفكار التى فيها فكانت متداولة بين كبار كتاب ذلك العصر .

وروح الفكرة فى هذا الخطاب عند إميل فاجيه هى : الإيمان بأن الإنسان هو على أقل تقدير مدنى أكثر مما يجب . فيجب – على الأقل – تحديد المدنية فى أضيق حدودها ، والرجوع بها إن لم يكن لدائرة الأسرة فللقبيلة أو العشيرة أو المدينة الصغيرة حتى يقل حمل الواجب وعظيم المجهود ومهول ما بين الناس من الفروق . وبذلك تقل الحاجات المختلفة من مجد وترف وحياة مدنية وتفنن فى المتاع ويرجع الإنسان إلى نصف حيوانية مفكرة ولكنها صحيحة مطمئنة هـادئة متحابة هى حالته الطبيعية والحال التى يجد فيها السعادة » .

ومع أن هذا الخطاب أقوى وأشد من خطابه الأول فإنه لم ينل جائزة أكاديمية ديجون .

بعد نشر هذا الخطاب بزمن غير طويل سافر روسو مع صديقه جوفكور إلى جنيف واستصحب معه تريزلفاسير . فلما كانوا فى الطريق حدث ما استوجب القطيعة بينه وبين صديقه . فتركه عند ليون وعدل إلى طريق السافوا ، وخطر فى باله أن يمر بمدام دفارانس ومر بها ورآها . قال :

« رأيتها . . ولكن . فى أى حال يا إله السماء وفى أى هون ؟ ماذا بقى لها من فضيلتها الأولى ؟ هل هى هاته مدام دفارانس البديعة التى بعث بى إليها المسيو بونتفير ؟ ألا كم شق علىّ حالها ساعتئذ ؟ . . ولم أر من وسيلة لها إلا هجر بلادها . فكررت لها على غير جدوى ما طالما طلبته إليها فى خطاباتى لتحضر وتعيش مطمئنة معى فأكرس أيامى وأيام تريز لإسعادها . لكن تعلقها برزقها الذى كان يصرف لها من غير أن تستفيد منه جعلها لا تسمع إلىّ » . ثم تركها وترك لها بعضا مما عنده . فلما التقيا بعد ذلك وعلم بخلو جيبها أرسل بنقد إليها على يد تريز : « وكانت هذه هى اللحظة التى يجب أن أقضى فيها دينى بأن أترك كل شيء لأتبعها وأن أبقى معها حتى ساعتها الأخيرة وأن أقاسمها حظها أياً يكون . . لكنى لم أعمل من ذلك شيئاً . وأحسست أن ما كان بيننا من رابطة قد انقطع فلا يفيدها لأن رابطة أخرى ألهتنى عنها » .

هذا هو روسو الأنانى المحب لذاته . وقد تعزى عن فعلته هذه بما يتعزى

به دائماً من أنه طيب القلب وأنه لا يستطيع أن يجيء بنكر ولا أن يرتكب سيئة . على أن لديه شفيعاً يغفر له هذه الخطيئة ويغفر له كثيراً من مثلها . إنه نابغة وللنوابغ هفوات إذا هم دققوا فى محاسبة أنفسهم على كل واحدة منها ضاع نبوغهم وضاعت فائدة العالم منهم . والقوة الكمينة فى نفس روسو والتى دفعته لارتكاب أغلاطه – هذه القوة القائمة على أساس من الغرور وحب الذات – هى عينها تلك العبقرية التى دفعته ليخرج للناس خطابه عن عدم المساواة والتى ستدفعه فى المستقبل ليقلب الأدب الفرنسى فى ذلك العهد رأساً على عقب ، وهى أيضاً التى ستجعله الرسول الذى يجهز للثورة الفرنسية إنجيلها ويمهد لها السبيل العظيم الشنيع الذى تختطه .

وفيما هو فى (شمبرى) كتب إهداء خطابه عن عدم المساواة إلى جمهورية جنيف مسقط رأسه ومهد صباه . فلما وصلها استقبله أهلها أحسن استقبال واحتفوا به وأكرموه . فأحدث ذلك فى نفسه أثراً بلغ حتى جعله يفكر فى استرجاع حق انتسابه لهذه الجمهورية . لكن ذلك لم يكن بالأمر الهين وهو على دينه الجديد . فلم ير من بأس أن يرتد إلى البروتستانتية دين آبائه : «وما دام الإنجيل هو الإنجيل لجميع المسيحيين . فإن تفسير آياته هو فى كل بلاد من حق سلطانها . . ولما لم يكن لعاقل أن يرى طريقين للمسيحية فكل ما يتعلق بالشكل والنظام يدخل فى دائرة القانون» .

وفى أوائل أكتوبر سنة ١٧٥٤ ارتحل عن جنيف راضياً كل الرضا عن مقامه فيها منتظراً عودة الربيع وزخرف الطبيعة ليعود إليها فيرتب طريق الحياة الذى يسلكه بقية عمره بين جناتها الناضرة وحول البحيرة البديعة الساحرة التى لم ينس أن يأخذ من مناظرها بنصيب مدة الأشهر القليلة التى قضاها حولها . ووصل إلى باريس مبتدأ الخريف وباشر طبع خطابه الجديد مصدراً إياه بالإهداء إلى حكومة الجمهورية وانتظر ما سيجره هذا الإهداء من عطف عليه وإعجاب به . ولكنه سقط فى يده حين علم أن ظهور الكتاب زاد فى عدد أعدائه بين أعضاء حكومة جنيف ولم يخلق له صديقاً جديداً . وقد انقلب بعد ذلك ينظر إلى هذا البلد المحبوب بعين الريبة والشك .

ولما جاء الربيع لم تمكنه الفرصة من إنفاذ فكرته فى العودة إلى جنيف .

ولم يكن سوء استقبال كتابه هو كل السبب فى عدوله بل جاء إلى جانبه سبب جديد . ذلك أن مدام دبناى أقامت له منزلا إلى جانب قصرها بالشفرت ولم يستطع هو أن يمضى فى عزمه ويرفض قبول هبة صديقته .

وهذا السبب الأخير وحده هو الذى يقدمه روسو ليعلل به بقاءه بفرنسا وامتناعه عن الذهاب إلى جنيف ، ولعله الغرور هو الذى يجعله يغفل ذكر السبب الآخر .

وهنا نترك روسو يفكر فى منزله الجديد لنفكر نحن فى طريق تفكيره يومئذ . ونحسب القارئ قد وصل معنا ليرى أن روسو لا يزال شاعراً أكثر منه مفكراً . فهو يريد أن يتبع المعلول بعلته ويصل النتيجة بسببها فيجيء بمقدمات خطابية يملؤها من روحه حماسة وقوة ، ويحسب قارئه قد اقتنع متى اقتنع خياله هو بالصورة التى دارت فيه ومثلت نفسه أمامها . وهو ينتزع من مخيلته صوراً يسميها تاريخ الإنسانية ويرسم أمامك الحيوان الذى يحلو له ليسميه الإنسان على ما فطرته الطبيعة . لكنه إلى جانب ذلك موفق الخيال مرتب الحواس إلى حد تكاد تظهر صوره معه حقائق ناطقة تخاطب القلب والعقل عصوراً متتالية وتبقى آخذة بهما برغم تقلب الأزمان وتطور الأفكار .

فصيحته ضد الظلم ، ونداؤه ضد الترف ، لم يكونا مبنيين على فكرة اجتماعية مختمرة فى رأسه تكون مع غيرها طريقاً خاصا فى البحث والنظر . بل كانا أثر تلك الحياة المتشردة التى أنقضت ظهره أيام شبيبته . وطعنه على الملكية وإظهاره ما تورثه من التعس لم يكن نتيجة فكرة اشتراكية متدبرة . ولكنه نتيجة ما كان فيه هو وأمثاله من الفقر والفاقة وما قاسى من الجوع أيام صباه . ولهذا كله كنت تراه كثيراً ما يناقض نفسه وتتضارب أقواله تضارباً كانت تخفيه القوة الهائلة التى امتاز بها أسلوبه الثائر المملوء خيالا وقوة .

وكانت هذه القوة فى الأسلوب تخفى كل عيب آخر . وهى التى رفعت روسو برغم كل المعارضات التى وجهت إلى خطاباته إلى مقام أعاظم أدباء عصره وجعلته موضع إعجاب الأكثرين والضالة المنشودة فى صالونات الجميلات والأديبات .

وهى هذه القوة التى حببته إلى مدام دبناى حتى جعلتها تسعى لتختصه لنفسها

فتنال بذلك حظًا يحسدها عليه غيرها .

وستزداد هذه القوة حتى تبلغ أوجها حين يخط جان جاك روايته « لانوفل هلويز » فيحيي بها الرومانتزم ويحفر بها أول حفرة فى قبر الكلاسيسيزم ثم تبدأ ليحل محلها تفكير أدق وأعمق يضمن للناس ترتيب روسو لنظرياته فى كتابيه الكبيرين « التربية » و« العقد الاجتماعى » .

٦

أقام روسو بجنيف حوالى أربعة أشهر كان فيها معززا مكرماً بين أهل بلده وموضع إعجاب الكثيرين منهم . ولقد جعلته غرابة زيه وتفرده فى أخلاقه وفى طريق تفكيره ونظره للأشياء محلا لعطف البعض ولقضاء شهوة الطلعة عند الآخرين ، وما كان ليضن على هؤلاء بنفسه وقد كان يقضى معظم وقته فى الغابات وعلى شواطئ بحيرة ليمان . بل لقد مد لنفسه فى متاعها فطاف حول البحيرة تصحبه تريز وجماعة من أصدقائهما .

ورجع إلى باريس على عزم العودة إلى جنيف أول الربيع . لكن جو جنيف تغير عليه بعدما نشر كتابه كما أن صديقته مدام دلاليف دبناى تعلقت به ولم ترض فراقه وأضافت إلى قصرها بالشيفرت عند منتهى حدائقه على مقربة من غابة (مونمرنسى) بيتاً صغيراً مؤلفاً من خمس غرف وما يلزمها أحسنت نظامه وتنسيقه وذهبت بعد تمامه ومعها جان جاك وعرضته عليه قائلة : « إنها الصداقة تهبك إياه .. وآمل أن يبعد عنك تلك الفكرة القاسية فكرة ابتعادك عنى » .

ولقد كان هذا البيت أكثر ما يكون ملاءمة لمزاج روسو . صومعة منفردة وسط الغابات والحدائق يجد فيها كل ما يرجوه من لذائذ الوحدة والسكون والطبيعة فى أجمل مظاهرها . لذلك فلقد كفى هذا العرض وبعض الرجاء لتكسب مدام دبناى موافقته على البقاء إلى جانبها .

« ومما ساعد على تكوين هذا العزم عندى إقامة فولتير على مقربة من جنيف . فلقد وقر فى نفسى أن هذا الرجل سيثير البلد ضدى وأنى متى ذهبت وجدت فى وطنى العادات والأفكار والأخلاق التى أخرجتنى من باريس فاضطر لمناضلة ذلك كله نضالا دائماً » . ولا يعجبن القارئ من ورود هذه الكلمة على لسان روسو متى عرف ما كان بينه وبين فولتير وعرف أن كل واحد منهما كان يمثل الطرف المناقض للآخر فى كل شيء . فقد كان فولتير يمثل الحياة الاجتماعية فى أشد مظاهرها صناعة وأكثرها إفسادا : التحكم والإلحاد . فى حين كان

روسو داعية الطبيعة ومحبذ الدين . وكان فولتير رقيقاً وسيماً في حين كان روسو خشناً وطيباً ، وكان فولتير غنياً ومن طائفة الأمراء في حين كان روسو فقيراً ومن عامة الشعب ، وكان فولتير محققاً في السياسة في حين كان روسو خيالياً فيها ، وكان فولتير استبدادياً في حين كان روسو جمهورياً ، وكان فولتير ملحداً في حين كان روسو متديناً ، وكذلك كان كل منهما نقيض صاحبه على خط مستقيم .

وكانت مدام دبناى من سيدات ذلك العصر اللائى أولعن بالكتابة وادعين التفكير وعملن على أن يضممن إليهن كبار المفكرين والكتّاب ، وقد تعلقت بروسو ووجدت في شخصه وفي حديثه ما حببه إليها حتى قالت في بعض مذكراتها : « إنك لا تتصور مبلغ ما كنت أجده من اللذة في محادثته » . وقالت واصفة شخصه وخلقه : « إنه لمداح من غير أن يكون ملقاً ، أو بالأقل من غير أن يظهر عليه ذلك . ولكأنه لا يعرف عادات الجمعيات الراقية . لكن من السهل أن ترى ما هو عليه من عظيم العقل ، وهو أسود الشعر ذو عينين تتقدان فتحييان صورته . فإذا تكلم ونظر إليه الإنسان رآه جميلا . أما إن ذكره فيما بعد فإنه يراه قبيحاً . (ولقد كتبت هذه المذكرات بعد أن تمت بينه وبينها القطيعة) .

وهذا التعلق به هو الذى جعلها تقيم له صومعته وتضع له فيها أثاثا جميلا . وفيها كانت هي في ترتيبها كان روسو يعد نفسه للانتقال إليها لأول تمامها . وساعده إذ ذاك أنه لم يكن في حال من الفقر تقعد به عن كل عمل .

وانتقل إليها في التاسع من أبريل سنة ١٧٥٦ ومعه تريز وأمها . وكان أول همه أن ترك نفسه تأخذ مما حولها من المناظر الريفية . فبدل أن يبدأ بترتيب مستقره بدأ بترتيب رياضته ونزهه فلم يترك من غده طريقاً ولا مجتمع أشجار ولا حزناً ولا بطناً مما حول مسكنه إلا اكتشفه . فلما قضى شهوته من ذلك رجع يرتب كتبه وأوراقه ويفكر فيما يريد تأليفه .

وجعل يعيش مما معه ومما كان يكسبه من نقل الموسيقى : قال : « ولقد كان في طوق أن أتجه إلى الناحية الأكثر كسباً فأنزع بقلمي - بدل قصره على النقل - لتحرير كتابات تضمن لى إذا جمعت بين حسن اختيار الكتب ومناورات المؤلفين عيش سعة بل عيش رخاء خصوصاً بعد الذى نلته من شهرة لم يكن من الصعب على أن أحتفظ بها ، لكنى أحسست أن الكتابة لكسب العيش من شأنها أن

تخمد نبوغى وتقتل ملكة كان محلها قلبي أكثر مما كانت متعلقة بقلمى ، ويرجع وجودها إلى طريقة في التفكير راقية أنوفة هي وحدها التي تغذيها ، وليس للقلم المتجر به أن يخرج للناس شيئاً قوياً ولا شيئاً عظيماً . أما الحاجة والطمع فيلجآن للإكثار من الكتابة لا لإجادتها » وبقى مشتغلا بنقل الموسيقى وببعض كتابات غير ذات شأن كما اشتغل بالقراءة وبتلخيص بعض كتب كلفه أصحابه بتلخيصها . وسمحت له وحدته ومراجعاته نفسه ومناقشته أفكار من يلخص له بتدقيق فكرى لم تكن كتاباته الأولى لتنم عنه . لكن ذلك التدقيق لم يخرجه عن الطريق الذى رسمه لنفسه من قبل بل زاده إمعاناً فيه وتوثقاً منه . وتجلى له من جديد : « إن المبادئ التي وضعها حكماؤنا ليست إلا الخطأ والجنون ، وإن نظامنا الاجتماعى ليس إلا الضغط والتعس » . وانتقل ذلك الاعتبار من فكره لإحساسه كما هي عادته . وقوى في نفسه وتحكم فيه حتى ملكه ودفعه ليطلب تغييراً يتفق مع مبادئه . فأراد أن يغير زيه على نحو ما فعل قبل ذلك لولا أن رأى أصحابه في المسألة ما يشينه فمنعوه عن أن يتمها .

« ولقد كنت طيباً إلى يومئذ ، أما من ذلك الحين فقد تملكتنى الفضيلة أو على الأقل سكرت بخمرتها ، وابتدأت النشوة في رأسى وسرعان ما انتقلت إلى قلبي واحتلت الأنفة الشريفة نفسى قائمة على أنقاض الغرور الذاهب . ولم أظهر للناس من ذلك شيئاً ولا ادعيته . بل بدوت على حقيقتى وظللت السنين الأربع التي كانت هذه النشوة خلالها في ريعان قوتها ولا يعجزنى ما يمكن أن يحتويه قلب الإنسان من عظيم أو جميل » .

في هذه السنوات الأربع ابتدأ يفكر في الكتب التي وضعها تفكيراً جدياً ، وكتب منها قسماً غير قليل ظهرت فيه روحه الملتهبة وبلاغته البديعة مظهراً غريباً . وفيها ابتدأ يعلو ويرتفع ويعرفه الناس جميعا « فلم أك ذلك الرجل الخجول تواضعاً ، والذى لا يجرؤ أن يظهر أو أن يتكلم ، فإذا وجهت إليه نكتة ضايقته وإن نظرت إليه امرأة احمرّ وجهه خجلا ، بل كنت أسير جريئاً أنوفاً غير مهتم لشىء وأذهب إلى حيث أشاء بثبات يزيده قوة ما كان عليه من البساطة ، ولأنه كان محتلا روحى أكثر مما كان في مظهرى » .

ولقد يظهر هذا التغير في أخلاق جان جاك غريباً في بابه . رجل على

غرور كبير كثير الخجل محب للوحدة مبتعد عن الناس يخرج فجأة من وكره ويخضع لحكمه من كانوا ذوى سلطان عليه لابد أن يكون قد طرأ عليه جديد غير من حاله . فماذا عساه يكون ذلك الجديد وكيف كان تأثر روسو به ؟

الجديد فيما نعتقد هو أن الفكرة التى دخلت إلى ذهنه ودفعته إلى تصور أن الناس جميعاً يعادونه ويريدون إلحاق الأذى به . قد ابتدأت تقوى فى نفسه وتأخذ منها محل العقيدة . فأدت إلى حصول تطور عنده يلائم فكرته فيجعله يقوم للدفاع عن نفسه ولصد الأذى الذى يتوقع . ولما كان قد أقام نفسه لمناصرة الفضيلة ومحاربة الترف ولدعوة الناس إلى الرجوع إلى حالتهم الطبيعية التى تضمن سعادتهم كان طريق التطور ونوع الدفاع مرسومين أمامه مقدماً . فاحتقار للعادات والعقائد السائرة وانتقاص من حكم غيره وطريق نظره .

وفى هذه الحال الجديدة أقام فى صومعته بجوار (الشيفرت) ممتعاً نفسه بمناظر الطبيعة ، معتقداً نفسه الملك على هذه المجاورات الرائعة مما حوله . تاركاً لخياله ولإحساسه ولعقله العنان يتخيل ويحس ويفكر على ما يشاء وكما يحلو له غير مهتم بحكم الناس عليه ولا بما يريدون من الشر به . وكأن لم يكن فى عالم جان جاك يومئذ غير شخصه وغير تريز وأمها . وإنك لتراه فى اعترافاته عن ذلك الوقت مكرساً صحائف عديدة يصف فيها تريز وطيبة قلبها وغباوة عقلها وانقيادها الأعمى لأمها وفساد نفس هذه الأم واتفاقها مع خصومه على الوقيعة به وما يقاسيه هو لذلك من شقاء . أما ما سوى هذا من التفصيلات والوقائع التى يذكرها عادة فهو هنا يمر عليها مرًا كأن لم تكن فى حياته شيئاً مذكوراً . قال :

« ودفعنى تذكرى لمختلف أيام حياتى أن أفكر فى الحال التى وصلت إليها فرأيت نفسى فى منحدر العمر فريسة آلام قاتلة وخيل لى أنى أقترب من ختام أيامى ولم أتذوق تذوقاً كاملاً أياً من الملذات التى يريدها قلبى .

وإنما كان يقطع عليه سبيل خيالاته وأحلامه شخص له عليه كل السلطان فلا يستطيع له ردًا . تلك هى مدام دبناى . فلطالما أفسدت عليه ترتيباته للراحة أو للعمل ولطالما دعته من صومعته إلى قصرها بالشيفرت وهو أقل الناس ميلاً للخروج من وكره . لكنه كان يحبس دائماً بيدها عليه . كما أنه كان يميل إليها بعض الميل

وإن لم يبلغ ميله الهوى . لذلك تراه لا يذكر تحكمها بشىء من الثورة كما هى عادته حينما يكتب عما لا يحلو له .

وهون عليه هذا التحكم من جانبها أو أنساه إياه ما كان فى نفسه يومئذ من خيالات الحب والهوى والهيام . ولكأنه بعد إذ بلغ الخامسة والأربعين يريد أن يستعيد أيام الشباب الأولى . وليس ذلك عليه غريباً . فلقد ظل طول عمره شاب القلب مهتاج العواطف . ولما لم يجد يومئذ شخصاً يهديه قلبه جعل يسطر ما يجول به فى صورة خطابات متبادلة بين عاشقين فيرضى بذلك شهوة نفسه حيث يتسمع على ما يجول فى حنايا فؤاده ثم ينتزع من خياله شخصاً موهوماً يتبادل وإياه نجوى الغرام .

هذه الخطابات الأولى هى مبتدأ روايته (جولى) أساس الرومانتيزم الذى حكم بسلطانه بعد ذلك على أدب القرن التاسع عشر . وعجيب ذلك وقد كان روسو يوم كتبها أبعد ما يكون عن التفكير فى وضعها رواية وإبرازها لتحدث ما أحدثته (الهلويز) من الأثر فتقلب أدب أمة بأسرها وتخرجه عن الطريق التى كان يسير فيها طريق التعقل الفنى لتدفع به إلى لجج الإحساس والتخيل ، وإنما أراد بها إرضاء شهوة وقتية قامت بنفسه وتحكمت فى فؤاده . ولكن هذا هو الشأن فى أحوال العالم : تنقله شهوات النوابغ والعبقريين إلى أطوار مختلفة أكثر مما ينقله عمل العاديين أجيالاً متعاقبة .

ولقد حدث لروسو يومئذ حادث لم يكن يتوقعه عين له طريق الرواية . وذلك الحادث وما مر بحياة روسو إبان مقامه بالشيفرت هو ما يعنينا الآن ، أما الرواية وشأنها فسنعود إليها فيما بعد مفردين لها فصلاً مستقلاً .

ذلك الحادث هو تفضل مدام « دودتو » بزيارة روسو فى صومعته . ومدام « دودتو » هى زوج أخى مدام دبناى ورفيقة « سان لامبير » صديق روسو الحميم . وكانت يومئذ فى الثلاثين من عمرها . ولم تكن جميلة إذ أتلف الجدرى وجهها ولا كانت عيناها ذواتى جاذبية أو نفاذ لكنها كانت جميلة القوام حلوة الابتسامة جذابة الحديث لطيفة العشرة . فما رآها روسو لأول مرة حتى أخذ حلو حديثها بمجامع قلبه . فلما زارته للمرة الثانية أولع بها حبًا ووجد منها الشخص الذى تلأ

قلبه ويعطيه فى منحدر أيام حياته بعض اللذائذ التى جن بها فؤاده . وإلى القارئ ما تركته هذه السيدة فى نفس روسو . قال :

« رجعت فرأيتها فانتشيت بسكرة الحب التى لم تقف عند شخص معين بادئ الأمر ثم وقفت عندها ورأيت جولى – وهو الشخص الخيالى الذى بكتابه – ممثلة فى مدام دودتو ثم نسيت كل شىء إلا مدام دودتو لابسة كل معانى الكمال التى كان قلبى يتوق لها فى تلك اللحظة » .

ولست أدرى إذا كان حب جان جاك لمدام دودتو هو حب رجل لامرأة أو هو حب مؤلف لمن يراها المثل الأعلى للشخص الذى يريد تمثيله فى روايته والتى تصلح بذلك لتقدم له أغزر مادة للتأليف ممكنة . فكثيراً ما يأخذ المثل (الموديل) بمجامع قلب المؤلف أو الرسام أو النحات ، بل كثيراً ما يكون أساساً لصداقة غرامية هى مهما خالطها من معنى الغرام لا تتعدى حدود الصداقة . ويخيل لى أن ميل روسو لصاحبته كان من هذا النوع أن كان حلو حديثها يوحى لهذا المعتزل فى صومعته من بديع المعانى ما يكفى لمادة خطاباته العاشقة التى كان يكتب . ومهما قال لنا فى اعترافاته أن هذا الحب بلغ به الهيام بل إنه جن بمدام دودتو جنوناً فإن حالة روسو النفسية وميوله كمؤلف كانت أشد على عواطفه أثراً من مدام دودتو وقوامها وحديثها وعشرتها . وإن ما فى روايته عن تذكارات اجتماعاتها لما يؤيد هذه الفكرة بما هو عليه من الصورة الروائية التى لا نستطيع توهمها فى الواقع والتى لم يرد مثلها فى كل صداقات روسو النسائية قبلها ولا بعدها والتى لا يجد لها الإنسان مثيلا إلا فى الصور التى وضعها روسو فى روايته (جولى) قال :

« كان ما بين الصومعة (وأوبون) – مقام مدام دودتو – مسافة فرسخ . وكنت فى كثير من سياحاتى أمضى الليل بأوبون . ولقد ذهبت ليلة معها بعد أن تناولنا طعام العشاء فى خلوة وانحدرنا إلى الحديقة يكللونا نور القمر البديع ، وسرنا حتى وصلنا إلى نبع ماء تحيطه شجيرات أقامته هى بمشورة منى وأقامته ذكراً خالداً للطهر واللذة . وهناك بين الشجيرات وعلى مقعد من الحشائش تحت شجرة لبخ محملة بالزهور جلست إليها أناجيها بالكلمات التى تستطيع أن تعبر عن تموجات فؤادى . وكانت هذه هى المرة الأولى والوحيدة من نوعها فى حياتى . فكأنى كنت بديعاً لو صح أن نسمى بديعاً ما يجىء به أرق الحب

وأقواه من كل لطيف جذاب إلى قلب المدنف الواله . ألا كم دمعة نشوانة أرقت عند أقدامها . وكم أراقت هى الأخرى من دمعات بالرغم منها ، ثم إذ بها صاحت فجأة برغم إرادتها : كلا ! ما بلغ إنسان مثل هذه الرقة ولا أحب محب كما أحببت أنت . . ولكن صديقك سان لامبير يتسمع علينا وليس لقلبى أن يحب مرتين . . فوجمت فى تنهد ثم قبلتها آخر قبلة وكان هذا آخر ما وصلنا إليه . وهى إذا كانت قد عاشت ستة أشهر منفردة بعيدة عن رفيقها وعن زوجها ، وكانت قد قضت ثلاثة أشهر وأنا أراها كل يوم أو أكاد فقد كان حب سواى قائماً دائماً بينى وبينها . وإذا كنا قد أكلنا فى خلوة بين الأشجار وفى ضوء القمر وقضينا ساعتين فى حديث ما أشده حرارة وأكثره رقة فهى قد خرجت جوف الليل من بين الأشجار ومن ذراعى صاحبها كما دخلت فلم يمسس قلبها ولا جسمها بسوء » .

وبعد ثلاثة أشهر من هذا الحب العذرى البرىء العاجز أبلغت هذه السيدة محبها أن حديث حبهما شاع وانتشر وأن رفيقها سان لامبير قد وقف عليه من مصادر غير صادقة الرواية وأنها تخشى مغبة ذلك كله وإن اطمأنت بعض الشىء أن كانت فى مكاتبتها رفيقها لا تفتأ تذكر روسو ومقابلاتها المتكررة إياه . وإنما كان يزعزع هذه الطمأنينة إلى حد يرسل الوجل إلى نفسها ما كانت تحس به من حبائل تنصب لها . فقد كان جرم فى الجندية ويقابل الحين بعد الحين مع سان لامبير . وكان بين جرم وبينها أنها صدته يوماً حين أراد التودد إليها . وبين جرم ومدام دبناى مكاتبات لا تنقطع تمكنه من الوقوف على دقائق ما بين روسو وصاحبته من العلاقات .

ولم تكن مدام « دبناى » بالهينة اللينة فى النظر إلى تلك العلاقات التى ألهبت قلبها غيرة وحركت فى جوفها تلك الفطرة النسائية القائمة على أساس من سلاحىّ الضعيف : الخديعة والمكر ، فاندفعت وراءها ولم تترك سبيلا تمكنها من الحصول على أدلة مادية تقيم بها الحجة عند (جرم) وبالتالى عند (سان لامبير) على هذا الحب إلا سلكتها . ولقد وصلت من ذلك حتى أغرت (تريز) لكى تقدم لها الخطابات المرسلة من مدام دودتو . ولولا إخلاص تريز وادعاؤها أن روسو يمزق هذه الخطابات بعد قراءتها لملكت مدام دبناى

سلاحاً ماضياً ولما امتنعت عن أن تقيم به حرباً شعواء على ضيفها وعلى زوج أخيها . وكذلك وقفت تريز فى هذا الظرف الدقيق موقف الأمانة لصاحبها ولم تترك هاته السيدة الغيور سبيلاً لدرك غايتها ، ولم تخبر روسو بشىء من ذلك إلا بعد أن ضاقت بما حملت ذرعاً . هنالك أفضت له بكل شىء وأوقفته على ما كلفتها به مضيفتها وتركت له اختيار السبيل لملاقاة ما قد يكون من سيئ العواقب . فلما استأذن كلامها على سمعه دهش لأنه لم يلاحظ مع ذلك أى تغيير من مدام دبناى عليه . وبقى فى اختلاطه حتى إذا وصلته كلمة من مضيفته تسأله عن شأنه انفجر انفجار البركان ورد عليها قائلاً : « ليس فى طوقى أن أقول شيئاً قبل الحصول على معلومات أوفى ، وسأحصل على هذه المعلومات عاجلاً أو آجلاً . على كل حال تأكدى أن العفاف المتهم سيجد مدافعاً عنه عنده من القوة ما يلزم القاذفين التوبة أيًّا كانوا » .

هنالك رأت مدام دبناى أن تمكر به وتتلاعب بطية قلبه . فكتبت إليه مظهرة أنها لم تفهم مراده ثم استمرت من ناحية أخرى تسعى للحصول من تريز على بعض المكاتيب التى تريد التمسك بها ، ولئن كان قد صادفها بعض النجاح عند تريز لشدة إلحاحها وبما استعملته من الحيلة وما أوغرت به صدر امرأة لم تعد ترى فى روسو أكثر من معين لها على الحياة فإن ذلك لم يفدها عند روسو إلا تشبثاً منه بالشدة والجفاء عزماً على القطيعة مما أنفد صبرها وأحفظ قلبها . ولقد زاد فى حفيظتها إن لم تبتّ عودة سان لامبير ما بين روسو ومدام دودتو من علاقة ولم يحصل إلا بعض جفاء شكا منه روسو لسان لامبير نفسه . على أن مدام دبناى كتمت غيظها ولم يبد منها ما يدل على التغير على روسو أو النفور منه ، ولكنها دفعت حزب جرم لتحقيره والنيل منه ، ثم عرض لها بعد ذلك أن تذهب إلى سويسرا لزيارة الدكتور (ترنشون) ولاستشارته فى بعض شئون سرية يغلب أن تكون متعلقة بحمل أو نحوه . فطلبت إلى جان جاك أن يصحبها لتبعده عن باريس وعن مدام دودتو . فتردد بادئ الأمر وتلكأ لعلمه أن الدعوة لم تكن صادرة عن إخلاص . وبرغم نصيحة ديدرو إياه أن يتبعها فقد انتهى روسو بأن اعتذر عن إجابة طلبها اعتذاراً فيه بعض الجفاء . وهنا انتهزت مدام دبناى الفرصة لتشهر به ولتظهر إنكاره لجميلها فى أبشع مظاهره . وناصرها فى ذلك ديدرو وجرم وغيرهما

ولقد كان من أثر هذه المعاملة أن مكنت من نفس روسو وفى أعماقها عقيدة أن أصحابه جميعاً يريدون الوقيعة به وبلغ من ذلك حتى لم يبق لديه محل لسماع كلمة أو الأخذ بشىء يصدر عنهم . بل إنه . ولا يزال فى قلبه من الود لمدام دودتو ما لم يغير تصرف سان لمبير من مظهره . ليرفض مشورة هذه السيدة نفسها حين تشارك غيرها فى النصح له بمرافقة مدام دبناى فى سياحتها إلى جنيف برغم ما كان يجده من الوجاهة فى الأسباب التى تقدمت بها إليه .

ولما سافرت مدام دبناى ازداد روسو وحدة وازداد أخصامه عليه شدة . فأرسل له جرم كلمة يخبره فيها بتمام القطيعة بينهما وذلك على الرغم مما تقدم به روسو إليه قصد استدامة مودتهما القديمة . وبعثت مدام دبناى إليه بخطاب يحوى غير ما اعتاد أن يسمعه منها . ولما أرسل لها يخبرها أنه يرى مع اعترافه بسابق جميلها وجوب تركه الصومعة ولولا مشورة أصدقائه عليه بالبقاء حتى آخر الشتاء لأسرع إلى ذلك ردت عليه رداً كان من القسوة بحيث لم يدع له محلاً لفكر فقد بعثت إليه بما نصه :

(ما دمت قد أردت ترك صومعتك ورأيت ذلك واجباً عليك فإن حجز أصحابك إياك ليدهشنى . وإنى لا أستشير أصدقائى فى أمر واجباتى ولا أرى محلا أن أزيدك على ذلك فيما يتعلق بواجباتك) .

هنالك لم يبق لروسو محل اختيار وأقسم ألا يبقى بالصومعة بعد اليوم الثامن من وصول هذه الورقة له . وما لبث أن عرض عليه المسيو ما تاس مدير أموال البرنس دكوندى بيتاً صغيراً فى طرف حديقته بمونمرنسى حتى أسرع إلى الانتقال إليه .

لقد أطلنا فى استقصاء حوادث مقام روسو بالصومعة (الارمتاج) أن كان لهذا الزمن من أزمنة حياة روسو ولتلك الحوادث التى مر بها القارئ أثر مباشر على كتابته فى الهلويز وفى كتاب التربية . كذلك فقد دعانا لاستقصاء كل هاته الجزئيات أنها صورة من صور الجمعية الباريسية فى ذلك العصر الذى ترك فى التاريخ الأثر الخالد وكان مقدمة مباشرة للثورة الفرنسية . وتدل هاته الصورة أبلغ الدلالة على حال ذلك الوقت الاعتقادية والنفسية والخلقية ... فهو إيمان نخر السوس فى قوائمه ولكنه لا يزال قائماً . إيمان ضعيف يضطرب لدى كل ريح يهب عليه وينبئ عن أن السلطة الظاهرة الباقية للكنيسة ليست هى تلك السلطة

المتينة التى كانت فى عصر لويس الرابع عشر أيام القرن العظيم حين كان الناس جميعاً فى عبوديتهم للملك ممتلئة قلوبهم إيماناً بدين الملك. ولكنها سلطة موضع مناقشات وأخذ ورد : فإنكار عند فولتير ، وتحوير عند روسو ، وإثبات عند غيرهما . وقد أدى ذلك إلى تفكك كل الواجبات التى يحتمها الدين فى نفوس الرجال والنساء وجعلهم جميعاً بعد الذى أكرهوا عليه من القسر ينغمسون فى حمأة الترف ويتذوقون متلهفين لذائذ الشهوات . . ونفوس رأت فى هذا التفكك من قيود الدين القاسية فرجة ينفذ إليها من خلالها نور الحرية فارتفعت نحو هذا الشعاع وتريد أن تطل من هذه الفرجة إلى المتسع العظيم وراءها وتصور فى خيالها ما يمكن أن يكون هنالك . وتقع هذه الفرجة لدى خيال روسو فى حائط سميك هو المدنية يحجب عن الناس الضياء ويكاد ينهار فوقهم كما يحجب الفضاء الذى وراءها : تلك الحال الطبيعية الجميلة المملوءة بالسعادة والنعيم والتى لا تعرف فوارق الدرجات ولا حمأة الشهوات ، بل يعيش أهلها فى نعمة المساواة ممتعين بلذائذ طاهرة وأخلاق أرسلت تلك الفوضى الدينية والنفسية إليها اضطراباً سمح للناس أن يعيشوا أبيقوريين لا مطمع لهم فى الحياة غير اللذة ، يتخذ النساء خلاناً يعيشون معهن تحت سقوف أزواجهن ويتخذ الأزواج خليلات تعرفهن الزوجات ويحتملنهن ويسير المجموع ولا ضابط له .

والآن فإنا ننتقل مع روسو إلى مونمرنسى حيث قضى شطراً لذيذاً من حياته وإن لم يسلم فيه من لواذع أمراضه المختلفة وما كان يخيل إليه من تجمع أصحابه الأقدمين لإسقاطه . ننتقل معه بعد أن ترك الصومعة وتمت بينه وبين الرفيقين جرم ومدام دبناى القطيعة .

٨

خرج روسو من صومعته عند مدام دبناى فى ١٥ ديسمبر سنة ١٧٥٧ بعدما بقى فيها مدة بدأها وانتهى منها على أسوأ حال وسار فى أثنائها مرضه العقلى فى طريقه شوطاً غير قليل حتى أصبح ما كان يشعر به من قبل من حب غيره الوقيعة به ، وكأنه حقيقة مجسمة يرويها ويؤمن بها وينادى الناس معلناً إياهم أن عصبة تروم الفتك بسمعته وبصحته وبحياته . على أن هذا المرض لم يقطع عليه طريق عمله . بل لقد كان فى تلك الفترة أكثر ما يكون إنتاجاً من الوجهة الأدبية . فكتب قسماً عظيماً من هلويز الجديدة وكتب رده على دالمبير وهو ما سنعرضه فى هذا الفصل . وكتب جزءاً من كتابه العقد الاجتماعى وقرأ وبحث كتب القسيس سان بيير ونشر منها جزءاً وفى هذه الفترة كانت العلاقة بينه وبين فولتير على أحسن ما يود أن تكون . وتبودلت بينهما خطابات كلها التلطف من جانب فولتير والإعجاب من جانب روسو ، وربما يكون ذلك بعض ما عزىّ روسو عن أصحابه الذين رآهم يتقلصون من حوله واحداً فواحداً .

وخرج من الصومعة إلى بيت عرضه عليه المسيو ماناس فى أحد أركان حديقته مونلدى بمونمرنسى وقضى أول أيام مقامه بهذا المنزل مثقلاً بالأمراض والمتاعب . وكأن ما مر به وما أصابه فى الزمن الأخير من اهتياجات وآلام جدد عنده الأمراض الكثيرة التى كان يعانيها . قال : « ولما رجعت من خيالات الصداقة وأوهامها وانقطعت عن كل ما حبب إلى الحياة فلم يبق لى فيها ما يهونها على نفسى لم أر أمامى إلا الشرور والتعاسات التى قطعت على كل سبيل المتاع وتمنيت تلك اللحظة التى أكون فيها حرا طليق أعدائى » .

وحسب روسو بخروجه من الصومعة إلى مونمرنسى أن أعداءه قد أسقط فى يدهم لقلة ما كانوا يتوقعون منه مثل هذه الحركة . وهو يستند فى ذلك إلى خطاب مؤرخ من جنيف فى ١٧ يناير سنة ١٧٥٧ ومرسل إليه من مدام دبناى هذه ترجمته (لم يصلنى خطابك المؤرخ ١٧ ديسمبر إلا أمس يا سيدى . ولقد وصلنى ضمن

صندوقة تحوى شتى الأشياء وظلت فى الطريق كل هذه المدة . وإنما أجيبك الآن عن حاشية الخطاب فإنى لا أجيد فهم الخطاب . ولو أن للتفاهم موضعاً بيننا لسرنى أن أحمل كل ما مضى على شيء من سوء التفاهم . أما عن الحاشية فلعلك تذكر يا سيدى أنا اتفقنا على أن ينقد البستانى أجره من مالى مناولة يدك أنت حتى يكون أكثر شعوراً بتابعيته لك اتقاء مثل ما حدث من سلفه من شحناء وسخافة . يذكر بهذا رد القسم الأول من أجره إليك واتفاقنا قبل سفرى بأيام على أن أرد لك ما دفعته أنت بعد ذلك . فرفضك قبول هذا المبلغ كما أشار به إلى (شويه) يقطع عندى بأن فى الأمر شيئاً . ولست أرى ما يبرر دفعك أجر بستانى برغم اتفاقنا ودفعك إياه حتى بعد خروجك من الصومعة . لهذا أمرت برد مبلغك إليك وأرى يا سيدى بعد تذكيرك بكل ما سبق ألا ترفض مبلغاً تكرمت بدفعه لحسابى) .

كان المنتظر أن يرتد جان جاك على أثر الخطاب عن عناده وأن يراجعه سابق ضعفه ويستعطف مدام دبناى عما قدم . ولكن مدام دبناى كانت بعيدة عنه لم يكن عنده من أصحابها من يتسلط عليه فيرده إليها كما كانت لا تزال دامية فى فؤاده تلك الجراح التى خيل له أن عصبة مدام دبناى — جرم وديدرو ودلباخ وغيرهم — كانت عملت على إيغارها . لهذا لم يرد عليها ولم يقبل درهماً مما قدمت وكان ذلك آخر العهد بينهما .

واستمر فى بيته الجديد وقد استقرت نفسه وهدأ خاطره واعتزم الابتعاد عن تلك التبعية للأغنياء والسيدات مما جر عليه البأساء كل أيامه . على أنه لم يبق عند عزمه هذا طويلا . ولكنه فى هذه اللحظة الحاضرة كان فى حال نفسية كرهت إليه الناس ومعاشرتهم وزادت فى فعل مرضه الفتاك الذى سبقت الإشارة إليه . فرجع إلى أعماله واستمر يكتب خطابات هلويز الجديدة بذلك القلم الموسيقى العذب تدفعه روح مملوءة حرارة وإحساس متقد وشهوانية مريضة ، وتدعم تلك العواطف التى كانت وبقيت فى نفسه بالنسبة لمدام دودتو . وسمحت له حريته الجديدة بالاستمرار فى ذلك على طريقة منتظمة . فلم يكن ثمة مدام دبناى لتدعوه وهو فى ساعة عمله لتسلى به ضيقها ، ولا كانت تلك الجمعيات الطويلة العريضة التى كانت تشغل القسم الكبير من وقته ، بل أصدقاء من الشبان والشيوخ من أواسط الناس الذين لا يطالبوننا أن نعطيهم من أنفسنا أكثر مما نأخذ منهم .

وإنه لفى حياته الجديدة يقضى كل يوم ساعتين فى صباحه ومثلهما بعد الزوال فى مقصورة معرضة لبرد الشتاء القارس مشتغلا بروايته فرحاً بحريته إذ جاء جزء (الانسيكلوبيديا) حاوياً مقالا عن جنيف كتبه دالمبير بمشورة من ڤولتير ، ويقترح ضمن معلومات أخرى إنشاء مسرح فى جنيف تمثل فيه الروايات والقطع الهزلية . وكأن ڤولتير وقد أقام فى (الدليس) على مقربة من مدينة كالفن لم ير مشهداً لرواياته أقرب من جنيف ، فعمل على تحريض أهلها على إقامة هذا المسرح حتى يرضى بذلك شهواته وأغراضه .

فلما وقع نظر روسو على هذا الاقتراح اهتاجت أعصابه وتمثل له رأى ڤولتير متقدماً بيد مجرمة لإتعاس موطنه . لهذا لم يلبث أن أسرع إلى ترك عمله واقتطع كل وقته للرد على هذا الاقتراح . ولم تمض أسابيع ثلاثة حتى كان قد أتم الرد وهيأه للنشر ثم نشره وأسماه « خطاب إلى دالمبير عن المناظر » .

ولقد حاز هذا الكتاب نجاحاً عظيماً . فما لبث أن نشر حتى تخاطفته الأيدى وتتابعت منه مختلف الطبعات ، وانبرى للرد عليه كثيرون ، وظهر أكثر من أربعمائة مكتوب فى هذا الباب . وبسبب هذا النجاح انبتّ ما بين روسو وڤولتير وقامت العداوة بينهما عداوة لا هوادة فيها .

جاء فى الفقرة الخاصة بجنيف فى الانسيكلوبيديا والمشير بإنشاء مسرح للتمثيل بها ما يأتى « إن الناس يصدفون عن الكوميديا فى جنيف لا لأنهم ينكرون الملاهى لذاتها ولكن خشية ما تنشره فرق الممثلين بين الشبيبة من الميل للتبرج والترف والتورط فى الشهوات . على أن فى الإمكان مداواة هذا الفساد بسن قوانين صارمة ترتب سير الممثلين وبمراعاة الدقة فى تنفيذها وبذلك تجمع جنيف بين المناظر والأخلاق وتتمتع بما فى كل منهما من الفائدة . فيكوّن التمثيل ذوق أهل المدينة ويعودهم رقة التعامل ودقة الإحساس مما لا سبيل إليه بغير هذه الوسيلة ، وتستفيد الآداب من غير أن ينتشر الفساد وتجمع جنيف بذلك بين حكمة اللقدمون وتأدب أثينا . ولدينا اعتبار آخر جدير بما عرف عن هذه الجمهورية من الروية والتدبر يدفعها لإباحة المناظر . ذلك أن ما فى النفوس من إساءة النظر إلى حرفة التمثيل وما تكيله من الاحتقار لهؤلاء الرجال الذين يحتاج إليهم التقدم ويعتمد عليهم الفن الجميل هو من أهم أسباب ما تلومهم عليه من فساد فهم يريدون أن يعتاضوا

بالمسرات والملاذ عما ينقصهم بداعى مهنتهم من الاحترام والكرامة . ولكن لو أن الممثلين أدخلوا إلى جنيف وأحيطوا بأنظمة حكيمة وأدى لهم من الاحترام والحماية ما يكونون له يومئذ أهلاً ووضعوا مع باقى الناس على مستوى واحد من الاعتبار إذن لأتيح لهذه المدينة ما لم يتح لغيرها ، ولجمعت فرق ممثلين موضع التكريم والإجلال . ثم تصبح هذه الفرقة أحسن فرق أوربا وأرقاها حيث يلجأ إليها من ممثلينا من يعوزهم الاحترام بيننا فيرفعون بملكاتهم شأن فن دقيق . ويصبح المقام فى هذه المدينة التى يراها كثير من الفرنسيين قطوبة عابسة لعدم وجود مناظر فيها مقام المسرات الشريفة كما أنه اليوم مقام الفلسفة والحرية . ويومئذ لا يجد الأجانب غريباً ما يرونه من إباحة السخريات السخيفة الخالية من كل ذوق أو أدب فى مدينة لا يتاح فيها المناظر المهذبة المنظمة . وفوق هذا فإن المثل الذى تتقدم به فرقة جنيف فى رقى أخلاقها وما ينشأ عن ذلك من احترام الممثلين أفرادها يكون درساً للممثلين فى الممالك الأخرى ولغيرهم ممن يعاملهم إلى اليوم معاملة القسوة والشدة . وتكون هذه الجمهورية الصغيرة قد عملت بذلك لإصلاح هام فى أوربا أكثر بكثير مما يجول اليوم بخاطر إنسان .

هذا دالمبير يتقدم تحت تأثير فولتير يريد إنشاء مسرح للتمثيل الهزلى فى جنيف مدينة روسو ومسقط رأسه . وروسو هو صاحب خطاب الطعن على العلوم والفنون واعتبارهما أساس تعاسة الناس وشقاوتهم وعليه انبنت شهرته فلم يكن معقولاً إذن أن يترك كلمة كهذه تمر وهو صلد جامد . فرد رداً مطولاً نسج فيه على المنوال الذى نسج عليه فى الخطابين الأولين من الخطابة واستشهاد التاريخ ولكن على طريقة أقل حدة وأكثر تفكيراً . ولا عجب فى ذلك . فقد بدأ روسو بالطعن على العلوم والفنون ولما تختمر الفكرة فى رأسه وإنما كانت نزعة شعرية دفعته إليها أقدار المصادفات وأغلت أمره فيها عواطفه البدوية الجوالة ونزعاته المتشردة المستوحشة. وميله للوحدة النفسانية . فلما رد عليه ستانسلاس وبوردبدأ يبحث وينقب يريد تعزيز الفكرة وإعلاء شأنها . وعلى أساس بحثه بنى خطابه فى عدم المساواة وأسبابها وآثارها . وفى كل هذه الأدوار والأطوار كانت نظرية الحالة الطبيعية أو بالحرىّ ذلك الخيال الذى صور هو به هذه الحالة يتجسم فى نفسه ويحتل مخيلته الشعرية ويملأ وجوده الأدبى ويصبح النواة تزداد كل يوم صلابة وقوة وتنبنى عليها كل يوم غلف وألياف وتستمر فى طريقها إلى النضج . ولم تكن روايته التى أقرت قدم الرومانتزم فى فرنسا

وفى أوربا ولا كتابه فى التربية ولا مبدأه السياسى الذى وضعه فى العقد الاجتماعى إلا آثاراً من تطور هذه الفكرة فى نفسه . وكان هذا التطور نزاعاً دائماً إلى الجهة الشعرية مستنداً إلى المحيطات الخطابية ميالا به إلى الإغراب حتى أخذ كثير من الكتاب على روسو تناقضاً فى الآراء كان يؤدى به أحياناً إلى ضد ما قال . وربما صح هذا المأخذ فى بعض التفاصيل مما كتبه روسو . وأما مبدؤه هو ، الصادر عن نفسه فقد كان مبدأ واحداً . وإن ظهرت فيه بعض علائم القلق فما ذلك إلا لأن القلق كان بعض علائم هذه النفس المضطربة السطح أشد اضطراب .

رأى القارئ من الكلمة التى كتبها دالمبير أنه لا يرى صعوبة تحول دون إنشاء مسرح فى جنيف غير تخوف أهل المدينة ما يتقدم به الممثلون للشبان من سيئ المثل ورأى ما طب هو به لهذا الداء وكيف اعتبره من السهولة بحيث لا يحتاج إلى أى عناء . فكان أول ما رد به عليه روسو قوله : « ما أكثر ما أجد من مواضع للمناقشة فيما أراك بكلمة قد حللته . فهل المناظر (الملاهى) حسنة أو سيئة لذاتها . وهل هى تتفق مع الآداب . وهل يمكن إباحتها فى مدينة صغيرة . وهل يمكن أن تكون حرفة الممثل شريفة . وهل تستطيع الممثلات أن تكن على جانب من العقل مثل سائر النساء . وهل تكفى القوانين لقطع دابر المفاسد . وهل يمكن مراعاة هذه القوانين مراعاة دقيقة . إلخ . . وهذه يا سيدى كلها أبحاث قد لا يكون قلمك غير جدير بها .

ثم أخذ يرد على هذه المسائل مسألة بعد أخرى جاعلاً رجل الطبيعة الساذج المثل الأعلى الذى يجب السير على مثله والنزوع إلى مثل حاله مقرراً أن المدينة بأذيالها من علوم وفنون واكتشافات واختراعات ليست إلا تدركاً إلى الشقاء والرذيلة . ولعل القارئ لم ينس أن روسو نسب العلوم على مختلف أنواعها من هندسة وفلك ومنطق وسواها إلى المفاسد المختلفة وإلى الميل للبطالة . وظاهر تغاليه فى ذلك وإغراقه . ولكنه أقل إغراقاً فى خطابه الجديد بل هو أميل إلى الصواب حين ينسب أصل الملاهى إلى ما تورثه البطالة من الملال وحين يعتبرها لذلك أثراً سيئاً لشر تجره المدنية .ولو أن الناس اعتادوا العمل وصرفوا ما زاد من وقتهم فى القيام بواجباتهم نحو عائلاتهم وأولادهم لما أخذت يوماً فكرة اللهو بنفوسهم : « فإن اعتياد العمل يجعل البطالة غير ممكنة الاحتمال والضمير الحى يطفئ فى النفس الميل إلى تافه المسرات ،

ولكن ملال الإنسان من نفسه وثقل حمل البطالة ونسيان الأميال البسيطة الطبيعية هى التى تحوجنا إلى المسرات الشاذة » .

ولما كانت فكرة التخلص من الملال هى أصل الملاهى والداعية إليها كان صنف المناظر إنما يعنيه منه ما يبعثه للنفس من لذة لا ما يقدمه لها من فائدة. فإن وجدت فيها الفائدة فمرحباً . ولكن مسرة الخاطر هى غرضها الرئيسى فمادام الشعب يبتهج بها فقد أدت هذا الغرض : وطبيعى أن الشخص الذى يريد إدخال السرور إلى نفوس الناس مضطر أن يميل مع ميولهم وأن يجاريهم فى أهوائهم فإذا نزعت به نزعة للطعن على شىء عندهم بلغ من التلطف فى ذلك حتى لا يترك طعنه أثراً يزعجهم . وكل مؤلف للملاهى يبتعد عن انتهاج هذه الخطة محكوم عليه فى رأى روسو بالسقوط وعلى عمله بالبوار . « ومن ثم فلا يصح أن تنسب للمسرح أية قدرة على تغيير العواطف أو الأخلاق الملزم هو أن يسير وراءها ويزيدها رواء وبهجة . ومن كتب ليواجه الذوق ويصادمه كان يكتب لنفسه لا لسواه » .

« ومن هذه الملاحظات المبدئية يتضح أن الأثر الذى تتركه الملاهى إنما يقتصر على تقوية الأخلاق الموجودة كما أنه يزيد الميول الفطرية ويجدد فى النفس نشاط كل الشهوات » . ويزيد هذا الاستنتاج قوة أن المؤلف التمثيلى يجتهد غالب الأمر لتبرير مركز أبطاله وإظهار أعمالهم طبيعية قدر الممكن . ولو أنه جعلهم جميعاً موضع طعن وتقزز لانصرف الأكثرون عن روايته لأنهم إنما يطلبون فى التمثيل ملهى لقتل وقتهم . . . وهذا النوع من عناية المؤلفين غير خاف على أحد . فما من رواية كان البطل فيها ميالا لأفظع النقائص بل الجرائم إلا جاهد المؤلف ليجعل من نقائصه وجرائمه بعض موضع للعطف عليه والميل له ، ولو أن جرائم فدرو ميديا عرضت على الناس لكانت كراهتهم لهذين الشخصين أشد لدى سماعهم قصصها منها بعد إذ يرونها على المسرح » .

وأما ما يقال من أن التمثيل مدرسة يُعلّم فيها فاضل الأخلاق بتحبيذه وينهى فيه عن المنكر بتقبيحه فهراء لا محل له ، لأن الناس أسرع ما يكونون سآمة للنصيحة حاذقة ، بل تراهم يميلون غالب الأمر إلى عدم التصديق بإخلاصها . وهمهم الأكبر أن يروا على المسرح صورة ما فى الحياة الحقيقية مما يستفز منهم عاطفة الغضب أو الرضا والحب أو الكراهية والاستحسان أو الاشمئزاز أو غيرها . ويميل كل منهم

لذلك معتبراً فيه موضعاً للهوه لا محلا لإصلاح عوج نفسه . ولو أن أحداً استطاع هذا الإصلاح لكان له من مناظر الحياة الحقيقية ومشاهدها ما يدعوه إليه . ولكن الناس يسيرون فى الحياة بغرائز وأخلاق ولدت معهم أو كسبوها من الصغر وقواها فيهم الوسط الذى يعيشون فيه ، ولن يهدم ممثل فى سويعة ما بنى الوجود فى زمان طويل . وإنما يشجع الممثل فينا أميالنا ويدفعنا إلى الإغراق فيها بما يعلق به قلوبنا أو مصالحنا .

وهذه الفكرة أبداها روسو فى كلمته لد المبير حين قال : (قلب الإنسان مستقيم فيما لا يتعلق بشخصه . فكل منا يؤازر العدل إذا اقتصر موقفه على مشاهدة خلاف يقع أمامه . وليس من سيئ الأعمال مالا يستثير سخطنا ما دمنا لا نفيد لأنفسنا من هذه الأعمال شيئاً . ولكن عواطفنا تفسد متى كان لصالح لنا فى الأمر مدخل . حينذاك ترانا نفضل الشر الذى يفيدنا على الخير الذى يصبو إليه طبعنا . وبذلك يعين الوجود الشرير على أن ينال فائدتين . واحدة يفيدها من ظلمه غيره والأخرى يستفيدها من عدل سواه . وأى فائدة له أكبر من أن يطالب الناس كلهم أن يكونوا عدولا إلا هو فيرد كل منهم إليه ما هو من حقه من غير أن يرد هو لأحد منهم حقاً . والشرير لا شك يحب الفضيلة . ولكنه يحبها صادرة عن سواه ليستفيد هو منها ولا يرغب فيها لنفسه لما يكلفه إتيانها من المشقة . مثل هذا الشخص يرى فى التمثيل ما يمكن أن يراه فى أى موضع آخر . يرى دروس فضيلة تلقى للشعب على أنه ليس منه وإناساً يضحون كل شىء من أجل واجبهم على ألا يطلب أحد منه شيئاً) .

وهل ترى الواحد منا إذا ذهب إلى التمثيل فتأثر بمنظر من مناظره يبقى تحت هذا الأثر زمناً طويلا ؟ أتراه إذا بكى لمصاب محزون أو حنق على شرير كثير الجرائم أو أولع حباً برجل فاضل أو بامرأة عفيفة يبقى فى حزنه أو حنقه أو ولعه أكثر من سويعة خروجه من باب الملهى ؟ بل لو أنه عرضت له مصلحة لحظة يكون التأثير بالغاً منه أشده مستدراً منه مدمعه أفتراه باقياً على تأثره حتى ليضحى مصلحته بسبب هذا التأثر ؟ كلا ! « وقد ذكر تاسيت أن فالريوس الآسيوى دافع عن نفسه لما اتهمته مسالين فى نفسها وأرادت به الهلاك عند الإمبراطور دفاعاً تأثر له هذا الأمير واستمطر عبرات مسالين نفسها . فانعطفت هى إلى غرفة مجاورة حتى يزول ما بها ولكنها لم تذهب قبل أن تسر فى بكائها إلى فتليوس ألا يطلق سراح المتهم . وما وقع

تطرى على متفرجة أبكاها التمثيل إلا ذكرت دموع مسالين وهذا البائس فالريوس الآسيوى » .

يضاف إلى ما سبق أن التمثيل لا يمثل صورة الحياة الحقيقية أبداً : إنما هو فكرة المؤلف يلبسها صور أشخاص يبدعهم خياله وينطقون بلسانه الداخلى الذى يعبر عن شخصية الفرد وفكرته فى كيفية السلوك بين الناس ليكون مقبولاً بينهم ومتمتعاً بنعم حياته الاجتماعية .

« وكذلك نرى كل شىء يضطرنا لإطّراح هذه الفكرة السخيفة فكرة إمكان توجيه المسرح وجهة الكمال باستخدامه للمصلحة العامة » فهو لا يهذب الخلق ولا يناصر الفضيلة ولا يمثل الحقيقة ولا يزيد على سخرية أبدعها الناس لإضاعة الوقت . قال ميرالت : « من فاضح الخطأ أن يغرينا الوهم لنحسب ممكناً أن نرى على المسرح ما بين الأشياء من صلة حقيقية . ذلك أن الشاعر يلجأ غالب الأمر لتحوير هذه الصلات حتى توافق ذوق الشعب . فهو يحقر من شأنها فى (الكوميك) ويضعها دون المتعارف . ويكبر أمرها فى (التراجيك) لتتحمل ما يريده من بطولة فتصير بذلك فوق مطمع الإنسانية » . وما كان فوق منالنا بله مطمعنا لا يستدعى منا أكثر من التحديق إعجاباً به أو عطفاً عليه أو تقززاً منه . فإذا انتهينا من التحديق رجعنا إلى عالم الحقيقة مغتبطين أن أمضينا من الحياة وقتاً غير مملول . وما كان دون متعارفنا كان موضع استهزائنا وسرورنا بعظمتنا الكاذبة .

لم يقف روسو من نقد التمثيل عند هذا الحد . بل لقد وجه إلى (التراجيديا) مذمة أنها تستنزف من دموع المتفرج وشفقته بما لا يبقى عنده محلا لدمع يراق أو شفقة تبدو أمام آلام الحياة الواقعة . أما الكوميديا فترمى لغرض تعيس . ذلك أنها لا تطلب من الإنسان أن يكون فاضلا أو غير شرير ، بل أن يكون بعيداً عن موضع سخرية الناس وانتقاصهم وذلك بأن يندمج فى سلكهم ويسير على متعارفهم . وأكثر متعارف الناس الكذب والأضاليل .

وهذا موليير شيخ كتاب الكوميديا الفرنسيين . « اقرأه ثم انظر كيف يسخر من غير مبالاة بتعكير صفاء النظام القائم عليه الجمعية لغير سبب إلا ليضاعف أمازيحه وسخرياته . انظر بأى جرأة مخزية يعبث بأقدس الصلات ويهزأ بأوجب الحقوق احتراماً : حقوق الآباء على أبنائهم والرجال على أزواجهم والسادة على

خدمهم . هو بلا شك يصل من ذلك ليضحكنا . ولكن مهارته فى هذا تجعله أكثر مسئولية حيث يجذب العقلاء أنفسهم ليشهدوا من غير حنق سخريات كان من الواجب أن تستثير غضبهم واشمئزازهم . قد يقال إنه يطعن النقائص . وإنى أدعو من شاء ليقارن بين النقائص التى يحاربها والنقائص التى يناصرها ثم ليحكم أى أصحابها أجدر بالملامة : فهل هو ذلك الرجل من أواسط الناس يدعوه بلهه وغروره ليحسب نفسه بين الأكابر أو هو ذلك الكبير اللص الذى يسرقه . ألم تُمثِل الرواية التى أشير إليها هذا الأخير الرجل الشريف وموضع الإعجاب . وهلا يصفق الناس طرباً بكل نكتة يؤذى بها الشخص الآخر – وهل هو ذلك الفلاح يبلغ منه الحمق فيتزوج من آنسة رقيقة مهذبة أو هى تلك الزوجة التى تسعى لتلويث شرف زوجها . فما بالك برواية يصفق فيها الحضور لخيانة وكذب وتبجح هذه الأخيرة ، ويضحك ساخراً من زوجها الذى لم يلق فى نظرهم إلا الجزاء الذى يستحقه – والبخل نقيصة لا شك كبرى – لكن أليست سرقة الابن أباه نقيصة أكبر منها – ثم ترى هذا الابن لا يحترم أباه ولا يأبى أن يوجه إليه ألف مسبة . فإذا غاظ الأب ذلك وبلغ منه الغضب حتى استمطر على ابنه اللعنات أجابه الابن فى سخرية : إنه فى غنى عن أعطياته . قد تكون النكتة ظريفة رائعة ، لكنها ليست لذلك أقل استيجاباً للوم ، والرواية التى تجعل الابن الوقح الذى قالها موضع العطف إنما هى مدرسة لفساد الأخلاق .

على أن أهم روايات موليير – (الميزانترب أو الطيرة) – تحتمل من هذا النقد الذى وجهه روسو إلى رواياته عامة القسم الأكبر والأهم . فهذه الرواية تكشف لنا أكثر من كل رواية سواها عن الغرض الذى وضعه موليير نصب عينه فى تأليف رواياته وتسمح لنا أن نقدر نتائج هذا الغرض تقديراً دقيقاً . فإنه وقد أراد أن يمتدحه الشعب قصد إلى ما يتذوقه الأكثرون منه من صفات وخلق من صاحب هذه الصفات بطلاً ثم جعل من مضادات هذه الصفات شخوصه المضحكة . ومن ثم يتضح أنه لم يكن يرمى إلى حسن تصوير الرجل الفاضل . وإنما كان مرماه مدح رجل الجمعية الظريف Homme du monde

وهو إذن لم يكن يقصد تقويم النقائص ولكن ستر العوج الظاهر . ولقد وجد من الالتجاء للنقائص نفسها آلة لدرك هذا الغرض . لذلك فإنه لما أراد أن يجعل

ما ناقض صفات الرجل الظريف ، رجل الجمعية ، موضع الهزؤ العام إختار الدور الذى يمجه الناس : دور عوج الفضيلة بالتشبث بها . وذلك ما عمله فى (الميزانترب) .

والميزانترب كما يعلم القارئ هى تلك الرواية البديعة التى وصف بها موليير الرجل الذى لا يعرف فى الحق والفضيلة مداجاة ولا مواربة والذى يقول للأعور فى عينه إنه أعور غير مهتم بصياغة ذلك فى قوالب الرقة والتظرف والنكتة الخلابة التى اعتادها القرن التاسع عشر فى فرنسا – والنساء والرجال عنده فى ذلك سيان . فهو لا يعرف كيف يطعن عند سيدة على قبعة تلبسها سيدة أخرى فإذا لبست الأولى مثلها امتدحها قائلاً إنما جمال القبعة بجمال لابستها . ولا يهتم وقد عرض عليه (أورنت) الشاب منظوماً شعرياً وضعه ويريد أخذ رأيه فيه أن يقول له آخر الأمر : إن الأولى بهذا المقطوع أن يطرح فى المرحاض . ويصل به التشبث للفضيلة ليعلن كراهيته للناس جميعاً (لأن بعضهم شريرون والبعض فى الشر متسامحون) . هذا الرجل هو ألسيست . وقد قابل به موليير فى الرواية فيلنت الظريف المتحبب صديق كل الناس والحلو اللسان لكل من حضر منهم . قابله به ليجعل ألسيست موضع ضحك الحاضرين . وهذا هو ما هاج روسو ضد موليير وجعله يعتبره أثيماً أيما إثم .

فإذا كان هذا هو شأن موليير فما بالك بغيره . وهل يعشى أحد فلا يرى ما يثيره هؤلاء فى رواياتهم من السموم الفاتكة بالأخلاق المضعفة للهمم اجتلاباً لمسرة الجمهور ولرضاه . وإنك لترى أكثر ما ترى النساء على المسرح أخذت بنواصى العرفان مدبرات حكيمات وما أبعد هذه الصفات عنهن ، وإنما يضع المؤلف الحكمة التى اختص بها هو وجنسه فى أفواههن وفى تصرفاتهن وفى حركاتهن فيبعث إلى نفوس النساء غروراً وتيهاً ويضعف الرجال أمامهن . وكيف لا يضعفون وهم يرون فى فم تلك المتشدقة على المسرح بدائع الأمثال وروائع الحكم فيحسبون للنساء فوق سلاحهن الطبيعى يتسلطن به على الرجال – سلاح التناسل – قوة أخرى من عقل راجح وذكاء متقد وفكر ثاقب . والحقيقة أن هذه القوة إنما هى قوة المؤلف وليس للنساء فيها أى نصيب . وتسلط النساء وضعف الرجال أمامهن فيه على الأخلاق العامة وعلى الملكات والقوى الإنسانية خطر ودمار كبير .

لا يعجب القارئ من هذه اللهجة فى الكلام عن المرأة . فقد كان روسو قليل

الثقة بها قليل التقدير لملكاتها . يحسب فيها مثالاً للشر ومغناطيساً يجذب الرجال على رقيهم عنها فى الجنس إلى الضعة والحقارة . ولذا نصح فى آخر الخطاب الذى نحن بصدده ألا يختلط الرجال بالنساء إلا فى ظروف خاصة . كما أن ما رسمه لتربيتها فى كتاب (أميل) لا يدل على احترامه لجنسها . ويخيل لنا أن هذا الخلاف بين المفكرين فى شأن النساء لا يمكن أن ينتهى إلا إذا تمكن النساء أنفسهن من وضع حد له بعملهن . وأما مادمن مقصورات على القيام بالوظيفة الطبيعية اللائى يشابهن فيها إناث كل أنواع الحيوان قاصرات دون بلوغ أعلى المراقى الفكرية التى اختص بها الجنس الإنسانى فسيبقى من بين الرجال رحماء بهن وسيبقى إلى جانب هؤلاء الرحماء عدول قساة فى عدلهم مستمسكون بأن حقوق الأجناس وحقوق الأمم لا تتعلق بسوادها الأعظم ولكن بعبقرية النابغين فيها وقوتهم واستطاعتهم رفع هذا الجنس أو بعث الأمة إلى صف الاحترام والاعتبار . فما لم تخرج من بين النساء نابغة تقودهن جيشاً لتقرير حقوقهن فستبقى هاته الحقوق منحاً تحت رحمات المانحين إن شاءوا أفاضوا فى الكرم أو شاءوا ضيقوا الخناق .

ولسنا الآن بمعرض مناقشة هاته النظريات فلمناقشتها مكان آخر . وإنما يحسن بنا وقد وصلنا إلى ما وصلنا إليه من معرفة روسو أن نتساءل عن السبب الذى يجعله أميل إلى القسوة فى الكلام عن النساء مع ما كان له من الولع بهن . لقد كانت حياته كلها سلسلة تودد إلى السيدات وتعشق إياهن . فكان تشببه مشتركاً بين مدام دفارانس ومدموازيل دبرى ومدام بازيل ومدام دى لارناج . ثم انتقل بعد ذلك ليتحبب إلى مدام دبناى ومدام دودتو وسينتقل من بعدهما إلى مدام دلكسمبور وإلى من سواها . فكيف به وهذه حاله وذلك تصرفه ميالا للانتقام منهن . . . أو – على الأقل – لتطبيق مبادئ العدالة القاسية عليهن ؟

يقول أخصام روسو : إن هذه إلا نزعة من نزعاته المتهوسة التى كانت تجعله يتناقض مع نفسه فى كل شيء فينادى بالمساواة والحرية ويطعن على الاستبداد وعلى امتياز الأشراف وهو فى كل حياته عائش فى كنف العظماء والعظيمات مطأطئاً لهم رأسه ، ويطعن على العلوم والفنون وقد أمضى حياته كلها ينقل نوت الموسيقى ، ويكتب الروايات الغرامية وينقد التمثيل هذا النقد المر وهو كاتب (الميزجالانت . وملاك القرية) وغيرهما من الروايات التمثيلية ، ويكتب فى التربية ليودع أبناءه ملجأ

اللقطاء . فطعنه على النساء لم يكن إلا متابعة للسير فى طريق مناقضة نفسه بنفسه .

ولسنا ننكر على روسو بعض التناقض بل الكثير منه . كلا ولا نحن نقول إن أعماله كانت تسير على مقتضى ما تدفع إليه أفكاره . ولكن هل من بين المفكرين من يسير فى حياته العملية على آرائه ومبادئه النظرية . إنا جميعاً مكرهون على أن نعيش تحت حكم الوسط ولو خالف ذلك ميولنا وأهواءنا ، لأن الوسط هو الجو المستطاعة فيه الحياة على ما يملؤه من مكروبات وجراثيم فاسدة . ولكنا غير مكرهين على أن نفكر كما يفكر الوسط . ذلك بأن الإنسانية استطاعت بجهادها العظيم أن تحل قيود الفكر وأن تترك للمفكر أن يخرج فى جو غير عالم المادة المحيط به وأن يرتب فى ذهنه صورة الحياة على نحو ما يريد ، وأن يخلق لهذه الصور منطقاً يثبت إمكان بقائها فى ظروف سعيدة . لكن المفكر ملزم أن يعيش فى حياته المادية عيش سواه أو دون هذا العيش بالقناعة بما دون الكفاف . ولو كانت القناعة من شأن رجال الأدب فى القرن الثامن عشر لثبت تناقض روسو مع نفسه . ولكن هؤلاء كانوا جميعاً يعيشون عيش ترف حرم روسو منه شهوته ، ومنعه عليه غروره وغلواؤه الكاذبان .

فانتقاص روسو من النساء إذن لم يكن مجرد اندفاع فى تيار التناقض ولا ميلا منه للإغراب . ولكن روسو كان من الأشخاص العاكفين على أنفسهم الميالين لتحليل ما يدور حولهم . وكان تقديره الأكبر للفكر والنظر . فلما رأى النساء أميل فى هذا الباب للتافه والضعيف بطبعهن لم يلبث أن حكم عليهن حكمه القاسى غير مهتم بقيمة الأمومة ولا بشدة العاطفة ولا بقوة الضعف النسائى . وزاده قوة فى يقينه ما كان عليه أكثر سيدات الطبقة التى أخذته فى كنفها من ادعاء الأدب . ولا شىء أتعس من دعوى النساء الأدب بله الفلسفة .

هذا هو أساس رأى روسو . وهذا هو ما جعله يرفع عقيرته ضد الحكم التى يضعها المؤلفون الروائيون فى أفواه الممثلات لما فى ذلك من استخضاع الرجال لجنسهن .

والمسرح يجر ضرراً آخر حينما يمثل العواطف وبالأخص عاطفة الحب على شكل يضعف النفوس ويذلها حتى لا تمتنع عن الانقياد وراء هذه العاطفة

ولو على حساب الفضيلة . وقد بلغ المؤلفون أقصى مدى التفنن فى ذلك ولم يعدموا يوماً أن يجدوا من الأعذار ما يبرر للمحب تضحية الواجب تحت أقدام عاطفته وعشقه . وهذا راسين أحد كبار مشايخ كتاب القرن السابع عشر الروائى يقدم لنا فى جل رواياته المثل عن ذلك .ولعلك تذكر يا سيدى رواية أظننا حضرناها معاً من بضع سنين وأحسسنا لمشهدها بسرور لم نكن نتوقعه . تلك رواية (برينيس) من روايات راسين . فلقد كان ميل من حضر هذه الرواية فى بدايتها ميل تحقير لهذا الإمبراطور الرومانى الذى يتردد كأخس الأخساء بين معشوقته وواجبه وازدراء لما يصحب به هذا التردد المخجل السافل من توجعات مخيفة تحط من مقامه الذى يعطيه التاريخ شيئاً من شبه القداسة . أما آخر الرواية فقد انقلب الأمر وصار الجمهور يشكو حال ذلك الرجل الذى كان يحتقره . ويهتم لأمر عاطفة كان يجعله من قبل أثيماً بسببها ويتأوه فى دخيلة نفسه لما سيكره هذا الملك عليه من تضحية شرف بلاده . هذا هو الإحساس الذى كان يدور بنفس الحضور جميعاً . فلقد كان لدور (تيتس) أن يحدث فى النفوس أثره المرجو لو أن هذا الملك لبس الثوب الذى يليق به . لكن الناس جميعاً شعروا إنما كانت كل الأهمية لبرينيس لأن حبها هو الذى استدعى الحادث الحاسم وحدد نوعه . وليس ذلك لأن توجعاتها وتأوهاتها المستمرة كانت ذات أثر مؤلم فى أثناء الرواية ، ولكن لأنها فى الفصل الخامس سكتت عن التأوه ونطق مظهرها المحزون وعينها الجامدة وصوتها المختنق عن ألم مستسلم مجاور لليأس فاستدرت عيون الحاضرين حين حبست هى عينها عن البكاء . فهل معنى ذلك إلا أنهم تخوفوا ما قد ينالها من طرد وما يصيب به ذلك قلبها من ألم . وهل لم يتمنوا جميعاً أن يطاطئ (تيتس) رأسه ولو دعا ذلك للمبالغة فى عدم احترامه . أفليست هذه رواية قامت بالغرض الذى وضعت من أجله وعلمت الناس كيف يجتازون محن الحب ويحاربون ضعفه » .

وكما يضعف المسرح الرجال أمام النساء فإنه بما يمثل فيه ينقص من احترام الشباب للكهولة وللشيخوخة ويضطر العجائز إلى التشبه بالشبان فى مرحهم ولهوهم وينزلهم بذلك إلى درك ما كان أغناهم عنه .

ليس إذن للتمثيل فائدة من أى جهة نظرنا إليه بل هو فى عجزه عن تقويم الأخلاق يستطيع كثيراً إفسادها . فهو يزيد شهواتنا تحكماً فينا ، ويفسد أعصابنا ،

ويضعفنا عن مقاومة أهوائنا ، ولا يكون لما يُحبذ فيه من الفضيلة أثر إلا بمقدار ما يرضى أنفسنا رضاً مؤقتاً .

أما الممثلون فلا يستطيعون أن يكونوا مثال الفضيلة لأن وظيفتهم تقضى لهم بشيء من الإباحية المبهرجة يلزمهم نوعاً من الحياة لا يتفق مع مبادئ الصراحة والإخلاص . وكيف يرجى من شخص يقضى أهم وقته وأكثره ليكون غير نفسه أن يكون مثال الصدق والعدالة أم كيف نطالبه بالامتناع عن سلوك سبيل الإباحة فى أعماله وحياته بينا يقتضى فنه ووسطه الإباحة التامة ؟

« ثم ما هى براعة الممثل ؟ هى أن يقلد سواه ويلبس خلقاً غير خلقه ويظهر غير نفسه ويهتاج ودمه هادئ بارد ويقول ما لا يجول بخاطره بهوادة طبيعية ، كأن ما يقوله هو من بنات أفكاره ، وينسى مركزه لكثرة ما يقف فى مركز سواه . وما هى حرفة الممثل ؟ هى حرفة يعرض بها الشخص نفسه أمام الجمهور بثمن معين ويعطيهم حق تحقيره والاستهانة به مقابل الأجر الذى يدفعونه ويبيعهم شخصه بيع السلع المعروضة فى السوق . وإنى أستحلف كل مخلص هلا يشعر فى أعماقه أن بيع الشخص نفسه على هذا الشكل أمر دنيء سافل ، وأنتم أيها الفلاسفة يا من تدعون أنكم فوق الخزعبلات المتداولة . أفلا تموتون خجلا إذا ألبستم ثياب الملوك وقدمتم لتقوموا أمام الجمهور بدور غير دوركم ولتعرّضوا جلالكم لازدرائه وصخبه . . فالممثل إذن لا يفيد فى الحقيقة من حرفته إلا الدناءة والكذب وباطل الغرور والعبودية السافلة التى تجعله صالحاً لأن يكون كل الأشخاص إلا أشرفهم وأكرمهم - إلا أن يكون رجلاً » .

لكن التمثيل والممثلين هم خلق مدنية معينة وعصر معين فلا يمكن أن يكونوا خوارج على حياة بلاد وعصر أنبتاهما . إنما هم قسم من الحياة فى ذلك الزمان والمكان ومكروب من مكروبات جو المدن الكبرى أصبح جزءاً منه لا يمكن انفصاله عنه ، ولكن الجريمة كل الجريمة تلقيح جو المدن الصغيرة الصحيح الصافى بهذا المكروب الفتاك .

وهذا هو ما ينادى به روسو حين يقول : « فى مدينة كبيرة ملأى بالدساسين والعاطلين ومن لا دين لهم ولا مبدأ ممن أفسد خيالهم الكسل والبطالة وحب الشهوات وكثرة الحاجات ، فى مدينة كبيرة لا قيمة فيها للأخلاق ولا للشرف . وحيث

يسهل على كل إنسان أن يبطن على الناس حقيقة أمره وألا يظهر لهم إلا ما يفيد مركزه ثم هو لا ينال من الاحترام إلا على مقدار ثروته . فى مثل هذه المدينة يتعين على أولى الأمر أن يستكثروا من الملاذ المباحة وأن يسعوا لجعل كل ما يوجد منها رقيقاً جذاباً إلى حد يبعد عن الأفراد ما يستهويهم إلى سواها مما هو أشد منها خطراً . ومادام عمل الناس ثبت شر كله ، ومنعهم عن العمل منعاً لهم عن مقارفة الآثام ، فإن إضاعة ساعتين تخمد فيهما حركة الشر هو بمثابة محو جزء من اثنى عشر جزءاً من الجرائم التى ترتكب . فإن ما يقع فى الملاهى وملاجئ العاطلين من نميمة وغيبة وما هو شر منهما إنما هو كسب للآباء فى شرف بناتهم أو زوجاتهم وفى مالهم أو مال أبنائهم .

« أما فى المدن الصغيرة القليلة السكان حيث كل فرد رقيب بطبعه على كل من سواه لأن كل فرد واقع تحت النظر العام وحيث يسهل على الشرطة وأولى الأمر المراقبة والتدقيق فيجب اتباع مبادئ مخالفة لتلك كل المخالفة . فأما إن كان فى المدينة صناعات ومهن وفنون فالواجب اتخاذ الحيطة حتى لا يكون لدى الآهلين من دواعى اللهو ما يضعف فى نفوسهم الاغتباط بهذه المهن والتلذذ بالعمل فيها بما يزيد فى ثروة الأمير وتقتير الرعية . وأما إذا كان الناس يعيشون عيش البطالة ولا تجارة لهم فيجب ألا يحبب إليهم الخمول الذى هو أصيل فيهم بطبيعة العيش البسيط الذى يعيشونه . بل يجب على العكس من ذلك أن يكونوا بحيث لا يطيقون البطالة بالتزامهم خلق أعمال مفيدة يضيعون فيها ما فاض من وقتهم .

« وإنى أرى الناس فى باريس - وشأنهم فى الحكم على الأشياء أن يأخذوا بظواهرها لعدم وجود فراغ لديهم يسمح بالإمعان فى بحثها - يحسبون أن سكان مدائن الريف التى يوهم ظاهرها لصاحب النظرة الأولى بالجمود والبطالة هم قوم غرقى فى سكينتهم المتبلدة ليس لهم من الحياة إلا عيش الاستنبات المميت أو الشحناء والخصومة ، وهذا خطأ سرعان ما يرجع الإنسان عنه متى ذكر أن الأكثرين من رجال الأدب المشهورين فى باريس وأن معظم الاكتشافات المفيدة والاختراعات الجديدة إنما تجيء إليها من هذه الأرياف الحقيرة فى نظر أهلها . . ولو أنك بقيت زمناً فى إحدى هذه المدن الصغيرة ، لم تحسب فيها بادئ الأمر إلا مكنات لا إرادة

لها ، لرأيت ، فضلاً عن أن الناس أكثر تعقلاً من القردة أهل المدن الكبرى ، أنك لن تعدم أن تجد فى بعض أركانها رجلاً دقيقاً يدهشك بمواهبه وأعماله ويدهشه منك أن تعجب به ، ويريك معجزاته فى العمل وفى الصبر والصناعة معتقداً أنه إنما يريك أشياء معتاداً نظرها فى باريس . تلك هى بساطة العبقرية الحقة . وليس هذا الرجل دساساً ولا كثير الحركة إذ هو يجهل طريق الألقاب والثروة ولا يفكر فى البحث عنهما ولا يقارن نفسه بأحد . كل ما يصدر عنه راجع إلى ذاته . لا تهزه مطاعن الغير وقل أن تسره مدائحهم . فإذا قدر نفسه لم يهتم بالسعى ليضعها فى المركز الواجب لها بل يبقى ممتعاً بذاته من غير اغترار » .

فمن الجريمة إذن تحويل أنظار أهل هذه المدن الصغيرة ، حيث العمل الجد والتواضع الجميل ، عن أعمالهم إلى اللهو بخلق مسارح يضيعون وقتهم فيها ويعتادون البطالة بها ، وتكون حملا عليهم فى نفقاتها ومثلا سيئاً لهم بممثليها الذين لا يستطيعون أن يكونوا صالحى الأخلاق . وليس معنى هذا أن يحرم هؤلاء الناس من كل متاع ، بل يمكن أن تكون لديهم أنواع المتاع البريئة التى عرفوا كل أيام حياتهم والتى تليق دون سواها بهم . وقد عرف روسو قوماً يقيمون فى جبل على مقربة من نيوشاتل ويعيشون ممتعين بالحياة أجمل متاع لأنهم يشتغلون معظم وقتهم ويقضون ساعات الراحة فى لهو برىء . فكل منهم يعرف الموسيقى وكلهم يغنى ويحب الغناء وكلهم يسر أكبر السرور بتمضية وقته مع الآخرين يتحدثون ويتناجون مبتهجين فرحين .

وهنا يذكر روسو مطولا ما يدعوه للاعتقاد بأن الممثلة لا يمكن أن تكون امرأة فاضلة وبضرورة عكوف المرأة على منزلها واشتغالها بالوظائف التى أعدتها الطبيعة لها ، ويرد بشدة على الكتاب الإباحيين الذين يقولون لم لا تتمتع المرأة بما يتمتع به الرجل ، وهل يعطى لنصف الإنسانية حق يسلبه الآخر قال : « يقولون وكيف يكون مزرياً بالمرأة ما لا يكون مزرياً بالرجل ولمَ يعد جريمة لأحد الجنسين ما يباح للآخر ، كأن كانت نتائج عمل الطرفين واحدة أو كان أدق واجبات المرأة لا ترجع إلى وجوب أن يكون لكل طفل أباً » .

ومن الجريمة إذن أيضاً خلق مسرح فى جنيف وهى مدينة صغيرة يقطنها عشرون ألفاً يعيشون عيش الفضيلة ويتمتعون بأنواع بريئة من اللهو تسلى وقتهم

ولا تصيب مدينتهم بسوء . . وسيان ارتاح الأجانب للمقام بها أم هم لم يستريحوا فليس من العدل ولا من حسن السياسة إفساد أهل الدار على أنفسهم لإدخال المسرة على الغريب النازح . كفى الباريسى الذى يحضر إلى مدينة كلفن أن يرى ما فيها من جميل المناظر وفاضل الأخلاق . وربما كان له فى الابتعاد عن موبقات تلك المدينة المضطربة ما يهدئ أعصابه ويعيد إليه بعض سكينته .

أما المناظر البريئة التى يرى روسو ضرورة الاستكثار منها فى المدن الصغيرة استبعاداً للسآمة والقلق من النفوس فيجب أن تكون على حد عظيم من البساطة والمقـــاربة للحال الطبيعية . ولو أن أهل جنيف كانوا على الفطرة الأولى وكانت مجاورتهم للمدينة الفاسدة لم تفسد عليهم بعض فضائلهم لفضل لهم روسو رقص الشابات العاريات كما كان يحدث فى إسبرطة . ولكن ذلك قد أصبح للأسف غير ممكن بفضل هذا الفساد فلم يبق إلا أن يستزيد أهل جنيف مما عندهم من أنواع الرياضة وأن يقيموا أعياداً عدة للسباحة والرماية وغيرها : « أما أن تنقل إليها هذه الملاهى التى تشتمل عدداً قليلاً فى قاعة مظلمة يبقون فيها سكوتاً مبهوتين لا ترى أعينهم إلا المعاقل والسيوف والعساكر والصور المفزعة صور الاستعباد وعدم المساواة فلا . . بل أى هذا الشعب السعيد . ليست تلك أعيادكم . إنما أعيادكم أن تجتمعوا فى الهواء الطلق تحت السماء الحرة تتمتعون بهناءتكم وسعادتكم . . ولا تكونن مسراتكم مخنثة ولا ممثلوكم سلعاً . ثم فلا يرسل ثمت إليها أى شىء مما يشعر بالخوف أو المنفعة . بل لتكن حرة كريمة مثلكم . ثم لتضىء الشمس ملاعبكم البريئة تكن قد أضاءت أكرم ما يمكن أن يسطع عليه نورها » .

أما فى الشتاء حيث يحول الطقس دون مثل هذه الملاعب والأعياد فليجتمع الشبان والفتيات فى بهو متسع تحت نظر ورقابة الأكابر والعجائز — لأن روسو لا يميل إلى اجتماعهم عادة أحراراً — وليكن أهم غرض من ذلك أن يقع كل شاب على الفتاة التى يعد منها للمستقبل زوجاً . . وقد رتب روسو هذه الاجتماعات ترتيباً دقيقاً وأراد أن يجعل لرئاستها حكماً ينظر فى كل ما يحدث فيها .

هذا هو خطاب روسو إلى دالمبير عن المناظر . قال جول لمتر (وكما قدم روسو للثورة لغتها فى خطابيه الأولين فهو بخطابه هذا يعين لها أعيادها — وكذلك فسيبين لها فى عقده الاجتماعى فكرتها عن الحكومة) .

وانا نشارك روسو عقيدته فى أن المسرح لا يمكن أن يكون موضع درس أو تقويم للأخلاق ، ذلك لأن الأخلاق تتكون بالزمان وفى سنين طويلة وتحت آثار قوية شتى فلا يمكن أن يغيرها مؤلف أو ممثل فى سويعة . ثم إن اتجاه الإنسان ساعة ذهابه للمسرح يختلف عن اتجاهه ساعة ذهابه لقاعة الدرس بل هو يعاكس هذا الاتجاه الأخير ويناقضه . فالواحد يذهب إلى المسرح بفكرة اللهو وإضاعة الوقت فى إمتاع العين والأذن وفى إراحة النفس من عناء عمل الحياة . ولا شك فى أن الاتجاه والفكرة التى تحركنا نحو شيء من الأشياء هى التى تعين الأثر الذى يتركه هذا الشيء فى نفوسنا ، كما لا شك فى أنا حين نذهب بفكرة إضاعة الوقت نكون أبعد ما نكون عن فكرة الدرس والاستفادة .

ثم إن ما نراه على المسرح من الصور والمناظر وما نسمعه من مختلف الآراء ليس من شأنه أن يدفع إلى نفوسنا عقيدة تستقر عندها وتنطبع فيها ، بل هى لذة ساعة نلهو فيها بهذه الصور والمناظر والأفكار ثم ننساها وتبقى عندنا فى حيز الرواية والحكاية لا فى حيز العقيدة والاقتناع . وربما استشهدنا بها يوماً حين نقص خبراً أو نؤيد رأياً ولكنا لا نرجع إليها حين نرتبك فى أدق أمورنا الخاصة . والأخلاق والفضائل عقائد تتكون فى نفوسنا وتثبت فيها فنسير عليها فى حياتنا من غير بحث ولا تفكير .

أما أن المسرح يستطيع إفساد الأخلاق ففيه من روسو إغراق كثير ، ولكنه يحتوى أيضاً جانباً من الحقيقة . وما علينا إلا أن نرى ما تتركه الهزليات فى النفوس والأذهان والمحافظات من الأثر ثم نقرنه إلى ما يبقى بعد الروايات الجدية لنرى أن السخف والسخرية أقرب للتعلق بالنفوس ، خصوصاً نفوس هذه الأجيال المادية الإباحية ، كما أن ما يسعى وراءه المؤلفون التمثيليون من تحليل الأخلاق وعرضها للنقد العام والاستخفاف بالبعض منها من شأنه أن يهدم بعض أركان الأخلاق المرتكزة على مجرد العقيدة من غير استناد إلى التعقل والبحث . ومن هذه الأخلاق الاعتقادية ما هو كبير الفائدة .

ولخطاب روسو هذا روعة تحبب إلى النفس قراءته وفيه أفكار وصور تجعله لذيذاً جذاباً . وهو أكثر سكينة ورزانة من الخطابين السابقين خطاب العلوم والفنون وخطاب عدم المساواة ، ويدل على أن روسو ساعة كتبه كان فى أهدأ

وأهنأ أيامه . وما لبث أن ظهر فى عالم المطبوعات حتى تخاطفته الأيدى وتعددت منه الطبعات .

وقد استثار هذا الخطاب حوالى أربعمائة رد عليه . على أن أهم الردود هما رد مارمونتل ورد دالمبير نفسه . ولم يمتنع فولتير أن يعاون مركيز (زيمن) فى الرد على روسو بعد ما اعتقد أن كلمة روسو موجهة إليه خاصة . فأما رد مارمونتل فسطحى ضعيف . وأما رد دالمبير فدقيق حشوه النكات البالغة والتقريع المر . وحسبنا منه هذه العبارة لنرى كم كاد فيه لروسو : قال : « إن الأكثرين من خطباء المسيحية يحكمون على ما لا يعرفون حينما يتكلمون عن الكوميديا . أما أنت فقد درست وحللت ووضعت بنفسك هذا السم القاتل الذى تسعى لذياده اليوم عنا . ثم نراك تطعن على رواياتنا وقد ألفت فيها بله ما شاهدت منها . قد أعلم رأيك فى أن الملاهى لازمة فى مدينة بلغت من الفساد ما بلغت تلك المدينة التى أقمت فيها زمناً طويلاً . وإنما لأهلها الضالين لا لأهل وطنك ألفت رواياتك . أى أنك يا سيدى قد عاملتنا معاملة تلك الحيوانات المريضة يقضى عليها قتلاً مخافة أن يمتد بها الألم . وقد كان لسواك أن يهتم بهذا الأمر ويوفر على حسن ذوقك مثل هذا الطعن بعد الذى كان بيننا لما ألفت من نجاح وإقبال أعلاك كشاعر وكموسيقى وجعل للتمثيل من الأنصار مبلغ ما صرفت عنه بلاغتك . لهذا فلن يضر الابتهاج بقراءتك الابتهاج بسماعك وستبقى طويلاً تعانى الألم أن ترى روايتك (ملاك القرية) تفسد كل ما استطاعت كتاباتك ضد المسرح أن تجيء به » .

وأما فولتير فقد رأى فى روسو العدو اللدود والعقبة الكؤود بعد نشر هذا الكتاب فجعل يطعن عليه بكل لسان ويرميه بكل مسبة ويفسد عليه كل سبيل ، ولا عجب فقد كان هم فولتير أن تمثل رواياته على مقربة من مقامه (الدليس) بجنيف فإذا هذا الصائح ينفر عنه الناس ويخيفهم من أذى عمله ويقول لهم : « إياكم والروايات فهى مبعدة لكم عن الطبيعة مقربة إياكم من الفساد لأنها أبعد ما وصل الإنسان إليه فى التصنع والكذب والظهور بغير مظهره » . وإنا ننقل للقارئ هنا شيئاً من الخطابات المتفرقة التى أرسل بها فولتير لبعض أصدقائه بهذه المناسبة ليرى كم كان أبو السخرية مهتاجاً مضطرباً :

فقد كتب إلى دالمبير : « أصحيح أن روسو كتب ضدك وجدد شحناء مقال جنيف . (وهى الشحناء الدينية التى سبقت الإشارة إليها) بل لقد بلغنى فضلاً عن هذا أن السخف بلغ منه حتى قام فى وجه التمثيل . وانه فى هذا ليرتكب خطيئتين : فهو يطعن على فن عالجه ويكتب ضدك وقد أثقلته بالمدائح » :

وكتب بعد ذلك إلى (تيريو) : « أما عن جان جاك فإن جنيف كلها تهرع إلى التمثيل من كل صوب وحدب بالرغم مما كتبه هو ضـده وكذلك أصبحت مدينة كلفن مدينة المسرات والتسامح » .

ثم كتب إلى دالمبير : أتراك تجيب حقًّا على هذا المجنون روسو . هذا اللقيط ابن كلب ديوجانوس . . ثم كتب إليه أيضاً : أتنازلت لترضى فتقارع هذا المجنون جان جاك بالحجة والدليل .

وفى هذا الحين نشر خطاب عن التفاؤل كان روسو قد بعث به إلى فولتير ولم يسمح له بنشره . فلما رآه منشوراً طار صوابه وكتب إلى فولتير يحاسبه على نشره ويعاتبه ويلومه . ثم ما أسرع ما انتقل من لهجة اللوم والعتاب إلى المصارحة بالعدوان قال : « إننى لا أحبك يا سيدى حيث أذيتنى وأنا تلميذك والمعجب بك أذى بلغ منى . فقد أضعت جنيف حين آوتك وأبعدت عنى أهل وطنى جزاء لى على ما قمت به من تحبيذك والتصفيق لك بينهم . وأنت الذى تجعل مقامى فى بلادى غير محتمل وأنت الذى ستجعلنى أموت فى أرض غريبة محروماً من كل ما يتعزى به المائتون ، وملق فى الثرى من غير أى تشريف فى حين أراك تلق فى بلادى كل أنواع التكريم والتشريف التى يطمع فيها إنسان . . بلى . فأنا أكرهك وأنت الذى أردت ذلك . لكنى أكرهك كراهية رجل كان أجدر به أن يحبك لو أنك أردت محبته . ولم يبق فى قلبى من العواطف التى كانت فيه لك إلا إعجاباً لا يستطيع أحد أن يمنعه عن عبقريتك وإلا محبة مكتوباتك . وليس ذنبى أنى لا أستطيع أن أحترم إلا كفاءتك . ولكنى سأحترمها دائماً وأقدم ما يجب لها من الفرائض . وداعاً يا سيدى » .

وكان هذا الخطاب آخر العهد بين فولتير وروسو . فلم يرد عليه فولتير . ثم لم يفتأ بعد ذلك أن ينتقص من روسو كلما عرضت الفرصة بل كلما عرض اسمه . ولم يكتف بأن ينسب إليه الجنون والغرور والنقائص طرًّا بل ادعى عليه أنه انضم

إلى أخصامه فى جنيف وأراد الإضرار به . قال أميل فاجيه : « وكل ما هناك فى مكاتبات روسو أن روسو به غيرة من فولتير وأنه ينعى انحطاط الأخلاق فى مسقط رأسه ويعتقد أن لفولتير يداً فى المعاونة على هذا الانحطاط . أما ما سوى ذلك فمحض وهم من فولتير ، وهو المتظنن فى كل شيء تظنن روسو وإن يك على شكل آخر . وإن تبادل العداوة بين هذين المصابين بحمق معاداة الناس طرًّا أمر يستحق النظر . وسنجدهما متواجهين عما قريب » .

وفى هذه الأثناء ظل روسو محتفظاً بما كان قد اعتزمه من الابتعاد عن الكبراء والعظماء . أو بالأحرى لم تسمح فرصة جديدة تخضعه لهم . فقد كان زواره (بمونلوى) جماعة من محبيه والمعجبين به من سواد الناس ومن ليس لهم دالة الشرف والثروة . ولهذا رأيناه أتم خطابه إلى دالمبير فى ثلاثة أسابيع واستمر فى كتابة روايته هلويز الجديدة . وقد كان أشد الناس التصاقاً به شاب اسمه (دلير) من المولعين بالأدب وعلى شيء غير قليل من الغفلة بلغ به حتى اقتاد رفيقته وصاحبتان لها إلى منزل روسو الذى انسل من الدار حينما علم بالأمر وتركها لهم . وقد أغضبه تصرف صديقه حتى ذكر له رفيقته بلفظ التحقير . وبعد تبادل الخطابات بينهما فى هذا الباب تنوسيت المسألة ورجعا لما كان عليه من حسن العلاقة .

غير أن روســو لا يمكن أن يعيش طويلاً على هذه الطريقة . إنه رجل ولد صغيراً وطعن على الكبراء بنغمة استلفتت الأنظار واستدعت الإعجاب فجعلته موضع عطف هؤلاء الكبراء أنفسهم بما ركب فى النفس الإنسانية من التناقض ، وجعلته وهو الداعى إلى الحرية المحب للمساواة المنادى بالبساطة الطبيعية ينتقل من ظل كابر إلى ظل كابر آخر . لهذا فلم يطل به المقام فى « مونلوى » حتى تعرف بالمركيزة فردلن وبالبرنس دوكونتى وبالمرشال دلكمسبور وزوجته . ولم يمض بعد ذلك زمن طويل حتى انطوى تحت جناحهم وإن احتفظ بشيء من حريته التى كان قد فقدها تماماً فى كنف مدام دبناى ومدام دودتو وأصحابها .

وكذلك رجع العصفور إلى القفص من جديد .

٨

بقى جان جاك فى منزله بمونلوى حراً من قيود الكبراء مكتفيا بصداقة رجال ونساء كانوا جميعاً يودونه ولا يطلبون منه أكثر من مجرد الصداقة . ولقد ذكر فى اعترافاته أسماء الكثيرين منهم أمثال كونديه ومالتور والأب برتيبيه وغيرهم .

وكان كلما أوغل فى وحدته وانقطاعه ازداد عقيدة أن أصدقاءه الأقدمين يعملون جميعاً يداً واحدة على الوقيعة به والقضاء على سمعته وشهرته . وكان أهم ما بلغه أنهم ينعون عليه انقطاعه عن باريس إلى الخلاء وعلاقته بمدام دودتو ورفضه مصاحبة مدام دبناى إلى جنيف وتركه الصومعة . فلما بلغته هذه المطاعن زادته انكماشاً بل جعلته يفكر فى ترك التأليف والأدب ويبتعد عن الناس إلى الأرياف فلا يعرف عنه أحد شيئاً . وزاده تمسكاً باعتقاده أن زاره سان لمبير فى مسكنه الجديد وقص عليه أشياء عن مدام دودتو لم يفض روسو بها إلا لصديقه الحميم ديدرو. فلما استأذن كلام سان لمبير على سمعه أيقن أن ديدرو نفسه انقلب عليه وأنه أصبح ولا صديق له . فدس فى مقدمة كتابه إلى دالمبير عن المناظر كلمة استعارها من (الأكليزياستيك) أشار بها إلى انقطاع الصلة بينه وبين صديقه مقلداً فى ذلك (مونتنى) حين أعلن للملأ على أثر انقطاع الصداقة بينه وبين الأب تورنمين خبر هذه الحادثة قائلاً : (لا تسمعوا لما يقوله الأب تورنمين عنى ولا ما أقوله عنه فقد انبت حبل صداقتنا) . لكن هذا التصرف الذى لاقى من الناس إعجاباً بمونتنى انقلب على روسو واعتبر مأخذاً جديداً عليه . فقد رد إليه سان لمبير هذا الكتاب حينما أهداه إياه وشفع رده بخطاب قدح به فى تصرف روسو أشد القدح ، وبلغ من ذلك أن أعلنه بانقطاع كل صلة بينهما. وكذلك خيل لروسو أن لم يبق له حتى ولا من القدر نصير . وظل وكل عزائه عن هذه المصائب المتتابعة أنه لم يقصد بإنسان سوءاً وأن قلبه أطيب القلوب .

وانه ليظن أن قد تم انقطاع أصدقائه الأقدمين طراً عنه إذ وصله خطاب من المسيو (دبناش) يشكر له فيه إهداءه كتابه عن المناظر ويعتذر بكثرة أشغاله

عن عدم ذهابه إليه ويدعوه لتناول العشاء معه عند مدام (دوبين) حيث يكون سان لمبير وفرانكى ومدام دودتو ويخبره أنهم جميعاً يودون أن يكون روسو من جماعتهم . فقبل روسو الدعوة بعد تردد . ولما ذهب فى الموعد المعين أحسن الحضور جميعاً استقباله فأصلح ذلك بعض الشىء من علاقاته بسان لمبير ، وإن لم يعدها إلى سابق شأنها . وكذلك كان الأمر فيما يتعلق بمدام دودتو ، كان من نتيجة ذلك أن أعاد إلى روسو سابق هدوئه .

وفى شتاء سنة ١٧٥٨ انتهى من كتابة الهلويز وفكر فى طبعها ونشرها وبعث بها إلى الناشر (رى) فى أمستردام . ولقد كان تصحيح مثل هذا الكتاب وطبعه مما يكلفه كبير عناء لولا أنه عرف فى ذلك الحين المسيو لامونيون دى مالرب رئيس المكتبة الملوكية معرفة زادت توطداً مع الأيام وحببت كل واحد منهما إلى صاحبه وجعلت مالرب يستعين بمركزه لاستيراد (بروفات) الكتاب من أمستردام مع بريده هو من غير أجر ويرسلها لروسو كذلك ليعنى بتصحيحها وردها عن الطريق عينه مما وفر على روسو كثيراً قد كان يثقله لو أنه اضطر أن يدفع كل هذه النفقات من جيبه .

وفوق تفضله باستيراد (بروفات) الهلويز من أمستردام وردها إليها فقد أخذ المسيو مالرب على نفسه النظر فى الرواية وإجراء التصحيحات اللازمة لإمكان طبعها ونشرها فى فرنسا . ذلك أن حرية النشر لم تكن مبدأً مقرراً فى ذلك العصر كما هى اليوم ، بل كان من الواجب عرض أى كتاب قبل طبعه حتى لا يصادر أو يلقى القبض على صاحبه . ولقد كان دالمبير نفسه هو الذى قام بالنظر فى خطاب روسو عن المناظر ورأى أن لا مانع من طبعه . كذلك أخذ المسيو مالرب على عاتقه النظر فى الهلويز لهذه الغاية . وقد فصل عنها بعضاً مما فى النسخة الأصلية مما رأى أنه قد يمس إحساسات بعض أشخاص فى البلاط وبالأخص مدام دى بمبادور .

وكان من أفضال مالرب على روسو فوق ما سبق أن عرض عليه عن طريق المسيو مارجنسى وظيفة التحرير فى جريدة العلماء . وبعد تردد بين قبول ذلك المركز أو رفضه . فضل روسو الرفض ، قال : « لقد كنت أعلم أن امتيازى فى الكتابة راجع إلى حرارة فى النفس تمس ما أعالجه من الموضوعات ، وأنه حب

العظيم والحق والجميل هو الذى يحرك عبقريتى .. لكنهم ظنوا أنى أستطيع الكتابة بالحرفة كما يكتب كل من سواى من الأدباء . والحق أنى ماكتبت إلا تحت دافع شهوة الكتابة والفكرة » .

ومما زاد روسو تشبثاً بالرفض أنه كان قد اعتزم فى نفسه ترك الأدب والتأليف تقززاً من رجال الأدب ومن الكبراء وعجزاً عن السير على منوال هؤلاء فى نفقات كانوا يكلفونه إياها وهم يحسبون أنهم يسدون إليه النعمة ويتقدمون إليه باليد والجميل . وثبته فى عزمه ما أفاده من طبع خطاب المناظر وهلويز الجديدة التى لم تكن قد ظهرت بعد ، وما كان ينتظره من الكتب الأخرى ككتاب التربية وكالعقد الاجتماعى وكانا لما يقدما للطبع . لكن الأقدار قضت على روسو أن يعيش دائماً فى تناقض مع نفسه وفى نقض لإرادته . وإنه لعند عزمه هذا ورفضه مركز التحرير فى جريدة العلماء إذ عرضت فرصة ردته عن عزمه وأنسته سابق تصميمه ألا يكون له بكابر أوشريف علاقة واستدرجته من جديد ليخضع لنير الكبراء والعظماء .

فقد كان فى مونمونسى قصر بديع بناه (كروازا) لأسرة مونمرنسى ثم آل بعد ذلك إلى دوق لكسمبور أحد مارشالات فرنسا . وكان المارشال وزوجه يجيئان إلى هذا القصر مرتين فى كل عام فيمضيان فيه خمسة أسابيع أوستة . فلما جاءوا إلى مونمرنسى بعد أن أقام روسو بها أرسلوا إليه رسولاً من عندهم يهديه تحيتهم ويدعوه لتناول العشاء بالقصر كلما طاب له ذلك . وكان مدام دلكسمبور عثرت من روسو على ماكانت تطمع فيه كل سيدات ذلك العصر : أديب من الأدباء الظاهرين تحلى به دارها وتجعله زينة صالونها ويقوم عند الضرورة بخدمتها . لكن روسو وقد ذاق الأمرين من الاتصال بالكبراء اكتفى بشكر الرسول عن حسن عطف الدوق والدوقة عليه . وكان ذلك شأنه دائماً فى المرات التى تردد فيها الرسول ، ثابتاً عند عزمه ألا يكون بينه وبين كابر تجارة بعد الذى رآه منهم . وانه لكذلك فى بعض أيام ربيع سنة ١٧٥٩ إذ أقبل عليه دوق لكسمبور بنفسه ومعه بعض أصحاب له : « فلم يكن لى بعد ذلك من وسيلة للتخلص من رد زيارته والتقدم للسيدة زوجته برقيق التحية مقابل ما أبلغنيه من تلطفها إلا أن أكون غراً وقحاً . وكذلك بدأت تحت هذه الطوالع المنحوسة علاقات لم يكن فى مقدورى التخلص منها

برغم إحساس فى نفسى كان يجعلنى أخشاها أشد خشية » .

وكان أشد ما يتخوفه روسو مما سمعه عن مدام دلكسمبور من خبث الطبع برغم ما كانت عليه فى شبابها من جمال ورقة . وانه ليعلم ذلك من زمن طويل مضى حيث كان قد رآها قبل هذه المرة بنحو اثنتى عشرة سنة حين كانت لا تزال تدعى دبوفليه باسم زوجها الأول . وقد وصفتها مدام دوفان يومئذ بقولها :

« إن دوقة بوفليه جميلة جمالاً لا تحتاج أن تجهر به . فخلقها (وجهها) كله الحياة والقوة ونظراتها تعبر عما يدور بدخيلة نفسها حتى ليسهل على قليل الملاحظة معرفة ما تفكر فيه من غير أن تقوله هى . وحركاتها بديعة وطبيعية وتتفق مع كل ما تقول بحيث يصعب على سامعها أن يمنع نفسه فلا ينساق للتفكير والإحساس على مثالها ، ولها السلطان حيث تكون . وحيث تكون تحدث الأثر الذى تريد إحداثه ، وهى تتفق من فضائلها وأفضالها على طريقة الآلهة حيث تتركنا نظن أنفسنا أحراراً أمامها فى حين أنها تصرفنا كما تشاء ، ولها من قوة النفاذ إلى دخيلة النفس مايجعلنا نضطرب أمامها ، ومن ثم كانت مدام دبوفليه مخوفة أكثر منها محبوبة . وهى تعلم ذلك ولا تسعى لتغيير رأى أعدائها فيها بالتودد أو بملاطفتهم بما يختلف مع شدة خلقها ، وانما تعتزى بحسن رأى أصدقائها فيها وبما توحى به إليهم من العواطف الطيبة . وهى ذكية الفؤاد سليمة الذوق وفية لعهودها مخلصة لصديقاتها صريحة كتومة خدومة كريمة . ولو أنها كانت أقل بعد نظر أو أن الرجال كانوا أحسن نية لرأوا فيها منتهى الكمال » . وقال ولبول عنها وكان ذلك أيام عرفها جان جاك :

« لقد كانت غاية فى الجمال إباحية شريرة . واليوم ذهب جمالها وانفض من حولها عشاقها وصارت تحسب أن الشيطان يحوم بها ويقدم نحوها ، لكن تضعضعها هذا سكن من حدتها حتى صارت مذاقة بما لها من نافذ الذهن وحسن الخلق » .

لكن خشية روسو إياها تطايرت كلها لأول ما قابلها . قال : « وما كدت أراها حتى خضعت لها أن وجدتها جذابة بديعة ذلك الإبداع الذى لا يعمل فيه الزمن ويعمل هو فى قلبى . وكنت أنتظر أن أجد حديثها مملوءاً بالوخزات والمغامز فلم يك شيء من ذلك . وكان حديثها أحسن مما توقعت كثيراً ، فهو ليس ممتازاً

...حدث ولا بالمفاجآت بل ولا بالدقة وإنما هى رقة لذيذة تسر دائماً ولا تضر

..

أما تملقها فأبلغ من السحر ، لأنه أكثر بساطة حتى ليظن الإنسان أنها تقول ما تحسه من غير أن تفكر فيها ، وأن قلبها يفيض بهذه الكلمات لا لسبب إلا شدة امتلائه بها » . وإنما بقى لديه من أثر هذه الخشية شىء بعث به إلى نفسه دوقة مونمرنسى زوج ابن دوقة لكسمبور التى لم تمتنع عن العبث به بعض الشىء مما أثار شكوكه المتحفزة دائماً أن تثور .

على أن هذه الشكوك ما لبثت أن زالت هى الأخرى بما أبداه له دوق لكسمبور من حسن العطف والعناية حتى لحسب روسو ذلك صداقة نزل معها الدوق عن كل اعتبارات الألقاب ليضع نفسه كمساو لصاحب خطاب المساواة . وأحس روسو لذلك بسعادة عظيمة ، وبلغ من عناية الدوقة به أن دعته ليكون فى الأكاديمية الفرنسية فتعلل بديانته البروتستانتية . فلما أظهرت له أن كل شىء ممكن إزالته بفضل الدوق وصداقته للملك أصر على الرفض قائلاً إن الأكاديميات التى ترفض أن يكون من بين أعضائها أفاضل أمثال تربسان وملك بولونيا ليس من كبير الشرف الانتساب إليها .

ولما زار الدوق منزله أول مرة وجده مهدماً غير صالح حتى اضطر روسو يومئذ أن يجلسه هو وحاشيته فى البرج الذى يشتغل فيه معرضين لقارس البرد ولافح الزمهرير . فلما عاد وحادث الدوقة واتصل ما بينهم وبين روسو عرضا عليه أن يقوما بإصلاح بيته وأن يقيم هو فى أثناء ذلك فى القصر عندهم ، وله الخيار ما بين غرف القصر نفسه أو الإقامة فى القصر الصغير . وهو بناء منعزل قائم وسط حديقة القصر المتسعة البديعة ينتشر فوق مرتفعاتها ومنخفضاتها وبين بطونها ووهادها أنواع الزهر والشجر وبرك الماء ويتوج أرفع بقاعها بناء القصر الفخم . أما القصر الصغير فقائم بين أشجار البرتقال من ناحية وبرك الماء من ناحية أخرى فوق عمد عديدة نظمت بحيث يتخللها الهواء ويذهب عنها الرطوبة . فإذا أنت نظرت إلى هذا البناء من الجهة المقابلة للماء خيل لك أنه جزيرة مسحورة أشبه الأشياء بالجزيرة الجميلة (Isola Bella) فى البحيرة الكبرى من البحيرات الإيطالية .

فى هذا السكن البديع كتب روسو قسماً غير قليل من كتاباته وبالأخص من كتاب التربية . ولقد كان لهذه المناظر البالغة أقصى حدود الجمال أثر عظيم على ما كتب . وليت شعرى هل ينكر كاتب ما للوسط الطبيعى الذى يحيط به من الأثر العظيم عليه .

وحتى لا ينقص من أطراف سعادته بما قد تحدثه كلماته المضطربة غالباً من سوء الأثر فى نفس مدام دلكسمبور لجأ إلى وسيلة زادته عندها مقاماً وزادتها به تعلقاً . فقد جعل يقرأ لها رواية الهلويز وكانت يومئذ لا تزال تحت الطبع ولم يحتج روسو لأكثر من ذلك حتى بلغ إعجاب مدام دلكسمبور به أقصى الحدود وحتى أصبح عندها الكل فى الكل : « فكانت لا تتكلم إلا عنى ولا تشتغل إلا بى وتدللنى النهار كله بأحلى الألفاظ وتقبلنى كل يوم عشر مرات ، وجعلت مكانى على المائدة إلى جانبها ولم تسمح لسواى حتى من الكبراء بالجلوس فيه بل كانت تخبرهم أنه لى وتجلسهم فى غيره » . وكذلك أحاطت السعادة والسكينة بروسو وجعل ينهل منها ما استطاع . يقضى معظم نهاره فى القراءة لدوقة لكسمبور وفى صحبة الدوق فى رياضيات وسط الحدائق البديعة التى كانت تحيط بالقصر . ويقضى بعض الأوقات أحياناً مع تريز وينقطع أخرى لكتاباته وتصوراته .

ولما انتهى من قراءة (الهلويز) طلبت مدام دلكسمبور إليه أن ينقل لها نسخة من خط يده أسوة بمدام (دودتو) وعرضت عليه أجراً مثلها . فكتب إليها يشكرها وردت عليه مقتبسة العبارة الآتية من كتابه : « أنت وإن كنت لا شك من خير الزبائن إلا أنى أجد بعض الغضاضة فى اقتضاء النقد منك بل أرى واجباً أن أدفع مقابل ما أناله من السرور بالكتابة إليك » ثم أضافت : « ولا أزيد أنا على ما تقوله شيئاً وإنى ليؤلمنى ألا تخبرنى بشىء عن أمر صحتك ولا شىء يهمنى أكثر منها فإنى أحبك من كل قلبى إلخ » . ومع خلو هذا الخطاب من كل مغمز فلقد قضى الوقت الطويل يفكر فيما تريده باقتباس عبارته . بل إنه ليذكر فى اعترافاته أنه وقد كتبها بعد عشر سنين من هذه الحادثة لم يزل عاجزاً عن فهم ما أرادته مراسلته . وأدى به الاضطراب لغير سبب إلى أن كتب إليها كلمة تكاد تكون جارحة العبارة يلومها فيها كأن شيئاً فرط منها . واكتفت هى بأن تعتذر فى خطاب لها — على الماشى — من غير تعليق على الحادثة بأكثر من إظهار عواطفها الطيبة بالنسبة له وعظيم حنوها عليه .

... من هذه الصلة الجديدة بالكبراء بعد
... فكان يهتاج لكل حركة يشعر ولو من
... وهذا واضح فى تصرفه فى الرد
... مسألة بسيطة أقام الدنيا وقعدها من
... بعض الهدايا للدموازل لفاسير (تريز)
... بهما هدايا . فكتب روسو إليها ما يأتى
... وإنما تهدين تابعتى . يا للحيلة .
... تلجئين معه إلى مثل هذه الوسيلة ؟
... تذكيرى من أنا . ولقد كدت أنسى
... مساوياً لكم أن يجترئ على الارتفاع إلى
... لاعتراف بأفضالك ومن الواجب السمى
... دلكسمبور بما يأتى : « أفيمكن ألا
... الذى سمحت لى أن أعطى للدموازيل
... صحيحاً . ولم يك إلا ما أمرت به ثم أراك
... القسوة وتهددنى أنك لا تحبنى بعد .
... ما يدور بخاطرى ، ولكنى أفضل

... يكن يفارقه . وقد كتب إلى دوق
... الاستسلام والمحبة لا لشىء إلا لأن الدوق
... يشعر بذلك الفرق الذى كان يهوله
... ما يأتى : « إن أفضالك أوقعتنى فى
... على غير أهل . إننى أفهم كيف
... احترامهم هو من الكبراء . ولكن كيف
... حل من قلبى مكانة الشرف . وأنت
... كنت مساوى ونظيرى . اللهم إلا
... دائماً من العيش إلا مع الأصدقاء
... التبسط . ولست أجهل ما يقضى

به ما بين حالى ومركزك من تحوير هذه اللغة . وإن احترامى لشخصك لا يعفينى مما يجب من ذلك لمركزك إلخ إلخ » . وأيضاً : « نعم يا سيدى الدوق . أنت لا يدور بخاطرك مبلغ ما يجد الإنسان من اللذة أن يرى أن عدم المساواة قد تتفق مع الصداقة وأن الإنسان قد يكون له صديق أكبر منه » .

وكان لروسو صديق أو بالأحرى معجب من مواطنيه يدعى كوانديه عرفه بمونلوى وجعل يتردد عليه ثم اتخذ اسمه وسيلة يتقدم بها فى كل الصالونات التى يغشاها روسو . فلما كان هذا الأخير يكتب نسخة (الهلويز) لمدام دلكسمبور تقدم كوانديه بعمل النقوش اللازمة فيها . وفيما كانوا يوماً فى القصر يطلع كوانديه الدوق على هذه النقوش وحان موعد انصراف كوانديه قال الدوق : (لنذهب راجلين نتنزه على طريق سان دنيس ونصحب المسيو كوانديه) قال روسو : « أما أنا فقد تأثر قلبى لهذه العبارة حتى لم أستطع دون تقبيل مواطنٍ قدم هذا السيد الطيب القلب » .

هذا هو الإحساس الدخيل الذى يختلج فى صدر كاتب خطاب عدم المساواة . ولعل شديد ما كان يعانيه من آلام هذا الموقف ، الذى يشعر به كل مفكر تجاه أرباب الألقاب والثروة شعوراً تختلف درجاته وقوته ، هو الذى أثار نفسه وهاج عواطفه ودفعه ليكتب بقلم من نار هذا الخطاب المملوء قوة وحماسة .

ولكن هذه الثورة تهز قلب صاحبها وترعش قلمه ما دام مطلق عنان الفكر الإحساس فى وحدته وفى أثناء كتابته . فإذا هو خرج للناس وجلس إليهم حكمه الوسط بقوانينه القاسية وقواعده الثابتة فراجعه ضعف الخضوع لحكمه والانحناء لما يملى به من وجوب الزلفى للبعض ومصافحة الآخرين . لكن روسو كان أكثر المفكرين ثورة بسبب جنونه الخاص الذى كان يدفعه للاعتقاد بأن كل الناس يحسدونه ويغمطونه حقه ، ويجعله شاعراً لذلك أنه فى حرب دائمة معهم جميعاً . وهذا الشعور هو الذى كان يظهر كمين ثورته حتى حين يجب إخفاؤها ، وهو الذى دفعه لتحرير خطاباته لدوق لكسمبور وردوده على الدوقة . ولولاه لاستطاع أن يعيش مع العظماء وبعيداً عنهم فى وقت معا وأن يستفيد من عبقريته احترامهم إياه احتراماً يجعله مطمئن النفس غير مهتم بحركاتهم هذا الاهتمام الأحمق .

بعد فولتير ، وبه بعض ما بروسو من الحمق ، كان يعيش بين الأمراء والسادة يعيش واحد منهم وله عليهم جميعاً الدالة حتى لكانوا هم الذين يتزلفون إليه . حق إنا نرى فى نفس الأكثرين من الكتاب والمفكرين ضعفاً لا نشاهده عند رجال العمل . وكان ما يجيء به التفكير من إضعاف الإرادة يستتبع إضعاف الذاتية فيضطرون لستر ضعفهم بأنفة مصطنعة وغرور مخلوق من عاطفتين متناقضتين : الاستسلام والثورة ، استسلام للبيئة وثورة داخلية ضد البيئة . لهذا ترى الكاتب لا ينفتأ يعذب نفسه بالأمانى والأوهام . وتراه بينا هو فى قصر من آماله يكيف العالم كما يشاء خياله ويرتب المستقبل على حسب منطقه ويبنى ويهدم ويخلق ويعدم إذ هو لذعته لاذعة من لواذع الحياة مما قد لا يتأثر له إنسان سواه فاهتاج واضطرب وتهدمت الصروح التى بنى ولعن الإنسانية وصمم على العزلة وعلى ترك الناس وقد يندفع للتفكير فى الانتحار . ويمر هذا العاصف ثم تراجعه أحلامه ويراجعه وهم تشييد المستقبل أو التحكم فى الحاضر أو نحو ذلك من أوهام رجال القلم . وهكذا تنقضى حياته بين الوهم والحلم والخضوع والعزة حتى يدخل طى الماضى وينطوى ما كتب ليبقى مطوياً أبد الدهر أو لينشره مستقبل قريب أو بعيد فيحكم العالم ويحقق أحلام صاحبه وقد صار صاحبه تراباً .

ذلك كان شأن روسو . رفعته عبقريته إلى مراقى العظمة وأمسك به مولده وقعدت به ثروته بين الأصاغر والوضيعين . والعبقرية تحيط بالماضى والحاضر وتمتد إلى خفايا المستقبل فلا ينسى الشخص ما كان ولا من هو إلى جانب غيره ، بل هو أميل إلى الانتقاص من نفسه لأنه أكثر شعوراً بتفاهة الحياة وضعف الإنسان . ولو أن نبوغ روسو كان من نوع النبوغ العملى الذى يسير بصاحبه فى طريق تكوين الثروة وتقوية المركز المادى إذن لرأيت بدل هذا الخجل الكثير التفكير فى نفسه وغيره وقحاً من أولئك المتبجحين بالمال البالغين فى تبجحهم حد السماجة معتبرين هذه السماجة من بعض مستلزمات حياتهم لحفظ ما يسمونه مركزهم . إنى لعمر الحق لم أر فى حياتى منظراً تتقزز منه النفس وتشمئز الحواس أكثر من منظر أولئك الذين يصلون للثروة فيتبجحون . يكلمك الواحد منهم وهو يحسب أنك بعد هنيهة مستجديه وأنت سيده نفساً . وأبعد الناس عن الحاجة إليه . ويبدى رأيه فى الشيء وهو يظن أن ما عنده من مال أفاده علماً فإذا هو لم

يزده إلا جهلا وغباوة . ويقدر أن الوجود وما فيه مقصور على المادة المحسوسة المحيطة به والتى يتوهم أنه يستطيع حكمها فيحسب نفسه ملكاً قديراً بل إلهاً ذا بطش وسلطان . أما النبوغ العقلى فينشر أمام ذهن صاحبه العوالم كلها بما فيها من محسوسات ومعنويات ويدعوه للنظر فيها جميعاً ولتعرف قوانينها وللحكم على مقتضاها فتراه يعرف مبلغ حقارة الفرد وصغره فى الكون الهائل العظيم . كما تراه يندهش أمام تبجح أولئك الماديين المحدودى العقول . لكن اندهاشه هذا لا يمنعه من احتقارهم لضيق أفهامهم وإن حكمت عليه ضرورات الحياة فى أحيان كثيرة بمعاشرتهم والعيش معهم .

ولم يقصر روسو علاقاته الجديدة على المارشال والدوقة دلكسمبور بل اتصل بجميع أصحابهم وأصدقائهم من الكبراء . وكان يشعر لهذه الصلة بشيء من السرور الداخلى الذى كان منبته الوضيع يكبرها فى عينه . وهذه العبارة من اعترافاته تدلك على مبلغ تجلى هذا الشعور عنده . قال : « وكنت أستقبل فى هذه الشرفة مسيو ومدام دلكسمبور ودوق فليرى والبرنس دتنجرى ومركيزا ومنتيير ودوقة مومرنسى ودوقة بوفليه والكونتيس دفالنتوا والكونتس دبوفليه وأشخاصاً غيرهم من أهل هذا المقام ، وقد كانوا لا يأبون أن يحجوا عن طريق مرتفع متعب من القصر إلى مونلوى » . وكان لا يفتأ يلق دق لكسمبور لعلمه أن الفضل فى نواله هذا الشرف العظيم راجع إليه . وهذه بعض عباراته إليه : « لقد كنت يا سيدى المارشال أكره الكبراء قبل معرفتى لك . وإنى لأشد كراهية لهم من يوم علمتنى كم هو سهل عليهم أن يجعلوا أنفسهم موضع كل محبة وتجلة » .

فى ذلك الوقت الذى أترع فيه بأنواع الهناء عرف مدام دفردان . وعلى الرغم من أنه كان فى ظروف لا تسمح له بالتعلق بها ، فإنها اتصلت به أشد الاتصال مغضية عن خطاباته القاسية التى كان يرسل بها إليها . على أن علاقتهما لم تزد على حد المعرفة فى ذلك الحين ، ولذلك نتركها للكلام عنها فى الوقت الذى تركت فيه غير قليل من الأثر فى نفس روسو .

ولما تم إصلاح بيته بمونلوى عاد إليه مع الاحتفاظ بالغرف التى كان يقطنها فى القصر الصغير . وجعل يتردد على هذه الغرف منفرداً أحياناً . ومع تريز أخرى يتناولان فيها لقمة العصر . فإذا قابل مدام دلكسمبور قضى معظم وقته فى إتمام

راءه الهلويز وهى به معجبة وبروايتـه مجنونة . فلما أتمها خشى أن يقع فى أغلاطه بعله دوقه فى الكلام فبدأ قراءة كتابه عن التربية – أميل – ومع أن الدوقة لم تظهر رامه لسماعه فإنها لم تظهر من السرور به ما كانت تظهر لدى سماع الرواية . وذلك أمر طبيعى عند معظم الناس وبالأخص عند السيدات . فإن سماع خطابات الحب المتبادل وتوقع حوادثه أكثر تشويقاً من سماع الكلام الجدى فى مسألة مهمة كالتربية . مع ذلك فقد أخذ روسو على الدوقة عدم إعجابها وظن أنها بدأت تمل صحبته وكتب إليها بعد سفرها بعض خطابات مملوءة بالعتاب المر .

على أن الدوقة لم تتغير على روسو حينئذ ولا تغيرت عليه بعده وإنما هو تجسيم الخيال وفعل مرضه النفسى ، هو الذى أدخل هذا الزعم إلى وهمه . بل لقد دفعها اهتمامها بروسو أن رأت أن من الخطأ طبع كتاب التربية فى هولاندا دون أن يطبع فى الوقت عينه فى فرنسا . وكان هو على غير هذا الرأى لأن بعض المبادئ التى قررها فى « الأميل » وبالأخص مبدأه عن حرية العقيدة والديانة الطبيعية – مما سنتكلم عنه عند الكلام على كتاب التربية – قد تصادم الرأى السائد المقرر لدى الحكومة فى ذلك الحين . ولما لم تكن حرية إبداء الرأى معترفاً بها يومئذ فقد كان من المحتمل أن يقبض على طابع الكتاب وعلى روسو نفسه . لكن هذه المخاوف التى حسبها للمستقبل لم ترد الدوقة عن رأيهـا الذى أيدها فيـه المسيو مالرب . والمسيو مالرب كما يعلم القارئ عالم مسموع الكلمة . فلم يكن من روسو إلا أن أذعن لرأيهما وسلمهما نسخة الكتاب الخطية يتصرفان فى طبعها كما يشاءان .

ولا يعجب القارئ من مخاوف روسو فى هذا الباب . فقد كان كل كاتب معرضاً للنفى وللاعتقال فى الباستيل إذا نشر أى عبارة يشتم منها التعرض لمبدأ ثابت أو الطعن على شخص ذى مركز فى الحكومة أو على رجل أو امرأة من ذوى السمعة فى البلاط .

ولا أقرب من مثل يضربه روسو نفسه ، فقد طعن القسيس مورليه على مدام ... فى رواية نشرها فلم يكن بأسرع من أن اعتقل فى الباستيل وأحوج الأمر لإخراجه منه توسط ديدرو لدى روسو وروسو لدى مدام دلكسمبور ورجاؤها من الوزير سان فلورنتان وتوسط هذا الأخير لدى زملائه ومن بيدهم أزمة الحكومة من الرجال والسيدات . وكأن هذا العصر كان فى حالة حرب مستمرة كالتى

أنشبت عاتق العالم من سنة ١٩١٤ ومنعت على كل مفكر حرية الفكر وعلى كل كاتب حرية الرأى والقول .

وفيما هم جميعا فى اهتمامهم بترتيب طبع كتاب التربية ظهرت رواية الهلويز فى أواخر سنة ١٧٦٠ وأوائل سنة ١٧٦١ والناس جميعاً أشد ما يكونون تشوقاً لها لما نشرته عنها مدام دلكسمبور فى البلاط ومدام دودتو فى باريس . وما لبثت أن ظهرت حتى تناولتها الأيدى وأعجب بها الناس أيما إعجاب وصادفت أعظم النجاح . لكن بعض حساد روسو لم يمتنعوا عن الطعن عليها . وحرض فولتير المركيز دى زيمين أحد المحيطين به فكتب أربعة خطابات ضدها . ولكن نجاحها كان حاسماً وتاماً بحيث سخر الناس من هذه الخطابات ومن غيرها ولم يعيروها التفاتا .

وفى هذا الوقت أيضا ظهرت رسالة من قلم روسو بعنوان (السلام الدائم) رد عليها فولتير رداً يعتبره روسو سخيفا مضحكاً .

يقول روسو إنه فى هذا الظرف الذى علا فيه نجمه وضحك له فيه طالع السعد بدأت مدام دلكسمبور تمله وتقصيه ، ويعزو ذلك إلى تقرب بعض معارفه منها وتوالهم الزلفى لديها وانتقاصهم منه عندها . على أن مراسلات الدوقة تدلنا قاطع الدلالة على أنها كانت له كما كانت من قبل تعمل لرضاه وتسكن برقيق قولها غضبه وتنظر فى مصالحه بقدر ما تستطيع . أما المظاهر التى يشكو منها روسو كعدم الاحتفاء به كسابق عادتها وعدم الاهتمام بأن يكون دائماً إلى جانبها على المائدة والاتجاه لغيره من الزوار فلم يكن إلا أثراً طبيعياً من آثار طول العشرة ونتيجة للأغلاط التى كان روسو لا ينفك يقع فيها الوقت بعد الوقت تجاه الدوقة . صحيح أن كثيراً من هذه الأغلاط بل كلها كانت غير مقصودة من جانب روسو بل لقد كان يرمى فى بعضها لإرضائها فينقلب الأمر عليه . ولكن ما عرفه القارئ من صفات الدوقة وأخلاقها يجعله يرى أنها كانت تود فى عظمتها لو تصلح هذا الأخرق ولو بإظهار شىء من الجفاء له .

ومن بين الأغلاط التى ارتكبها روسو غلطة مضحكة . ذلك أنه كان له كلب اسمه (دوق) . فلما نزل بين أظهر اللكسمبور رأى من اللياقة أن يغير اسم الكلب فيجعله (ترك) . وفيما هم على المائدة يوما سأله أحد الحاضرين على سبيل السخرية عن سبب تغييره لاسم كلبه فكان جوابه : حتى لا يكون له مثل لقب

المارشال . وكان فى تفسيره هذا أكثر خرقاً مما لو ترك للكلب اسمه الأول من غير تغيير .

ولما جسم الوهم لروسو أن الدوقة بدأت تتغير عليه فكر فى تركها وترك مونلوى والانقطاع عن الأدب والانزواء فى الأرياف . لكن ماليته كانت مضعضعة فى ذلك الحين ولا تسمح له بمثل هذه الحركة . ولم يكن قد أفاد شيئاً بعد من كتابه الأميل . فأرسل بكتابه (العقد الاجتماعى) إلى الناشر (رى) فى أمستردام وقبض فى مقابله ثلاثة آلاف فرنك . وقام الناشر المذكور بطبع الكتاب بسرعة حتى ظهر قبل أن يظهر كتاب التربية سواء فى فرنسا أو فى هولاندا بشهرين . ثم ظهر كتاب التربية أخيراً وكان ظهوره بدء المصائب التى انتزعت روسو من طمأنينته وأرسلته يجوب الأقطار والممالك بقية عمره وعجلت سير مرضه حتى أوقفته على حافة الجنون إن لم تكن دفعت به إلى دركاته .

ظهر كتاب التربية فلم يقابله الناس بالضجة التى قابلوا بها الهلويز بل قابلوه بشىء من التخوف والمهابة . وإن روسو لينتظر الأثر الذى سيحدثه كتابه ويسأل معارفه وأصدقاءه عن رأيهم ورأى الناس فيه إذ بدأ يصل إلى سمعه أن فى نية الحكومة مصادرته والقبض على مؤلفه . فلم يأبه للخبر بادئ الأمر وصار يضحك من كل من ينقله إليه ، وكان أشد ما يكون استغراباً حين قال له صديق من أصدقائه إنه قرأ الكتاب وأعجب به ولكنه يرجوه ألا ينقل ذلك عنه . وما زال فى سكينته مطمئناً لما رأى عليه مدام دلكسمبور من الطمأنينة حتى إذا كان فى بعض الليالى إذ أقبل عليه (لاروش) من قبل المارشال وأخبره أنه تقرر القبض عليه فى صباح الغد وأن لا وسيلة إلا الهرب . فذهب من فوره وقابل الدوقة التى كانت تنتظره فى سريرها . وبينا يتحدثان أقبلت عليهما مدام دبوفليه قادمة من باريس ، فجعلوا يفكرون فى الطريق الذى يختارونه . والحقيقة أن القبض على روسو لم يكن بالشىء الخطير لذاته . ولكن علاقة دوقة لكسمبور والمسيو مالرب بطبع الكتاب وإمكان ذكر اسمهما على لسان روسو فى أثناء التحقيق وما قد يتركه ذلك من الأثر السيئ ضدهما فى البلاط وعند الملك ، وما قد تهيجه الحادثة من الرأى العام كل ذلك هو الذى جعلهم جميعاً يجمعون على فكرة ترك روسو لفرنسا . وقد ظهر هو فى هذه الفرصة مثال الإقدام والتضحية فلم يتردد فى قبول الرأى الذى عرضوه عليه .

ودارت المناقشة حول المكان الذى يرتحل إليه . ورفض البقاء مختبئاً إلى أن يمر من الوقت ما يكفى للتفكير كما رفض الالتجاء إلى إنجلترا وانتهى به العزم على الذهاب إلى سويسرا . وفى تلك الساعة العصيبة قام الدوق والدوقة ومدام دبوفليه وأصحابه فى القصر بوداعه . ثم جاءت تريزلفاسير ورجته أن تكون معه فأفهمها أن ذلك لا ينفعه ولا ينفعها ولم يفض لها بالمكان الذى اعتزم الارتحال إليه . وظل إلى ما بعد الظهر يرتب كتبه وأوراقه ثم ذهب فى صحبة الدوق إلى العربة التى كانت فى انتظاره لتقله إلى حيث يشاء .

ولقد كان أصدقاؤه وأعداؤه جميعاً يودون أن يخرج من المملكة من غير أن يقبض عليه حتى لا يقيم ذلك على الحكومة قيامة العالم . ولا أدل على ذلك من أن برلمان باريس أصدر قرار القبض عليه فى يوم ٩ يونية سنة ١٧٦٢ وقرر أن يكون القبض فى الساعة السابعة من صباح اليوم التالى . وقد رأينا روسو يقضى فى التوديع وفى ترتيب أوراقه إلى ما بعد ظهر ذلك اليوم ثم لم يحضر أحد ، فلما ركب عربته وسار التقى ولا يزال على مقربة من القصر بالمحضرين المكلفين بالقبض عليه ، فلما رأوه ابتسموا ولم يقفوا وساروا فى طريقهم ومر بعد ذلك فى شوارع باريس ورآه الناس طرّاً وسلم عليه معارفه ومع ذلك لم يتعرض له أحد . فلما خرج من فرنسا نزل فى ايفردن من أعمال مقاطعة برن بسويسرا عند صديقه المسيو روجن برغم تصميمه الأول الذى كان يريد معه الذهاب إلى مسقط رأسه جنيف . وإنه فى هذه الفرصة لنعما فعل . فقد أصدرت حكومة جنيف قراراً كالذى أصدرته حكومة باريس بتاريخ ١٨ يونية سنة ١٧٦٢ . وقد صادره أيضاً السوربون وطعن عليه رئيس كهنة باريس ، وطعنه قرار من البابا ، وقضى عليه أمر صادر من حكومة هولاندا . على أنه لم يهتم فى ذلك كله إلا بمطاعن رئيس كهنة باريس وبقرار حكومة جنيف . فرد على الأول بخطابه إلى كريستوف دبومون وعلى الثانى بخطابات الجبل الخالدة .

ويحسب كثير من أصدقاء روسو أن يد فولتير كانت ذات أثر فى قرار حكومة جنيف . لكن المسيو فاجيه لا يعتقد صحة هذه الرواية بسبب تصرف فولتير فى هذا الظرف حيث دعا روسو للإقامة معه فى الدليس . صحيح أن روسو رفض لأنه يعلم أن فولتير ليس رجل ثقة يصح أن يعتمد عليه إنسان .

ولكن الحقيقة أن فولتير كان يريد بحماية روسو قطع لسانه والاستعلاء عليه فجاء رفض روسو جواباً قاطعاً طريق ما أراد فولتير من عمله .

فلما كتب روسو خطابات الجبل عرّض فيها بفولتير فنشبت بذلك بينهما عداوة لم تهدأ ثائرتها فيما بعد يوماً من الأيام . بل ظلا يتبادلان الردود حتى آخر حياتهما الكتابية .

على أن هذا الفصل ليس موضع التفصيل فى ذلك . وسنذكر فى هذا الكتاب ما نريد ذكره منه بعد شرح نظريات كتاب التربية حتى يكون القارئ على بينة مما يذكر أمامه ، ولكنا نريد أن نختم هذا الفصل بالكلام فى مسألتين . الأولى قرار برلمان باريس بالقبض على روسو والسبب الذى بنى عليه . والثانية علاقة روسو بمدام دلكسمبور بقية حياته .

يعلم القارئ أن مما يمتاز به القرن الثامن عشر عن القرن الذى قبله نزعته إلى النقد الدينى وإلى الإلحاد . وأن طائفة كثيرة العدد على رأسها فولتير كانت تتعرض للعقائد بأكثر مما تعرّض لها به روسو وتتهكم عليها وعلى رجال الدين أشد التهكم . مع ذلك فلم يتعرض لهذه الجماعة أحد ولم يصدر ضد واحد منهم قرار كالذى صدر ضد روسو . فما هى الحكمة فى ذلك وما هو السبب ؟

السبب الذى ذكره البرلمان فى قراره هو أن روسو نشر أفكاراً تخالف العقيدة المحترمة فى المملكة ووضع اسمه على الكتاب الذى نشر تلك الأفكار فيه . ولو أنه لم يضع اسمه لما تعرّض له أحد ولما مس بسوء . بل لقد كان فى وسعه إذا تدخل رجال القانون مع ذلك فى الأمر أن ينكر الكتاب وكان ذلك فى عرف أهل العصر كافياً لعدم مؤاخذته . وهذا ما كان يفعله فولتير . تصدر كتبه من غير أن يكون عليها اسمه ولا يأبى أن ينكرها إذا هو سئل عنها مهما علم الناس طرًّا أنه كاتبها ومهما افتخر بذلك فى مجالسه الخاصة وفى كل مجلس لا يكون للقانون فيه مباشرة سلطان . فمصارحة روسو بأن الأفكار أفكاره واحتماله تبعتها وذكره اسمه كمؤلف الكتاب من جهة وما يجب على الحكومة من المحافظة على العقائد السائدة من أن يمسها أحد أو أن يعرض لها إنسان من الجهة الأخرى ، ذلك هو ما دعا البرلمان لإصدار قراره . وقد رأينا أن الناس جميعاً وأعضاء البرلمان من بينهم كانوا يودون لو لم ينفذ القرار وأنهم جميعاً سرّوا بفرار روسو لأن القبض عليه كان

من شأنه أن يهيج بعض الخواطر ويضطر بعض الأشخاص لرفض ذلك النفاق الدائم الذى كانوا فيه بين إرضاء ضمائرهم وإرضاء الحكومة .

وبعد أن أقام روسو زمناً عند المسيو روجن فى أيفردن قررت حكومة مقاطعة برن إخراجه من أرضها برغم معارضة عميد أيفردن ورغبته فى حمايته . وهذا القرار وقرار حكومة جنيف وقرار السوربون وباقى القرارات لم تكن لتصدر لو أن روسو فضل بدل الفرار محافظة على سمعة مدام دلكسمبور والمسيو مالرب أن يعارض فى الأمر لأن أيدىَ قوية كانت ستتدخل يومئذ لمعونته فلا يبقى فى الباستيل إلا أسبوعاً أو أسبوعين ثم يخرج خروج الظافر ليقيم من بعد ذلك فى عاصمة فرنسا ملكاً على رأس الكتّاب والأدباء .

ولكن هكذا شاءت الأقدار وحكمت على روسو أن يحتفظ بمصلحة أصدقائه وحماته أكثر من عنايته بمصلحته الذاتية فتنهال عليه لذلك من كل جانب أنواع السخط ويقوم فى وجهه رجال الحكومات والكتاب يصوبون إليه أمر سهام اللوم والتقريع ويقضون عليه أن يقضى بقية حياته هائماً على وجهه لا يعرف لنفسه قراراً .

فلما ترك أيفردن إلى موتييه ترافير على مقربة من نيوشاتل تجددت المكاتبة بينه وبين مدام دلكسمبور التى احتفظت له بالجميل طول حياتها . لكن روسو بدأ يشك فى ولائها هى الأخرى حتى كتب إليها فى سنة ١٨٦٤ بمناسبة وفاة الدوق زوجها خطاب تعزية يقول فيه : « عبثاً أحارب نفسى لأمنع عنك مضايقة تعيس بائس . فقد بلغ بى الألم الذى يحز فى قلبى حداً لا يعرف معه تحفظاً أو ستراً . وما كنت لأكتب إليك يا سيدتى الدوقة لو أنى عرفت شخصاً أعز منك عند الصديق الكريم الذى فقدته . ولكن من لى بإنسان أبسط إليه ألمى لذلك المصاب غير من يحس به أكثر من كل من سواه . ثم كيف يستطيع أولئك الذين أحبهم هو أن يبقوا منقسمين متباعدين . وهلا يجدر بقلوبنا أن تجتمع لتبكيه . فإذا لم يبق لى من مقام فى قلبك فليكن لديك بعض الاهتمام بما أقاسى من المصائب لأنه كان يهتم لها . على أنى إنما أغر نفسى بما أقول . فلقد كان تركَ الاهتمام بى ونسينى كما نسيتنى. فأى ذنب جنيت إلا أنى أحببتكما حباً جماً فأعددت لنفسى بذلك أنواع الأسف . لقد تمتعت أنت بأرق محبته حتى آخر لحظة من حياته .

والموت وحده هو الذى استطاع أن يقتلع منه هذه المحبة . أما أنا فقد فقدتكما جميعاً فى ريعان الحياة فأنا لذلك أجدر منك بالشكوى وبالمرحمة » . فردت الدوقة على هذه التهم الموجهة فى ظرف غير ملائم بأرق العبارات وأكثرها تواضعاً قالت : كنت أود أن أخلط دموعى بدموعك وقد حسبت أن ليس لى من عزاء عن مصابى إلا فيك فإذا بى مضطرة بدلا من ذلك أن أبرئ نفسى أمامك ، وأكثر من ذلك أهمية وأشد قسوة أن أبرئ مسيو دلكسمبور الذى أحبك واحترمك ولم يعتبر لنفسه فى العالم صديقاً أعز منك ؛ فلقد مرض مدى أربعة أشهر مرضاً لم يحسب أن الموت يعقبه ولكنه منعه عن الكتابة : وكثيراً ما كان يحادثنى عنك ويقول إنك لو كنت فى مومرنسى لجئت للإقامة هنا (فى باريس) . وقد قرأنا له خطابك الأخير فلم يترك عبارة رقيقة إلا قالها عنك . فأنصح لك التوبة عن ظلامة أسأت بها لذكراه ، ولئن كان موته فجأة قد منع عليه أن يفكر فى أى شىء فى ساعاته الأخيرة فإنى أكرر لك أنه أحبك وأحبك من كل قلبه حتى لكان بعدك عن هذه الديار من أشق الأشياء وأشدها على نفسه . فلم يبق طويلا بعد سفرك حتى اعتلت صحته وحتى حل به المرض ، ولست أطيق أن أدخل فى تفصيلات مرضه الأليمة التى يخبرك عنها لاروش متى شئت . تصور يا سيدى أنى لم أتركه حتى آخر أنفاسه ثم لا أحب إلا أن أسكن الغرفة التى مات فيها ، وإنى أشكرك على ما تقوله عنه فى خطاب مطبوع فذلك موجز ومؤثر ، أما عن تبرئة نفسى فإنك لا تنكر أنى أنا التى كتبت إليك أخيراً وأنك لم تجبنى وقد مضى على ذلك زمن طويل . أما قلبى فلا شك أكيد فى محبته رقيق فى ولائه . فبالله لا ترهقنى وأنا فى مصابى الأليم باطراحى وراء ظهرك واعلم أن لك من الحب دائماً أرق ما فى قلبى . . » وقد رد روسو على هذا الخطاب بشىء من السكينة والطمأنينة . والحقيقة أن مدام دلكسمبور لم تنقلب عليه يوماً كما انقلب غيرها ولا أهملته بل كان هو كأنه ينتهز الفرص لإيجاد المتاعب آملا أن يزداد عندها بذلك إعزازاً ومحبة .

وبقيت علاقاتها به كأحسن ما يكون الود والعطف والإخلاص حتى سنة ١٧٧٠ وإن كانت قد فترت بعض الشىء من أيام انقطاع روسو عن فرنسا. على أن الفتور لم يبلغ بها أبداً حد النسيان ، بل لقد طالما شملته الدوقة بعنايتها وحمايتها فى سويسرا وإنجلترا وفرنسا . أما بعد سنة ١٧٧٠ فقد نسيته تمام النسيان أو كادت

لكثرة ما طعن فى ولائها . وظل بعد ذلك فى تجوال وارتحال بقية حياته .

أجملنا فى هذا الفصل أهم أزمنة حياة روسو : ففيه ظهرت كل كتبه القيمة التى خلدت على الزمن عظمته وأثبتت للعالم قوته . وسنعرض فى الفصول الآتية – والتى سيشملها الجزء الثانى من هذا الكتاب – ما تحتويه هذه الكتب وغيرها من صور وأفكار كما نجىء للقارئ على ما بقى من تاريخ حياة رجل بدء وضيعاً بائساً ومات فقيراً تعيساً وقضى حياته مريضاً محزوناً ولكنه ترك للعالم ثروة فكرية لا يزال العالم وسيبقى يتنعم على حسابها عصوراً طوالا .

الجزء الثاني

١

رأينا فيما سبق من فصول هذا الكتاب كيف بدأ روسو حياته فى الأدب بوضع خطاب العلوم والفنون وخطاب التفاوت وكتاب المناظر . ثم رأينا كيف انقطع للأدب وللتأليف حتى ظهرت كتبه الكبرى : جولى والتربية والعقد الاجتماعى . ورأينا أخيراً كيف قضى باعتقاله وكيف فر من باريس وكيف طورد فى مختلف الممالك بسبب هذه الكتب التى أصبحت من بعد ذلك تاج مجده وموضع فخر فرنسا . فليس من بد أن نقف الآن ترجمته لنعرض على القارئ صور هذه الكتب الكبرى واحداً بعد الآخر حتى يرى مواضع عظمة هذا النابغة الشقى .

أول هذه الكتب جولى أوهلويز الجديدة . وجولى هى رواية روسو الفذة التى هزت أدب فرنسا وأدب أوربا مدى القرن التاسع عشر ، والتى لا تزال إلى الآن علماً فى أدب العالم جم الأثر . وهى كتاب ضخم تربو صحائفه على الألف ، جمع روسو بين دفتيه العواطف الهائجة والمشاعر المضطربة والأفكار الثائرة والميول الفلسفية والأبيقورية الزاهدة والنزعة لتحكيم الشعور فى العقل ووضع ذلك كله بأسلوب موسيقى بديع . فلعلنا نوفق إلى استيعاب ما حوته على نحو تتجلى معه صورة الرواية وما أحدثت من ثورة وانقلاب .

كان أول ما فكر روسو فى كتابة الخطابات التى يتكون منها القسم الأول من الهلويز فى ربيع سنة ١٧٥٦ ، بعد نشر خطابه عن عدم المساواة ، وبعد عودته من جنيف ومن نزهاته حول بحيرة ليمان ، وبعد مقامه فى الصومعة التى أقامتها له مدام دبناى . وكانت قدمه قد استقرت يومئذ فى الأدب لما صادف خطاباته من نجاح وما نالته روايته (ملاك القرية) من إعجاب . لكنه كان قد بدأ يشعر بحسد الحاسدين ويفسره بحب غيره الوقيعة به . فلما قوبل خطابه عن عدم المساواة فى جنيف بالإعراض انكمش واستسلم لميله الطبيعى للوحدة وانقطع فى صومعته مسروراً بمناجاة نفسه . وفيما هو فى وحدته ذكر جمال سويسرا الساحر الذى غاب عن ناظره مدة مقامه فى باريس والذى ملك عليه لبه واحتل كل قلبه وهاجت فيه

العواطف التي لم تخمد يوماً من الأيام حتى عاد إليه يمتع الطرف به مدى الأشهر الأربعة التي قضاها في جنيف . وزاد الربيع في هذه العواطف بما جمع أمام مخيلته من ذكرى الطبيعة البديعة ومن معاني الهوى والهيام . » ودفعه تذكره لمختلف أيام حياته أن يفكر في الحال التي وصل إليها فرأى نفسه في منحدر العمر فريسة آلام قاتلة ، وخيل إليه أنه يقترب من ختام أيامه ولم يذق ذوقاً كاملا أياً من الملذات التي يريدها قلبه » فاستعاد في ذاكرته صور من عرف من السيدات والأوانس ، ووقف منهن عند صورة مدموازيل جالى وصاحبتها جرافريد ، وجعل من الأولى ملاك هواه . . . ثم جمع في خياله بين مناظر سويسرا والربيع المحيط به ومثال هذه الآنسة البديعة التكوين التي أسماها جولى وأسلس لعاطفته الملتهبة العنان ، وجعل يتخاطب في نجواه مع هذا المثال ويسطر على الورق الخطابات القوية الرقيقة التي تكون الجزأين الأولين من أجزاء الرواية .

وقد زادت علاقات روسو بمدام دودتو هذه الخطابات قوة ورقة وتركت فيها من الأثر ما سبقت بنا الإشارة إليه في الفصل السادس من هذا الكتاب .

والرواية مجموعة ضخمة من خطابات متبادلة بين عاشقين هما جولى وسان برى وبينهما وبين المتصلين بهما بسبب هذا الحب . ولذلك ظهرت الطبعة الأولى منها في سنة ١٧٦٠ تحت عنوان (خطابات عاشقين يقطنان مدينة صغيرة في سفح جبال الألب جمعها ونشرها جان جاك روسو) ولم تسم بالاسم المعروفة اليوم به وهو جولى أوهلويز الجديدة إلا بعد ما انتشرت ونالت من الإعجاب ما جعل بطلتها علماً على الغرام تدعى به كل عاشقة وكأنها ليلى المجنون أو جوليت روميو أو هلويز دابيلار . وهذه الأخيرة هي علم الغرام في فرنسا من قديم الزمان ، فكان طبيعياً أن يطلق على علم الغرام الجديد اسم هلويز الجديدة .

وحديث هلويز دابيلار بطلة أشهر الأقاصيص الغرامية شيق طويل . خلاصته أنها ولدت في باريس سنة ١١٠١ ثمرة لغرام غير مشروع فاحتضنها خالها القس فلبير Fulbert وعلمها اللاتينية واليونانية والشعر ، ثم عهد بها إلى صديقه القس أبيلار صاحب الصيت الذائع لبلاغته وطلاقة لسانه وعذب حديثه وجميل قوامه وما إلى ذلك من صفات جعلته يزهي بأنه لا يخشى أن ترفض امرأة شرف محبته . وكانت هلويز تتلقى عليه الفلسفة . وسرعان ما اتصل بينهما

غرام اشتد في نفس الفتاة لم يشغلها عنه ما كان يتطلع إليه رفيقها من المجد . فلما حملت منه ذهب بها إلى بريتانيا وعاد فعرض على فلبير أن يتصل وإياها بزواج سرى على نحو ما كان متعارفاً في ذلك العصر بين القسس غير المسموح لهم شرعاً بالزواج . وقد طرب فلبير لهذا الحل وبلغ منه السرور به . ولكن هلويز قاومت ورفضت خشية الإضرار بما يضمره المستقبل لحبيبها من مجد وعظمة وقالت : « أليس من الخطيئة أن تختص امرأة لنفسها رجلا خلقته الطبيعة ليكون للناس جميعاً ، وهل من ذهن متجه إلى التأملات الفلسفية وإلى المسائل المقدسة يستطيع احتمال صياح الأطفال وثرثرة المراضع وضجة الخدم » ثم التجأت إلى دير أرجنتيل Argenteuil من غير أن تتقطع المكاتبة بينها وبين أبيلار ومن غير أن ينقطعا عن التقابل وتبادل صلات الغرام ، فنشر فلبير أنهما ارتبطا بزواج سرى وأمعن في نشر الإشاعة آملا أن يدفعهما إلى هذه الغاية . لكن هلويز أقسمت أنه كاذب . فدس فلبير على أبيلار قوماً خصوه واضطره بذلك للاختفاء في دير سان دنيس حتى يدارى شينه . على أنه مع ذلك طلب أن تعلن هلويز دوام تعلقها به . فظن قوم أن هذا الشك من جانبه بعد ما وصل إليه من سوء الحال قد يغيرها عليه ، لكنها لم تزدد إلا إمعاناً في حبه وفي التعلق به وصاحت قائلة : تعلقي أنا وأنا التي أسبقه إلى النار أو ألحقه إليها إذ هو ألقى بنفسه في لهيبها . وأعلنت في الكنيسة دوام تعلقها به ، ثم تبودلت بين العاشقين فيما تلى ذلك من السنين مخاطبات وجد وهيام تبادلاها بعد ما احتمى كل منهما في حمى الله ووهبه نفسه . وظلا على عهدهما حتى مات أبيلار في سنة ١١٤٢ . وبقيت هي بعده اثنين وعشرين سنة كانت فيها مثال الطهارة فنالت من إكرام القديسين والبابوات ما بلغ حد الاعتراف بقداستها .

وقد كانت خطابات هلويز وأبيلار مكتوبة باللاتينية . ثم ترجمت إلى الفرنسية فخلدت ذكرها وجعلت قبرهما القائم الآن في مقبرة بير لاشيز مزاراً للعشاق والمغرمين .

ولما كانت رواية روسو مجموعة خطابات بين عاشقين وكانت من الإبداع بحيث تستحق من الخلود مثلما استحقت خطابات هلويز وأبيلار فقد أطلق عليها اسم هلويز الجديدة . وليس ذلك عليها بكثير بعد ما نالت أول ظهورها

من نجاح بهر أكابر الكتاب ، وبعد ما امتلكت لب شبيبة ذلك العصر وفلاسفته وسيداته ، وبعد ما بلغ من الإقبال عليها (أن لم يستطع باعة الكتب إجابة كل الطلبات وأن كان الكتاب يعطى بأجر معين يبلغ عن ساعة واحدة فى أول أيام ظهوره اثنى عشر صلديا) . ولسنا نشك فى صحة هذه الرواية التى نقلها الأب بريزار Brizard مع ما نحس به فى أكثر خطابات الرواية من عذوبة ومن رقة ومن رنة موسيقية ، ومع ما نعلم من أثرها الذى تركته فيا بعد سواء بأسلوبها الخطابى المرتعش أو بعبراتها الدائمة الهملان أو بما يتجلى فيها من شعور قوى ومن تحليل نفسانى وخلقى واعتقادى دقيق ، وإذا كان فيها من مواضع الضعف أن مواقف الأشخاص الذين فيها مواقف غير عادية بل غير معقولة أحياناً فإن خصب الخيال الذى امتاز به روسو والمواقف البديعة التى لا مثال لها ووصف الطبيعة وصفاً دقيقاً لا يصدر إلا من روسو عاشق الطبيعة عشق الهيام وما إلى جانب ذلك من ملاحظات فلسفية دقيقة ، كل هذا ستر أغلاط الروائى فى ما لفقه من مواقف أشخاصه .

على أن هذه المواقف الملفقة التى سنعرضها على القارئ لم تكن بالغة هذا المبلغ من التلفيق والغرابة فى نظر روسو ، لأنها ليست إلا صوراً مختلفة من مواقف حياته . وحياته بدعة لذاتها وبدعة من أولها إلى آخرها . فهذا المتشرد البائس العائش عيش البداوة الملوث النفس من صغره والذى يعالج الفضيلة بعد الأربعين مخلصاً وجهه لها موجهاً كل نيته نحوها فتخونه أعماله ومشاعره الوقت بعد الوقت ، وهذا العاشق الطبيعة المحب للوحدة غير الموفق فى الحياة الخاضع لتصاريفها الجامع بين الاطمئنان لها والثورة عليها . وهذا الوضيع الأصل والمنبت الذى قضى قسماً من حياته خادماً ثم مربياً ثم موسيقياً ثم اتصل بالعظماء والأشراف فغبطهم على شرفهم وعظمتهم وظل طول حياته يتمسح بهم ويتلكأ حولهم مع مداومة التجنى على ألقـابهم وعـلى مراكزهم . وهذا البروتستـانتى المنقلب إلى الكثلكة المرتد إلى البروتستانتية القوى الإيمان بين أهل الإلحاد والتقى . وهذا الإنسان المريض الإحساس المولع بالنساء الشاب القلب الهائم يحيى الحب أكثر من هيامه بصورة خاصة منه . هذا المخلوق الغريب الجامع لكل هذه الصور والمولع بنفسه إلى حد أنه لم يعرف سواها طول حياته لا يمكنه وهو يكتب روايته إلا أن يجمع فيها بين

أغرب المواقف وأدعاها للدهشة .

ولا عجب فى ذلك والهلويز ليست إلا صورة من صور حياة روسو فى الواقع ومن حياته أيضاً فى الأمل والحلم . لكن روسو لم يكن قديراً أن يجمع فى شخص واحد من أشخاص روايته ما اجتمع فى نفسه وخلقه وعقله من متناقضات فوزعها بينها جميعاً . كما نشر كثيراً من آرائه فى الحب وفى الفضيلة والتربية والزواج وحياة الأسرة وغير ذلك على صفحات خطاباتهم المختلفة .

° ° °

ولكى نحلل رواية تزيد صفحاتها على الألف يجمل بنا أن نسير مع المؤلف رويداً رويداً حتى لا تضطرب أمام ذهن القارئ صورة من بدائع ما أنبت أدب القرن الثامن عشر .

أكثر أشخاص رواية روسو خطراً اثنان : سان برى وجولى Saint Preuxet 'Julie . وسان برى شاب من سواد الشعب أوتى حظاً من الذكاء والعلم وأوتى حظاً من العواطف والمشاعر أكبر وأعظم . وهو شديد الولع بالطبيعة وبمناظرها شديد الرغبة عن المدن ومخاطرها قليل الاعتبار للألقاب الموروثة ميال للفضيلة نزاع بطبعه إلى الخير . فهو لذلك صورة من روسو على ما يحب روسو أن يكون . وهو لذلك أكثر ترفعاً عن مؤاناة النقائص التى تلوثت بها نفس روسو من أيام كان خادماً وإبان كان مشرداً طريداً . وقد دعته البارونة دتـــانج d'Etange ليهذب ابنتها جولى . وكانت يومئذ فى الثامنة عشرة من عمرها وعلى جانب غير قليل من الجمال والرزانة ، لكن رقتها وضعفها كانا أرجح من رزانتها ومن جمالها . فلما اتصل ما بينها وبين سان برى أسرع الحب إلى نفسيهما . فكتماه زمناً واستمرا فى دراستهما ، ولم يكن فى مقدور الأستاذ الذى خلقه روسو على صورته أن يفاتح تلميذته نجوى الحب لا مفاجأة ولا بتحضير دقيق ينتهى بملكها . ولم تكن هى كما كانت مدام دلارناج التى جرت روسو جرًّا إليها . لذلك حرر سان برى خطابين طويلين بث فيهما محبوبته لاعج شوقه ومحرق غرامه . وفعل الخطابان فى نفس الفتاة لكنها لم تجبه عنهما بشىء فأرسل إليها بثالث ذكر لها فيه حبهما المتبادل على غير جدوى وأشار فى ختامه إلى ضرورة ابتعاده عنها حتى تبقى فى سكونها وطمأنينتها . فأجابته مستبقية إياه قائلة له « إن القلب الفاضل يعرف كيف يتغلب

على هواه أو أن يكتمه » . فلما ألح فى ضرورة الارتحال أجابته أن رجلا يدعى ما ادعاه هو من الجمع بين الفضيلة والحب لا يكتفى بالارتحال بل يقوم بعمل أكبر من ذلك وأجدر . لكنها ما لبثت أن علمت منه تصميمه على إطاعة أمرها بإراحة نفسه من عناء الوجود حتى استصرخته ألا يفعل وأفضت له بكل ما يحويه قلبها من حب وضعف . وتبودلت بينهما بعد ذلك خطابات عدة جامعة إلى جانب كل معانى العشق والوجد والجوى والهوى العذرى بعض أفكار فى التعليم وفى التاريخ وفى قواعد الخلق ، ثم انتشر الحب من قلبيهما إلى مجموع وجودهما وشعرا بأن هذه المكاتبات الطويلة العقيمة لا تغنى وحدها من الحب شيئاً ، فتواعدا على التلاقى جوف الليل فى كوسج تحيطه الأشجار . وشرطت جولى أن تكون معها فى هذا الملتقى بنت عمها كلير كى تحارب بها انفجارات الحب من جانبها ومن جانب محبها . وتلاقيا ومعهما كلير ثم كتب سان برى لها يصف هذه اللقيا قال :

« ولما دخلت الكوسج اقتربت ابنة عمك منى وطلبت إلى بنوع من الرجاء الظريف أن أقبلها . فقبلت تلك الصديقة الساحرة وإن لم أفهم سر طلبها ! وبرغم ما هى عليه من الرقة والظرف فإنى أدركت فى تلك الساعة أن الإحساس ليس إلا ما يريد القلب أن يكون . لكن ماذا عرانى بعد لحظة من ذلك حينما شعرت . . أن يدى تضطرب . . برعشة رقيقة . . بفمك الدرى . . فم جولى . . يلتقى بفمى وينضغط عليه ، وبجسمى بين ذراعيك ! كلا ليست نار السماء أقوى ولا أسرع من تلك النار التى أحرقتنى . فقد اجتمعت كل أجزاء وجودى لترشف هذا الملمس العذب ، وتطاير اللهب مع تنهداتنا من شفاهنا المحترقة وهد قلبى تحت حمل اللذة . . ثم رأيتك فجأة وقد ذهب لونك وأقفلت عيناك الجميلتان واستندت إلى ابنة عمك ثم سقطت مهدودة ذاهلة أن أطفأ الوجل المسرة . فكان هنائى بذلك برقاً سريع السنا » .

لكن هذه القبلة الحارة المحرقة هزت وجود الفتاة هزاً عنيفاً وأرتها رأى العين مبلغ ضعفها ومبلغ اندفاعها نحو الخطر . فكتبت إلى صديقها تأمره بالابتعاد عنها وبالسفر ، وأرسلت له مبلغاً من المال فرده ، فغضبت لتلك السخافة وضاعفت المبلغ وهددته إن هو رفضه . . فقبله وبارح الديار من غير أن يراها . واستمرت

المكاتبات بينهما ما بين حب ومغاضبة وعتاب حتى إذا حضر البارون ديتانج ورأى ما أودته فتاته من العلم والحكمة سأل عن معلمها . فلما ذكر أنه رآه من قبل ، وأن فى نفسه منه أثراً غير سيئ ، سأل عن ثروته فقيل له إنها تافهة . وعن مولده فقيل له إنه ضيف . فوقعت هذه الكلمة موقعاً غريباً من نفس هذا الشريف المولد حتى ضطر أن يسأل عما يدفع إليه من أجر . وقد ساءه جد المساءة أن علم أنه لم يقبل أجراً ، وعتبر فى تفضل رجل من العامة على شريف مثله مسبة . وأمر أن يعرض على المعلم أجر معين إن رفضه شكر عما قدم .

أما سان برى فكان يقطع وقته فى اعتلاء الجبال وجوب الوديان والاستمتاع بكل بدائع الطبيعة . ويصف ذلك فى خطاباته إلى جولى ويتغنى بجماله على نغم موسيقى عذب رنان كانت توقعه ريشة روسو على القرطاس فتستخرج منه معانى وأصواتاً وصوراً ليست أقل إبداعاً من صور روفائيل ولا من أنغام بيتهوفن ولا من أغنيات عذارى البحار . فلما وصلته كلمة جولى تخبره بما كان من والدها ومن تحتيمه دفع الأجر إلى معلمها رد عليها يقول :

« إننى أميز فيما يسمونه الشرف بين ما يستفاد من الرأى العام وما يرجع إلى احترام الإنسان نفسه . فأما الأول فجماع خرافات سخيفة أكثر تقلباً من الموج المضطرب ، وأما الثانى فقائم على أساس من حقائق قواعد الخلق الثابتة . وإذا صح أن يفيد تشريف الناس لنا فهو لن يصل إلى الروح ولن يكون له أى أثر على سعادتنا الحقة . وعلى العكس من ذلك أمر الشرف الصحيح الذى هو روح السعادة . فليس يجد الإنسان عاطفة الرضا الداخلى الدائم التى تمتاز دون سواها بجعل المخلوق المفكر سعيداً إلا فى نفسه . فلنطبق هذه المبادئ على مسألتك يا جولى لتنحل عقدتها .

« لقد تظهر تلك المهنة . مهنة إقامتى نفسى أستاذ فلسفة ، واقتضائى النقد مقابل تعليم الحكمة دنيئة فى نظر الناس . وقد أقر أن فيها شيئاً من السخف لذاتها . على أنه ليس من بين الناس من يستطيع إقامة أوده بنفسه ، ولا سبيل إلى ذلك أقرب له من الاستفادة من عمله . لذا وجب أن نضع هذا الازدراء فى صف أشد الخرافات خطراً وألا نكون من السخف بحيث نضحى هناءنا بسبب مثل هذا الرأى الأخرق » .

لكنه رأى أن الشرف الصحيح يمنع عليه اقتضاء النقد من الأب واستغلال قلب البنت التى تحبه ويحبها . فذكر ذلك صريحاً فى كتابه وأشار إلى أن توافق قلبيهما وتقارب سنيهما واندفاع كل منهما نحو صاحبه وخسة كل علاقة بينهما غير مشروعة تجعله أميل للنظر فى وسيلة أخرى لاجتماعهما . وليست هذه الوسيلة إلا الزواج .

غير أن البارون ديتانج كان من أشد الناس تشبثاً بمبدأ الكفاءة فى الزواج ، فلن يزوج ابنته من أفاق كسان برى ، هو مهما بلغ من علم وحذق وفضيلة لن يعدو أن يكون من عامة الناس ومن سواد الشعب . وهو فوق هذا فقير معدم . وقد أدخل هذا الرأى إلى قلب جولى من الهم ما أمرضها حتى استدعت صاحبها لتراه خشية أن يحل أجلها وهو عنها بعيد .

وقد أعانت كلير Claire d'Orbe صديقتها واستدعت سان برى وألحت فى استعجاله ، ثم بلغها أن مربيتها فى خطر الموت فتركت ڤڤى Vevey وسافرت . وبعد زمن من سفرها جاء سان برى وتقابل خفية مع جولى وحرضها على الفرار وإياه من البيت الأبوى ، فرفضت مخافة ما يصيبُ ذلك أبويها من سوء وعار ، لكنها خشيت أن تبث هذا الرفض صدر محب وامق ، فاستسلمت له وارتمت فى أحضانه وزاد به وبها الوجد فى بعض سويعات سكرة الحب ففقدت عفتها .

* * *

كثير من الروايات والقصص التى كتبت بعد الهلويز والتى أخذت عنها غرام المعلم بتلميذته الشريفة تنتهى بعد هذا الحادث بحادث حاسم كالانتحار أو القتل أو ما إليهما . وبعضها يترك للحب عنانه ويدفع بالفتاة التى سقطت فى سبيل الغواية فتهجر بيت أهلها بل المدينة التى هم فيها لتوارى عارها ولتمتع كل شهواتها وملاذها غير حاسبة للنتائج حساباً . ولقد كان ذلك فى مقدور روسو لو أنه أراد . لكنه رأى أن تركه سان برى وهو صورة نفسه فى هذه الحال يستنزل عليه سخط الساخطين ولعنات اللاعنين . ومهما كان من حق كل ساخط أن يلعن الغواية فقد كان ذلك عزيزاً على روسو فلم يطق احتماله .

لهذا ظل سان برى زمناً يقابل ويكاتب جولى بعد ضياع طهرها وعفافها حتى حملت منه وحتى اضطرت لإجهاض نفسها ، وفى هذه الحال المزرية

وفى هذا المركز المخجل تظل الفتاة الشريفة فى تجاربها الدنيئة مع معلمها من غير خجل ولا استحياء . ولو أن العاشقين شعرا بما فى ذلك من مخالفة للمبادئ التى نادى بها سان برى من قبل والتى اعتبرها أساسا للفضيلة الصحيحة وللشرف الحق . وسترا عارهما وفسادهما لهان الأمر . ولو أنهما بدلا مبادئهما وذهبا إلى أن الزواج نظام لا محل له وأظهرا من الاقتناع بذلك ما يعذرهما عن مؤاتاة الرذيلة التى أقرا من قبل أنها الرذيلة لصح أن يكون لهما فى ذلك بعض العذر . لكن خطاباتهما الطويلة ظلت مملوءة باسم الطهر والفضيلة والسعادة القائمة على الحكمة الصحيحة ، وظلت مملوءة بها على طريقة روسو الخطابية التى تعدت فى جولى حدود كل ما رأى القارئ فى كتبه السابقة وكل ما سيرى فى كتبه اللاحقة . ولم تكن جولى ولا تزال فتاة لم تتعد بعد مبتدأ الشباب لتخجل فى كتبها من ذكر أعمالها بوقاحة متبجحة لا يمكن أن يتصورها الإنسان تحت ريشة غير ريشة روسو وفى قرن غير القرن الثامن عشر ، ذلك القرن الذى اضطربت فيه كل العواطف وأصبح حظها من الألفاظ يعادل مكانها من النفوس أضعافاً مضاعفة .

فليس من شك فى أن الحب الذى كان معروفاً قبل ذلك العصر كان حباً يملأ القلب وقلماً يفيض على اللسان . وكان مظهراً من مظاهر ضعف النفس الإنسانية يجمل بها ستره . وكانت العذراء التى تحب ترى عفافها فوق حبها كما كانت المرأة المتزوجة تضع واجب الزوجية فوق عواطفها الشخصية . لكن القرن الثامن عشر ظهر بمظهر فى الحب جديد . فكان حبه كثير الكلام أشد تعلقاً باللسان منه بالقلب ، وكان يعتبر وسيلة للذة لا غاية سامية لذاتها . على أن ثرثرته لم تبلغ فى العصر كله ما بلغته ثرثرة عاشقى روسو . فما نحسب عبارة من عبارات الحب ولا لفظاً من ألفاظه ولا صورة له ولا حساً به ، ولا توهماً إياه ، ولا خيالا منه إلا وصفه روسو فى خطابات روايته بإسهاب واستيعاب . ولعل ما رأى القارئ فيما مر من صور الحب ومن أزواج كانوا أكبر أصدقاء عشاق زوجاتهم ومن الزوجات المغرمات برفيقات أزواجهن يكفى ليعطيه بعضاً من الصور التى مرت بوهم مؤلف الهلويز فى أثناء كتابته إياها .

إنما كان إسهاب روسو غالب الأمر إبداعاً لا إبداع بعده . كم صورة من صوره تهز القلب وتستهوى النفس . اسمعه مثلا فى خطاب من سان برى

بن جولى وهما فى حال المخاللة وهو يقول لها : ! إيه يا ماكرة ! أكذلك تكون حبضة التى وعدتنى باتخاذها . وهل يكون كذلك رفقك بى وإخفاؤك ملامح جمالك ؟ ألا كم تخلفين عهودك ؟ وأول ما كان من ذلك زينتك . فإنك لم تتزينى قط وأنت تعلمين أنك أشد ما تكونين فى هذه الحال خطراً ثم مظهرك الرقيق المتواضع الكفيل باستظهار كل ما فيك من معانى الجمال . وكلامك القليل الموزون الآخذ بنصيب من الظرف أكثر من عادته حتى زادنا التفاتاً وجعل الآذان والقلب يطيران يستبقان كل كلمة . وتلك الأغنية التى كنت توقعينها بصوت منخفض يزيد غناءك رقة حتى يصل وهو غناء فرنسى لينال إعجاب ميلورد ادوار My Lord Eduard . ونظرتك المخجولة وعيونك الناعسة الطرف يبعثن أحياناً من خاطف البرق ما يثير عندى قلقاً لا سبيل إلى دفعه . وبالجملة ذلك الروح الساحر الذى لا تعبر الألفاظ عنه والذى نشرته حولك فخلبت به الألباب من غير أن تبدى أى عناية به أو تفكير فيه ، ولست أدرى أى شىء تصنعين لتكونى كذلك . ولكن إذا كانت تلك هى سبيلك لتكونى أقل ما تكونين جمالا فإنى نذيرك بأن ما عندك من ذلك يزيد عما يحفظ على المحيطين بك من الحكماء حكمتهم » .

وميلورد إدوارد إنجليزى شريف عريض الجاه والمال . وقد عرف سان برى ثم اتصل ببيت ديتانج ووقف على ما بين سان برى وجولى من عاطفة . وعطف عليهما العطف كله . لذلك جعله روسو واسطة الخير لهما فى كل ظروف الرواية ، وبعد ما أرضى خياله بأن مكن لبطله من (الوجود فى قصر تحفه فيه عناية السيد والسيدة وتصبح البنية فيه رفيقته والابن صديقه والمجاورون فى حمايته) مما لم يتح له هو فى حياته . وبعد ما جعل من ضعف جولى ضعفاً يزيد على المعقول وسيلة لإمتاع شهوات بطل روايته (بذوق الملذات التى يريدها قلبه) . فكر فيما يكون من شأن العاشقين وانتهى بأن جعل ميلورد إدوارد وسيطاً لهما عند البارون ديتانج لعقد زواجهما . وقبل ميلورد ما طلب منه وخاطب البارون فى الأمر وشرح له فضائل سان برى وانتهى بقوله : فإن أنت فضلت العقل على الوهم وكنت أكثر حباً لابنتك منك لألقابك فإنك لابد معطيها إياه .

هنا احتدم غيظ الأب الذى اعتبر الطلب سخيفاً غير معقول وصاح :

أيرد ذلك بخاطر رجل شريف مثلك يا ميلورد . أتقبل لشريف من أسرة عريقة وإن قل خطره أن يطلق اسمه إذ ينزل به فيخلطه باسم أفاق لا مأوى له ولا عمدة فى عيشه إلا على المصادفة . وهنا يمتع روسو نفسه على لسان ميلورد بإعلاء شأن الأفاقين الذين كانوا أصل الشرف والنبل والفضل وبالطعن على العائلات التى تسمى شريفة . أجل . « فماذا صنعت لمجد وطنها أو لسعادة بنى الإنسان ؟ وماذا أنتجت فى أكثر البلاد التى سطع نجمها فيها إلا أن ظهرت عدوة للقوانين وللحرية وإلا أن أعانت الاستبداد وظلم الشعوب ؟ فكيف بك تكبر أمر نظام قاتل للفضائل وللإنسانية . ثم يفخر أهله بقيام العبودية ويستحيون أن يكونوا رجالا ؟ اذكر تاريخ قومك ثم خبرنى هل للأشراف زملاءك من فضل فيه ؟ فأيهم حر ؟ وكم ؟ وهل كان فرست وتل وستوفا شر من طائفة الأشراف ؟ فما هو إذن ذلك المجد الأخرق الذى تملأون الجو باسمه صياحاً ؟ أهو فى خدمة رجل وفى العيش على نفقة الحكومة » .

على أن هذه الحجج ومثلها وكل ما فى خطاب التفاوت وخطاب المناظر من الطعن على نظام الأشراف ومن إعلاء شأن الإنسانية لذاتها ومن اعتبار الخلق والفضيلة والعقل والحكمة أساس كل نبل وشرف لم تزعزع شيئاً من عقيدة البارون الذى نشأ فى أفكار طائفته العتيقة الخاطئة ، بل لقد اعتبر وساطة ميلورد إهانة له وذهب لتوه إلى ابنته وإلى أمها فكبلهما بالمهانة وبالازدراء ، ثم أبدى إلى الفتاة أنه لن يزوجها إلا من صديقه الشريف فولمار ولو اجتمعت لدى سان برى خزائن إنجلترا . ومنعها من مقابلة عاشقها ومن مخاطبته ما عاشت .

بعد ذلك توسطت كلير فى الأمر وأعانها خطيبها المسيو دورب وأمكن لها أن تقنع سان برى بضرورة مغادرة الديار فغادرها هو وميلورد إدوارد قاصدين باريس .

° ° °

إلى هنا ينتهى الجزء الأول من الرواية . وقد افتتح روسو الجزء الثانى بهذه الملاحظة (لا أظن نفسى فى حاجة لأن ألفت النظر إلى أن العاشقين وقد افترقا فى هذا الجزء الثانى والجزء الذى يليه كانا يخلطان ويخبطان أن ضل صوابهما) . وهذا عنى ميلورد إدوارد فى أثناء السياحة بالترويح عن نفس سان برى ما استطاع .

لكنه رأى أن عنايته ليست كافية كل الكفاية . كما أن بغض البارون وساطته ترك أثراً غير حسن فى نفسه . فكتب إلى جولى يقول لها : « لى فى دوقية يورك مزرعة واسعة الأرجاء كانت مقام آبائى زمناً طويلاً . والقصر الذى هناك ممتع طيب وإن يك قديماً ، والضواحى على وحدتها بهجة تجمع مختلف المناظر . ونهر الأوز الذى يجرى عند منتهى الحديقة يقدم للعين منظراً بديعاً ولمنتوجات الزراعة مصرفاً سهلاً . وجنى الأرض كاف لإقامة أود أستاذك ويمكن أن يتضاعف بعنايته . وليس إلى الخرافات على هذه البلاد الطيبة من سبيل . بل يحتفظ أهلها بالعوائد البسيطة التى ورثوها من العُصُر الأولى . فهذه المزرعة لك يا جولى إذا نزلت إلى الإقامة فيها معه . . ولقد كان معقولاً أن تسمع جولى لميلورد ادوارد وتترك بيت أهلها وتندفع وراء حبها وتكون بذلك مثلاً من أمثال المخاطرة فى الحب . لكن روسو كان على طعنه على الكبراء والأشراف شديد الاحترام لهم كما كان على نيله منهم وانتقاصه شرفهم شديد الشعور بفضلهم عليه . لذلك كبر عليه أن يخاطر بابنة البارون هذه المخاطرة التى تخرج بها من سبيل الحب المنطقى المفكر المقدر قيمة كل التضحيات لتدفع بها فى سبيل لم يكن لروسو أن يعرف مسالكها . ولذلك قعدت حكمة الفتاة وضعفها بها عن معالجة هذه السبيل وفضلت البقاء فى بيت أبويها قاطعة على نفسها عهداً ألا تتزوج من سان برى إلا عن رضا من أبيها وألا تتزوج من غيره إلا بموافقته ورضاه .

وأقام سان برى فى باريس وجعل يخاطب صاحبته منها ويصف لها ما يراه من أخلاق أهل المدينة وما هم عليه من طيبة ورقة وظرف يكاد يبلغ النفاق ، وما تمتاز به الباريسيات من حسن اختيار فى الملبس وقصد فى التزين بالحلى وميل للمناظر كى يراهن الناس ،وتحبب إلى الرجال وإغضاء عن الفضائل المتعارفة وما إلى ذلك مما رأى القارئ من مثله فيما مر من علاقات روسو وغيره بالنساء . وفى هذه الأثناء تزوجت كلير من المسيو دورب فاضطرت جولى لسحب خطابات سان برى من عندها بعد ما كانت لديها فى حرز حريز . ثم لم يمض زمن طويل حتى وقعت يد البارونة على هذه الخطابات فكان ذلك سبباً فى مرضها مرضاً ألزمها الفراش وانتهى بأن قضى على حياتها .

كان لوفاة البارونة من الأثر على جولى أن كادت تنسى سان برى بل وأن

كادت تكرهه لأنه كان سبب مصابها وسبب عارها . واشتد بها الحزن ولم تلق أمامها إلا صورة متوفاة نسيت فيها نفسها النسيان كله . لكنها ولما تتم مراسم الحزن ومواعيده . — وللحزن كما للفرح مراسم عند الناس ومواعيد — حتى جاءها أبوها يخبرها بضرورة زواجها من فولمار . وبعد مناقشة وأخذ ورد ضعفت أمام رجاء أبيها ، وازدادت ضعفاً حينما علمت أن فولمار الغنى أصبح فقيراً وأنه لا يزال على عهده مع أبيها فى طلب يدها لم يثنه الجدرى الذى ترك بعض الأثر فى وجهها . فكتبت إلى حبيبها تسترجعه وعدها وحريتها ولم يتردد هو فى إجابة مطلبها .

« وحسبت أن اليوم الذى أنتزع فيه منك انتزاعاً أخيراً هو آخر أيامى حتى لقد هان على أن أرى كفنى وعدة قبرى ولا أرى ما أعد لزواجى . وكنت كلما اقتربت من اللحظة الحاسمة ازددت عجزاً عن أن أنزع حبى الأول من قلبى . ولم أبلغ من جهودى لإطفائه إلا أن ازداد شدة وأواراً . ثم هدتنى هذه الجهود الضائعة فى الهواء حتى إذا كانت اللحظة التى وطنت نفسى فيها كى أقسم لغيرك بدائم الولاء والإخلاص إذ أقسم لك قلبى بدوام حبه ومودته . وسيق بى إلى الهيكل وكأنى ضحية خبيثة لا تذر مكان تضحيتها إلا رجساً ونجساً .

« وساعة دخلت الكنيسة عرتنى هزة لم أشعر من قبل بها أبداً فى هذا المكان البسيط العظيم المملوء بمجد من يخضع الكل له فيه . فقد أخذ بروحى فزع لا أقدر على تصوره ، وسرت إلى رعشة خوف هزتنى وكاد يغمى علىّ معها ، ولم أستطع التقدم إلى المنبر إلا بكل مشقة ، وزاد بى الاضطراب فى أثناء الحفل حتى زادنى ما بقى لى من قدرة على تمييز الأشياء فزعاً منها . . وقد كان من أثر ظلمة المكان وصمت الحضور العميق ومظهرهم المتواضع ووجود زمرة أهلى بينهم وموقف والدى المحترم موقفاً مهوباً — كان من أثر ذلك كله أن نشر على ما سيكون معنى المهابة ، واستقر عندى التنبه والاحترام ، وصار مجرد التفكير فى الذنب كافياً ليرعشنى ويرعدنى . وخيل إلىّ أنى أرى رسول القدر وأستمع إلى كلماته ممثلة مجسمة حينما نطق القسيس بالصيغة المقدسة برزانة ووقار ، وبدت لى طهارة الزواج وكرامته وقداسته مما وصف فى الكتاب المقدس بقوة ووضوح . وآمنت بواجبات الزوجية الطاهرة الرفيعة وبما لها من خطر فى أمر السعادة والنظام والسلام وبقاء نوع الإنسان . ورأيت الأثر الذى يترتب على القيام بتلك الواجبات وكان من أثر ذلك

كله أن شعرت فجأة بثورة قامت فى داخل نفسى وبقوة مجهولة تولت لساعتها إصلاح ما اضطرب من عواطفى وأخذت تردها إلى حمى قانون الطبيعة والواجب . فقلت فى نفسى . . إن العين الخالدة المطلعة على كل شىء تقرأ الآن فى خبايا قلبى وتقارن مستور إرادتى بما سيجيب به فمى . وإن السماء والأرض لشهيدتان على ما سآخذه الآن على نفسى من عهد مقدس . شهيدتان من بعد على إخلاص فى الوفاء به ، فهل يستطيع من يعبث بأول الحقوق أن يحترم بين الناس حقاً » .

وتنطلق جولى فى هذا الخطاب البديع الذى تصف فيه تطور نفسها من يوم حبها إلى يوم زواجها تحلل نفسها تحليلاً دقيقاً وتستظهر كل معنى من المعانى التى دارت بخاطرها فى أثناء حفل الزواج وبعده وتبين كيف استنجدت القدر ليعينها على محبة الزوج الذى وهبها القدر إياه . . ثم تنتقل إلى وجوب الاحتياء فى حمى الدين بإمعان وإخلاص . وهنا تظهر لأول مرة فكرة روسو فى الدين واضحة جلية ، فقد تقلب ما بين البروتستانتية والكثلكة وعاش فى وسط كله الإلحاد والنفى ومع ذلك ظل مخلصاً للفكرة الإلهية مؤمناً بها تمام الإيمان ، ولعل هذه العبارة من جولى إلى صديقها أبلغ ما يعبر عن رأيه فى هذا الباب :

« لم أك يوماً من الأيام على غير دين أبداً . لكنى أفضل الشخص ولا دين له على من يكون ذادين ظاهر لا يتصل بالقلب ثم يطمئن له الضمير ويقنع منه بصور يجعله معتقداً فى الله بعض يومه ناسيا كل تفكير فيه بقية الوقت . . .

« اعبد الكائن الخالد أيها الصديق الكريم الحكيم . وإنك إذن لمهلك فى رجع النفس ذلك الطيف من العقل كل ماله من الوجود مظهر كاذب وهو يفر فرار الظل أمام الحقيقة الثابتة . فليس موجود إلا من أمر الله . هو الذى يجعل للعدل غرضاً وللحق أساساً ولهذه الحياة القصيرة تقضى فى مرضاته ثمناً . وهو الذى يصيح بالجناة أجرموا خفية أنهم فى قبضة يده . وهو الذى يقول للعادل نسيه الناس إنى على فضائلك لشهيد : . . هو مثال الكمال بهيولته الباقية . ومن هذا المثال تحمل نفوسنا صورة إن غشت عليها الشهوات فإن دقائقها مرتبطة بالهيولة الباقية تتمثل أمام عقلنا وتعينه على رد ما غيره الخلط والكذب . وإنى ليخال لى أن حسن الذوق كاف لمعرفة كل هذه الأمور . فما كان مرتبطاً بفكرة هذه الهيولة ولا يستطاع فصله عنها فمن الله . أما ما سوى ذلك فهو من عمل الناس . .

وبرياضة التأمل فى هذا المثال الأقدس تطهر الروح وترق وتعرف كيف تزدرى وضيع الميول وتترفع عن دنىء النزعات . وكل قلب دخلت إليه هذه الحقائق العليا يأبى على نفسه ما عند الناس من تافه الشهوات ويصان من رفعته السامية إلى التقزز من كبريائهم ويبعده التأمل عن وضيع نزعاتهم . ولو أن الكائن العظيم الذى شغل به لم يوجد لحسن أن يشغل على الرغم من ذلك به من غير انقطاع ليكون أكثر امتلاكاً لنفسه وأشد قوة وأكثر سعادة وأعظم حكمة .

وهذا التعبير الذى خطته يد جولى هو الذى سيكرره روسو بعد ذلك فى هذه الرواية وفى أميل وفى اعترافاته وبقية كتبه . وهو واضح فى بيان أن روسو كان بروتستانتيا حرًّا . وكان كما قال فاجيه « فيلسوفاً مؤمناً بالله تربى بروتستانتياً وعشق البحث والاجتهاد بروح مستقلة تمام الاستقلال ، واحتفظ من تربيته بالميل إلى الدعوة للخلق الفاضل وبكراهيته الديانة الكاثوليكية والتقزز منها » .

وانتهت مدام فولمار بعد إرشادها صديقها سبيل الحق وبعد دعوتها إياه إلى الفضيلة الصحيحة الخالية من شوائب الشهوات بإعلان انقطاع ما بينهما وبأمره أن يكتب إن شاء أن يكتب إلى مدام دورب ابنة عمها .

ولما وصل هذا الكتاب إلى سان برى جن صوابه وفقدت حياته فى نظره كل معنى ولم يبق لها أية غاية . ففكر فى الخلاص منها وكتب إلى صديقه ميلورد ادوارد خطاباً طويلاً يفند فيه بهدوء وطمأنينة حجج الذين يزعمون الانتحار جبناً وخروجاً على أمر الله ، لكن كلمة من صديقه كفت لترده عن عزمه ، ثم ظل بعد ذلك أمداً طويلاً فى لندرة . ظل حتى علم أن جولى أصبحت أمًّا . فازداد همًّا وكآبة لم ينجه منهما إلا أن سافر على مركب إنجليزية من مواعين أسطول تجارى طفق يجوب البحر والأقطار مدى ثلاث سنوات متتالية .

* * *

هذا الجزء الثالث من أجزاء الهلويز بديع بدعاً خاصاً فى أسلوبه ، وفى تفكيره ومنطقه . وهو كما رأى القارئ انتقال من حكم العاطفة المطلق إلى النظر بعين البصيرة والعقل فى وسائل الحياة وواجباتها . فقد انقلبت جولى دىتانج — وهى الفتاة الضعيفة المستسلمة لهواجس الحب المسلمة نفسها إلى كل دوافعه — وهى معتبرة أن قانون الحب هو قانون الطبيعة والفضيلة والحياة — وهى التى نسيت

ترف مولدها ونسيت الفوارق الاجتماعية ونزلت عن تقاليد وسطها وامتيازاته تختلط بشاب من سواد الشعب ولتدخل فى حوزته وملكه – انتقلت فجأة ساعة وجودها فى الكنيسة لترى فى الزواج لا فى الحب عماد السعادة ولتقدر كل ما كانت فيه فى أثناء حبها من عماية وضلال ولتستنجد القدر أن يوفق بينها وبين زوجها وبيت علاقتها بمحبوبها القديم .

تلك حركة نفسية قوية يدهش صدورها من جولى الضعيفة النفس المهملة التربية . لكنها حركة تدل على دقة ملاحظة روسو فى هذا الظرف بنوع خاص . فإن أسرع النفوس للانتقالات الفجائية هى النفوس الضعيفة . ذلك بأن ضعفها يقعد بها عن ملابسة الوسط والتحكم فيه ، فتخضع لسلطان فكرة أو عاطفة أو فرد حتى تشعر بنفسها وقد جعلها ضعفها سخرية وهزؤا وحتى ألبسها عاراً تهون معه الحياة . هنالك تطفر فجأة بدافع الاحتفاظ الحيوى إلى مركز جديد يحميها من عارها ومن سخرية الناس بها .

ولو لم يقف البارون ديتانج فى وجه ابنته بالشدة التى وقف بها . ثم لو لم تشعر بعد ما أتت على حياة أمها وكسرت قلب أبيها بأنها على شفا الإثم والخزى والعار ، إذن لما تركت الكنيسة فى نفسها هذا الأثر . ولو أنها كانت ذات نفس قوية وإرادة صلبة وشخصية ذاتية لما اهتزت نفسها هذه الاهتزازات التى رآها القارئ بل لقررت نوعاً من الحياة يتفق مع قوة ذاتيتها وصلابة إرادتها ثم هى إما واجهت من زوجها خصماً تناصبه الكفاح حياتها ، أو ضعيفاً تخضعه لها ، أو داهية يلعب بالحياة وبها ، وفى الحالين الأخريين تكون هى السعيدة .

ودقة ملاحظة روسو فى هذا الظرف الخاص راجعة إلى أنه كان يلاحظ صورة من نفسه . وهل كانت حياته إلا سلسلة ضعف واستكانة ثم ثورة من جديد . ألا تراه وقد أقسم ألا يكون له بكابر علاقة ورفض مراراً دعوة مدام دلكسمبور له يرجع عن عزمه حينما زاره دوق لكسمبور ولا يكتفى برد الزيارة بل ينتقل إلى قصره ويعيش معه ويمضى سنين تباعاً فى كنفه وحمايته . ثم ألا ترى كيف ترك الصومعة فجأة بعد ما كان مصراً على البقاء بها . فهذه الطفرات هى من نوع طفرة جولى ديتانج فى ساعة حفل الزواج ...

وفيما كان روسو يجوب البحار يتهادى به السفين ما بين صقيع المتجمد وبين

خط الاستواء وهو يترنح على جبال الأمواج القائمة المتهدمة قطع حبه ويرسل فى أجواء البحار تنهدات وجده وهواه كانت جولى فى أحضان زوجها وكان أبناؤها فى أحضانها . وكانت السعادة تحيط بهم جميعاً لولا ما كان يثقل الزوجة من أسرار ماضى غرامها مما كانت لا تفتأ تذرف عليه دمع التوبة وترجو من رحمة القدر عنه المغفرة والإنابة . وكانت ابنة عمها كلير على مقربة منها تواسيها ساعات ذكرها وتنصح إليها ألا تبدى من أمر هذا الماضى شيئاً إلى زوجها حتى لا تدخل إلى نفسه من الهم ما قد يعكر صفو عائلة منت عليها الأقدار بالسعادة .

ثم غالت المنون زوج كلير فانقطعت عن ابنة عمها زمناً ترى من شأن ميراث ابنتها . وفيما هى بعيدة عاود جولى رجع من صوت ضميرها ألح بها لتكشف للمسيو فولمار عن صحيفة ماضيها . وفيما هى فى مناقشة ذلك مع كلير عاد سان برى من سياحته وتجواله .

كنا نود مع جول لمتر لو نرى الموقف الذى اعترفت فيه جولى لزوجها بماضى غرامها . وكنا نريد أن نعرف أثر ذلك فى نفسه وما قام بينه وبين جولى من حديث . لكن روسو مر بذلك مراً وكأنما تركنا نفهم أن المسيو فولمار قال لجولى ما قاله هو لتريز لفاسير حين اعترفت له بأن شاباً استغواها مبتدأ الشباب من أنها كذلك أحب إليه . أو أن المسيو فولمار وكان يوم تزوج جولى قد فقد ثروته وأصبح بعد زواجها مدير مالها وثروتها لم يبق له إلا أن يذعن لكل مظاهر إرادتها . على أنه كان يعلم كل شىء قبل اقترانهما وإنما رضيه إعجاباً بصفاتها وطمعاً فى محبتها واحتفاظاً بكلمته لأبيها . ولذلك كان كل ما وقع لنا فى الهلويز عن أثر هذا الاعتراف أن كتب فولمار إلى سان برى يقول له : « كلفت أن أكتب إليك برغم عدم سابق تعارفنا . فقد كشفت أحكم الزوجات وأعزهن لزوجها السعيد عن مستور قلبها ، وهو يحسبك جديراً بما كان من محبتها إياك ويفتح أمامك بيتاً له يسود فيه الطهر والعفاف ، وإنك لواجد فيه الصداقة والإكرام والاحترام والثقة . فراجع نفسك واعلم أنه ليس ثمت ما يخيفك . فاحضر ولا تثريب عليك . وإنك لن تتركه إلا بعد أن تترك لك صديقاً — فولمار » . وعقبت جولى على هذا الخطاب بحاشية فيها : أحضر يا صديقى فإننا ننتظرك مشوقين ، ولعلى لا أهتم لرفضك رجاءنا — جولى . . وأرسل هذا الخطاب وحاشيته طى كتاب من مدام دورب أبدت فيه ما لا يزال يقلبها من شوق إلى

سان برى ومحبة له وعطفي عليه .

وعاد سان برى بعد ما جوب فى الآفاق راضياً من الغنيمة بالإياب . وأخذ هذا الجناب فاضطربت يده وسار فى طريقه إلى كلارانس : « وكنت كلما اقتربت من سويسرا ازددت شعوراً باضطرابى حتى كانت اللحظة التى بدت لى فيها بحيرة ليمان من أعالى الجورا لحظة سحر وبهر . وتنسمت ريح بلادى العزيزة التى أغرقت من قبل هواتن مسراتها قلبى . وهواء الألب الصافى الصحيح . ونسيم وطنى الرقيق البالغ فى عذوبته ما لم يبلغه عطر الشرق . وتلك الأرض الغنية الخصبة ، وهذا المنظر الفذ أبدع ما وقعت عليه عين الإنسان . وذلك المقام الساحر لم أجد له فى العالم نظيراً ، ومنظر الشعب السعيد الحر . وجمال الفصل ورقة الطقس وألف ذكرى عذبة أيقظت ما تذوقته من مشاعر – تنسمت ذلك كله فسرت إلى نفسى هزات لا أستطيع تصويرها وخيل إلى أن قد رد على نعيم المتاع بكل حياتى جميعاً معاً » .

ثم شعر بانقباض وباضطراب وخوف لما قارب منزل فولمار . لكن حسن اللقيا وقوة عزيمة جولى بددا مخاوفه واضطرابه . وقد وصف روسو حركات نفس العاشقين فى هذا الموقف بإسهاب وإبداع وقوة حتى انتهى بهما إلى الطمأنينة فى كنف الطيب فولمار بلغت به طيبته حتى أن أباح للعاشقين تبادل القبل إشفاقاً على سان برى وأملاً فى شفائه من لاعج غرامه .

وبعد أيام ارتحل سان برى فزار مدام كلير دورب ثم عاد . ولم يطل به المقام فى المنزل الجديد حتى جاءت إليه مدام كلير دورب هى الأخرى . وكذلك أصبح سان برى بين محبوبته وزوجها وصديقته . وظلوا جميعاً سعداء بهذا العيش لا تلعب دوافع الشهوة بنفوسهم ولا يحس المسيو فولمار أى غيرة من هذا الضيف الذى فتك فى الماضى بعفاف جولى بل تجمع الفضيلة بينهم على نحو ما يريدون . . ولا غرابة فى قهرهم كل نزعات الحس فقد كانت إرادتهم فى متناول أيديهم ولم تكن قلوبهم من قلوب البشر .

وهذا ما أخذه كثير من الكتاب على روسو سواء فى ذلك خصومه والمعجبون به . ولسنا ندرى هل كان روسو ملوماً بمقدار ما يظنون . فإنما وجه الغرابة أن يكون هؤلاء جميعاً ممن ثم يكونون من الطهر ومن الفضيلة بما لم يطمع فيه بفنوس فى قصة

تاييس على ما كان من خلوص نفسه ومن قدسته . أما اجتماعهم على هذا النحو فلم يكن غريبا فى ذلك العصر . عصر مدام دبناى ومدام دسابران ومدام ديفو ومدام دودتو ومدام دلكسمبور وغيرهن من سيدات القرن الثامن عشر كن يعتبرن أزواجهن شركاء شرعيين كل ما لهم من الشركة ستر الصورة الظاهرة لكى تبدو الناس صورة مشروعة ثم لا يكون لأى من الزوجين حق التحكم على قلب صاحبه ولا على تصرفه . بل كثيراً ما كان الزوج يعتبر صورة مكملة فى المنزل لا يؤبه لها إن وجدت ولا يعنى بها إن غابت . وقد بلغ من ذلك حتى روى أن أحد الأدباء ممن كانوا يحضرون مائدة سيدة من هاتيك الشريفات لاحظ أن رجلا من زملائه على المائدة لم يحصل التعارف بينه وبينه قد انقطع عن جمعيتهم فأخبرته السيدة أن ذلك الرجل كان زوجها وأن القدر المحتوم أصابها فيه : وليس هذا الزوج إلا مثلاً لأزواج كثيرين فى ذلك العصر .

ثم إن حياة جان جاك كانت سلسلة من نوع حياة سان برى . فكانت مخاللته لمدام دفارنس كمخاللة سان برى لجولى قبل زواجها . وكانت حياته مع مدام دبناى وتعلقه بمدام دودتو ومقامه مع دلكسمبور حياة ومِق وتطلع كحياة سان برى مع جولى بعد زواجها . وكانا جميعاً يتكلفان الفضيلة القاسية لا حبًّا فى الفضيلة ولكن احتفاظاً بمركز عجزت مواهبهما العملية وقعد بهما فقرهما عن الاحتفاظ به . لذلك لم يكن المركز الذى وضع روسو فيه أشخاص روايته غريباً عليه ولا على جمعية عصره وإن تصورناه نحن غريباً بمقارنته بجمعية العصر الحاضر . وكل ما فيه من الغرابة إنما هو ذلك الطهر القاسى الذى يتنافى مع الطبائع البشرية وبخاصة عند أهل جيل إباحى رقيق فهم تمام الفهم أن الحياة غاية الحياة وأن طبق هذه النظرية الرقيقة القوية تطبيقاً فيه من الإغراق ما قد يشوه بعض فاتن جمالها .

على أن روسو قصد من وضع أشخاص روايته فى هذا الوضع ومن تحكيم الفضيلة فيهم وإعفائهم من غواية الشيطان نزعة غاية معينة . فقد أراد أن يدلل لأهل زمانه على أن القلب الطيب والإرادة الحسنة يكفلان الإقامة من الزلة والإقالة من العثرة . وهو بعد أن كتب الجزأين الأولين من الرواية ليرضى شهوات قلبه ويروى ظمأ عواطفه عاد فذكر مبادئه ونزعاته الخاصة فصمم على استكمال الرواية ونصب نفسه خطيباً ومعلماً وداعياً إلى السعادة عن طريق الفضيلة والأخذ

... الطبيعة . وأى رجل أجدر من روسو بالقيام بهذه الرسالة وهو ذلك الحقير ... المدنس الذى بقى فى حقارته وضعته حتى بلغ الأربعين من عمره ثم تشبث ... الفضيلة وعالج عوج نفسه قصد إصلاحها فوصل من ذلك إلى مقام ... يغبطه عليه كل من كان للفضيلة محبًا وبها متعلقاً .

ولبيين الوسيلة إلى ذلك صور لنا فولمار المسن الهادئ النفس القليل التعلق بالأ... متعلقاً بجولى ولعاً بها . فلما وقف من أبيها على ماضى صلتها بسان برى قال ... كذلك أحب إليه وأخذ على نفسه إسعادها . ويسر له ذلك ما حدث فى نفس ... من التغير والثورة ساعة حفل الزواج . وقد رأى القارئ أنها حرمت على سان برى مكاتبتها بله زيارتها وأنه بعد سنين من ذلك وبعد أن أصبحت هى أماً ركب البحر ثلاث سنين تباعاً فلما عاد كشفت جولى لزوجها عن سابق علاقتهما . فكتب هو إليه يدعوه إلى منزله ابتغاء شفائه من غرامه . . وكانت حجته فى ذلك أن الحب عاطفة سريعة إلى الزوال ، وأن جولى وسان برى افترقا وحبهما فى عنفوان قوته فبقى على هذه القوة فى نفسهما برغم ما طرأ على وجود كل منهما خلال هذه السنين من التغير . ولو رأى كلٌ ما حل بصاحبه لهدأت حدة عاطفته وهمد الحب فى قلبه وانقلب صداقة لا تخاف عواقبها ولا تخشى .

ولما جاء سان برى ورأى مدام فولمار زوجاً وأماً وشعر بما أولاه المسيو فولمار من ثقة لم يدر بخاطره أن ينزل عن هذا المستوى ليكون مجرماً قديراً على التسفل فى درك الدناءة إلى حد التفكير فى الفتك بعرض رجل ائتمنه وبسعادة امرأة لم ... ميله إليها شديداً وبشرف أبناء هذين الزوجين العزيزين . فظل وإياهما ينهل من سعادتهما . لكن ذكريات الماضى كانت تهز قلبه هزات عنيفات من حين لحين . وكا... جولى تشاركه اهتزازاته فتحول الفضيلة دون أن يحدث ذلك من الأثر أكثر ... سرعان ما يتبدد ليحل محله الاغتباط بالحاضر وبما فيه من هناء وسعادة .

و... يصف روسو بإسهاب وتطويل يستغرق عشرات الصحائف صورة حياة ... وزوجها وأبنائها على ما وجدهم سان برى . فهو يصف خدمهم ومزارعيهم وصلة ... هؤلاء الخدم والمزارعين وصلات الخدم والمزارعين بعضهم ببعض . ثم يصف ... منزل فولمار وحديقته وطيوره . وهو يضع ما بين هذه الأوصاف الأفكار ... عليه من ضرورة تضامن الأغنياء والفقراء تضامناً أساسه العطف والرحمة

من جانب الأغنياء والاحترام والمحبة من جانب الفقراء — ومن ضرورة عدم الامتزاج بين الرجال والنساء إلا فى الاجتماعات ...مة والحفلات الراقصة التى يجتمع فيها الجنسان تحت إشراف الأكابر وذوى ...دم — ومن مضرة البطالة وضرورة تعويد الناس جميعاً من كل الطوائف مداومة العمل . ومن ضرورة تربية الأطفال فى أحضان الطبيعة وإدخال محبتها فى نفوسهم حتى لا تفسدهم من بعد صناعة الاجتماع . ومن ضرورة البر بالفقراء والمعوزين وما إلى ذلك من وسائل السعادة حسب إلهام الطبيعة — وإنك لترى هذه الأوصاف والصور والأفكار منثورة على صحائف الرواية بإبداع فى الأسلوب الموسيقى الجذاب يدعك وأنت تقرؤها مسحوراً على نفسك مأخوذاً بجمال الطبيعة البديعة الذى أحاطك به روسو فأحيا حولك الغابات بأشجارها وأزهارها وصخورها وغدرانها ورقيق نسيمها وشميم عطرها حتى أنساك نفسك الوقت الذى يمر بك وأنساك المكان الذى أنت فيه .

ولم تكن هذه الأوصاف والصور خيالات شاعر ولا أحلام كاتب ولكنما قصد بها روسو أن يصور لجمعية ذلك العصر مثلاً من أمثلة الكمال الإنسانى الذى يجب أن ينسج عليه للوصول بالإنسانية إلى السعادة . ولقد سار فى ذلك على مثال الأنبياء الذين كانوا يضربون للناس الأمثال ويجذبونهم إلى الفضيلة بجميل ما يصورونه من آثارها من تافه الأعمال وجليلها . فكما رتب بوذا وغيره من الرسل صور الطعام والشراب والملبس والنوم والبر بالفقير وإعانة الضعيف كذلك فعل روسو . فلم يترك حركة من حركات الإنسان إلا صورها على ما يجب أن تكون عليه من الكمال متخذاً عائلة فولمار ومن يحيطون بهم من خدم وعمال وما يحيطهم من مناظر ومظاهر مثلاً أعلى للإنسانية السعيدة . وأعلى مثل للسعادة عنده هو العيش البسيط وسط الطبيعة الجميلة بعيداً عن ضجة المدن وضوضائها وحيث الحرية الكاملة الشاملة .

على أن السعادة ببلوغ المثل الأعلى إنما تتأتى للناس إذا عنى أهلهم بتربيتهم من أول نشأتهم حسب إلهام الطبيعة ووحيها . والتربية وفق الإلهام الطبيعى عند روسو لا تكون بتقييد الطفل وتعويده عوائد الاجتماع ولكن بتوجيهه فى الطريق الطبيعى وذلك بأن يعامل ويعلم طول مدة طفولته على أنه طفل ضعيف محتاج لغيره محتاج لخدمة الذين يستطيعون تركه . وبأن لا يناقش مناقشة الكبار ذوى العقل فى وقت

يكون عقبه فيه بعد . . . «وإن من الأغلاط المشتركة بين جميع الآباء الذين يزهون بشيء من العرفان أن يحسبوا أولادهم على جانب من العقل من يوم مولدهم وأن يخاطبوهم مخاطبة الرجال من قبل أن يستطيعوا التلفظ والكلام بدعوى أن العقل هو الوسيلة لتعليمهم . وذلك وهم . وإنما يجب استعمال كل الوسائل ليتفتق الذهن . فإن أشق ما يصل إليه الإنسان وأحوجه لطول الزمن هو العقل . ومخاطبة الأطفال من نعومة أظفارهم بلغـة لا يفهمونها تعودهم على الاكتفاء بالتشدق بالألفاظ وعلى تقليد ما يقوله الآخرون ثم يحسبون أنهم أوتوا من الحكمة ما أوتى أساتذتهم . ومن شأن ذلك أن يجعلهم مجادلين حبا فى الجدل حتى تراك ولا تصل منهم إلى ما كنت تحسب أنك واصل إليه من طريق العقل إلا بوسائل الإرهاب مضافاً إليها ما تستدعيه غالب الأمر من الكبرياء والتعاظم » . . .

وهنا يعرض روسو صورة من فكرته فى التربية قد لا يحسن أن نسوقها قبل الكلام عن كتابه (أميل أو التربية) فثم موضع عرضها على شكل أكمل وأتم .

° ° °

ولما فرغ روسو من وضع قواعد السعادة حسب إلهام الطبيعة ووحيها سواء فى شأن تربية الناشئة أو فى الحياة المنزلية والاجتماعية رجع يفكر فى شأن أشخاص روايته بعد ما تركهم زمناً طويلاً وبعد ما نسى القارئ أو كاد أنه يقرأ رواية قصصية تحكى حوادث وعواطف وميول وشهوات الأشخاص الذين ألفهم والذين ألفت الرواية من أجلهم . لكن الموقف الذى وصل إليه أشخاص الهلويز لا يتحمل نشاطاً جديداً ولا حركة . إنهم جميعاً أشخاص كانوا على جانب من النقص أو من سوء الحظ ثم عالجوا الحظ وعالجوا الفضيلة وعالجوا السعادة فوصلوا منها جميعاً إلى كمال لا يعرف الإنسان له مثيلاً إلا فيما توصف به حياة أهل جنة الخلد فلم يبـق لهم إلا أن يخلدوا فى هذه الحياة ولم يبـق لرواية روسو موضع للانتهاء .

ولقد شعر روسو بذلك تمام الشعور . وكان طبيعياً أن يشعر به وقد بدأ روايته وسار فيها من غير نظام خاص أو ترتيب معين . فلما استحس دقة المركز لم يجد وسيلة يخرج بها من المأزق ويختتم بها روايته إلا ابتداع حادثة غير منظورة تضع حداً لحياة أكثر أبطال الرواية خطراً .

أما الصورة التى رسم بها روسو هذا الحادث الحاسم والعواطف التى أحاطها

به فلا تخلو من جاذبية ككل ما يصوره ويكتبه . فقد اقتضت إرادة ميلورد ادوار أن يسافر وسان برى إلى إيطاليا . وفيما هم فى الطريق قضت ظروف أن يمضيا الليل فى فلنيف . وكان من حظ سان برى أن ينزل فى غرفة نزل فيها فى إحدى سياحاته الماضية إبان وجده وهيامه . فهيج ذلك قلبه وعاودته الليل أحلام جعلته يرى بينه وبين جولى حجاباً كثيفاً لم يتمكن معه من تبين صورتها .

ولما وصلا إلى رومة شغل ميلورد ادوار بعلاقات غرامية بينه وبين إحدى المركيزات كما أخذته عن نفسه فتاة تدعى لور . وقد توفيت المركيزة بعد زمن ففكر ميلورد فى الاقتران بلور . وهنا رأى سان برى فى ذلك ما يحط من قدره كرجل من أشراف إنجلترا . لذلك جاهد حتى وصل لإقناع الفتاة أن تلجأ إلى الدين وأن تطهر فى حمى الله .

أما جولى فقد رأت فيما علمته من تذكر سان برى سابق غرامهما وفيما قد يجر ذلك إليه من محاذاة الخطر أن تنصح إليه بالاقتران بابنة عمها كلير . وتذرعت إليه بحجة غير مشرقة له . فقدخشيت أن يفسد طمأنينة تابعاتها وخدمها باتصاله بهن

ولكى تبرر هذا المطعن قالت : « لنقل كل شىء ما دام حتماً أن نقوله ، ولنـدع التواضع فى سبيل محبة الفضيلة محبة صحيحة ! فالرجل لم يخلق للعزوبـة . ومن الصعب ألا تجر حالة مخالفة كل المخالفة للطبيعة إلى اضطراب واضح أو خفى . فما هى الوسيلة إلى التخلص من عدو لا يفتأ الإنسان يحمله فى ثنايا نفسه .

« انظر فى البلاد الأخرى إلى أولئك الغلاة الذين يتخلون عن أن يكونوا رجالاً ترى أن الله يجزيهم عن غوايتهم فيتركهم ونفسهم يدعون لنفسهم الولاية وهم أدنياء ينطوى ادعاؤهم على الرجس والخطيئة ويسقطون إن حقروا الإنسانية إلى ما دون الإنسانية » .

(وكذلك ترى روسو لا يجد فرصة يظهر فيها فضل البروتستانتية على الكثلكة إلا انتهزها) .

على أن هذه الحجة لم تمنع سان برى من أن يشعر بما فى خطاب صاحبته من الإهانة له وإن مر بها مر الكرام باللغو . وليجيب على اقتراحها حلل عاطفته

بالنسبة لابنتي العم جميعاً تحليلاً دقيقاً بديعاً انتهى منه إلى أن حب هي المخلوق العزيز لذاته . يحبه هو ، وتحبه كلير . ويشترك هو وكلير في محبته ، فتحاب هو وكلير بسبب هذه الشركة . فإذا ارتبطا برباط الزواج اقتضى ذلك حتما ألا تكون جولى بينهما وهو محال . وإذن فمحال أن يكون الزواج .

ولم تجد جولى في رده مقنعاً فأعادت الكرة وأوضحت له ما تشعر به من السرور لفكرة ارتباطه وإياهم برابطة النسب حتى يضمن ذلك بقاءهم جميعاً معاً فتبقى تلك السعادة التي ينهلون من عذب نميرها مذ عاد سان برى من سياحته والتي بلغت حتى أخرجت جولى عن طوقها ودفعت بها إلى الإمعان في التدين إمعانا كاد يصل بها إلى بعض درجات المشاهدة الروحية .

على أن هذه المشروعات الطويلة العريضة التي ملأت ريشة روسو بوصفها جزءاً كبيراً من روايته والتي كانت تصلح مقدمة لحوادث ووقائع جديدة تستغرق ألف صفحة كما استغرقت الهلويز ذهبت كلها هدرا . فقد خرجت جولى مع أهلها للنزهة على شاطئ البحيرة وفيما ابنها يجرى سقط في الماء فألقت بنفسها وراءه وأنجته وخرجت ولكنها مرضت على أثر ذلك مرضاً حقق حلم سان برى وجاء على حياتها .

وفي أثناء مرضها عرضت على القسيس اعترافها الديني الذي شرحه روسو بعد ذلك في أميل عند كلامه عن تعاليم قس من السافوا . وبموتها انتهت رواية روسو الكبيرة .

ليس عسيراً أن يرى الإنسان ضعف الصنعة الروائية في هذه الرواية وبخاصة فيما بعد زواج جولى ويأس سان برى . فقد كان في مقدور المؤلف أن يصور من التطورات النفسانية الممكنة في عالم البسيكولوجيا ما شاء من مختلف الأشكال . وكان في مقدوره أيضاً أن يرقى بنفس أشخاص روايته إلى الطهر والفضيلة عن طريق التوبة والتكفير على صورة روائية دقيقة . لكن روسو ترك الصنعة الروائية ولجأ إلى تسطير تصوراته وأحلامه وأوهامه في كيفية حصول الإصلاح الاجتماعي في جمعية ذلك العصر الفاسدة .

على أن هذا الضعف الفني لم يقلل من نجاح روايته ومن عظيم الإقبال على قراءتها لأول ما نشرت . وصار نجاح خطاب روسو إلى دائرة وخطب التفاوت .

وخطاب العلوم والفنون ضعيفاً بل دنزاً في جنب نجاح الهلويز . ويذكر القارئ كم كان نجاح هذه الخطابات عصباً حتى عد حاسماً . وكان أكبر أسباب نجاح الهلويز إلى جانب قيمتها الأدبية الكبيرة عظيم إعجاب صالونات السيدات بها ، فقد خرجت هذه الرواية على ما كان متعارفاً قبلها من وصف حياة المرأة في لحظ الغواية من لحظات وجودهـا ووصفت حياة نسائية كاملة أرضت سيدات ذلك العصر ذوات الذكاء والآداب . قال فاجيه : « لقد وصفت لهن امرأة لها ضعفها ولها فضائلها ولها خلقها . وقد ملقت هذه الرواية فيهن بعض عيوبهن وبعض ميولهن الطيبة كما ملقت كبرياءهن مباشرة وبنوع خاص ، ثم إنى نسيت الحاجة إلى الدموع حاجة لم يقم أحد بسدادها من عهد راسين ، فقد اجترأ هذا الرجل على استبكائهن لا بتكديس المصائب الشنيعة كما فعل بريفو في قصصه المطولة . بل من طريق آلام المحبين الرفيعة الكريمة صورها . على ما قال سانت افرمون : في قصة بسيطة الوضع – وإن تك مزيفة أشد التزييف – يحب أبطالها الطبيعة ويتشهون الألم » .

وحاجة السيدات والشباب بل الشيوخ إلى الدموع من حاجات الحياة الماسة . وذلك بأن الدمعة هي ثمرة العاطفة الشهية . هي الجواب الناطق في صمته بمعانى اللذة والألم والسرور والانقباض والحب والكره والفرح المفرط والحزن الأليم . هي المنفس لكربة المكروب والضابط لفرحة النشوان واللؤلؤة يلتقطها المحب بين شفتيه ولا تزال فوق خد محبوبه والتجاوب الموسيقى للتنهد العميق يدفع به الألم المبرح من أعماق الجوانح ، وخير الدموع وأحلاها دمعة الوجد والتذكر .

وقد جف الأدب الفرنسي بعد راسين وزاده جفافاً اتجاه تيار الميل العام إلى التعقل الفلسفي وانتشار ذلك بين طبقات الرجال والنساء واتجاههم جميعاً صوب الإلحاد والنفي وتشبثهم في محاربة الدين محاربة لا هوادة فيها . فلم يكن بد من كاتب حي العاطفة قوى الحس شديد الإحساس غزير الدمع رقيق الشعور ليدفع إلى هذا الجفاف روحاً جديدة تخاطب القلب وليدر من دمعه على العواطف المجدبة بسبب خضوعها للشهوات المتحكمة وابلا يعيد إليها حياتها وخصبها . وأى كاتب أقدر من روسو على القيام بهذا المجهود العظيم الذى هز قواعد العصر الأدبية والاعتقادية .

لقد عهدنا روسو فى حياته العادية غزير الدمع إلى حد فوق المعقول . فهو يذرفه لكل شىء وللاشىء . يذرفه لخروج دوق لكسمبور مع كوانديه ليسير وإياه بعض الطريق معتبراً فى ذلك من التنازل ما يدل على عظيم طيبة قلب هذا السيد العظيم ، ويذرفه حين يدخل غرفة البغى فيراها على جمالها مسلمة للكافة يلهو بها هو وغيره ، ويذرفه على أيدى وتحت أقدام مدام بازيل ومدام دلارناج ومدام دودتو وغيرهن لغير سبب يستعبر له أى رجل سواه . . لذلك لم يلبث أن أطلق عنان قلمه فى الهلويز حتى أفاض محاجر عشاقه بدموع مخلصة صادقة لا يستطيع قارئ أن يمنع نفسه فلا يشارك فيها أصحابها إلى حد قل أو كثر .

فضلا عن سداد الهلويز للحاجة إلى الدموع واستغزازها للعاطفة الخالدة فهى قد نشرت فى جو ذلك العصر المترف البعيد كل البعد عن مظاهر الطبيعة البكر أبهى صور الطبيعة وأجلاها ، وما أكثر ما يتسلى المترف بالصور عن الحقائق وما أكثر ما تكفيه نقوش الرسامين وأغانى المطربين وروايات المسارح عن الغابات والأشجار والأطيار والحياة الحية بذهابها وجيئتها وجمالها وجلالها وأغاريدها ونجواها . . بيد أن رواية روسو كانت أبعد من ذلك أثراً . فهى بنشرها صوراً لطبيعة حية ناطقة فى مقاصير السيدات قد أثارت فى نفوس أهل ذلك الجيل الميل للرجوع إلى أصول هذه الصور ودفعتها بذلك إلى حب المتاع بالطبيعة البكر فى بكورتها ذات البهاء والجلال . وما كان أبعد هذا الميل أثراً إبان الثورة الفرنسية .

ولقد جر الميل إلى المتاع بالطبيعة حب البساطة بما أبدع روسو من وصف هذه البساطة وبيان ما تؤدى إليه من السعادة فى الحياة . والواقع أن أهل العصر كانوا يشعرون بثقل حمل الحياة المترفة ولكنهم كانوا لا يجدون عنها حولا لأنهم كانوا يعتبرونها ضرورة من ضرورات الوجود . فلما صور لهم روسو جمال البساطة وعظمتها بدءوا يشعرون أن البساطة ليست سبباً من أسباب الحقارة ولا الضعة ، وأن الإنسان يستطيع أن يكون بسيطاً وعظيماً معاً .

على أن أبدع ما فى رواية روسو ارتفاعه بسان پرى وبجولى من درك الدنس والخطيئة إلى ذروة الطهر والفضيلة على سلم التوبة والتكفير ، ثم معادلته بين عذاب الاستسلام للخطيئة على لذة هذا العذاب وطمأنينة النفس الفاضلة طمأنينة تبلغ حد السآمة ، وتصويره جولى فى التجائها إلى حمى القداسة الروحية

تريد الوصول منها إلى حد الكمال ، ووصفه ما تجد هذه المرأة الفاضلة فى ذلك من المشقة ، وكيف تذهب المشقة عنها بسآمة الطمأنينة .

ولسنا فى حاجة لأن نعيد أن الأسلوب الموسيقى العذب الرقيق المحزون الذى امتازت به هذه الرواية كان من أكبر أسباب الثورة التى أحدثتها فى الأدب . فقد أحدثت فى الأدب ثورة بالفعل . كان الأدب الروائى مقصوراً قبلها على الوقائع التاريخية المطولة الكثيرة الشعب والمملوءة بالمجازر أو الدسائس أو بالغرائب التى يذهل أمامها الخيال ، ثم تبعثر بينها بعض الأفكار الجافة . فخلقت الهلويز أدباً لا يعرف الوقائع الكثيرة ولا يعرف الأوهام والخيالات ، وإنما يعتمد على وقائع قليلة بسيطة متعارفة يقيم عليها بناء الرواية ثم يملأ الباقى بزخرف الوصف ودقائق التحليل ورقيق العواطف . ويغلو فى ذلك إلى حد يرفع الإنسان عن مستوى الإنسان فى تفكيراته وفى عواطفه وفى حسه وإحساسه .

وهذا الغلو من ناحية وعدم التقيد بالوقائع التاريخية من الناحية الأخرى هو الذى جعل هذه الرواية طليعة للرومانتزم فى فرنسا . فقد كان الأدب قبل ذلك إنشائياً (كلاسيك) كما سبق بيانه . وكان نزاعاً للرجوع إلى آداب اليونان والرومان والصدور عنهما وورد مناهلهما واعتبارهما فى الأدب مثال الكمال . على أن الخروج عليها بدأ فى ممالك أوربا عدا فرنسا فى أيام ثورة الإصلاح الدينى التى قام بها لوثر وكلفن وكوسوث . وكان شكسبير فى كثير من رواياته رافع لواء الخروج إلى ميادين الحرية الأدبية فى حدود العقائد السائدة . لكن فرنسا بقيت مقيدة بالكلاسيسزم وبقى راسين المثل الأعلى فى الكمال الأدبى لتقيده به أكثر من سواه . وكورنى الذى كان من أبطال هذا الأدب لم يسلم من النقد لأنه كان يندفع فى بعض رواياته إلى خارج حدوده . أما موليير فقد رفع علم الثورة ولكنه بقى فى ناحية الهزليات (الكوميك) فاعتبر صاحب نوع فى الأدب جديد لم يؤثر على كمال راسين ولم ينقص شيئاً من مكانة أدبه . ولما جاء القرن الثامن عشر وبدأ التغير لم يستطع أحد أن يواجه قواعد الأدب المقررة وأن يعلن وجوب تصوير الأدب بصورة العصر الذى يعيش فيه ، وظلت الروايات التى من هذا النوع تعتبر خارجة على معنى الكمال الأدبى . ولم يكن إلا الشريد روسو ، هذا العاشق للطبيعة الهائم بجمال سويسرا المغرم ببحيراتها العائش فى نفسه بنفسه لنفسه هو القدير على

الخروج بالهلويز لتكون طليعة للرومانتزم الرومانسك [١] .

كان طليعة للرومانتزم لأنه ترك الماضى بجملته وترك اليونان والرومان وانتزع روايته من الحياة المحيطة به وأقام أشخاصها بين الأشخاص الذين عرفهم والذين كانوا يعيشون معيشة كل أهل زمانه . وكان رومانسك (روائياً) لأن أشخاصه كانوا فى عواطفهم وفى حياتهم وفى تفكيراتهم روائيين يغلون فى كل ما يخصهم يحبون إلى حد الجنون ويضعفون إلى حد الجريمة ويتوبون إلى حد الطهر الأقصى ويعيشون معيشة حلم وأمل بحت . ولعمرك هل عرفت فيمن عرفت أمثال جولى فى ضعفها وفى عقلها وفى منطقها الخطابى وفى توبتها وفى مقامها بين زوجها وعشيقها وفى موتها واعترافها . أم هل عرفت مثل زوجها وفلسفته التى بلغت من تحكيم العقل أن أعدمت عنده كل عاطفة وكل شعور وكل أثرة وكل غيرة . وسان برى وكلير وميلو رد ادوار . هل فى الحياة أشخاص مثلهم . أو أنهم جميعاً خلق خيال متوهج يبلغ من بريقه أن يسبى القارئ بله القارئة عن نفسه ويسلبه وقته وهو بذلك فرح وله مستريح .

أخشى أن أكون قد غلوت . فقد ظهر فى عالم الأدب بعد اثنتى عشرة سنة من ظهور الهلويز كتاب صغير الحجم إلى جانب الرواية الضخمة . كان روائياً (رومانسك) أكثر من رواية روسو . وحاز من النجاح ما حازت إن لم يكن أكثر . أقصد قصة « آلام فرتر » التى وضعها الكاتب الفيلسوف الألمانى جيت Goethe وفيها قص حديث غرامه مع شارلوت ووضعها فى صورة المراسلة ووصف فيها حالا نفسية تزيد فى دقتها الفلسفية على حال سان برى بكثير . ولسنا نريد فى هذا المقام أن نقارن بين الكتابين إلا من حيث تشابههما فى الوضع ، ولأن فرتر كان يعشق شارلوت المخطوبة إلى ألبير كما كان سان برى يهيم بجولى زوج فولمار ، ولأن ألبير وفولمار كانا على درجة واحدة فى فلسفة الغيرة . أما كتاب جيت فيمتاز بأنه أصدق لهجة وأقوى عاطفة . ويرجع ذلك إلى أن جيت كتب قصة حبه ولا يزال حبه ملتهباً . فلما أتمها شعر بحبه وقد تلاشى وكأنما كان قد ملك شارلوت بنشره قصة غرامهما . أما روسو فكان يقص أحلامه وأوهامه ويحكى فى شيخوخته ذكريات شباب مفقود .

كذلك فإن الحادث الحاسم فى رواية روسو سخيف مصطنع . أما فرتر فقد بلغ من شدة وجده حتى انتحر هياماً بمحبوبته وحتى نشر بذلك فى جو أوربا كلها

[١] الروائى .

فكرة انتحار العاشق الذى أسقط فى يده .

إذن فقصة جيت هى قصة الحياة والحب والموت . وقصة روسو هى قصة الحب المتطاير على أجنحة الخيال والوهم . وإن يك وهمه بديعاً وخياله ساحراً .

على أن سحر خياله وإبداع وهمه لم ينس أهل عصره ما نقص قصته من صنعة روائية . فقد لاحظ كثيرون – ومنهم مدام دبناى – أن المؤلف كثير الظهور فى خطابات أبطاله . والواقع أن أكثر من نصف الرواية لا يخص أبطالها ولا يتعلق بوقائعها وإنما هى آراء روسو فى المبارزة وحياة باريس والاقتصاد المنزلى والتربية وما سوى ذلك مما مر بك . وتلك آراء لا تقتضيها مواقف أبطال الرواية . فدسها فيها هو إذن حشو شنيع تأباه الصنعة كل الإباء .

كذلك فإن مواقف الرواية ملفقة تلفيقاً مدهشاً لا يبرره إلا حياة روسو المدهشة . على أن بين الموقفين من الفرق أن روسو لم يكن يوماً من الأيام مختاراً فى حياته ، على حين كان أشخاص روايته مطلقى الاختيار فى كل ظروف الحياة . فهو لم يعش إلا كما أرادت السيدات دفارانس ودبناى ودودتو ودلكسمبور . أما جولى فكانت من يوم اقترانها تعيش كما تشاء ، وكان كل المحيطين بها – حتى سان برى – يكيفون عقولهم وقلوبهم كما يحبون ويزجون بها فى أعمق أعماق التصور الروائى طوعاً واختياراً .

ولم يكن ذلك بالغريب فيهم إذا نحن رجعنا إلى منطق جان جاك . فقد كان منطقاً تحكمياً قائماً على أساس من الإلهام فى أبسط درجاته أكثر صدوراً عن دفعات العاطفة والشعور منه عن وزن العقل للأشياء وتقريره قيمتها وتحليله إياها . وكانت الأشياء كلها مادية يغشاها أمام عقله ستار من الخيال فيخرجها عن صورتها العادية وعن صورتها المعقولة أحياناً .

هذه عيوب تبدو لنا اليوم جسيمة بالغة . لكنها لم تضعف من قيمة رواية روسو ولم تقف فى سبيل نجاحها ، نجاحاً فاق كل ما كان يطمع فيه غيره من الكتاب . ولا عجب فهى تخاطب الإحساس والقلب بلا واسطة وتتصل بدخيلة الفؤاد وتهز خفايا الجوانح بما تعبر عنه من مختلف الوجدانيات وما تنشره من بدائع صور الطبيعة الناطقة ، وما تجريه من دموع ، وما تثيره من توجعات .

وما زلنا ولن نزال من بعدنا يعجب بما فيها من صور بزّ بها روسو أدباء عصره

وكتاب القرن الثامن عشر فى التمثيل والحس والخيال ووصف الطبيعة وإن لم نشارك نحن ولا من بعدنا من أهل ذلك العصر حين جنوا بها جنوناً .

ولقد كان روسو فى حل من أن يتذوق لذة هذا النجاح كاملة لو أن نفسه كانت مطمئنة ولو لم يزدد بنجاحه اضطراباً بين ماضيه الحقير وعظمته الحاضرة وتردده الذى كان سبب ضطرابه . ولو أنه من الإقدام ما كان فولتير أو عشر معشار ما كانه نابليون لجلس بعد ذلك النجاح على عرش أعز قائمة من عروش الملوك ولما قدرت حكومة على أن تصدر قراراً كالذى صدر بالقبض عليه بعد نشر كتاب التربية ولكان صاحب اليد والمن على جماعة اللكسمبور بالإقامة بين ظهرانيهم . لكن شيئاً من الضعة كان عالقاً بنفسه ممتزجاً بوجوده طبيعياً فيه فلم تقو الظروف على التغلب عليه أو إخفائه . فشعر كأن الناس طرًّا يحسدونه حتى أخذ على مدام دلكسمبور شيئاً من جفوته . لكنه بقى فى تعلقه بها تعلق الصغير بالكبير والتابع بالمتبوع يتعزى عن جفاء السيدة برقة زوجها ويحس بضرورة بقائه إلى جانبه يعزيه عن مصائبه فى فقد أخيه وابنه الوحيد وابن ابنه حتى ظهر كتاب العقد الاجتماعى وكتاب التربية فى السنة التالية (١٧٦٢) . وكان ظهور كتاب التربية بدء عودته للحياة المتشردة ، التجأ إليها بسبب قرار برلمان باريس بالقبض عليه وفراره إلى سويسرا على النحو الذى شرحناه فى الفصل السابق .

والقارئ لا شك سيدهش بعد تحليلنا كتاب التربية للسبب الذى أدى إلى صدور قرار البرلمان ، وسيرى مبلغ التطور العظيم الذى تم فى العصر الأخير من عصور الإنسانية والذى يرجع الفضل فيه للثورة الفرنسية التى اتخذت روسو مسيحها الهادى ونبيها المرسل . وإنه بعد ذلك ليزداد تقديراً لهذا المتشرد الوضيع الطريد واحتراماً لنبوغ نادر المثال . فإنما نبوغ روسو مصدره القلب ومكانه موضع الإيمان فى النفس .

٢

الإنسان طيب بفطرته . وإنما أفسده الاجتماع الذى غشى على تلك الفطرة بما أوغل فيه من صور الحضارة وبابتعاده عن الحال الطبيعية وإمعانه فى ذلك حتى بلغ غاية التدهور فى القرن الثامن عشر . ولا سبيل لإصلاح هذا الفساد إلا بوقف تياره والعودة بالأخلاق والعوائد والعقائد والقوانين وكل ما فى الاجتماع إلى أحضان الطبيعة والسير على نظامها وسنتها . يومئذ تزول من الاجتماع سمومه ويرجع الإنسان طيباً بالطبع كما كان .

ومن العبث محاولة هذه العودة من طريق الملوك والأشراف والكبراء . فلو أنك أقنعت هؤلاء جميعاً بضرورة تغيير النظام الفاسد الذى هم فيه لما وصلت من إقناعهم إلى طائل . فإن الحياة والعادة طبيعة ثانية . وهم قد جمدوا عند ذلك النوع من العيش بعد ما عانوه سنين طوالاً . وإنك لن تنقل رجلاً من الأبيقورية المتطرفة إلى الرواقية المتطرفة عن طريق إقناعه بأفضلية مذهب على مذهب .

ما هى إذن وسيلة روسو إلى الإصلاح الذى ينشده ؟

وسيلته التربية . فهو يريد أن يدع جانباً ذلك المجتمع الفاسد الذى يحيط به ، والذى يخضع هو لحكمه خضوعاً يضطره مع الطعن عليه إلى تملقه ، ومع احتقاره إلى إكباره ، ومع الإيمان بفساده إلى الارتماء فى أحضانه ، ليمد سلطانه على مملكة الأطفال البريئة الضعيفة العاجزة عن المقاومة المستعدة للتأثر وللانطباع فى قالب الطبيعة الذى يهيه هذا المصلح الأخلاقى لها .

ولإيضاح هذه الوسيلة وضع كتابه عن التربية .

فبعد ما فرغ من روايته فى سنة ١٧٥٨ وبعد ما وصل من تطهير أبطاله فيها أن جعلهم يعيشون وفق قانون الطبيعة ويربون أولادهم مستلهمين وحيها عمد إلى وضع كتاب (أميل أو التربية) وانقطع له وعنى به حتى أتمه وطبعه بمعونة المسيو (مالرب) ثم أخرجه للناس فيما يزيد على الألف من الصفحات .

لم يحدث ظهور أميل ما أحدثته الهلويز فى الجمهور من ضجة . لكن ذلك

لن يكن راجعاً إلى قيمة الكتاب ونقد القراء له . وإنما كان سببه ما تهامس الناس به من أن للكتاب ولمؤلفه فى البرلمان شأناً وأن البلاط عنه غير راض .

و (التربية) لا شك خير كتب روسو بإجماع الكتاب قدماء ومحدثين ، وهو من خير ما كتب فى موضوعه . وليس يعيبه ما فيه من نظريات خيالية وأخرى فاسدة . فهو فى مجموعه الثمرة الناضجة التى أنتجها عقل جان جاك ، وهو أدق كتبه ملاحظة للواقع وأقربها لمنطق الفلاسفة الوضعيين وأسماها غاية وأبعدها أثراً .

و (التربية) ليس الأول مما كتبه روسو فى هذا الموضوع ولا آخره . فقد عرض له فى كثير من خطاباته الخاصة وشرحه بإيجاز فى مقال نشرته الانسيكلوبيديا بعنوان الاقتصاد السياسى وعالجه فى رواية الهلويز ثم عاد إليه بعد نشر أميل فى خطابه عن حكومة بولونيا . ولا عجب فقد دفعت الأقدار بروسو فكان أخلاقياً . والتربية هى الأساس الذى يجب أن تشاد عليه قواعد الخلق وكانت موضع بحث كثير من المؤلفين فى ذلك العصر .

لكن روسو لم يكن أخلاقياً بطبيعته ولا بنوع تعليمه . بل كان أخلاقياً بالمصادفة . وقد كانت نشأته الأولى مثلاً أعلى لسوء التربية ، أو بالحرى لعدم التربية . وإن ما تقضت فيه سنيه الأولى من ألوان الفاقة والتشرد والبؤس وضعة النفس وخدمة الغير وما لوث ذلك به نفسه من خبائث الكذب والسرقة وعدم الوفاء وسائر النقائص ليبعده عن كل صلاح لوظيفة الأخلاقى المهذب الداعى إلى الفضيلة وإلى الرفعة الخلقية . كذلك لم تكن معالجته الموسيقى إلى سن الأربعين من مهيئات المصلح الأخلاقى . وإنما هى المصادفة التى أدت إلى نجاح خطاب العلوم والفنون ونواله جائزة أكاديمية ديجون ومعارضة الكثيرين له وإجابة روسو إياهم وتحمسه لفكرة الرجعة إلى الطبيعة — هذا كله هو ما جعل منه الرجل الأخلاقى نصير الفضيلة وبطلها .

وهو مؤدب بالمصادفة أيضاً . ولعل القارئ يذكر فشله فى تربية أولاد المسيو دمابلى بليون بعد مقامه سنة معهم ويذكر كيف انتهى بأن سرق نبيذاً من كهف المنزل ثم استقال فأقيل .

لكنه مع كل ذلك نابغة . فلم تكد فكرة الحال الطبيعية تملكه حتى تمددت فى خياله وأخذت عليه حسه وملأت كل وجوده فقلبها على كل وجوهها واستثمرها

فى شتى مواضع نظره وتفكيره .

ولما كان خطيباً فى كتابته قوياً فى أسلوبه وكان قد طعن على النظام المحيط به وعلى الكبراء الذين كانوا فوق المطاعن وعلى السيدات موضع تمليق الملوك والأشراف والأدباء فقد حنق الكبراء به تعجباً واحتقاراً وتطلع الناس إليه إعجاباً وإكباراً . أما السيدات فمال بهن ضعفهن إلى العطف عليه والتزلف إليه . فمال هو إلى تحبيبهم . يدفعه ولعه الجنونى بهن . ولم يمنعه طعنه عليهن ، عن البقاء فى كنفهن والخضوع لكل أوامرهن ، وتوثيق عرى روابطه بهن ، فجلس منهن مجلس القس المدنى يستمع لاعترافاتهن ، ويهديهن أقوم سبل الحياة ويسدى ثمين النصح إليهن ، والحق أنه ترك مجموعة نفيسة من الخطابات التى بعث بها لمستنصحاته تحوى خير الآراء فى شتى المسائل وفى التربية .

ويدلنا ما ورد فى (الاعترافات) على أن كتاب التربية لم يوضع قصداً ولا على نظام معين. وإنما « ألفت مجموعة هذه الملاحظات والتفكيرات الخالية من الترتيب والتتابع إجابة لرغبة أم صالحة قادرة على التفكير . وقد شرعت أول الأمر فى وضع مذكرة من بضع صحائف ثم استهوانى الموضوع بالرغم منى فأصبحت المذكرة أشبه بكتاب هو لا شك ضخم بالنظر إلى ما يحتويه ولكنه صغير جداً بالنسبة للموضوع الذى أعالجه . . . وسيكون ما أذكره عن أهمية التربية الصالحة قليلاً . كذلك فلن أقف لإثبات فساد التربية الحاضرة فقد أثبت ألف غيرى ذلك من قبل وليس من شأنى أن أحشو كتاباً بما يعرفه الناس جميعاً . وإنما أرى أن صيحة ارتفعت من زمان بعيد ضد طرائق التربية الحاضرة ولم يعن أحد باقتراح ما هو أحسن منها » . .

إذن فقد وضع الكتاب بادئ الرأى إجابة لرغبة سيدة من سيدات روسو . وضع ليكون مذكرة ثم امتدت صفحاته إلى الألف عن غير شعور من مؤلفه . . وضع كما وضعت الهلويز سداداً لغرام روسو بالنساء ثم امتدت صفحاتها إلى الألف دفاعاً عن روسو وتحبيذاً له وتمجيداً لحياته .

وكما كان سان برى صورة لروسو ، فسيكون أميل ومؤدب أميل صورة لروسو أيضاً . وكما كانت نقائص سان برى وسيلة سما بها إلى ذروة الفضيلة التى سما روسو إليها ، فسيكون أميل صورة روسو فى صغره وستكون تربية أميل مشابهة

لتربية روسو وسيصير أميل رجلاً فاضلا مثلما صار روسو رجلاً فاضلاً . وليس فى ذلك كله من عجب . فقد كان روسو يتوهم نفسه مثلاً أعلى لصورة الكمال الأكمل

استهل روسو كتاب التربية بكلمته المشهورة « يخرج كل شيء حسناً من بين يدى مبدع الكائنات ثم يعتوره الفساد والنقص بين يدى الإنسان . فهو يكره أرضاً على أن تغذو نبات أرض أخرى وشجرة أن تحمل ثمر شجرة أخرى . وهو يخلط الطقوس والفصول ويخصى كلبه وحصانه وعبده ويقلب كل شيء ويفسد كل موجود ، وهو يحب الشوه ويهوى الشناعة ولا يرتضى شيئاً على ما صورته الطبيعة ، حتى ولا الإنسان . بل هو يريده مهذباً كما يحب كأنه حصان الملعب . ومشذباً كما يريد كأنه شجرة فى حديقته » .

عارض روسو فى هذه الجملة ما بين سنة الطبيعة وسير الاجتماع وندد فيها بالحضارة وما تجر إليه من تشويه وإفساد وإتلاف . وهذا التشويه والإتلاف هو أساس المدنية وأساس تعس الإنسانية . ولو أن الإنسان لم يسترسل مع كاذب غروره يريد إصلاح ما جعلته يد القدر صالحاً بطبعه لظل الناس فى سكينتهم ولا نزلت بهم مصائب الهم والفاقة والتعس فليرجع الناس سيرتهم الأولى حتى يرجع إليهم نعيم الطبيعة .

والتربية هى وسيلة الرجعة « فنحن نولد ضعافاً فتحوجنا القوة ، ومحرومين من كل شيء فتحوجنا المعونة ، وبلهاء فيحوجنا الحكم والتقدير . وكل ما ليس لنا يوم نولد ونحتاج إليه حين نكبر إنما نحصله بالتربية . والتربية تحصل لنا من الطبيعة ومن الناس ومن الأشياء . فالنمو الداخلى لقوانا وأعضائنا يتأتى من تربية الطبيعة . ومعرفة الوسيلة للاستفادة من هذا النمو تتأتى من تربية الناس . ومحصول تجاربنا الذاتية عن الأشياء التى تحيط بنا إنما نحصله من تربية الأشياء » . فإذا نحن وجهنا هذه الوسائل فى سبيل الطبيعة حصل لنا الرجل الطبيعى على أتم معانيه .

لذلك يجب أن تكون غاية التربية عن أى طريق وصلتنا أن تنمى فى الإنسان من الملكات ما يستطيع معه مكافحة الحياة بقوة وصلابة وشدة وأن تقوى ذاتيته إلى أقصى الحدود . وتلك غاية تتناقض مع ما ترمى إليه التربية الحاضرة تمام التناقض . فإنما توجه هذه التربية الحاضرة كل عنايتها لتصقل الفرد فى سلك

الجماعة وتشذب من ذاتيته مخافة أن يتنافر إبداع نظام الاجتماع . وتلك تربية تعسة تسلب المرء أكبر نعم الحياة . فهى تسلبه قوة الجسم إذ تحبسه بين الجدران مع القواعد والسيدات ، وتسلبه ملكة التقدير إذ تجعله لا يرى بعينه ولا يسمع بأذنه وإنما يرى بعين المحيطين به ويسمع بأذنهم . وتسلبه دقة النظر فى الأمور إذ تأخذ الجماعة عليه وقته ولا تدع له منه إلا بمقدار يتسمح له بتكوين رأى سطحى عن الأشياء يكفى ليسر به الجماعات ويكون به رقيقاً محبوباً لظرفه وكياسته ونفاقه .

هذا الفرد المصقول يفنى فى الجمعية ويعيش لها على خلاف رجل الطبيعة الذى يعيش لنفسه . ومتى عاش الإنسان للجمعية وخضع لنظاماتها انعدمت ذاتيته وحلت شخصية نسبية مكانها . وهذه الشخصية النسبية تذهب بالفرد إلى الاعتقاد بعدم وجوده كفرد وبتمام ارتباطه بالجمعية التى هو جزء منها .

ذلك تعس لا تعس بعده . أتريد دليلاً لروسو على ذلك ، لقد بلغ من أثر هذه التربية فى النفوس أن أصبحت الوطنية كبرى الفضائل الإنسانية وصارت الذاتية القوية كريهة عند الناس فأطلقوا عليها أسماء الأثرة وحب الذات واعتبروها من شر النقائص . ثم صرت تراهم يتغنون بأحاديث الذين هانت عليهم نفوسهم فى سبيل الجماعة أياً كان نوع هذا الهوان فيتغنون بحديث القدمونى پداريت تقدم إلى عضوية مجلس الثلثمائة ففشل فعاد فرحاً بفشله مطمئناً أن كان فى وطنه إسبرطة ثلثمائة رجل خير منه . وبحديث إسبرطية خرجت تنتظر أخبار معركة لها خمسة أبناء بين المحاربين فيها . ولما عاد بعض الجند سألته وهى ترتعد ، فأخبرها أن أبناءها الخمسة قتلوا . فصاحت به : ما عن هذا سألتك أيها العبد الزنيم ! فلما علمت بأن النصر تم لقومها طارت إلى المعبد تشكر الآلهة .

هذا النوع من التربية هو عند روسو إغراق فى تقديس الجماعة على حساب الفرد بما يخالف سنة الطبيعة ، وإنما تقضى الطبيعة بتربية الإنسان ليكون رجلا لا ليكون رومانياً ولا فرنسياً ولا مصرياً كما تقضى بأن لا يعلم صناعة خاصة . بذلك تراه إذا صار رجلاً صار صالحاً لكل مركز يضعه الحظ فيه . « وأحسننا يومئذ لخير الحياة وشرها احتمالاً هو عندى أحسننا تربية وخيرنا مكاناً » .

فإما أن يكون غرض التربية الأسمى تكوين الإنسان لحسن احتمال الحياة فذلك ما يقره أهل هذا الجيل الحاضر . . . ولقد انتشرت الفكرة بعد ما كتبها

روسو وصرت تقرؤها فى كل كتب التربية كأنها بعض بديهيات الموضوع . وهى لم تكن غريبة فى عصر روسو لكنها كانت طريفة يتناقلها الخاصة . حكت مدام دبناى فى مذكراتها أنها زارت المسيو لينان (Linant) مهذب ابنها ومعها المسيو دكلو (Duclos) . وقد ناقش دكلو المعلم فى أمر تربية الطفل وقال له : علمه قليلاً من اللاتينية ولا تعلمه اليونانية أبداً فليس فيها له أى فائدة . ونحن لا نريد به أن يكون إنجليزياً أو رومانياً أو مصرياً أو يونانياً أو إسبرطياً وإنما نريد به أن يكون رجلاً صالحاً لكل شىء .

وأما رغبة روسو عن أن تغرس التربية فى نفس الطفل حب وطنه فلا تعدو فكرة الاشتراكيين . وهى فكرة لم تتحقق بعد . وقد لا تتحقق أبداً ولو تمت على الأرض كلمة الاشتراكية إلا أن تصل التربية من توسيع أفق نظر الناس جميعاً حتى يصبح العالم كله وطناً لهم .

ولم يك روسو مؤمناً بهذه الفكرة . فإن ما كتبه فى التربية قبل (أميل) وبعده ينقضها وينفيها . ولعل ما رأينا من مظاهر هيام سان پرى بسويسرا فى رواية الهلويز ما يدلنا على مبلغ عشق روسو لوطنه . كذلك جاء فى مقال الانسيكلوبيديا عن الاقتصاد السياسى ما يأتى : « إذا ربى الأطفال جميعاً فى أحضان المساواة وأشربوا احترام قوانين الحكومة والقواعد العامة . وأحيطوا بأمثال وأشياء لا تنفك تناجيهم باسم الأم الحنون التى تغذوهم ، ولا تفتأ تحدثهم عما تحمله لهم فى حناياها من الحب وما ينالونه منها من خير لا يقدر ، وما يجب عليهم لها فى مقابل ذلك كله ، إذن لرأيتهم وقد أدركوا كيف يحبون بعضهم بعضاً محبة الأخ لأخيه . وكيف يقفون بإرادتهم عندما تريده الجماعة » . وهو أكثر قوة عند كلامه عن هذا الشأن من شئون التربية فى خطابه عن حكومة بولونيا . فقد قال فيه : « يجب أن تطبع التربية النفوس فى قالب الصورة الوطنية وأن توجه الأفكار والأذواق وجهة تجعلها وطنية بالميل وبالشهوة وبالضرورة . ولذلك يجب أن يفتح الطفل عينه أول ما يفتحها على وطنه ، ثم لا يرى شيئاً غيره إلى أن يموت . وكل جمهورى صادق يرضع محبة وطنه مع لبن أمه ويولع لذلك بمحبة الشرع والحرية . وهذا الحب هو قوام حياته . فإذا انفرد أصبح صفراً . وإذا لم يبق له وطن لم يبق له وجود فإن لم يمت بعد ذلك فهو شر من الميت » .

إذن فرأى روسو هو ضرورة توجيه التربية وجهة وطنية صادقة . وأن لاحد للغلو فى هذا السبيل . ذلك رأيه قبل كتاب التربية ورأيه بعده . لذلك ترانا فى حل من القول بأن الرأى الذى أورده فى كتاب التربية لم يكن إلا رأياً عارضاً ربما كان سببه سوء استقبال كتابه عن المناظر فى مدينة جنيف .

ونحن نعتقد ذلك لأن روسو كان وطنياً صميماً . وهو لم يولع فى حياته بشىء ولعه بكل ما فى سويسرا . فكانت مناظرها وحكومتها وبساطة أهلها ونوع عيشهم أمثالا عليا فى نظره لما يجب أن يكون . ألا تراه بعد ارتداده عن البروتستانتية إلى الكثلكة وبعد عيشه السنين الطوال مع مدم دفارانس وبعد إقامته فى باريس لم يلبث أن فكر فى استرداد حق مدنيته فى جنيف حتى رجع إلى دين قومه وبقى عليه بقية حياته ودافع عنه خير دفاع ؟ فكيف به ينزع إلى الطعن على الوطنية إلا أن يكون ذلك نزعة عارضة سرعان ما زالت بزوال سببها العارض هو الآخر .

لذلك كان عجيباً أن يطعن فى كتاب التربية على التربية الوطنية ، وأعجب منه أن يدافع عن رأيه العارض بكل قوته . وما نود له أن يكون سوء استقبال كتابه عن المناظر فى جنيف هو سبب ثورته . وإنما نعتذر عنه بأنه أراد أن يبنى التربية على قواعد الطبيعة والطبيعة لا وطن لها . والقارئ فى حل من تقدير قيمة هذا العذر .

فأما نحن فنريد قبل الانتقال من هذه النقطة للخوض فيما رسمه روسو طريقاً للتربية أن ندلى برأينا وأن نشير إلى خطأ هذا الرأى العارض وأن نقول بوجوب إرضاع الطفل حب وطنه مع لبن أمه . فإنما التربية طبع صورة حياة المجموع فى نفس الفرد على خير ما يضمن سعادة المجموع والفرد معاً . ومن باطل الغرور توهم قيامها بما سوى ذلك . وعليه فما دام فى العالم أمم مختلفة متنافسة فيجب على أهل كل أمة أن يدافعوا عن حدودها وأن يضحوا فى هذا الدفاع بكل ما عندهم . ولا يتأتى ذلك إلا إذا هم أحبوا بلادهم أكثر من حبهم أنفسهم . وتلك هى الوطنية .

قد يقول بعضهم إن هذا الخلاف وتلك المنافسة شرور يجب محوها من العالم . ولكن على رسلكم أيها القائلون . إنكم ترجعون إلى النظريات القديمة التى ترى للمطلق وجوداً فى الواقع وتقرر قواعد الخير والشر والحق والباطل وتقصدون مما تقولون إلى طبع النفس الطفلة الخالية من كل معنى بطابع هذه المعانى . ولكن هذه النظريات وتلك المعانى المطلقة دخلت اليوم فى حكم الخيال الشعرى يرتكن عليه

.. الإنسانية فى طموحها إلى الأمام ولا يركن إليه علم يستمد وجوده من الواقع .
. يجب أن تكون التربية علماً واقعياً بعيداً عن صور الخيال والوهم . وأفكار الإخاء
..ام والدولية الهادمة للحدود والعالم كوطن لكل بنى الإنسان لا تزال فى حيز الأمل
.. أن تحققها . لكننا لا نستطيع أن نمنع عن الناشئ العلم بما هو حاصل و بوجود
الأمم وتنافسها .

إنا نكتب ما نكتب الآن والألم يحز فى نفوسنا وكلنا الأسف أن خلقنا فى
مصر تعس كله الأثرة والظلم . ولكنا يجب أن نواجه الواقع إذا أردنا التأثير فيه .
يجب أن نعلم أن التربية التى ننشئ أبناءنا عليها ليست هى كل شىء فى تكوين
حياتهم . إنما هى حلقة من حلقات لا عدد لها متصلة كلها متشابكة بعضها ببعض ،
مجموعها هو مجموع عوامل حياة الاجتماع الإنسانى . ويجب أن تكون هذه الحلقة
متسقة الجوانب مع غيرها من الحلقات حتى تثمر وإلا كانت وهماً فى الوجود لا
أثر له .

أتريد على ذلك دليلا . ها هم أولاء الاشتراكيون أنفقوا جهوداً طائلة فى
سبيل هدم الحدود بين عمال العالم ليكونوا جميعاً أمة واحدة ، فما لبثت الحرب
أن استعرت فى سنة ١٩١٤ حتى نزلوا عن فكرتهم وحتى كرسوا جهودهم للدفاع
عن أوطانهم . ذلك بأن فكرتهم لم تكن متسقة مع صورة الوجود وإن كانت
فكرة ملايين عدة من رجال العالم . . فكيف يمكن إذن أن تضعها قاعدة للتربية
ولا تخشى إفلاسها .

ليست التربية هى الأساس الأول لتطور العالم وسيره نحو الكمال . إنما
ذلك الأساس الأول هو مجهود العقول الناضجة الذى يوجه الجماعة الإنسانية فى
سبيل من التطور البطىء يدفعها إلى غاية من الكمال أو النقص ليس فى مقدور علم
الإنسان وهو على ما لا يزال عليه من ضعف وعجز أن يتكهن بها . وهذا التطور
البطىء لا ينتقل بالإنسانية خطوة إلى ما بعدها إلا أن تكون مرتبطة بها ارتباط الحاضر
بالماضى وارتباط المستقبل بهما جميعاً . ولا نزال نرى بعيداً ذلك اليوم الذى تندك
فيه حدود الأمم وتمتزج فيه الأجناس واللغات وتتحد العقائد والمصالح . ومادام
ذلك باقياً ويمكن أن يثير نزاعاً وحرباً فسيبقى التعصب كميناً فى النفس الإنسانية .
والوطنية ليست إلا عقيدة وإيماناً تحتمل التعصب له .

لذلك كله رجع روسو عن رأيه الذى دافع عنه فى كتابه التربية وعاد إلى
وجوب إرضاع الطفل حب وطنه مع لبن أمه . ولا يقصد روسو ولا نقصد نحن
من ذلك إلى أن تقصر التربية همها على تكوين العقيدة الوطنية فى نفس الناشئ .
بل يجب أن تقيم فى نفسه إلى جانب الاستعداد التام للحياة التى يعيشها معنى
سامياً مما يجب أن يسود بين الناس من الإيمان بالإنسانية وبحقوق الإخاء بين بنى آدم
وبضرورة التسامح والتعاون والتضامن بين الأمم كما يجب أن تنمى فى نفس الطفل
صفات الرجولة والشهامة والاعتماد على النفس وعدم الاعتداء بمعونة الغير ولا
الاستكانة لحماية الجمعية « فليس العيش كما قال روسو أن نتنفس ونحن رقود
ولكن العيش أن نعمل وأن نستعمل كل أعضائنا وقوانا وحواسنا وكل ما يجعلنا نشعر
بأننا نعيش . وليس أطول الناس عمراً أكثرهم فى السنين عدداً بل أطولهم عمراً
أشدهم للحياة إدراكاً وأكثرهم بالحياة شعوراً وإحساساً » . . لكن تضامن بنى
الوطن الواحد مقدم على تضامن الأمم المختلفة كما أن التضامن بين أفراد البيت
الواحد مقدم على التضامن بين مجموع أهل المدينة . فإذا احتكت أمتان وجب أن
ينتصر بنو كل أمة لها مهما كلفهم هذا الانتصار من تضحية .
ذلك رأينا يشترك فيه قلبنا وعقلنا وهو عندنا وحى الطبيعة وإلهام الحياة .

* * *

الآن ننتقل لنرى ما رسمه روسو طريقا للتربية .

كنا نتوقع أن تتجه عناية روسو رسول المساواة ونصير الضعفاء والفقراء إلى
تربية سواد الشعب الذى كان مهملاً فى ذلك العصر فى فرنسا إهماله اليوم فى مصر .
وكنا ننتظر منه أن يبين الوسيلة لتعميم التربية بما يسمح لجميع الأطفال بحظ منها
يؤهلهم لمكافحة الحياة وللعيش مع الجماعة عيشاً مدنياً كريماً . وكنا نود لو نرى
المدينة الفاضلة مشيدة عنده على أساس من تربية المجموع تربية طيبة . لكنا مع
كثير من الأسف نرى كتاب روسو عن التربية خلواً من هذا كله . بل نراه يقرر
أن الفقراء والضعفاء فى غير حاجة إلى التربية لأن مركزهم فى الحياة يكرههم على
احتمال العيش الذى هم فيه .

ولعل ما ذكره روسو فى اعترافاته من أنه كتب (أميل) إجابة لطلب أم
فاضلة قديرة على التفكير هو سبب هذا التناقض المعيب بين مركزه كمصلح ديموقراطى

.. ما ذكره فى كتابه . فإن هذه الأم الفاضلة هى لا شك إحدى هاتيك النبيلات .. نبيلات ممن كان يعيش فى كنفهن ويخطب ودهن ويرجو رضاهن . كما أن .. نفسه به من الطعن على الكبراء والأشراف مع التقرب منهم والتزلف إليهم .. له كذلك أثر فى اختياره غير قليل . ولو أنه كتب رسالة عرض فيها لتربية .. لما عنيت جميلة من النبلاء ولا عنى عظيم من الأشراف بقراءته . وللنبيلات .. الأشراف وحدهم كتب روسو من يوم علا نجمه . ومنهم وحدهم كان يتقرب وبهن .. هن كان يولع .

وليته كتب كتابه لطبقة الأشراف جملة . كلا بل كان هذا المشرد ابن الشعب .. أرستقراطياً أكثر من الأرستقراطيين . فرأى أن التربية الصحيحة لا تتأتى إلا بنزع الطفل من أهله وربطه مع مربيه برباط ضيق فلا يفترقان حتى يبلغ الطفل (أميل) .. وحتى يصبح رجلا وحتى يتزوج ويولد له ولد .

وقد اختار روسو الطفل الذى أراد أن يعالج تربيته نبيلا غنياً ولد فى طقس معتدل ونشأ قوياً صحيحاً . وهو لم يقم فعلا بتربية أحد أبناء النبلاء فى ذلك العصر لأن المربى فى نظره يجب أن يكون شاباً أعزب يعرف واجبات الرجولة ويستطيع أن يلهمها الطفل من غير أن يعلمه إياها .

وكتاب التربية يتناقض فى هذا الاختيار للطفل والمربى وهذا الارتباط بينهما مع مقال الاقتصاد السياسى ورسالة حكومة بولونيا . فقد كان روسو فيهما يرى وجوب تربية الأطفال جميعاً معاً من غير تمييز بين أبناء الأشراف وأبناء سواد الشعب . وكان يرى ألا يبقى المعلمون مع تلاميذهم زمناً طويلا . وكان يرى أن .. الحكومة أمور التربية والتعليم . لكنه فى هذين المكتوبين كان يعرض للتربية عرضاً لا قصداً ومن غير تفكير فيما تحدثه آراؤه فيها عند الطبقات الممتازة من أثر . .. كان أقرب إلى الحق وأبعد عن التكلف .

على أنه كان متفق الرأى فى كتبه جميعاً على ضرورة فصل الناشئة عن الجماعة بل .. العائلة . وهو فى هذا منطقى مع نفسه إذ كان يرى الجماعة قد وصلت إلى الدرك الأسفل من الفساد والانحطاط . وللمثل فى التربية أثر كبير بل له كل الأثر . فإذا ترك الأطفال وسط الجماعة أخذوا بعاداتها وأخلاقها وعقائدها وصاروا مثلها ومنها .. انحطوا انحطاطها ونزلوا إلى الدرك الذى نزلت إليه .

ولروسو حق فيما يقول بعد الذى نعاه على جمعية عصره من فساد وتدهور . لكن رأيه مع ذلك لم يسلم من أكثر من اعتراض وجيه . فأنت مهما فصلت الناشئة عن الجماعة وعن الأسرة فإنك لن تمحو فيها أثر الوراثة ولا أثر الاجتماع . وإذا صحت ملاحظة دارون من أن الجنين الإنسانى يمر فى أثناء تكوينه بالتطورات الجنينية للخلائق التى تسلسل منها الإنسان فإن الطفل يمر من أول نشأته إلى حين تمام تكوينه بالأدوار التى مرت بها الجماعة الإنسانية خلال قرون الماضى الطويلة ليصل حتماً آخر الأمر إلى مشابهة الجماعة التى هو منها ولو اقتصرت المشابهة على فضائل هذه الجماعة . أما الظن بتكوين مخلوق جديد ليس بينه وبين جماعته اتصال فوهم لا يمكن تحقيقه .

وكيف يتحقق والمربى ليس إلا فرداً من الجماعة . ولم يفكر روسو فى أن يفرد فتاه فى مثل وحدة حى بن يقظان ، بل ترك للمربى أن يسير وتلميذه بين مناظر الاجتماع وأهله ، وأشرك هؤلاء الأهل – على ما سنرى – فى أطوار التربية المختلفة ، وسمح لتلميذه بقراءة بعض الكتب . فهذا كله كاف وفوق الكفاية ليطبع صورة المجموع فى نفس الطفل وفى ذهن الناشئ وفى عقل الفتى ، وكاف ليبعده عن مثال رجل الطبيعة الذى يريده روسو . وكل ما فيه أنه يضمن إلى حد ما تكوين رجل لم تدنسه النقائص لأنه لم يلامسها ، ولكنه لا يضمن حماية هذا الرجل بعد أن يترك حراً ليختلط بالجماعة من الارتكاس فى هذه النقائص . وربما كنا أميل للأخذ فى هذا الباب برأى قاسم أمين إذ يرى أن رياضة النفس على مقاومة النقائص تقوى الإرادة وتحمى من الزلة أكثر مما يحمى تجنبها والحذر منها . فقد تقترب النقائص منا من غير علمنا فلا نقوى على محاربتها لعدم تعودنا هذه المحاربة . قال : « فى ميدان الحرب لا يكون ثبات الجأش إلا عند الرجل الذى حضر وقائع سابقة ووقف أمام العدو وقاتل يوماً مهاجماً ويوماً مدافعاً ، كذلك الحال فى جهاد النفس ، لا تجد ثبات الجنان إلا عند الرجل الذى عرض نفسه لاستهواء الشهوات وخدائع اللذات ، فإذا اختبرها بالتجربة وتغلب عليها بعد ذلك كسب قوة الحكم على نفسه ، وتلك هى الفضيلة الحقيقية ، خلافاً للرجل الذى احتجب عن جواذب الشهوات ، فإنه متى وجد أمام فرص مرغبة فيها لا يقاوم سلطانها إلا قليلاً ، وإذا سلم فى نفسه مرة لا يستطيع الخلاص منها » .

ونزع الطفل من عائلته فيه ، فضلا عن ذلك ، عيب حرمان الطفل من أرق معانى الحياة التى لا توجد إلا فى عواطف الأبوة والأمومة والبنوة . هذه العواطف القوية السامية الدائمة النضرة والشباب حتى فى أقسى القلوب وأجفها . والأثر المباشر الذى يترتب على حرمان الطفل من هذه المعانى هو شعوره بالجفوة واعتياده شيئاً من غلظة الكبد مع التستر بظاهر من رقة الشعور وقوة الإحساس ابتغاء نوال عطف من الناس يعوض عليه العطف الطبيعى الذى فقده . وروسو نفسه مثل حى للطفل اليتيم الأبوين . فما من أحد شعر بعطف الأمومة وحنان الأبوة ليرضى طرح أبنائه فى ملجأ اللقطاء . وما من أحد شعر بهما ثم يرضى هذا العيش المزدوج عيش النفاق الدائم الذى عاشه روسو طول حياته . ولكن روسو لم يكن ليشعر بهذا ولم يكن يتصوره ، وقد أبدع له القدر أن يشعر بأنه خير الناس وأطيبهم ليخفف بذلك عنده من ألم الشعور بصغره وحقارته . وبز نبوغه هذا الشعور عنده . فلم يقدر مع ذلك مبلغ ما يحرم منه تلميذه بنزعه من أهله .

حبذ أفلاطون وتلاميذه الشيوعية وانتشرت تعاليمهم فى جو الإغريق . ومن نتائج الشيوعية إلغاء الزواج والعائلة ، فرد أرسطو بكلمة نوردها هنا رداً على فكرة الإفراد التى نزع إليها روسو قال : « إذا وضعت عدة نقط من الشهد فى إناء واسع ممتلئ ماء ضاع طعمها الشهى . وكذلك فإذا ألغيت العائلة ضاع ذلك المعنى الرقيق الذى يجعل لأسماء الأب والأخ إعزازاً خاصاً ، إذ يصبح ولا محل له ، وحل عدم الاهتمام المطلق محل المحبة العائلية . وهؤلاء الشيوعيون يكثرون من الماء المضاف إلى شهدهم فيضيعون منه كل طعم ومعنى » وهذا الإفراد الذى يريده روسو ينتج مثل تلك النتيجة . وكثيراً ما رأينا شباناً تشردهم الأقدار عن أهلهم وعشيرتهم فإذا شبوا بعد ذلك وكبروا رأيت العلاقة بينهم وبين أهلهم علاقة ضعيفة يستبقيها الواجب الاجتماعى من غير أن يكون فيها للعاطفة أو القلب أو الشعور أى أثر .

وجه إلى فكرة نزع الطفل من أهله اعتراض ثالث ليس أقل وجاهة من سابقيه . ذلك أن تربية الإنسان تستمر طول حياته . وللأطفال عامة وللأبناء خاصة أثر كبير فى حياة الكبار والأهل . فهم يبعثون إلى قطوب المشيب ابتسامة الصغر ويحيون فى القلب الذى جف وقسا عواطف رقيقة تجعل الحياة أكثر لذة وعذوبة .

ثم هم مركز دائرة عواطف الأسرة التى هم فيها . فهم يجمعون بين قلوب أهل هذه الأسرة بألطف جامعة تقرها الطبيعة وتدعو إليها . ويكفيك أن ترى بضع أطفال معاً يتضاحكون ومن حولهم أمهاتهم وآباؤهم وأقرباؤهم ينظرون إليهم بعيون كلها الحنان والمحبة والعطف ويتبادلون فيما بينهم مثل هذه النظرات وينسون خلال ذلك مصالح الحياة التى كانوا يقتتلون من ساعة مضت بسببها . وهم فى أثناء وجودهم مع الأطفال يترفعون دائماً عن مقارفة النقائص كبراً عن أن يراهم الصغار فى صغائرهم وحرصاً على تقديم المثل الطيب للناشئة التى يريدونها مثال الكمال . فهذه العواطف الطيبة وهذه التربية المتبادلة بين الجيل المتدرك إلى الماضى والجيل المتدرج إلى المستقبل لا تكون إذا أخذ بنظرية روسو وأفرد الطفل يتيماً من أهله وأسلم إلى شاب مهما كان من رجاحة عقله فهو لا يشعر فى حنايا قلبه بعشر معشار ما يشعر به أهل الطفل نحوه .

على أن المعلم أو المربى لن ينتزع الطفل من أهله قبل انقضاء زمن الطفولة حينما تكفل المرأة وليدها وتحضنه ، وقد كان المتبع بين أهل الطائفة التى كتب روسو كتابه لها ألا تعنى الأمهات بالأبناء بل يسلمنهم للمراضع وللخدم لتبقى السيدة فى قصفها وترفها ورفاهها . فحمل روسو على هذه العادة حملة شديدة ألجأت السيدات لإرضاع أطفالهن . وقد غلون فى ذلك حتى كن يرضعنهم فى مقاصير مسارح التمثيل ما بين فصل من الرواية وفصل آخر .

ولعل أبدع فصول كتاب التربية هو الفصل الأول الذى يختص بملاحظة الطفولة . فقد عنى روسو فيه بنقد المتبع وبتقرير ما يلزم عناية دقيقة . وظاهر سلفاً أن ما يلزم هو أن يترك الطفل حراً كما أبدعه الخالق حراً . ولكن حكمتنا المدنية قضت مع كثير من الأسف أن « يولد الإنسان عبداً وأن يموت عبداً . فهو يوم يولد يخاط فى القماط ويوم يموت تقفل عليه أخشاب النعش وهو بين هذين اليومين مقيد بأنظمتنا وإن ظهر بالمظهر الإنسانى » .

وليس من شأن القماط وما إليه من الأربطة إلا أن يعيق جرى الدم وأن يضعف الطفل ويمنعه من النمو ويغير كيانه . وهذا كله يؤثر تأثيراً مباشراً على طبائع الطفل وأخلاقه . ولو أنه ترك وشأنه وترك له من حرية الجسم ما يشجعه على الحركة لنما نموا طبيعياً صحيحاً معقولاً ولنمت غرائزه الطيبة مع نمو جسمه ثم لما احتاج إلى طبيب مدى حياته .

وروسو لا يحب الطب ويزعم أنه مظهر من مظاهر المدنية كالعلوم والفنون وكالفلسفة وأنه لذلك قد أفسد على الناس تصورهم للحياة شر إفساد : « ولو أنك أردت الناس ذوى الشهامة فابحث عنهم فى الأماكن التى لا يغشاها الأطباء وحيث يجهل الناس آثار الأمراض فلا يفكرون فى الموت . فقد جبل الإنسان على احتمال الألم صابراً وعلى الموت مطمئناً لكنهم الأطباء بأوامرهم والفلاسفة بقواعدهم والقسيسون بدعوتهم هم الذين يستذلون قلبه ويفسدون عليه مماته .

« فليكن تلميذى إذن فى غنى عن كل هؤلاء الناس وإلا رفضته . فما أريد أن يفسد على أحد عملى وإنما أريد أن أربى تلميذى وحدى أو لا يكون لى أى شأن فى أمره . وقد نصح الحكيم Locke لوك بعد ما أمضى شطراً من عمره فى دراسة الطب ألا يعطى الطفل دواء على سبيل الحيطة ولا لما قد يطرأ على صحته من انحراف خفيف » .

وما كان أغنى الأطفال عن كل دواء لو أن أمهاتهم عنين بهم العناية الواجبة ولم يتركنهم للخدم والمراضع يفسد الأولون ملكاتهم الخلقية كما تفسد الأخيرات صحتهم واستعدادهم الطبيعى . وليت هاتيك الأمهات حين فرارهن من أقدس واجب عليهن ألقين تبعته على من يكون فى حلولهن محلهن الخطر الأقل فاخترن المراضع وعنين من غذائهن ورياضتهن وحالهن بما تجب العناية به . بل هن يتركن كل ذلك للمصادفات ويتركن الطفل للظئر تفعل به ما تشاء . وأنى لامرأة تغذو غير وليدها أن تسيل فى روحه البريئة عواطف الأمومة الرقيقة مع لبنها المشترى . أم أنى لامرأة أن تجد مع غير وليدها صبر الأم وحنانها . فإذا لاحظت كذلك أن هاتيك المراضع الأجيرات هن من طبقة أدخل الإهمال أو الظلم أو فساد النظام أو ما شئت فسمه الضغن والحفيظة إلى نفسها ومنع عليها سبيل سمو النفس الذى يجب لكل من تربى طفلاً تسنى لك أن تقدر مبلغ الفساد الذى تحاط به نفس الطفل من يوم يولد .

ولم يدر بخلد روسو حين وضع كتابه أنه سينتج من الأثر ما يجعل طائفة من النبلاء تقلع عن عاداتها . فعنى عناية خاصة بما للظئر وعليها . واستطرد فى ذلك بإسهاب وإطالة . ولا عجب فإنما لهذه الطائفة دون سواها كان يكتب . لكن هذه الطائفة انقرضت بانتشار الديموقراطية وأصبح نبلاء عصرنا هم أصحاب المال . وليس

من شأننا أن ننصح لهم فمالهم خير ناصح ما دام للمال الحكم والسلطان وما دام كل شىء بالمال يشترى حتى الذمم والضمائر .

على أن واجب الأم فى التربية ليس أكبر من واجب الأب . فهما شريكان فى احتمال التبعة كما أنهما شريكان فى المتاع بالنتيجة . ولقد عبر روسو عن ذلك بحرارة وتألم دفع بعض النقاد إلى القول بأنه اذكر جرمه القديم حين ألقى بأبنائه الخمس تباعاً فى ملجأ اللقطاء ، ورأى نفسه فى منحدر العمر وسط صحراء المدنية المجدبة فى نظره وحيداً منفرداً كالشجرة الجرداء سقطت أوراقها وتهشمت فروعها وبقى الجذع قائماً يلقى العاصفة بكل قوتها وكل قسوتها . قال : « كل أب يطعم أطفاله لا يقوم إلا بثلث واجبه . ذلك بأنه مدين بالرجال لجنسه ، وبالرجال الاجتماعيين للجماعة ، وبالرعايا للحكومة ، وكل أب يستطيع أداء هذا الدين ثم لا يفعل فهو آثم ، وهو أكبر إثماً إذا أداه منقوصاً . ومن لم يطق اداء واجب الأبوة فحرام عليه أن يكون أباً . . ولن يعفى أب من إطعام أطفاله وتربيتهم فقر أو عمل أو جاه . وإنى لنذير كل ذى فؤاد يهمل أياً من واجبات الأبوة المقدسة أنه سيسكب على خطيئته طوال الدهر دموعاً مرة ليس إلى العزاء عنها سبيل » .

* * *

والآن فما هى القواعد التى يجب أن تسير عليها الأم وأن يتبعها الأب فى معاملة أبنائه أول نشأتهم ؟ لعل القارئ يذكر ما أشرنا إليه عند تحليل الهلويز من ضرورة إقناع الأطفال بأنهم أطفال وأنهم لذلك فى حاجة ماسة لكل من حولهم حتى من الخدم والتابعين . ثم لعله يذكر أيضاً ما أشار إليه روسو فى روايته من ضرورة التزام الأطفال الطاعة لما يؤمرون به من غير مناقشة ولا شرح ، وأن تكون طاعتهم عن رغبة ورضا أكثر منها عن رهبة ومذلة . وأن يتركوا أحراراً فى اتصالهم بالأشياء المحيطة بهم واستفسارهم إياها واستنتاجهم لأنفسهم منها . وعدم التدخل فى ذلك ولو قصد تعديله مهما بلغ فى الخطأ على أمل أن يردهم استنتاجهم الشخصى عن خطئهم فيكون أكبر عظة وأبلغ فى نفوسهم أثراً .

ويجب أن يتمتع الأطفال بهذه الحرية وألا يحرموا منها إلا عند خشية الخطر

... أذى العظيم وألا يعوقها عائق سلبي ولا إيجابي . فكما لا يصح أن يمنع الطفل حركة أو عن الاقتراب من الأشياء وامتحانها بالحس ومعرفة ما يحيط به ... لا يجوز أن يدفع بالطفل في سبيل حركته لأكثر مما تمكنه قواه . أفرأيت ... الأمهات والمراضع يجهدن أنفسهن ويجهدن الطفل بغية تعويده المشي ... أن يسرع به ذلك إلى القدرة عليه . هن إنما يضعن عقبات في طريقه وكثيراً ... عليه التلف . وهن بلا شك يعقن تقدمه إلى السير بنفسه . ولو أنهن تركنه ... يعالج الحركة ويعتمد على الأشياء المحيطة به ويسعى بنفسه لتقليد الكبار في ... لكان في تقليده أكثر إتقاناً ولما عاق نمو أعضائه ولعملت الطبيعة لخيره ... ألف مرة مما تعمله أمه أو ظئره التي لا تستطيع بمقاومتها الطبيعة أو إرهاقها إياها إلا أن تفسد ما كان صالحاً .

وذلك هو الشأن أيضاً في أمر التكلم . فإن الحرص على أن يسرع الأولاد إلى النطق يجني عليهم ويؤخرهم أكثر مما يقدمهم فيه . فإذا هم بدءوا النطق ظلوا يستعملون العبارات السقيمة إلى ما بعد الخامسة أو السادسة . والعلة في ذلك عند روسو (أن أطفال المدن الذين يربون في غرفة ويبقون طول الوقت تحت جناح معلمتهم ليسوا في حاجة لأكثر من تأتأة بسيطة كي يفهمهم المحيطون بهم . فهم لا يكادون يحركون شفاههم حتى يعني من حولهم بالاستماع لهم . أما في الريف فالأمر مختلف . ذلك بأن الريفية ليست على مقربة من ولدها دائماً . فهو مضطر أن يقول ما يريد مفسراً وبصوت مرتفع حتى تستطيع سماعه) . فالخير إذن أن يتركوا بادئ الأمر ينقلون من الألفاظ ما سهل عليهم نقله ومتى حلا لهم نقله ثم أن يعاملوا بعد ذلك معاملة عادية صرفة لا مبالغة فيها لهم أو عليهم .

وهذا هو ما يسميه روسو التربية السلبية التي يجب اتباعها مع الطفل في السنين الأولى من حياته . فلا يجوز أن يلقن شيئاً ولا أن يلقى إليه بشيء مطلقاً . بل هو ... للأشياء يعالجها وتعالجه . وهل خطر الحياة إلا معالجة الأشياء والتغلب عليها . ... الطفل ذلك من نعومة أظفاره وإمعانه فيه حسب تكوينه الذاتي ضمين ... إرادته ، ضمين باستظهار القوى والملكات الخاصة الكمينة فيه . (فإن لكل ... يوم يولد – وهذا ما قاله روسو في هلويز الجديدة – فضلا عن تركيب الجنس العام ميولا خاصة توجه نبوغه وتعين خلقه) وليس عمل التربية أن تغير هذه الميول

أو تحورها فذلك ليس في مقدورها وإنما بالتربية تكونها وتكملها . ولما كانت الميول الأصلية طيبة بطبعها فإن هينا أن نصل بها إلى غاية حسنة ما دمنا نوجهها توجيهاً حسناً . أما إن نحن أخذنا في التربية بوسائل العسف وأردنا أن نكره كل الأفراد – وبين ملكاتهم ما بينها من عظيم الاختلاف – على السير في طريق واحدة والتكون على شكل واحد فلن يكون من وراء ذلك إلا اضطراب ملكات الجميع اضطراباً يعدمها ويجني على النبوغ ويتزل بكل النفوس إلى درك الحقارة . وذلك هو العكس مما يجب أن يكون .

وقد غلا روسو عند تعريفه التربية السلبية غلواً كاد يجعلها مستحيلة التحقق في الواقع فقال : يجب أن تكون التربية الأولى تربية سلبية وليست هذه التربية أن يعلم الطفل الفضيلة أو الحق ، ولكن أن يحمى قلبه من الرذيلة وعقله من الباطل ، ولو أنك استطعت ألا تصنع شيئاً وألا تدع شيئاً يصنع حول تلميذك وكفاك أن سرت به سليماً معافى قوياً حتى إذا به في الثانية عشرة من عمره ولا يكاد يميز اليد اليمنى من اليد اليسرى إذن لتفتحت عيون بصيرته للحق من أول دروسك ولما عاقت عادة أو عقيدة ملقنة عنايتك عن أن تبلغ غايتها . ثم إنك لتراه بعد ذلك أحكم الناس وترى أن بدأك تربيته بألا تصنع شيئاً قط أدى إلى معجزة من معجزات التربية » . فلما صدر كتابه ورد على المصادرة بخطابه البديع للمسيو بومون رئيس أساقفة باريس قال : « والتربية السلبية هي التربية التي ترمي إلى كمال الأعضاء – وهي أدوات علمنا – قبل أن يصل إلينا العلم عن طريقها . والتي تهيؤنا إلى العرفان برياضة حواسنا ، وليست التربية السلبية من تافه الأغراض ، فإنها تعد الطفل لتمثل كل ما يصل به إلى الحق حينما يكون في مقدوره عرفانه وإلى الجميل متى استطاع أن يحبه » .

وقد وفق روسو في وجوب تطبيق هذه التربية السلبية تطبيقاً دقيقاً سواء فيما يتعلق بفتح عيون الطفل للمعلومات وفيما يتعلق بتقويم خلقه . وإنك لتجد في كتابه من هذا التدقيق الشيء الكثير : فلا تلق على تلميذك أي نوع من الدروس اللفظية إذ يجب أن يفيد دروسه من التجارب . ولا توقع عليه أي عقوبة لأنه لا يدرك بعد الخطأ . ولا تطالبه أن يستسمحك عفواً فهو لا يتصور إهانتك . وما دام لا يعرف أي مقياس خلقي لأعماله فهو لا يستطيع أن يأتي سيئة خلقية تستحق الجزاء أو التوبيخ .

على أن هذه التربية السلبية وغايتها كمال الأعضاء ورياضة الحس والوصول بالطفل قوياً سليماً إلى سن التبصر والعقل تقتضى رياضته رياضة بدنية بمقدار عظيم ، وهذا ما عنى به روسو ولم يهمله لحظة خلال كتابه . فهو فى كل وقت يسير بالطفل فى الأحراش والثلوج والحدائق ويصعد الجبال ويهبط به البطون ويعوده المشقات ولا يفتأ يقدم لناظره من بدائع مناظر الطبيعة ما يخلق عنده عشقها والولع بها . . وهو فى هذه وفى غيرها مما يقدمه لتلميذه من وسائل التربية إنما يقدم للناشئة مثلا من تربيته هو . وهو فى أميل كما كان فى الهلويز إنما يقص حكاية نفسه ويروى وقائع حياته مثبتاً أن خير ظروف الحياة الإنسانية هى تلك الظروف التى مر هو بها والتى يأنف أكثر الناس أن يشهدوها فضلاً عن قبول اجتيازها ، ولكنها على الرغم من ذلك كونت بل خلقت جان جاك . وجان جاك صورة النبوغ وصورة الفضيلة . لذلك كانت بالرغم من كل الناس خير الظروف لتخريج خير الناس .

هذه الحركات الكثيرة وهذا الطواف والتجوال وهذه المشاهد التى تقع تحت نظر الطفل تقتضى منه احتكاكاً بها قد يحتاج إلى صدور أمر المربى له باجتنابها أو بعدم مزاولتها ، كما قد تستدعى من الطفل حين عجزه عن استفسارها أن يستفسر عنها مربيه فبم تقضى التربية السلبية فى الحالين ؟

ما نحسب القارئ فى شك من الجواب . فإن الطاعة المطلقة أساس من أسس التربية الأخلاقية . ولا يجوز للمربى أن يجعل أمره للطفل موضع مناقشة وأخذ ورد لأن الطفل لا يستطيع أن يقدر سلسلة الأسباب والنتائج التى تدور فى نفس المربى ولا يستطيع إذا عرضت عليه أن يفهمها . فإذا هو عود الأخذ والرد فيما لا يفهم تعود الجدل السفسطائى غير المنتج وقدر لنفسه فوق مكانتها وحسب نفسه مساوياً لمربيه فداخله الغرور وفسدت فيه خير الملكات . وليس يقصد بهذا ألا يقدم المربى سبباً للأمر الذى يصدره . ولكنه يكون أكثر دقة إذا هو قدم السبب قبل أن يسأل عنه . فإذا سئل اكتفى بما قدم حتى يفهم الطفل أنه لا يطيع طاعة عمياء وأنه إنما يخضع لضرورات الطبيعة التى يخضع لها مربيه .

وذلك هو الشأن فيما إذا استفسر عن شيء لم يفهمه . فمتى قدم له تفسير ما يسأل عنه وجب أن يكون ذلك التفسير فوق المناقشة حتى لا يكون فى شك من

الأسباب التى تقدم له وحتى لا يصل بكثرة الأخذ والرد إلى تعود السفسطة الكاذبة .

ولعلنا نرى بعد ذلك مبلغ ما فى تعريف روسو للتربية السلبية من إغراق . فلن تقف ضعة الأطفال عند حد ولن يصل طفل إلى الثانية عشرة ولا يميز بين يمنى يديه ويسراهما إلا أن يكون أبله بالغ فى البله . وقد رأينا أن الطفل الذى يريده روسو تلميذاً له ليس بالأبله ولا بالسخيف .

على أن روسو قد ابتعد عن تعريفه للتربية السلبية بمحض اختياره . فقد رأى أن يرتب الأشياء حول تلميذه وأن يهيئ الظروف على طريقة تضمن وصول الطفل إلى معلومات خاصة يستحيل عليه أن يصل إليها إذا ترك ونفسه . ورأى ذلك من أول ما عهد إليه بالطفل يربيه فقال :

« إذا عهد إلى بسياسة طفل كالذى وصفت – أى طفل صحيح قوى غنى – إذن لقلت فى نفسى : إن الطفل لا يناضل الأشخاص ولكنه يناضل الأشياء . فهو سرعان ما يقف بالتجربة عند احترام كل من كان أكبر منه سناً أو أكثر منه قوة . أما الأشياء فلا تستطيع أن تدفع عن نفسها . لذلك كانت الفكرة الأولى التى يجب عرضها عليه هى فكرة الملكية أكثر منها فكرة الحرية . ولتكوين هذه الفكرة عنده يجب أن يكون له شيء ملكه . وليس يجدى فى ذلك أن تذكر له ملابسه وفرشه ولعبه . فهو وإن تصرف فى هذه الأشياء لا يعرف كيف ولا لم كانت له . فإذا أنت قلت له إنها أعطيت إليه فإنك لن تقدمه شيئاً فإن العطاء يقتضى الامتلاك . وإذن فقد كان ثمت ملك سابق على ملكه . ونحن إنما نريد أن نفسر له أساس الملك . كل ذلك فضلا عن أن العطاء والهبة أنواع من الاتفاق ، والطفل لم يفهم بعد معنى الاتفاق . وإنى أرجو القراء أن يلاحظوا فى هذا المثل وفى مائة ألف من مثله كيف تملأ رءوس الأطفال بألفاظ لا معنى لها عندهم ثم يقال بعد ذلك إننا أحسنا تعليمهم خير إحسان .

« يجب أن نرجع إذن إلى أصل الملك لنرى كيف ظهرت فكرته الأولى . فالطفل يكون لنفسه وهو يعيش فى الريف فكرة عن أعمال المزارع مما لا يحتاج إلا إلى النظر والوقت ، وله حظ منهما جميعاً . ومن طبائع الناس فى كل الأعمار وفى سنه هو بنوع خاص أن ينزعوا إلى الاختراع والتقليد والإنتاج والإبانة عن مظاهر القوة والنشاط . فما يكاد طفلنا يرى حرث الحديقة وبذرها وظهورها ونمو نباتها

حتى يصبو إلى القيام بمثل هذه الأعمال .

« وما كنت وفاقاً للمبادئ السابق بيانها لأعرض لبغيته ، بل على العكس من ذلك أحبذها وأشاركه فى ذوقه وأعمل معه لا لمسرته ولكن لمسرة نفسى ، وذلك ما يجب على الأقل أن يعتقده هو . ومن ثم أصبح صبيه فى عمله . فأحرث له الأرض فى انتظار أن تقوى أذرعه ويضع هو يده عليها بأن يغرس فيها حبات الفول . وليس من شك فى أن هذا الملك أقدس وأدعى للاحترام من تملك نونيس بلبا لأمريكا الوسطى باسم ملك الأسبان حينا أقام علمه على شواطئ البحر الجنوبى .

« ثم نجيء كل يوم نروى الفول ونراه ينمو ونحن أشد ما نكون ابتهاجاً ، وأزيد أنا ذلك الابتهاج بقولى له ذلك ملكك . فإذا شرحت له معنى الملك جعلته يشعر بأنه ما نتج إلا بإنفاقه وقته وعمله وجهده ومجموع نفسه وإن فى تلك الأرض شيئا من وجوده يستطيع أن يطالب به كل من سواه كما يستطيع أن ينزع يده من يد أى شخص يريد أن يمسك بها قهراً عنه .

« ولقد جاء يوماً إلى عمله ومعه جردل الماء . لكن المنظر كان أليماً . فقد اقتلعت كل شجيرات الفول وقلبت الأرض ظهراً لبطن وأصبح المكان ولا يمكن تمييزه . فبهت أميل وصاح : ماذا حل بكدى وعملى ونتاج عنايتى وعرق جبينى ؟ من ذا الذى غصب ملكى وأخذ فولى . وتحرك هذا القلب الشاب أن أسالت فيه أول مشاعر الظلم مرارتها الأليمة ، فهمل دمعه وملأ الجو توجعه وصياحه فشاركته فى ألمه وغضبه وبحثت واستقصيت حتى علمت أن البستانى هو الذى أتى الفعلة وأتيت به .

« لكنا دخلنا فى موضوع جديد . فإن البستانى لا علم بالشكوى كان أكثر منا شكاية وأرفع منا صوتاً وقال : أنتم إذن يا سادتى الذين أفسدتم علىّ عملى . لقد غرست فى هذا المكان بطيخاً ملطياً استودعت بذوره واعتبرتها كنزاً ثميناً وانتظرت أن أقدم لكم منه عند نضجه ما يسركم وهأنتم أولاء أتلفتم بطيخى بعد ما بددتموه بغرسكم فولكم المنحوس ولم يبق إلى الاستعاضة عن البطيخ سبيل . ألا لقد ألحقتم بى ضرراً بالغاً وحرمتم أنفسكم من التلذذ بأكل البطيخ .

جان جاك

« معذرة أيها المسكين روبير . فقد أودعت هنا كدك وعملك ثم ارتكبنا

نحن خطيئة إفساد عملك عبثك . على أنا سنجلب إليك بذراً ملطياً آخر ثم لن نعمل فى الأرض قبل أن نعلم ما إذا لم يكن أحد قد عمل فيها من قبل .

روبير

هونوا عليكم أيها السادة فلم يبق بعد أرض خالية . وإنى إنما أعمل الآن فى الأرض التى سنصلحها أبى وسواى يعمل ما أعمل . وكل هذه الأراضى التى ترون قد وضعت عليها الأيدى من زمن بعيد .

أميل

« خبرنى يا مسيو روبير . كثيراً ما تتلف إذن بذور البطيخ .

روبير

« عفواً أيها الصغير . فليس يغلب عندنا حضور سادة صغار طائشين مثلك ، ولا يمس أحد حديقة جاره بل كل يحترم عمل غيره حتى يكون آمناً على عمل نفسه .

أميل

« أما أنا فلا حديقة لى .

روبير

« ليس ذلك من شأنى . وإذا أنت أتلفت حديقتى فلن أتركك بعد تتنزه فيها : فإنى كما ترى لا أريد أن يضيع عملى هباء :

جان جاك

« ألا نستطيع أن نعرض على الطيب روبير اتفاقاً . فليعط لصديقى الصغير ولى جنباً من الحديقة نزرعه على أن يكون له نصف الثمرة .

روبير

« إنى أعطيه لكم بلا شرط . ولكن اذكروا أنى أحرث فولكم إذا أنتم تعرضتم لبطيخى » .

فهذه الوسيلة التى يلجأ إليها روسو لإدخال فكرة الملك إلى نفس تلميذه أبعد ما يكون عن تلك التربية السلبية التى عرفها . فإذا عرفت أنها وسيلة تكررت

في [illegible] وأن روسو كثيراً ما رتب الأشخاص والأشياء والحوادث ليدخل إلى [illegible] فكرة معينة تبين لك أنه شعر تمام الشعور باستحالة مرور الطفل [illegible] الأول من غير أن تترك في نفسه أثراً . فأراد أن يكيف هذا الأثر على ما يريد .

وقد [illegible] الكتاب ذلك على روسو : وأخذوا عليه أنه تعارض مع نفسه فترك التربية [illegible] جانباً ولجأ إلى وسيلة لا يضمن أحد حسن أثرها كما لا يضمن أحد إمكان [illegible] مهما جاهد ليتبع تعاليم روسو . وهي فضلاً عن هذا سهل أن يكشفها الطفل . وفي ذلك من الخطر ما فيه .

قال فيلمن في عرض كلامه عن كتاب التربية : « هنا يظهر وجه الخطأ الأكبر في طريقة المؤلف . ومرجع هذا الخطأ وجود الصناعة في تلك التربية الطبيعية وتوزيع الأدوار ووضع الأشخاص في الأمكنة اللائقة بهم . وإذا كان روسو لا يسمح لتلميذه بمطالعة الكتب لأنها كاذبة فما باله يرتب حوله كل هذه المناظر وهي في صناعتها أكثر من الكتب كذباً . أفلا يعلم أن للأطفال سليقة حادة يكشفون بها عما يصنع لهم من صغائر الحيل ويدركون بها مبلغ الجد معهم . فإذا كشفوا هذه الحيل فقل على التربية السلام . وروسو لا يفتأ يحاذي هذا الخطر في طريقته » .

وما نشك في وجاهة هذا النقد فلن تكون تربية رجل الطبيعة على أساس من الصناعة والتزييف . ثم إنك لن تستطيع أن تجعل الطفل في وسط الصناعة والتحايل أبداً وتضمن تأثر الطفل بهما من غير أن يصل إلى كشفهما .

على أن لروسو بعض العذر عن خطئه . فقد كان مشتغلاً مدة كتابة أميل بالتفكير في إقامة قاعدة الخلق على أساس التلاؤم مع الأشياء المحيطة . لكنه وقد كان يرى أبعاد ما خلفته المدنية وأوجده الترف من صناعة لم يكن في حل أن يحيط الطفل بمظاهر هذه الصناعة كما أنه – وقد كان يسعى إلى تكوين رجل الطبيعة [illegible] غرضه يتعارض مع رجل ذلك العصر – كان من الخطأ أن يستعين بهذا الوسط الذي يطعن عليه وكان واجباً عليه أن يكتفي بالمحيطات الطبيعية الصرفة لتكوين تلاميذه .

والعجب أن يقرر روسو هذه النظرية ثم يبتعد في التطبيق عنها . والحق أنه كما قال [illegible] ينقض الطرائق المعروفة بأحسن مما يثبت به صلاحية طريقته

فتراه يقول : « ليكن الطفل تحت حكم الأشياء دون سواها . فلا تأمره بشيء ولا تعلمه أكثر من أنه ضعيف وإنك قوي من غير أن تقص عليه أي درس كلامي . ولا توقع عليه جزاء فهو لا يفهم الجزاء ، [illegible] حسه الخلقي لم يتكون بعد . ولن يصح أن يقع الجزاء بالطفل على أنه جزاء وإنما يجب أن يحل به كأنه نتيجة طبيعية لعمله » ثم يقول « إنما القمين أن تتم إرادته هو من لا يحتاج لتمامها أن يضيف أذرع غيره إلى أذرعه . . والرجل الصادق الحرية لا يريد إلا ما يقدر عليه . ذلك مبدئي الأساسي وأريد تطبيقه على الطفولة » .

أفيكون هذا التطبيق بمثل ما تقدم من الحيلة ؟ إذن فأين البساطة الطبيعية وأين حب الحقيقة وأين الواقع الصحيح .

لكن روسو أحرص على مبدأ التربية السلبية عند تطبيقه في الميدان الأخلاقي . فهو لا يريد أن يلقي على الطفل شيئاً باسم الواجب ولا أن يعلمه شيئاً باسم الحق ولا أن يتدخل معه في استنتاجه فضرر كل تدخل أكثر من نفعه ، لكنه يرى واجباً أن يطيع الطفل إرادة أبيه أو مربيه وأن يخضع لها خضوعه لأي قوة من قوى الطبيعة القاهرة . وإلا : « فمتى استطاع الإنسان إتيان ما لا يسوغ له عمله دخل إليه حب إخفاء ذلك العمل . ومتى أمكن لصالح أن يصل منا إلى وعد وكلمة أمكن لصالح أكبر منه أن يدفعنا لنقض كلمتنا وعدم البر بوعدنا ، ومن ثم تدخل المفاسد إلى النفس ، ولو أننا أبعدناها عن مظنة السوء لبقيت في طهارتها ونقائها . ولا يكون ذلك إلا بتركها حرة تعالج الحياة وتحتمل ثمرات علاجها من خير وشر لتعلم أن الضرورة الطبيعية هي وحدها التي تقيد حرية الفرد وأنها لا تقيد حريته في سبيل الخير والفضيلة والحق » .

وأنت ترى أن أميل يترك للطفل من الحرية ما يسمح له بتربية نفسه حسب الوسط المحيط به . وأن روسو قد رأى لذلك وجوب ترتيب هذا الوسط بطريقة تضمن حسن النتيجة في تربية ناعم الظفر . ولكن الترك المطلق كما قدمنا محال ، وهو إن أمكن في السنين الأولى – إلى الثالثة أو إلى الرابعة من العمر – فهو بعد ذلك غير ممكن . لذلك وجب أن يتقدم المعلم إلى الطفل شيئاً فشيئاً لا بتعليمه الأشياء ولكن بالفاته لها وإظهار الدهشة لعدم معرفته إياها بنفسه . على أن هذا الإلفات يجب أن يكون للأشياء المحيطة بالطفل لا بالأشياء التي لا يقدرها إلا توهماً . فلا تقل له

إن الأرض مستديرة ولا إن قطرها يبلغ طوله كذا وكذا من الكيلومترات ولا إن المسافة بين الأرض والشمس مداها كذا كيلو متر مما يشتت ذهنه ويغشى على بصيرته . بل جاهد لتجعله دائم الانتباه إلى كل ما يمسه مباشرة . وإنك إذاً لواجده قديراً على التصور والتذكر وعلى التعقل أيضاً . وهذا هو نظام الطبيعة .

والأشياء التى تمس تلميذ روسو هى المناظر الطبيعية والمزارع والقرى المنشأة بينها . وفى هذه المحيطات موضع لعلم واسع يلاحظه التلميذ بنفسه . فاختلاف سعة المزارع والمنازل والأماكن يمكن الطفل من تفهم المقاييس والأحجام ، ومختلف المساحات وما إليها فما تلهمه مبادئ الهندسة . والقرى المختلفة المشتتة التى يغشاها فى أثناء نزهه ورياضاته وما بينها من بحيرات وغدران وجبال تفتح عينه للجغرافيا المحلية . وأخلاق الناس وعاداتهم وأقاصيصهم تدله على تاريخهم . وهو متى استطاع أن يفهم ذلك كله من الأشياء المحيطة به مباشرة تاق بطبعه إلى فهم أشباهها ونظائرها فسهلت دلالته وهان إرشاده .

* * *

فإذا سار الطفل فى سبيل التطور على هذا النحو حتى بلغ الثانية عشرة من عمره فانفتق ذهنه واتسع عرفانه أصبح قصره فى دائرة التربية السلبية غير ممكن ووجب البدء فى تعليمه . وذلك لأنه فى هذه السن دونه فى كل أدوار العمر يملك من القوة ما يزيد على رغائبه وشهواته . فبينا يعجز الطفل ويستصرخ لضعف جهده ، وبينا ينوء الرجل بحمل مطالبه ورغائبه ومطالب من يعول ورغائبهم ، إذا الفتى الذى قارب استكمال قوته البدنية وفتح عين بصيرته للوجود لا يزال قليل الرغائب لأن شهوته الجنسية لما ينفجر ينبوعها ولأن اطراد نموه يقاوم كل ما يستوجب الضعف ، ولأن ما أفاده من العلم بالمحيطات به بلغ حداً صار معه فى حاجة لتبويبه وترتيبه وتعميمه إلى ما يشابهه مما لا يقع تحت حسه . وهو لا يقدر على القيام بذلك بنفسه . وإلا لكان واجباً أن يبدأ كل فرد من أول الطريق الذى قطعته الإنسانية . وهو من غير شك أعجز من أن يلم وحده بمجموع ما كدسه الماضى من معلومات توضحت وتفصلت بالزمان . فإذا وقف فى منتصف الطريق عجز عن ملابسة الجمعية ولم يفده عجزه شيئاً . ومن الواضح أن تربية هذه نتيجتها هى تربية خائبة .

ولعل القارئ يذكر ما وجه لروسو من قارص النقد حين نشر خطابه عن

العلوم والفنون داعياً لرجعة إلى الطبيعة . فقد طعن عليه بورد وستانسلاس وغيرهما يومئذ بأنه يقف فى طريق التقدم ويدعو إلى الخراب . واضطرهم فعدل عن فكرته المتطرفة إلى وجوب استبقاء المكاتب والمتاحف من غير أن تكون سبباً للترف ولما يجره من الفساد . وما كان روسو ليقع من جديد فى خطئه القديم . فجعل يوضح لأهل عصره السبيل لمحو الفساد مع الاستمرار فى طريق التقدم العزيز على العلماء والكتاب جميعاً .

ووسيلة ذلك فى تربية تلميذك الذى تعدى الثانية عشرة من عمره أن تلهمه الحقائق المحسوسة من غير أن تعلمه إياها . وذلك « بأن تنبه يقظته إلى مظاهر الطبيعة حتى تثير عنده الشغف بها ، على أنك إذا شئت أن يبقى شغفه فلا تقدم له ما يكفيه ويقنعه بل قرب منه المسائل ودع حلها له . فلا يجوز أن يعلم شيئاً لأنك قلته له وإنما يجب أن يعلمه لأنه فهمه من تلقاء نفسه . وإذن فهو لا يتعلم العلم ولكنه يبدعه » . . على أن من الواجب إرشاده بعض الشىء ، وبعض الشىء فقط ، وبمقدار لا يشعر هو به . فإن أخطأ فدعه يخطئ ولا تسارع إلى إصلاح خطئه ، بل انتظر مطمئناً حتى يتاح له أن يصحح ما أخطأ فيه أو فرتب له فرصة غير محسوسة تجعله يحس بخطئه . ولو أنه لم يخطئ أبدًا لما أتقن تعلماً » وهنا يرتب روسو من صور الطبيعة ومظاهرها ومن الصور المسرحية التى مر بك مثلها فى قصة البستانى ما يبين به طريقة الإلهام وإثارة الشغف واستبقائه .

إلى هذه السن لم يقرأ أميل كتاباً إلا كتاب الطبيعة « الذى لا يكذب أبدًا » ، وهو فى هذا يختلف عن روسو الذى كان ولا يزال فى السادسة من عمره يقضى الليل كله يقرأ هو وأبوه روايات كانت أمه قد خلفتها قبل وفاتها . إلا أن روسو كان شديد الرغبة عن الكتب ، لأنه كان يعتقدها مثالاً للبيئة الاجتماعية كافياً ليفسد على الأستاذ كل تعليمه وبخاصة إذا قرأها الطفل ولما تتكون عنده ملكة الحكم ولما يفد من المعارف ما يسمح له بتقدير ما فيها من صحيح وباطل . لكنه إذ بلغ الثانية أو الثالثة عشرة من عمره كان فى سن تسمح له بالتدبر بعض الشىء ولذا وجب التسامح معه فى قراءة بعض الكتب على شريطة أن تكون فى متناول علمه وأن يستطيع الحكم عليها حكماً صحيحاً .

فأما الكتب التى تتعدى مقدرته فى الحكم فضارة لأنها تفسد نظام تربيته

وتخضعه لأفكار لم يحصلها هو بنفسه وتجعله لذلك ألعوبة فى يد سواه وتدفع به إلى التقليد وإلى مجاراة الوسط ، من غير تفكير فى تقدير ما يجارى غيره فيه اعتماداً على أن هذا الغير أكثر منه مقدرة وأوفى علماً . والطفل إذا اتجه إلى هذه الناحية فقد ذاتيته وضاع كل مجهود أنفق فى تكوينه وتربيته وصار مغرساً صالحاً لكل مفاسد الاجتماع .

وخير الكتب التى يقدر عليها الأطفال فى هذه السن حكايات لافونتين . وليس من شك فى أن هذه الأقاصيص التى تنسب إلى إيزوب اليونانى والتى نقلها لافونتين إلى الفرنسية هى ببساطتها وبسوقها على لسان الحيوانات وبالأفكار والحكم التى تحتويها خير ما يصلح لرياضة عقل الطفل لجاذبيتها ولطرافتها ولجمالها . وطفل روسو ومن كان على شاكلته يستطيعون لا شك حسن تقديرها والحكم عليها .

لكن أقاصيص لافونتين لا تكفى وحدها غذاء لنفس الطفل المحتاجة إلى الغذاء العقلى . ولما كان حتماً أن يكون الطفل لنفسه فكرة عن العالم وعن الإنسانية بعد ما كون فكرة عن ركن العالم المحيط به وعن أصول وفروع أصحابه ومعارفه فقد أباح له روسو مطالعة كتب التاريخ مفضلا منها ما كان مقصوراً على تراجم الأفراد . وحكمة ذلك أن تواريخ الأمم لا تعنى من فترات حياة الأمم إلا بأوقات الحروب والثورات والمذابح وما إليها من ظاهرات تدهور الإنسانية . فإن الشعوب السعيدة لا تاريخ لها . والرجوع إلى هذه التواريخ المولعة بالبحث عن المجد والإشادة باسم الذين وصلوا إلى ذروته مفسد للروح لما يدفعه إليها من حب الدسيسة والخديعة والكذب والنفاق .

وإنا لنؤمن بهذه الملاحظة ونعتقد أن العصور التاريخية التى يعلو فيها نجم السياسيين هى أتعس عصور الإنسانية وأحطها . ولو أنك رجعت إلى أبدع ساعة فى تاريخ فرنسا — ساعة الثورة الفرنسية — ووقفت عندها وقفة المحكم وحللت ما كان فيها إذن لما رأيت إلا كلمات جوفاء وإلا مظالم مكدسة بعضها فوق بعض وإلا السياسيين ذوى المطامع الذاتية يدوسون باسم أرق المبادئ وأسماها رقاب البشر يظلمون باسم العدل ويقتلون باسم السلام العام وينهبون باسم ثروة الدولة ويرتكبون كل فاحشة ومنكر باسم الفضيلة الطاهرة ويهيئون الأمة الثائرة تطلب الحرية لقبول ظلم نابليون وطغيانه .

بل ما لنا نرجع للثورة وهذه حرب العالم الكبرى ولما يكد ينتهى العالم منها . أرأيت ما بلغته الأمم خلالها من جلال وما باهت به بعدها من فخار ومجد . أسمعت كلمة إمبراطور الألمان أول الحرب (ويل للمغلوب) وهى كلمة لا نظير لها إلا فى نذر الآلهة . أسمعت خطب لويد جورج وكلمنسو وما تستفز به حمية الشعوب وتستدر به عبرات الإنسانية . وهل تذكر خطب ما بعد الهدنة مترددة بين الوعد والوعيد وصوت البشير وصيحة النذير . إن كنت تذكر كل هذا فاجلس ساعة إلى نفسك واحتلب عصارته جميعاً بعد أن تمرره بمصفاة عقلك ثم قل لى هل ترى فيه من خير يعدل ما فى سطر من كتب روسو أو قصيدة من شكسبير أو من كوميديا دانت الإلهية أو من تواليف جيت وشلر . ولا غرابة فى ذلك . فالإنسانية إنما تنتج طيب آثارها وهى فى حال من طمأنينة البال وسكينة النفس وفى شىء من الرغد ونعمة العيش . فإذا هى استطير عقلها طاش صوابها وتحكمت فيها شهواتها الحيوانية فأصبحت الخطب زئيراً وصهيلا والتفكيرات طفرات واندفاعات والعواطف سلائق وحشية والرحمات رياء ونفاقاً . وما كان لأحد أن يطالب الإنسانية بغير هذا . فإن للوسط على النتيجة أكبر الأثر . فإذا تلبد الجو بدخان البارود فاحتجبت الشمس واختفى القمر وتسمم النسيم وقلبت الأرض عاليها سافلها وغطى الجدب أكثر بقاعها ربض الإنسان وسط ذلك كله وجلا مضطرباً متحفزاً للوثبة كله عيون ترى مواضع الخطر وآذان تسمع هزات النسيم وكان على هذه الحال ولا فرق بينه وبين النمر أو الثعلب أحيط به وسط أدغاله وأحراشه .

كتب التاريخ التى تقص خبر هذه الفترات من حياة الإنسانية ليست إذن من طيبات الكتب التى تقدم للناشئة حين تربيتها . لكن الناشئة ليست فى غنى عن كتب التاريخ . لذلك فضل روسو أن تقدم إليهم كتب التراجم . فإن المؤرخ يعنى بتتبع من يترجمه فى كل فترة حتى فى الفترات التى يود المترجم الخفية فيها والاستتار . وهو لا يترك له فرصة ولا صورة إلا عرضها أمام عين الناظر الناقد . وهو أشد عناية بتعريف الناس إياه حينما يظن هو أنه اختفى عن كل عين .

لعل القارئ يذكر ولع روسو بكتاب بلوتارك عن حياة العظماء . وهو هذا الولع الذى أدى به ليمدح فكرة قراءة التراجم أكبر المدح ويشايع الكاتب الفرنسى الكبير مونتنى فى محبته إياه وفى التشجيع على قراءته .

على أن كتب التاريخ العام وكتب التراجم لا تقتصر على ذكر الوقائع ووصف حالات النفس . بل كثير ما يوجهها حكم المؤلف على الحوادث وجهة خاصة . وما كان لمؤرخ مهما بلغ من حياده ومهما نظر إلى الحوادث بعين مطمئنة لا تعرف الفزع ولا النشوة أن يمحو ذاتيته من كتابته : فإن للوقائع التى يسردها وللرجال الذين لعبوا الأدوار المهمة فيها ولظروف الاجتماع التى أحاطت بها ولتصاريف الأقدار التى وجهتها منطقاً خاصاً . ولم يبلغ العلم الاجتماعى بعد من الدقة مبلغاً يجعلنا نؤمن بالقوانين التى تصرف الحوادث التاريخية والاجتماعية إيماننا بقانون الجاذبية . فكل مؤرخ وكل مترجم له رأيه فى منطق الحوادث وله حكمه على كل رجل من رجال التاريخ . لذلك كان الناشئ فى تعرضه لهذه الكتب عرضة لأن يتأثر بحكم غيره . وهو وان بلغ سناً تسمح له بحسن التقدير فإنه لا يزال فى درجة من معرفة العالم أدنى من درجة هؤلاء المؤرخين والمترجمين . وتأثره برأيهم هو ما يخشاه روسو وإن كان لا يجد من الالتجاء إليهم مفراً .

يلتجئ الطفل إلى كتب التاريخ والتراجم ليعرف سيرة الإنسانية والسبل التى سلكها الناس فيها من قبل وكيف قدروا شأنها وأثروا فيها وتأثروا بحوادثها . . ذلك كل شأنه من قراءته ليس يعنى بتمحيص الحوادث ليضع يوماً مؤلفاً فى التاريخ ولا يفحص صور الأمم لينشئ نظريات فى الاجتماع ، لأنه فى الحالين يكون معيناً على انتشار العلوم والفنون وانتشارهما فساد وشر عند روسو . وليس يعنى من قراءته بما قد تجره من الفائدة المادية لأنه على ما رأى القارئ بادئ الأمر شاب غنى من أسرة عريقة فى الأرستقراطية غير محتاج ليجعل من دراسته صناعة ترد عليه من وسائل العيش ما ترده الفأس على الفلاح والكير على الحداد والمنشار على النجار . هذه الدراسة أو بالأحرى هذا الاطلاع على بعض الكتب الخاصة وتفهمها والحكم عليها إنما يراد به المزيد من حسن تكوينه ليصبح أكثر مقدرة على ما أعدته له أرستقراطيته من التربع على عرش الحياة بما يجب له من العظمة المحسنة ومن التحكم المحبوب .

لكن الغنى عرض والأرستقراطية مظهر والتحكم المحبوب ليس مضمون البقاء . وأميل لم يصل من قراءاته ليفيد عرض الحياة . لذلك رأى روسو أن يعلمه صناعة يدوية حتى إذا قعد بن لزمن كانت له معيناً على الزمن . ثم إن ما وقر

فى نفس أميل من أن السعى أساس التملك وأن البطالة ليس لها جنى إلا العلل والأمراض وأن رياضة البدن أمر جم الفائدة كل ذلك يجعله يرى فى الصناعة اليدوية ما يسلى به وقته وما يزيد به فى رياضاته وما يشعره المساواة مع الفقراء فى كدهم كما تشعره تربيته الراقية المساواة مع الأرستقراطيين فى سرائهم وفى حكمهم غيرهم .

° ° °

إلى هنا انتهى روسو من تربية تلميذه الأول فانتهت الأجزاء الثلاثة من كتابه الضخم . وهنا وقف تلميذه عند حدود ما بين الطفولة والرجولة حين يبدأ الفرق الصحيح بين جنسى الرجل والمرأة ، فيخرج الأول من طفولته وتتغير فيه كل مظاهرها من نعومة فى الصوت وخلو فى الفؤاد وإبهام فى النظرة وخضوع واستسلام ويبقى الثانى مستمراً فى طفولته بكل مظاهرها إلى ختام حياته .

هذه اللحظة هى أدق لحظات حياة الرجل . فنحن (نولد مرتين أولاهما لنوجد والأخرى لنعيش ، أولاهما للنوع والأخرى للجنس) فإذا تفتحت فى الشاب ينابيع حياة الجنس كان هذا مولده الثانى . وليس هذا المولد أقل خطورة من الأول . فإنك ترى الشاب فى إبان هذا التطور وقد تغير طبعه وكثرت اندفاعاته ولج به اضطراب النفس وصم عن سماع كل صوت يناديه للسكينة وأصبح وكأنه أسد فى نفرته لا يعرف مرشداً ولا يقبل لغيره عليه حكماً . فلا عجب أن يكون واجب المربى فى هذا الدور من أدوار الحياة مضاعفاً وأن يكون كل ما قام به من قبل فى سبيل التربية قليلا إلى جانب ما تقتضيه هذه اللحظة الحاسمة .

عود روسو تلميذه الطاعة فى كل أدوار حياته ، وحبب إليه رياضة البدن ورياضة النفس ، وعلمه حرفة يدوية يقتل بها الوقت ويستعين بها إذا قضت الحاجة ، وقدم إليه طيب الكتب القليلة ليقرأها ويحكم عليها . ولم يترك لحظة من وقته إلا شغلها بما يريد ، على ألا يحس التلميذ بهذا التحكم . بل على أن يعتقد أنه حر مطلق الحرية يصرف وقته كما يشاء ويعمل ما يريد . فكان طبيعياً إذن ألا يفكر التلميذ فى شيء من صلات الجنسين قبل هذا المولد الثانى . وما دمنا قد عودناه الحكم على الأشياء وإمعان النظر فيها فإن هذه الساعة الخطيرة ستمر بهذا التلميذ من غير كبير خطر . لأن تحكم الأميال الجنسية فى الشبان

يدفعها بهم فى سيئ السبل إنما سببه كثرة تفكيرهم فيها . أما إن هم وجدوا عنها منصرفاً يشغلوا بأعمال وتفكيرات أخرى فإن ساعات العماية لا تمر بهم أبداً . لأن اتجاهات الذهن أكبر من كل شيء أثراً على حركات الجسم واندفاعاته .
وما دامت هذه الاتجاهات عند تلميذ روسو بعيدة عن صلة ما بين الرجل والمرأة فإن خطر ساعة بدء الشباب يكون غير مخشى العاقبة .

وإنا لنشارك روسو فى ملاحظته هذه عن إيمان وعلم ونقطع وإياه بأن مفاسد الشباب فى المدن إنما سببها هذا التبرج النسائى وهذه الصور المخجلة التى تعرض لا على مسارح التمثيل فحسب ولكن فى السبل والطرقات وفى حوانيت الباعة وفى الزيارات العائلية وفى الأحاديث العامة والخاصة . دعنا إلى جانب هذا من دور الدعارة ومباآت اللهو ومن تلك الأماكن العامة يمرح فيها أفراد من كل جنس لاهم لهم إلا إثارة كوامن الشهوات . فكيف ترجو مع ذلك أن تمر بالشباب ساعة جنون الشباب فلا يندفع وراء الرغائب الجنسية الثائرة فى نفسه . بل كيف ترجو ألا يفكر الأطفال قبل العاشرة بل الثامنة من عمرهم فى صلات الجنسين ، وكيف تراهم يقمعون فى نفوسهم طلعة الطفولة التى تدعوهم للسؤال عن كل ما تقع عليه عيونهم . فإذا هم فهموا هذه المعانى على النحو المشوق الذى تقدم به فى المدن تواردت صورها إلى أذهانهم فهاجت نفوسهم فعجلت الساعة الخطيرة ولما يكتمل لهم من توازن قوى الجسم والعقل ما يضمن سلامتهم من التورط فى الزلة والارتكاس فى حمأة الرغبة الجنسية والتأثر بكل ما يجيء ذلك به من فساد فى الطبع وضعف فى النفس وانحطاط فى جميع القوى .

أما فى الأرياف البريئة من كل هذه المفاسد فسن بلوغ الفتيان والفتيات متأخرة عما هى عليه فى المدن (وإنه ليدهشك أن ترى فى قرى سويسرا الجبلية شباناً فى قوة الرجال ولا يزال صوتهم حاداً وذقنهم ملساء ، وفتيات كاملات التكوين لا تؤاتيهن عادات النساء . وهذا الفرق الواضح بين هؤلاء وأهل المدن إنما سببه أنهم فى بساطة أخلاقهم يحتفظون بخيالهم هادئاً مطمئناً فيتأخر اختمار دمهم وتظل طباعهم أقل حدة) وما يصدق على قرى سويسرا يصدق على كل مكان تسود فيه البساطة وطمأنينة الخيال .

فإذا ظل التلميذ مشتغلا برياضاته ولعبه وقراءاته وحرفته عن التساؤل عن صلات

الجنسين وما يرتبط بها فواجب ألا ينتبه إلى شيء منها حتى يبقى فى سكينته وحتى تمر به العاصفة وهو قوى عليها يلقاها بلا خوف ولا وجل .

لكنك لن تضمن ذلك . فللأطفال مسائل يلقونها فى هذا الباب عن براءة وطهارة قلب . فكيف نجيبهم عنها . أترانا نكذب أم نلزمهم السكوت أم نصارحهم بحقيقة الأمر واضحة جلية .

أما الكذب فبغيض إلى نفس روسو وهو لا يقره بحال . وأما إلزام السكوت فذلك ما يميل إليه . وما دام الطفل قد اعتاد الخضوع لهذا الأمر فى مواضع أخرى من تربيته فلن يراه فى هذا الموضع غريباً ولن يثير عنده أى دهشة أو طلعة . على أن الأقل من الأمهات من تكتفى بإلزام طفلها السكوت . بل هن على الأغلب يفاجئنهم بعبارات التشويق والترغيب كأن يقلن لهم : ستعلمون ذلك فيما بعد . أو ذلك سر المتزوجين . فيبقى الطفل تتقلب طلعته على أشواك الحيرة يود أن يعرف اليوم ما سوف يعلمه من بعد ويريد أن يقف على سر المتزوجين . فإذا لم يجد من أمه أو مربيه من يدله عليه لجأ إلى الأطفال أمثاله . وهو لن يعدم أن يجد من بينهم طائفة فاسدة الخلق تزين له من أمر هذه الأسرار التى يأبى الكبار أن يوحوا بها ما يجعل الطفل يدمن الفكرة فيما يقوله أمثاله مزيناً إياه بصور خاصة من خياله معتبراً فيه طلسماً ضن أبواه بفتح كنوزه أمامه . ولو أنهما كلماه فى الأمر بصراحة وبساطة كما يكلمانه فى كل ما سواه فقالت له أمه حينما سألها كيف تصنع الأطفال أن النساء يلدنهم متجشمات فى ذلك من الآلام ما يذهب أحياناً بحياتهن ، وقالت له ذلك على نحو ما تقول له أى شيء آخر إذن لرأيت طلعته وقد اطمأنت ثم لرأيته وقد انصرف عن التفكير فى أمر هذا مبلغه من السخف أو إن شئت فقل من القذارة والنكر .

لكن العرف يأبى ذلك ، والسبب عند فاجيه راجع إلى تفسير الأشياء الطبيعية بشيء من الحدس الدينى (فإن الطفل لا يذكر شيئاً مما أصابه ولا يذكر ما كان حتى الرابعة من عمره . لذلك خيل لآبائنا أن الآلهة أرادوا أن يبقى الإنسان زمناً طويلا جاهلا كيف وجد فى هذا العالم وألقوا على مسألة الميلاد حجاباً مقدساً ظنوا رفعه أمراً غير جائز) لكن الحجاب المقدس الذى يأبى الآباء رفعه يرتفع من أمام عين الطفل بلا حاجة لتداخل أبويه . فإن زملاء المدرسة وخلان

الطرقات وحثالة السفلة أجرأ من الآباء وأسرع إلى التجديف فى حق هذا السر القدسى بطريقة دنيئة منكرة سيئة الأثر والفعل فى نفس الطفل البرىء. ولو أن الآباء أزاحوا الحجاب على النحو الذى ذكره روسو من البساطة وعدم العناية به أكثر من أى مما سواه لانصرف الطفل عن العناية بالبحث فيه أو بسماع أقوال زملائه عنه وكان شأنه شأن من صرفته أعماله ورياضاته وما إلى ذلك من المشاغل عن المسألة فى هذا الأمر ، فبلغ الحلم متوازن القوى والرغائب غير معنى بالمسألة الجنسية أكثر من عنايته بسواها مستعداً للبقاء فى طهر العفاف حتى زواجه . وما أكثر ما تكسب الفضيلة بذلك (فإن الطفل الحسن المولد الذى يحتفظ إلى العشرين بطهارته هو فى هذه السن أكرم الرجال وأحسنهم وأرقهم) ذلك ما يقوله روسو عن علم وتجربة لا يخشى معهما كذباً . وإنما يجهل سواه من فلاسفة العصر هذا الأمر لأنهم تربوا وشبوا فى أحضان الفساد المدرسى .

° ° °

إلى ذلك الوقت ، إلى السادسة عشرة من سن أميل لم يلقن أميل شيئاً من قواعد الخلق ولا عنى أستاذه بتأديبه ، بل تركه للطبيعة يتأثر بمظاهرها وبفعل تلك المظاهر فيه ، وليس من شأن الطفل قبل هذه السن أن يفكر فى غير نفسه ولا أن يعنى بعلاقته بمن سواه ولا أن يقدر للعواطف المختلفة . وإنما تسير به فى مضطرب الوجود فطرة الاحتفاظ بالحياة فى أحسن الظروف الممكنة للحياة . وهذه الفطرة هى أقوى أسس الأثرة وهى التى تجعل الموجود لا يعنى من الوجود إلا بذاته ولو ترتب على عنايته بذاته فناء الوجود .

وما يشك قارئ فى أن هذا الترك إهمال معيب من جانب الأستاذ لتلميذه . فإنما الغرض من التربية تهذيب هذه الأثرة الأشعبية . فإذا ترك الطفل وشأنه نمت فيه أثرته فأصبح من المتعذر التغلب عليها كما أحاط بها من مستلزماتها الغرور والكبرياء والجشع وحب الظلم وما تدعو هذه الصفات إليه من الكذب وباطل الادعاء ومن النفاق وتمليق الأقوياء ومن القسوة والفتك بالضعفاء . ويومئذ يذهب كل مجهود لاستئصال هذه الصفات أو للتغلب عليها هباء . ويومئذ يكون القسم الأهم من التربية بل التربية كلها قد ذهبت ضياعاً .

هذا اعتراض قوى يوجه إلى روسو فى تركه فتاه بلا تأديب حتى هذه

السن المتقدمة . لكن لروسو عليه رداً ليس أقل منه قوة . فهو يقول إن تسميذى ليس كتلاميذكم (نظر إليه فى هذه السن تر أنه لم يشعر بشىء ولم يكذب فى شىء . فهو لم يقل لأحد قبل أن يعرف معنى الحب – إننى أحبك – هو لم يعود تكلف مظهر خاص حين الدخول فى غرفة أبيه أو أمه أو معلمه المريض وهو لم يعلم فن التظاهر بالحزن حين لا حزن عنده . وهو لم يتظاهر بالبكاء لموت أحد لأنه لم يعرف بعد ما هو الموت . وإنما تترجم سكينة طباعه عن سكينة قلبه . وهو لا يهتم لأحد لأنه لا يعنى بشىء إلا بنفسه شأن الأطفال جميعاً) وقد حفظ ذلك عليه طيب طبعه كما أتاح له أن عاش عيش الطبيعة فلم يدرج أول ما درج إلى أماكن اللهو وإلى المجتمعات البراقة الكاذبة البريق وإلى كل مصنوع متكلف . ولو أنه شب كما شب غيره واعتاد التكلم بما لا يعرف وبما لا يحس به لكان أساس تربيته فاسداً ولكنت بتربيتك له على هذا النحو إنما تكيف رجل الجمعية الفاسد الدعى على حساب ابن الطبيعة الصريح الصحيح . وهذا لعمرك هو الشر المستطير .

لما يقف أميل إذن بعد على شىء من قواعد الخلق فكيف السبيل لإدخالها إلى نفسه .

قد يجب علينا قبل عرض هذه المسألة على طريقة روسو أن نسأل عن رأيه هو فى قواعد الخلق ، وقد يجب علينا قبل معرفة رأى روسو أن نسأل عما هى قواعد الخلق لذاتها . وإنا لا ندعى فى هذا الموضع إمكان مناقشة المسألة الأخلاقية التى يستغرق كل وجه من وجوهها مطول التصنيف ولكنا نعرض منها لما نرى ضرورة التعرض له لفهم رأى روسو ونعرض له على طريق الإشارة البسيطة لا على طريقة البحث والتمحيص .

لو أنك فرضت وجوداً لحى بن يقظان أو لروبنصن كروزو لما استطعت أن تتصور لهما من قواعد الخلق إلا بمقدار ما يستطيعان معه ملاءمة الوسط الذى يعيش كل منهما فيه . فإذا كان أحدهما محاطاً بكواسر الوحش وبطقس متقلب كثير العدوان وبأرض قليلة الخصب لم يكن بد من تصور هذا الشخص قوياً نشطاً ذا ذكاء وحيلة وإبداع حتى يدفع بقوته وحيلته عاديات الحيوان عليه ، وحتى يصل بنشاطه وإبداعه إلى استغلال الأرض على قلة خصبها ، وحتى يستعين

بإبداعه وذكائه على اختراع ما يتقى به تقلب الطقس ، فإذا وصل إلى ذلك كله فاتقى العدوان وحصل المعاش كان ما يأتيه بعد ذلك من تفكير أو تصور أو عمل ولا حكم لقاعدة من قواعد الأخلاق عليه . وإذا كان الآخر مقيماً فى جو خصب غنى بخيراته معتدل الطقس قليل العوادى من حيوان وطير كان فى غنى عن القوة وعن الحيلة وعن الإبداع . وكان غير ملوم فى أن يتمتع من جنته بكل ما يصوره له خياله من أنواع المتاع ثم لا يكون لشىء اسمه قواعد الخلق حكم عليه .

لكن الإنسان المنفرد لم يكن ولن يكون . فإذا وجد حى وكروزو معاً وكانا متساويين قوة وحيلة وذكاء اقتسم كل نعم الحياة مع صاحبه من غير عدوان عليه لأن عدوانهما الأول أثبت لهما أن ليس لأى منهما من وراء العدوان فائدة وأن العدوان ضار بهما جميعاً . كذلك تعاون كل مع صاحبه لدفع العوادى . . فإذا حل بأحدهما الضعف جاهد صاحبه ليفيد على حسابه . فإذا تفاوتا فى القوة إلى حد إذلال أحدهما للآخر لم يكن للذليل بد من أحد أمرين : إما الخضوع رجاء الحصول على ما يقيم أوده مع بعض المتاع الذى يفيض عن صاحبه . وإما الاحتماء فى الزهد واحتمال الحرمان من كل ما قد تجود به الحياة المحيطة من نعيم أو مسرة ، وهذا الاحتماء من الظلم فى كنف الحرمان هو عندنا أساس التقشف والزهادة التى أصبحت فيما بعد مذهباً أخلاقياً ذا قوام وشُعب وقواعد .

ولا عجب أن يصبح الزهد مذهباً . فقد كان التفاوت وعدم المساواة فى عصور ما قبل التاريخ ، وكان الظلم ولا يزال قاعدة التعامل بين الأفراد والأمم . وإلى اليوم أخفقت كل المجهودات الكريمة التى أنفقت لمنعه أو لتخفيف وقعه . وكثيراً ما استفاد الظلم على حساب هذه المجهودات وخرج بفضلها ظافراً من كل الحروب التى أعلنها ومن الحروب القليلة التى أعلنت عليه .

غير أن التقشف لا يتفق مع طبيعة الحياة . وليس من متقشف إلا وصدف عن الحياة سواء طمع بعدها فى الخلود أو هو لوى عنها وجهه تقززاً منها واستهزاء بها أو خضوعاً لضرورتها المتحكمة ، والتخلى عن الحياة تناقض لا تطيقه النفوس فى معروف الحياة ، لذلك كان مذهب الرواق على بديع جماله خيالا شعرياً . أما ما هو واقع تحت نظرنا فيدلنا على أن الحياة غاية الحياة وأن ما تفسر به صورها بعد ذلك إنما هو حدس لا دليل عليه . ولتحقيق هذا الواقع يجب أن

تكون قاعدة الخلق عند رجل الجماعة كقاعدة الخلق التى فرضناها لحى بن يقظان ، ملاءمة الوسط الذى يعيش الفرد فيه على طريقة تتفق مع فطرة احتفاظ الفرد بحياته ومعاونته على احتفاظ الجنس ببقائه وبتطوره وبملاءمته للوسط الذى يعيش فيه .

وهذه القاعدة أكثر تمشياً مع مذهب أبيقور على تعدد صوره ، وهى ما يريده روسو قاعدة لآدابه مع شىء من الطرافة خاص به ومميز له عمن سواه .

وقد يلاحظ هنا أن هذه القاعدة هى القاعدة العامة لكل أنواع الخلائق ، فلن يحتمل الحياة موجود لا يتلاءم مع ظروف الحياة المحيطة به . ألا ترى إلى السبع والنمر على قوتهما وجرأتهما كيف يهجران الأماكن التى لا تتفق طباعهما مع طبيعة العيش فيها . فما الفارق بين الإنسان وغيره إذن ؟

الفارق أن طبع الحيوان أصلب وأقسى من طبع الإنسان . الإنسان قدير على أن يتشكل بشكل الظرف الذى هو فيه . وهو قدير على ذلك عن إدراك وشعور . أما الحيوان فأقل مرونة وهو لذلك أسرع إلى الانقراض عند تغير الوسط . ومرونة الإنسان وشعوره بهذه المرونة هما أساس الخلق المكسوب القائم إلى جانب الطبع والسليقة عنده .

وقد كان من تطور حياة الإنسان أن تزايد التفاوت بين جماعاته وبين أفراد كل جماعة فاقتضى ذلك نضالا دائماً تمت الغلبة فيه للظلم أكثر الأحيان ، وباء المظلومون بخيبتهم يتعثرون فى أذيالها ويشعر كل منهم بقارص ألمها ، فتكون عندهم تبادل العطف بسبب الألم المتبادل ، وعرف كل منهم أن أخاه البائس يستحق من الإشفاق ما يشعر هو فى نفسه بأنه مستحق له ، ثم حفزهم ألمهم لمعاودة الكرة وللثورة من جديد فى وجه الظلم ، فاحتاجوا للقيام بثورتهم إلى التعاون والتضامن فيما بينهم وإلى الصداقة فى القول والإخلاص فى التضحية ، لكنهم لم يظفروا من ثورتهم الجديدة إلا بما فازوا من نضالهم القديم ، فعادوا أدراجهم واجمين ، ففكر جماعة منهم فى القناعة بحظهم مكتفين بالنظر لمن دونهم وبالتألم لمن كانوا أكثر منهم مصاباً . أما الآخرون فنظروا إلى من غزوهم نظرة الحقد ثم فكروا فى إنزال غضبهم بأمثالهم الضعفاء الذين عجزوا بالأمس معهم عن مواجهة الأقوياء . وكذلك تجدد الظلم والعدوان وكذلك نشأت العواطف

التى رأى القارئ ، فأقامها الناس قواعد لخلقهم فى النضال اليومى الذى لا يقل عن ذلك النضال الآخر بشاعة وقسوة والذى لا يمتاز عنه إلا بأن أسنانه أدق وأحكم ، فوخزاتها أقوى وأقتل ولكن فى خفية وتحت ستار الابتسام .

ولولا التفاوت ولولا النضال لما كان شيء اسمه قواعد الخلق ولا الآداب ولا الفضيلة ، بل لعاش الناس عيش أهل الجنة على ما يصفهم الواصفون .

على أن ما سنه الناس قواعد للخلق قد أخذ صوراً وأشكالاً عدة ، وكل إنسان ميال بطبيعة مزاجه وبظروف حياته وبتكوينه النفسى وبحكم البيئة إلى صورة من هذه القواعد خاصة تختلف قليلا أو كثيراً عن الصورة التى يميل إليها سواه .

وقد كان روسو ميالا إلى نوع من الفضيلة الزاهدة فى الترف مع نوع من الاعتذار عنه ونصيب من الرغبة فيه . نصيب يسمح له بالتخلص من ضرورات العيش مطمئناً إلى نفسه وإلى تفكيراته وتأملاته من غير أن يذل هو له وأن يستذل لذلك من سواه من الناس . ولعله عبر عن ذلك خير تعبير فى رواية الهلويز حين قال عن جولى : (وجولى نفس وجسم يتعادلان فى دقة الإحساس ، فعواطفها وأعضاؤها كلها الرقة . وهى قد خلقت لتذوق كل اللذائذ ولتعرفها . لذلك مر بها زمن طويل كانت تحب فيه الفضيلة حباً جماً على أنها أشهى الشهوات . وهى تنهل اليوم من هذا المتاع الأسمى ولا ترفض ما سواه من صور المتاع ما لم يتعارض معه . لكنها تسلك فى المتاع باللذائذ سبيل القصد التى يسلكها من يرفضون اللذة . وفن المتاع عندها هو فن الامتناع – على ألا يكون امتناعاً أليماً يجرح الطبيعة ولا يرى فيه خالقها إلا تحية سخيفة أحرى بالازدراء والتحقير . بل امتناعاً معتدلا موقوتاً يحفظ للعقل حكمه ويحتفظ بالسرور فى حدوده ، فينفى عنه التقزز منه والإسراف فيه ، وهى ترى أن حاجات الحس التى ليست من ضرورات الحياة يتغير طبعها إذا انقلبت عادة فينقضى العهد بها كلذة وتصبح حاجة لازمة وغلا يتقيد الإنسان به ومتاعاً يحرم نفسه منه . فسداد الرغائب ليس إذن هو وسيلة إقناعها ، بل وسيلة قتلها . لذلك تراها تجيب واحدة من عشرين من رغائبها فتجعل بذلك للرغبة المجابة قدراً وثمنا وتحفظ على نفسها قوتها ولا تفنى بالاستهلاك لذتها .

« ولها من الامتناع غاية أشرف هى حكم نفسها وتعويد شهواتها الطاعة ورغائبها الخضوع ، وتلك سبيل طريقة للسعادة ، فإن الإنسان لا يطمئن للمتاع إلا بما يستطيع فقده من غير ألم ، وأعجب ما يظهر لى عجيباً فى اعتدال مزاجها انها تأخذ فى قصدها بالأسباب التى تدفع بالشهوانيين إلى تطرفهم . وهى تقول إن الحياة قصيرة حقًّا ويجب لذلك أن نتمتع بها إلى غايتها وأن نتصرف فيها جميعاً بحذق كى نفيد منها أوفر حظ ممكن . ولو أن يوم تخمة أضاع علينا متاع عام لكان من أتعس صور الفلسفة أن ننقاد وراء رغائبنا ناسين أنا قد نصل إلى منتهى ضعفنا قبل أن نصل إلى مدى وجودنا وأن قلبنا قد يميته الضعف قبل أن نموت . وهؤلاء الأبيقوريون السخفاء الذين يريدون ألا تضيع منهم فرصة يضيعون الفرص جميعاً ، وشأنهم وهم يسرفون فى الوقت ويدعون القصد فيه شأن البخيل يحل به الخراب لأنه لا يحسن النزول عن شيء بقضى الظرف بالنزول عنه . أما أنا فآخذ بنقيض هذا الرأى مع ميل للشدة فيه وميل عن التراخى أياً كان مقداره . وقد صادفنى أن وقفت دون استكمال بعض ملذات رأيتنى شغفت بها فلما عدت بعد ذلك إليها حصلت منها على ضعف المتاع ولم آل جهداً خلال ذلك كله فى أن أجعل لإرادتى الحكم على نفسى مفضلة أن أرمى بالتشبث من أن أدع لشهواتى الحكم على » .

يذكر القارئ إلى جانب هذه الصور من أنواع ملذات جولى صورة معاملتها لزوجها وأولادها وأصدقائها وأتباعها على نحو ما وصفناه فى الفصل السابق ، وتلك كلها هى قواعد الخلق التى يراها روسو . وتلك هى عنده فضائل الحياة ومفاتيح السعادة . لكن استفزاز هذه العواطف وتثبيت هذه القواعد فى نفس الناشئ لا يكون بإملائها عليه ، إذ لا بقاء لعاطفة ولا لقاعدة ولا لفكرة تملى من غير أن يكون لها أساس متين ، بل هى أسرع ما يكون للتطور والتغير لتلائم مزاج صاحبها ونزعاته النفسية ، فلابد إذن من تركيز إحساس معين عند الناشئ تتفرع عليه العواطف والقواعد بطبعها وتؤتى ثمرها كما تنبت الفروع من الجزع ثم تؤتى أكلها نقيًّا سليماً ما دام الجزع قويًّا صحيحاً .

والأساس المتين لهذه العواطف والقواعد هو الشفقة والكرم . والشفقة عند روسو عاطفة طبيعية لأن أساسها الألم . يكفى أن يعرف الطفل أن أمثاله يتألمون كما يتألم وأن لهم آلاماً خاصة بهم ليعلم أنهم حقيقون بالعطف وبالمرحمة ، فإذا تعهد الأستاذ هذا الإحساس الطبيعى فى نفس الطفل بأن عرض عليه

مواضع الإشفاق واشترك معه فى مؤاساة المكلوم والعطف على البائس وأبعده عما يميت هذا الشعور عنده كان قد مهد السبيل لأرق تربية خلقية ننتظرها .

لا يرضى هذا الرأى أنصار النضال وبقاء الأصلح من فلاسفة الأخلاق . هم يقولون إن عواطف الرحمة والإشفاق عواطف مخنثة تأباها الطبيعة التى لا تعنى ببقـاء الضعفاء ، وقد نصبت التفاعل بين مختلف العناصر ومختلف الذرات أساساً لنظام الوجود . وما نفضل أحد الرأيين على الآخر ونحن نعتقد أن الحياة الإنسانية هى المثل الأعلى لدوام النمو والحركة . فما يصدق على بعض الأحياء قد يصدق عليها حيناً ثم لا يصدق فى حين آخر . وإذا نحن سلمنا بنظرية النضال إلى منتهى مداها نفينا نظرية التعاون والتضامن ، وهى ليست أقل منها تمكناً فى حياة الوجود وفتحنا باباً للظلم الفادح باسم النضال . وإذا سلمنا بنظرية الشفقة نفينا نظرية التنافس ، والتنافس حادث اجتماعى لا سبيل إلى نفيه . وكذلك ترى أن الشأن هنا كالشأن فى كل الأحداث الاجتماعية ، لا تستطيع إخضاعها لقانون نظرى متطرف لأنها تجمع بين دفتيها متناقض الأطراف .

على أن لروسو عذراً واضحاً فى تكوين نظريته . فهو مسيحى لم يخرجه تقلبه بين البروتستانتية والكثلكة ومعاشرته للمتشككة والملحدين عن مسيحيته ، بل بقى مؤمناً ثابت الإيمان بانياً إياه على قواعد وحجج سيراها القارئ قريباً . والمسيحية دين الشفقة والرحمة . فطبيعى أن يؤمن روسو بها وأن يعتبرها أساساً للحياة الأخلاقية .

ثم إن حياة روسو وسبيله فى العيش وما مر به من بؤس واحتمله من مكروه كل ذلك لم يكن إلا ليزيده إيماناً بمبادئ المسيحية المحسنة الكريمة التى تجعل فى معونة الفقير والبائس كبرى الفضائل .

وإنا ننقل هنا نص القواعد التى وضعها روسو ليسير عليها المعلم فى تربية تلميذه الأخلاقية . . ! « ليس من شأن القلب الإنسانى أن يتربع فى مكان من هم أسعد منا بل فى مكان من هم أجدر منا بالإشفاق والمرحمة . . وأنت لا ترق لما يصيب سواك من أوصاب إلا لـ تعتقد أنك فى غير منجاة منه . . والناس لا يشفقون على المصاب بمقدار مصيبته ولكن بمقدار ما يحسبونه من تألمه لتلك المصيبة » .

وقد أيد روسو هذه القواعد على اعتبار أنها الواقع ، ثم شرح كيف يجئ تلميذه بالأمثلة المحسوسة للشعور مع الإنسانية المظلومة مقدراً أن ذلك الشعور هو أساس السعادة ثم قال : « سيلومنى لا شك أكثر من قارئ على نسيان ما عزمت عليه بادئ الرأى وما وعدت به تلميذى من سعادة دائمة . فأى سعادة وأى متاع يجده القلب الشاب حين تفتحه للحياة فى مناظر التعساء والمائتين ومشاهد الألم والبؤس . كأن معلمه التعس الذى هيأه لحياة ناعمة لم يعده إلا للشقاء والألم . ذلك ما سيقال ولكنه لا يهمنى فقد آليت على نفسى أن أجعل تلميذى سعيداً لا أن أعده ليتظاهر بالسعادة » . والسعادة لا تكون إلا بمشاركة الناس فى آلامهم والعمل لتخفيف ما يعانونه منها ، أما النفوس التى تُظهر غير ما تُبطن فتملى أفكار الانتقام على ثغرها الخداع بسمات الغدر . وهى تتقن ضحكة الاستهزاء ولا تعرف ضحكة السرور ، وتحمل فى تجاعيدها الوقاحة الظريفة والظرف الوقح . تلك النفوس لا يفتر الألم يحز فيها حتى يميتها ويفقدها أرق المعانى الإنسانية : معنى الشعور والواجب .

الواجب ؟ أحسبنى بهذه الكلمة قد عدوت فكرة روسو . فهو لم يكن يعرف الواجب كثيراً . وهل ترى فى الجمعية التى يصبو هو إليها ، تلك الجمعية الساذجة التى لم تغادر بعد حدود الحياة المستوحشة ، تلك الجمعية الزاهدة فى نعم العيش لتكون بعيدة عن آلامه . تلك الجمعية الصريحة بطبيعة تكوينها والتى لا تحتاج فى الحياة إلى كبير عناء لتحصل على كل مطالب الحياة . هل ترى فى تلك الجمعية معنى حقيقياً لكلمة الواجب أو تراها جمعية تتحكم فيها الفطرة كما تتحكم فى أنواع الحيوان الأخرى ؟ .

لذلك كان كل معنى الواجب عند روسو هو العودة إلى هذه الجمعية العائشة على بساطة الفطرة فى أحضان الطبيعة السعيدة ينعم أفرادها جميعاً بنعمة المساواة ، ثم لا يفسدها عليهم ما يستلزمه الترف من كثرة الحاجات ومن الاشتباك بالغير اشتباكا ينتهى بالخضوع وبالفساد . بل يبقى كل منهم قليل الحاجات بعيداً عن الخضوع للغير كامل الحرية موفور السعادة .

* * *

وهنا ينتقل روسو للكلام عن التربية السياسية . وهى فى رأيه جزء من قواعد الخلق : « أما أولئك الذين يريدون أن ينظروا فى السياسة وفى الخلق منفصلين فلن يفهموا أياً منهما » . لكن التربية السياسية تتطلب تعليماً إيجابياً ، فقد بلغ

الناس من الإمعان فى الفساد حتى لو أنك تركت الناشئ يحكم عليهم بالنظر إليهم والبحث فى شئونهم لانتهى به الأمر لتقزز منهم ونكرههم . أما إن عرف أنهم فى الخطيئة عن غير قصد منهم . وأنها ظروف التطور هى التى دفعت بهم إليها إذن لأخذته الشفقة من أجلهم والرأفة بحالهم . ثم لفكر فى سبيل الإصلاح الواجب اتباعها للخروج بهم من شقائهم .

وسبيل الإصلاح التى يريد روسو أن يلقنها تلميذه هى تلك السبيل التى نادى هو بها من قبل فى خطاب العلوم والفنون وفى خطاب التفاوت وفى خطاب المناظر . فالإنسان طيب بطبعه والمساواة حال طبيعية أفسدها الناس فى جماعاتهم ثم هم لا يزالون يتشدقون باسمها . فهم يتكلمون عن المساواة أمام القانون أو المساواة فى الحقوق وهى ليست إلا خيالا ووهماً . . فإن الوسائل التى أعدت لصيانتها تعمل على هدمها والقوة العامة تفسد بانحيازها للقوى كل توازن أقامته الطبيعة بين الناس . والروح العامة لقوانين كل البلاد تميز القوى على الضعيف ومن يملك على من لا يملك . هذا عيب لا مفر منه ولا استثناء له » وإذ قد ترتب على التفاوت ما ترزح الإنسانية تحته من شقاء وتعس ، فلا بد من إعداد الناشئة لتخليصها من هذا الهم القتال . ولن يكون ذلك إلا إذا وجهت عواطف النشء لإقامة جماعة لا يكون لطائفة فيها امتياز على طائفة ويخضع فيها الكل للقانون على السواء ويكون حماة القانون فيها أكبر من أن تؤثر فيهم الاعتبارات الخاصة وأحرص من كل من سواهم على جعل الشرع مظهراً للإرادة العامة حتى يكون كل فرد إنما يطيع إرادة هو فيها شريك وسلطاناً هو من بين أصحابه . وبذلك يمكن أن تتحقق فكرة المساواة أمام القانون على نحو ما يريدها متشدقو ذلك العصر .

لسنا بحاجة للدخول فى تفاصيل النظام فسيكون موضع ذلك عند الكلام على كتاب العقد الاجتماعى . وإنما نقول إن وسيلة تعويد النشء على الميل إليه وملاحظة الجماعات والشعوب ، وليس من شك فى أن روسو أميل إلى الشعوب والجماعات الصغيرة ، وقد رأى القارئ من ذلك الميل شيئاً غير قليل فى رواية الهلويز وعرف أن سببه ما كان عند روسو من الهيام بوطنه جنيف هياماً كانت تزيده المسآت والآلام قوة وتأصلا .

إلى جانب الأسفار تجىء قراءة كتب التاريخ وقد سبق بنا القول فى شأنها

وفى رأى روسو فى كتب التاريخ وفى تراجم الأبطال بما لا يدع محلاً للعودة إليه أو للمزيد فيه .

ما أشك فى أن القارئ قد ساءل نفسه غير مرة : والمسألة الدينية ؟ الإله ، سر الوجود ، الأبدى ، إننى لم أسمع بعد عن شىء من ذلك كله كلمة وقد سمعت أن روسو رجل مؤمن متدين مولع بدينه وبالبحث فيه . فكيف به وقد نسى تلميذه فى ظلمات الجهل من هذه الجهة وكأنى به يريد تخريجه زنديقاً ملحداً .

رويدك يا سيدى القارئ . إن روسو لا يريد أن يعرض على الطفل شيئاً ليحفظه عن ظاهر قلبه من غير أن يفهمه . ذلك بأنه يرى أن عرض الحقيقة على من لا تسمح لهم عقولهم بفهمها يحل محلها الخطأ والضلال والمسائل الفلسفية والمسألة الدينية ليست فى متناول العقول الساذجة ولا مما تستطيع عقول الأطفال دركه وتفهمه . فإذا أنت عرضت على الطفل أية فكرة عن الله رأيته قدس الصورة فى خياله من غير أن تقرها ملكات عقله . وخطر ذلك صريح واضح . فالطفل المقدس بخياله يصبح متعصباً تعصباً أعمى كارهاً لإخوانه بنى الإنسان الذين لا يدينون بدينه لغير سبب يفهمه . ولعمرك هل ترى فرقاً بين تعصب مسلم الآستانة ومسيحى باريس . فأيهما على الحق . ولو أن مسيحى باريس ولد عند قرن الذهب من أبوين مسلمين أو لو أن مسلم الآستانة ولد على ضفاف السين وألقيت إليهما فكرة الدين قبل أن يصل أحدهما لإدراكها أفلا ينقلب الحال فى شأن التعصب . ثم هما فى تعصبهما على الباطل جميعاً وإن كانت عقيدتاهما متقاربتين تحويان من الحق مقادير متعادلة .

كذلك يقول روسو إذ يرى فى عرض مسائل الدين والفلسفة على الأطفال خطراً غير قليل . وحجته فى هذا أن عاقبة تلقين قواعد الدين للطفل أن يبقى طوال حياته طفلا فى تعصبه لها وغضبه من أجلها ونفوره ممن لا يشاركه فيها ، أو أن ينفر من هذه القواعد متى بلغ رشاده وينفيها جميعاً لما يخالط حقها من باطل ولما تقف بجمود بعض قواعدها فى وجه الحياة وفى سبيل العلم .

وليس من شك فى أن حشد الخيال إبان الصغر بالأفكار العالية الخاصة بالروح وبخلودها وبالاختيار وبالجبر وبالله وبصفاته مما لا يستطيع الذهن له إدراكاً يجعلنا نأبى العودة لبحث هذه المسائل إبان الرجولة إذ تصبح فى نظرنا وكأنها

من خصائص الأطفال . فإذا نحن عنينا ببحثها بعد ذلك واجهنا حتماً بعض تفاهات وسخائف مما كانت طفولتنا تقضى بإضافته على هذه الأفكار السامية حتى يستطيع خيالنا الغض أن يسيغها . فإما رجعنا أمام هذه التفاهات إلى حرز الإيمان والتسليم وبقينا فى تعصبنا القديم ، وإما تقززنا بسبب هذه السخائف مما كنا من قبل نفر منه فنفيناه . والأقلون منا هم الذين يصبرون ويصابرون لتمحيص تلك الأفكار تمحيصاً جدياً من جديد .

على أن روسو لم يسلم فى هذه المسألة من اعتراضين عمليين : أولهما قائم على اعتبار العقيدة والدين قاعدة للخلق ووسيلة عملية للسير فى الحياة ، فهما يكبحان جماح النفس ويحولان بينها وبين النقائص لتقريرهما حرمتها ولبيان ما يترتب عليها من الجزاء فى الآخرة . وهذا الرأى الذى أبداه جول لمتر لا يقوم عند كثيرين اعتراضاً على روسو . فقد جعل روسو من تربية الحوادث ما يقمع فى النفس ثورة الشر إن راضت الشاب على حسن تقدير النتائج بعد فهم مسبباتها . فالشاب الذى رباه روسو لا يرتكب الشر إشاحة بقلبه الطاهر عن الشر ونظراً لما يترتب عليه من النتائج السيئة ولو فى مستقبل بعيد . وليس من شك فى أنه فى هذا يفضل المبتعد عن الشر لغير سبب إلا مخافة عقاب الآخرة .

أما الاعتراض الثانى فقائم على أنك لن تضمن بقاء الطفل بعيداً عن المسألة فى أمور الدين إلى أن تعرضها عليه . فإن طلعة الصغار شديدة ولا تخشى مفاجأة أصعب المسائل . وأي طفل لم يسأل من أمور الحياة فى أدقها ؟ فكيف كان الماء ؟ أمطرته السحب . وكيف كانت السحب ؟ كونها بخار الماء المتصاعد بسبب حرارة الشمس . ولكن كيف كانت الشمس وكيف كان الماء ؟ هذه سلسلة من المسائل التى ترد على لسان الأطفال والتى يفر أكثر الآباء منها عن الله بعرض فكرة يضل فيها خيال الطفل زمناً ثم يكبرها بسبب هذا الضلال ثم يؤمن بها بسبب إكباره إياها ثم تصبح عنده عقيدة على نحو ما سبق بيانه . ولا سبيل لاتقاء الخطر إلا بإلزام الطفل السكوت . وما دام تلميذ روسو قد اعتاد الطاعة فهو لا يجد فى هذا السكوت خروجاً على قاعدة سابقة .

إلى جانب الاعتراضين العمليين السابقين يوجه إلى روسو اعتراض عام . لماذا يرى ضرورة عرض المسألة الدينية على الشاب عن طريق التعليم والتلقين

ما دام الشاب قد وصل من ملاحظاته ومن سنه إلى مقام يسمح له بفحص الأشياء والأفكار وبتقديرها قيمتها . أفلا كان من الواجب أن تطرح عليه أوجه النظر المختلفة بله المتناقضة ليمحصها وليختار منها ما يشاء . وإذا كان روسو قد انتقل من البروتستانتية إلى الكثلكة واختلط بالملحدين وبحث هذا كله ووصل منه إلى رأى ونتيجة ، فلم لا يسمح لتلميذه بمثل هذه الحرية فى البحث والنظر . . إن نظريات التدين والإلحاد والشك كثيرة يتباين بعضها ويتقارب البعض مع وجود اختلاف يسمح لكل أن يكون ذا شخصية مستقلة بارزة . وهل نظرة كل منا إلى هذه المسائل إلا متعلقة بمزاجه وبأمنيته فى السعادة . . أو على الأقل فى الطمأنينة فى الحياة . فالمعتزل والمتقشف يبغى من عزلته ومن تقشفه ما يبغيه المترف والمتطرف فى الأبيقورية من نعمة السعادة . ألم تر قوماً نزلوا عن كل معانى النعمة وأخذوا بأسباب الزهد طمعاً فى السعادة . وهل لم تر آخرين كانوا قد زهدوا فى الحياة ثم رأوا زهدهم سخرية وهزواً فرجعوا إلى الحياة ونعيمها معتبرين الألم عرضاً مهما تطاول به العهد مؤمنين بساعة النعم مقدرين فيها عوضاً عن كل شقاوة وتعس .

والزاهدون يقيمون رأيهم فى الزهد على إحدى فكرتين متناقضتين . . التخلى عن لذائذ هذا العالم طمعاً فى نعيم العالم الآخر ، أو التخلى عن كل نعيم ولذة لأن اللذة والنعيم هما أساس الشقاوة والألم . كذلك يقيم الناعمون رأيهم على فكرتين متناقضتين . . الاقتناع بأن هذه الحياة الدنيا هى دار النعيم . أو القول بالعمل للدنيا كأنك تعيش فيها أبداً وللآخرة كأنك تموت غدا . فأى هؤلاء جميعاً على الحق ؟ ولم تريد بتلميذك أن يأخذ فى سبيل ربما كانت أضل السبل إذا قرنت إلى مزاجه ؟

لكن روسو لم يفكر فى هذا الاعتراض ولم يعن به : هو قد وصل إلى رأى اعتقده حقاً . وهو يرى وجوب الوصول بتلميذه لدرك هذا الحق .

* * *

ما هو هذا الحق الذى سيعرضه روسو على تلميذه . إنه يرى فى الأديان جميعاً أساساً لحقيقة . ويرى التعصب لأى دين سخافة لا تغتفر . ويرى الإيمان أمراً لا يحتمل الشك . لهذا فهو سيعرض على تلميذه الذى رباه ليكون رجل الطبيعة ديناً هو الدين الطبيعى ، وسيعرضه على لسان قس من السافوا مخافة

أن يؤخذ هو به ويبني من أجله .

يذكر القارئ أن روسو كان أيام تشرده فى إيطاليا بعد تركه مدام دفارانس قد دخل ديراً فى تورين وقد قابل بعد ذلك قسيساً اسمه جم قال روسو فى اعترافاته إنه هو الذى هداه فى عقيدته وإنه هو قسيس السافوا الذى ضربه مثلا لصاحب الديانة الطبيعية فى كتاب التربية . على أن مراجعة تعاليم قسيس السافوا فى كتاب التربية تقنعنا أن هذا القسيس الداعى للديانة الطبيعية هو روسو نفسه . وهو هنا كأميل فى التربية وكسان برى فى الهلويز وكالرجل الطبيعى فى خطاب التفاوت ، تلك الصورة المحبوبة التى يعشقها روسو من كل قلبه : صورة ذاته على ما يجب لذاته أن تكون .

ولد هذا القسيس مزارعاً فقيراً مهيأ بمركزه الاجتماعى لفلاحة الأرض واستغلالها ، لكن أبواه أرادا أن يخرج من هذه المهنة ليكون رجلا من رجال الدين . وهما لم يريدا ذلك حباً فى الحق ولكن طمعاً فى مركز أحسن لابنهما .

بلغ الغلام ما أراد أبواه أن يبلغه ، وأصبح قساً ومنع عليه أن تكون له زوج أو أسرة .

وعلى الرغم مما يبيحه له مركزه من الاختلاط بالعائلات فقد كان شديد الاحترام لفراش غيره . لذلك انفضحت أغلاطه وغضب رئيسه عليه فشعر بالظلم وثارت نفسه ضد ما غرس فيها من تعاليم الكنيسة عن العدل والحق والشرف وشك فى كل ما كان من قبل مقتنعاً بصحته .

« تلك حال حرجة أليمة فليس من شأنها أن تدوم . وإنما يحبسنا عندها مقتضى النقص أو خمول الفؤاد . ولم يكن قلبى من الفساد بحيث أستريح لها . وخير ما يحفظ علينا عادة التفكير أن نكون أكثر اطمئناناً لأنفسنا منا لحظنا » .

فاندفع يفكر فيما عرض عليه من قبل مطرحاً أقوال غيره جانباً : « فما من مفكر إلا يعلم أن طريقته ليست أحسن من طريقة سواه ولكنه يؤيدها لأنها طريقته . ومن منهم بعد ما عرف الحق من الباطل إلا يفضل الكذب الذى أبدعه على الحقيقة التى كشف عنها غيره . وأين ترى ذلك الفيلسوف الذى لا يرضى لمجده أن يضلل مختاراً بالنوع الإنسانى كله . فتفكير كل لذاته أجدى عليه من تلك الطرائق التى وضعها أصحابها سلماً للمجد ووسيلة للشهرة » .

(ذلك رأى روسو ، فما رأى القارئ فى طريقة روسو وما رأى روسو فى طريقته ؟) .

وأول ما وصل القسيس إليه من تفكيره أن وقف بأبحاثه عندما يعنيه مباشرة مستعيناً فى ذلك بنور نفسه لا بما لغيره من لألاء كاذب . وقد هداه نور نفسه من أول الأمر إلى الإيمان بالله ، ولم تكن هدايته للإيمان نتيجة حجة أو دليل ولكن لأن الإيمان نظرية عظيمة مسلية تسمو بالنفس وتضع للفضيلة أساسها وقوامها . وهى كذلك واضحة جلية لا يجد الذهن الإنسانى فيها من التعقيد ما يجده فى سخافات الأفكار الأخرى . وما دام قصور الذهن الإنسانى يعجزه عن حل بعض الاعتراضات التى توجه لكل النظريات فلا يصح اعتبار هذا العجز حجة قائمة ضد أية نظرية يقرها العقل ويهدى إليها نور النفس .

ذلك تدليل قسيس السافوا فى أمر النظرية الإلهية . أما نظرية الاختيار فى الحياة فقائمة عنده على أن الحركات قسمان : إرادية *Spontané ونقلية Communiqué ؛ فأما النقلية فترجع إلى سبب خارج عن الجسم المتحرك ، وأما الإرادية فقائمة به . والنقلية كحركة الساعة لا تتحرك إلا بدافع غير قائم بها . أما حركة الحيوان فأدخل عند روسو فى باب الحركات الإرادية .

فإن شئت أن تعلم كيف عرف روسو أن هناك حركات إرادية فهو يقول لك : « أنا أعلم بها لأنى أحسها . أنا أريد أن أحرك ذراعى فأحركها من غير أن يكون ثمت سبب مباشر إلا إرادتى . وعبثاً يحاول من يريد إقامة الحجة ليفسد عندى هذا الإحساس ، فهو عندى أقوى من كل شاهد . وإلا لصح أن تقام لى الحجة على أننى غير موجود » .

وكأنما شعر روسو أن النور الداخلى ليس كافياً هنا كفايته فى النظرية الإلهية . لأن الحركة مظهر محسوس مصدره المادة المحسوسة . فذهب إلى أن الأصل فى المادة السكون وإلى أن الذرة الحية ليست من الأمور الممكنة الفهم عنده . وما دام السكون هو الأصل فى المادة فالحركة عرض خارج عنها لا يتأتى إلا بإرادة غير ماثلة فيها . وهذه الإرادة هى بالنسبة للعالم قوة الإله المسيرة للكون على سنن معينة ، وبالنسبة للإنسان إرادته الذاتية المختارة فى حركتها .

لا أريد أن أعرض لنقد هذه الفكرة بأكثر من أن ما عجز روسو عن تصوره من وجود الذرة الحية وحركتها قد أصبح حقيقة لا تحتمل الجدل . ومن أن السنن

المعينة التى يسير عليها الكون تحكم الجماعة الإنسانية وتحكم الفرد حكماً يجعل الحرية وهماً إن أمكن تصور خياله فى الجزئيات التافهة فمحال تصوره فى مجموع الحياة المؤثرة كل التأثير على هذه الجزئيات (١) .

والآن فلنتخط هذه المسألة لما بعدها . . « إذا كشفت لى المادة المحركة عن إرادة فإن المادة المحركة وفاقاً لقوانين ثابتة تكشف لى عن بصيرة . والإرادة والبصيرة من عمل موجود تراه عيوننا فى السماوات الدائرة والنجم المضىء وفى كل حى وفى كل مظهر » . . وهنا ينطلق روسو يذكر الوجود والموجد بقوة وحرارة إيمان قل إن ارتقى إلى مثلهما كاتب من قبله . وهنا يرتعش أسلوبه تارة وينزل على الماديين غضبه أخرى ثم يرتفع بتصوره إلى ارتباط ما بين الكائنات ارتباطاً لا يمكن حدوثه عبثاً . وهنا يمهد روسو لرجال الكنيسة فى فرنسا السبيل للأمر بالقبض عليه كهرطيق خارج على الكنيسة فيفر من فرنسا ويقابل فى كل مكان باللعنة لهرطقته ولمحاربته قواعد الإيمان .

« هـذا الموجود الذى يريد ويقدر والقائم نشاطه بذاته . هـذا الموجود الذى يحرك الوجود ويدبر كل شىء هو أياً كان شأنه ذلك الذى أسميه الله . وإلى هذا الاسم أقرن صور البصيرة والقوة والإرادة والطيبة التى تترتب حتماً عليها . ولكنى لم أعرف ماهية هذا الموجود الذى أطلقت عليه ذلك الاسم بل هو خفى على حسى وعلى ذهنى سواء بسواء . وأنا كلما فكرت فيه ازددت حيرة واختلاطاً . فأنا أعلم قطعاً أنه موجود وأنه قائم بذاته . وأعلم أن وجودى تابع لوجوده . وأن كل الأشياء التى أعرفها شأنها فى ذلك شأنى . أنا أرى الله فى كل مكان تدل عليه خلائقه . أنا أشعر به فى نفسى وأراه فى كل ما حولى . لكنى كلما حاولت مشاهدته فى نفسه والبحث عن مكانه وعن ماهيته وكيانه غاب عنى ولم ير ذهنى المضطرب من ذلك شيئاً » .

لهذا لا محل للبحث فيما ليس للوصول إليه سبيل . ولهذا انتقل قسيس السافوا للنظر فى أمر الإنسان . فرأى أنه خير الخلائق لأنه من دونها جميعاً هو الذى

(١) راجع ما نشرناه مطولا فى أعداد يناير وفبراير ومارس وأبريل ومايو من مجلة المقتطف سنة ١٩١٧ بعنوان القدرية والجبرية . (نشرت هذه المقالات فى الفصل الرابع من كتاب الإيمان والمعرفة والفلسفة سنة ١٩٦٤ – للمؤلف – الناشر) .

يستطيع ملاحظتها والحكم عليها والتحكم فيها . لكن أفضليته عليها لا تدعو إلى كبرياء ولا إلى مجد وفخر . بل إلى اعتراف بمجد الله وبحسن صنيعه .

هذا المخلوق المفضل . هذا الإنسان الذى يحكم على غيره ويتحكم فيه . هذا الجالس من الوجود فى الذروة إلى جانب عرش خالق الوجود . هذا الإنسان ليس مع سمو مكانه ممتعاً بما يتمتع به غيره من حيوان ومخلوق من سعادة . هو أشقى منها جميعاً . هو الذى يقاسى آلام التفاوت وشقوة الظلم والتعس ، فكيف كان هذا التناقض .

الحقيقة ألا تناقض إلا عند الماديين ، وإنما هو الاختلاف بين الروح والجسد . فالروح تتعلق بالحقائق الخالدة وبالعدالة وبالعالم النفسانى الذى يعيش العاقل الحكيم فى عليا مناطقه . والجسد ينزل إلى حكم الحواس والشهوات وكل ما هنالك مما فى عالم النقص والفساد . . وليس من روح إلا للإنسان . أما الماديون الذين يقولون بأن الحجر يشعر كما يشعر الإنسان وأن القوة ليست إلا مظهراً من مظاهر المادة فإنما يحكمون على الأشياء الروحية التى لا يسهل على العقل الإنسانى دركها حكم الأصم على الأصوات ينكرها لأنه لا يحس بها وهى مع ذلك حاصلة . كذلك ينكر الماديون الروح لأنهم لا يحسون منها ذلك السلطان المصرِّف لحوادث الكون . فكما أن الأصوات توجد برغم إنكار الأصم كذلك توجد الروح برغم إنكار المادى .

تلك تعاليم روسو . ويجب أن يكون الإنسان روحياً ليؤمن بها وليقدر مداها ، كما يجب أن يكون الإنسان سمعياً ليقدر حجج السميع والأصم ويحكم بينهما . ذلك مع وجود فرق بين الحالين ؛ فالسمع حاسة تتصل بالوجود المحسوس فى أثرها وتأثرها . والروح التى يعبر عنها روسو قوة تتصل بالعالم المعنوى من غير أن يكون لها فى العالم المحسوس أثر محسوس .

وجود الروح ينفى التناقض الذى يزعمه الماديون ؛ ذلك بأن الإنسان كما سبق القول مريد مختار . وليس معنى الاختيار الضرب فى تيهاء الفوضى . فأنا بلا شك لست حراً فى ألا أريد الخير لنفسى . ولست حراً فى إرادة الشر لنفسى . وإنما قوام حريتى ألا أريد إلا ما يوافقنى أو ما أراه من غير أن يكون لشىء سواى مدخل فى اختيارى . وليس تفسير الاختيار على هذه الصورة بالعجيب .

فإن الله خلق الإنسان على صورته . والله لا يريد إلا الخير لتعلقه بطبيعة وجوده .
والخير هو التوازن وهو نظام العالم . فالشر خروج على النظام وإخلال بالتوازن .
وهو مهما تعاظم فلن يصل من الإخلال بالتوازن إلى شيء في أمر العالم العظيم . لهذا
لا محل للتساؤل عن سبب عدم مداخلة الموجود الأعلى لمنع هذا الشر ولكبح جماح
الفساد . ولهذا كان الإنسان أكثر اختياراً وأثقل مسئولية .

اختيار الخير أساس السعادة . أما الشر فلا يلد إلا بؤساً وتعساً ، وأحزاننا
ومخاوفنا وآلامنا إنما تصيبنا من عند أنفسنا . والشر الخلقي هو قطعاً من عملنا
كما أن الشر الجسمي لن يكون شيئاً لولا فسادنا الذي يجعلنا نحس هذا الشر
ونشعر به . ألا ترى إلى الطبيعة كيف جعلتنا نحس بحاجاتنا حتى يظل وجودنا .
ألا ترى أن الألم المادي إنما هو آية ارتباك جسمنا والنذير لاتقاء هذا الارتباك .
أما الموت فهو الدواء لما توقعك فيه أعمالك من الشرور . ذلك بأن الطبيعة
أرادت ألا يمتد بك الألم إلى الأبد .

وما أقل ما يلقاه الرجل الذي يعيش عيش البساطة الفطرية من مواضع
الألم ، فهو يعيش من غير مرض ومن غير شهوة وهو لا يتوقع الموت ولا يحس به .
فإذا هو أحسه كان فيه راغباً بقدر حبه في الخلاص من شقوته وآلامه ، وكان لذلك
لا يرى فيه شراً ، ولو أنك خلصت الناس من هذا التقدم المزعوم ومما جره عليهم
من شرور وخطايا ثم لو أنك رجعت بهم إلى عيش الطبيعة ووحيها إذن لأنجيتهم
من الشر ومن العذاب ومن خوف الموت .

واختيار الخير من عمل الروح والارتكاس في الشر من نزوات شهوات الجسد ،
وما ننزل إليه من درك الشر طوعاً بحكم الشهوة وخروجاً على أمر الروح هو الذي
يسرع بجسدنا إلى الفناء وهو الذي يجعلنا نشعر بألم الموت . وأولئك المنعمون الذين
يظلمون الناس ويضربون بالفضيلة عرض الأفق ويزعمون النعيم على هذه الأرض
هم الذين يقاسون هذا الألم أكثر من سواهم ، ذلك عدل الخبير البصير .

يوم تفترق الروح عن الجسد يرجع إليها كامل نشاطها ، فتبدأ بالتكفير
عما سبق لها من ضعف في قياد الجسد ومن خمول في تغليب الخير على الشر .
ويومئذ ترى الروح التي كانت مثقلة الجناح إبان عيش الجسد تحيا حياة طيبة
بعد هلاكه .

« هل الروح خالدة بطبعها ؟ ذلك ما أجهله . فإن عقلي المحدود لا يسع
شيئاً غير محدود . وكل ما لا نهاية له يعزب عني . . وإنما أحسب أن الروح تبقى
بعد الجسد أمداً يكفل حسن النظام . وليس من يدري إذا كان الأمد يمتد إلى
الخلود ، ولكنني إذا قدرت على تصور كيفية هلاك الجسد وفنائه بتشتت أجزائه
فلست أستطيع تصور هلاك كهذا للموجود المفكر . وما دمت لا أستطيع تصور
كيفية هلاكه فأحسبه لا يهلك ، وما دام في هذا الظن لي عزاء وليس فيه ما يتنافى
مع العقل فلست أدري ما الذي أخشاه إذا أنا أخذت به » .

. . إذن فالروح خالدة إن كان الدليل على وجودها مجرد إحساس روسو
أن ليس لديه على هلاكها من دليل .

هذه الروح الخالدة تحيا حياة طيبة بعد هلاك الجسد ، وهي تحيا سعيدة
أو شقية بما قام به صاحبها إبان حياة الجسد من خير أو شر . ذلك بأنها وقد
جاورت الكائن الأسمى وخلصت من هموم الحياة الدنيا ترجع إلى نفسها تحاسبها
عما قدمت ثم تقيسه إلى الحقيقة الخالدة البادية أمامها والتي كانت هي مثالاً لها
على الأرض . . وليس يعلم قسيس السافوا إن كان ثمة جزاء للروح غير السعادة
أو الشقاء في جوار الله . وهو لا يعلم كذلك إذا كان شقاء الأرواح التعسة خالداً .
وهو تكفير ينتهي بالغفران . ولكنه يشعر بأن السعادة في جوار الله خير نعمة تجعل
العيش على هذه الأرض لذة تدفع إلى معالجة الفضيلة ومجاهدة الشر في أثناء
الحياة . . وكيف لا يكون ذلك لذيذاً . وهل لذة في الحياة إلا لذة المجهود الشاق
ينتهي بنعمة السعادة الخالدة .

جزاء الروح نتيجة أعمالنا في الحياة الدنيا . فإذا كانت روحنا قوية فأسمعتنا
صوتها وأخذنا به ظلت سعيدة . وإن كانت ضعيفة فخضعت لحكم الجسد
وأخضعتنا له كانت شقية . . « ذلك بأن الضمير صوت الروح والشهوات صوت
الجسد . فهل عجب أن يغلب على هذين الصوتين التناقض . وإذن فلأي نستمع ؟
ما أكثر ما يضلنا العقل حتى لقد صار من حقنا الثابت أن نرد حكمه . أما الضمير
فلن يضلنا . هو مرشد الإنسان الحق وهو للروح بمكان الفطرة من الجسد ،
فمن اتبعه أطاع الطبيعة ولم يخش ضلالاً » .

الضمير صوت الروح ، والروح من أمر الله ، والله لا يريد إلا الخير ،

فالروح لا تعمل إلا للخير . والروح هى أساس وجودنا وهى القوة التى تبعث الحياة فى الجسد الكثيف . إذن فالخير فى أساس وجودنا . وإذن فالإنسان طيب بطبعه .

الإنسان طيب بطبعه . ما أعز هذه الصيغة على روسو . لقد رأيناها فى خطاب عدم المساواة ورأيناها فى كل ما كتب بعد ذلك . وها نحن أولاء اليوم نراه يدلل عليها تدليلا تجريدياً بعد ما دلل عليها تدليلاً تاريخياً .

وتدليله التجريدى فى أبسط صوره هو على ما رأيت أن الله خلق الإنسان على صورته . والله طيب بطبعه . فالإنسان طيب بطبعه . وليس فى مظاهر الحياة إلا ما يؤيد أن الشر ليس إلا خبثاً يغطى الأصل الطيب إلى حد إخفائه أحياناً ، ولكن من غير أن يحل محله أبداً . وهل رأيت نفساً مهما بلغ من قسوتها إلا متأهبة لعمل الخير عند سنوح الفرصة . وهل رأيتك يوماً وقد أفدت لنفسك بشر جنيته على غيرك إلا حز الندم فى قلبك ، فإذا أفدت غيرك خيراً تريد إفادته إياه رأيتك سعيداً أكبر السعادة . . وهلا ترانا جميعاً نفرح للخير ونجزع للشر ونظهر بالخير ونتوارى من جنى النكر « شأننا فى ذلك شأن الناس جميعاً . التى بنظرك على كل أمم الأرض وراجع كل التواريخ تر أفكار العدالة والأمانة كما ترى مبادئ الأخلاق وصور الخير والشر هى هى بعينها فيها جميعاً : ذلك بأن مبدأ العدالة والفضيلة أصيل فى أعماق النفوس ، ونحن على الرغم من قواعدنا نقيس على مقتضاه أعمالنا وأعمال سوانا وعلى مقتضاه نفرق بين الطيب منها والخبيث ، وهذا المبدأ هو ما أسميه أنا الضمير » . .

هنا يشعر روسو بالاعتراض يوجه إليه من كل جانب . فهو يرى ، أو بالأحرى يشعر ، بأن الضمير هو فكرة الخير القائمة بالنفس الإنسانية من حين خلقها . ويرى لذلك أن الخير والشر والحق والباطل والطيب والخبيث صور وأفكار ثابتة لا يعمل فيها زمان ولا مكان . أما غيره فيقول إن الضمير الفردى ليس إلا صورة وجدان المجموع منطبعة فى نفس الفرد . ولما كانت آى إيمان المجموع أفكاراً نسبية هى الأخرى لأنها ليست إلا التعبير عن أحسن الظروف التى يمكن للمجموع أن يعيش فيها فممكن بل حاصل أن آى الإيمان تختلف من جيل لجيل ومن أمة لأمة . ألست ترى أن النهب والسلب كانا مجداً فى زمن من الأزمان وعلماً على

الفروسية ثم أصبحا من بعد ذلك جريمة تجزى بأشد العقاب . وقد بلغ احترام الملك الخاص مبلغ العقيدة العامة فى الماضى القريب ، وها هو ذا اليوم موضع الطعن والنضال من كل جانب . صحيح أن القواعد الأساسية لحياة الجماعات لم تتغير تغيراً جوهرياً فيما نعلم . وأن الفطرة الحاكمة فطرة الاحتفاظ بالوجود لا تزال توجهنا سبيلنا وتوحى إلينا بطرق سلوكنا . لكن هذه الفطرة ليست من أمر الروح . وهى ليست إلا ملاءمة الجزء للكل الذى يشمله ملاءمة مادية أولاً . وهذه الملاءمة تتغير صورها بتطور وجود الكل . وهذه الملاءمة هى التى تشكل الضمير الفردى على مقتضياتها .

على أن روسو لم يقف أمام هذه الاعتراضات ولم يرد عليها بأكثر من أنها لا تتفق مع حسه وشعوره ، وبأنه ليس محالاً أن تترتب أعمالنا على مقتضى ضميرنا وإدراكنا . ثم قضى عليها قضاء أخيراً بهذه الصيحة الخطابية الشعرية البديعة : « إيه أيها الضمير . إيه أيتها الفطرة الإلهية والصوت السماوى الخالد ، إيه أيها القائد المسكين لمخلوق جاهل قصير مدى النظر حر بصير . إيه أيها الحكم الفارق بين الخير والشر . إيه يا من تجعل الإنسان شبيهاً بالله . أنت الأساس لطبعه الطيب ولتأدب أعماله . ولست أرى شيئاً غيرك يرفعنى فوق البهائم إلا ما امتاز به من الضرب فى الضلال مستعيناً بذهن لا نظام له وبعقل ليس له من أساس » .

لكنه يشعر باعتراض آخر يحسبه ذا خطر . إذا كان الضمير هو صوت الروح والمرشد للخير فلم استعبدت الروح للجسد استعباداً يجعلها فى نضال مستمر معه . وبعبارة أخرى لم كان للشر مثل ما للخير على الأرض من سلطان .

إن القطع فى أمر الاعتراض لا يكون إلا لمن دخل فى علم الله . أما علمنا فيرشدنا إلى أن الشر إنما وجد على الأرض ليكون الخير ولتكون الفضيلة وليكون لمثوبتهما بالسعادة الخالدة فى الدار الآخرة موضع .

ولا سبيل للاستماع لصوت الضمير ووحى الروح إلا بالخلوص من حكم المادة . ولن يكون خلاص إلا بالعودة للحال الطبيعية ، فإن المدنية وأذيالها من ترف ونعيم ومن علوم وفنون ومن فلسفة وتفكير لا شأن لها إلا أن تغشى على الضمير وتحجب وحى الروح وتزيد فى حكم المادة وتقعد بالنفس عن الاتصال بملكوت الله . فإذ نحن نجونا من حكم المادة اتسع نطاق العالم أمامنا وامتدت إلى اللانهاية آفاق

... وجدتنا فى هذه السعة مسرة للنفس وسبيلا للسعادة .

« ولأرتقى قدر المستطاع إلى تلك الحال من السعادة والقوة والحرية جعلت ... نفسى على التأملات العليا . فتأملت نظام العالم لا بغية تفسيره بعبث من ... بل لدوام الإعجاب به وإجلالاً للخالق الحكيم الذى تظهر آثاره من خلاله . ... حتى استغرقت كل قواى فيه وحتى ذقت فضله وباركتنى روحه المقدسة ... لم أصل له ولم أرجه شيئاً . وأى شىء أطلب إليه . . أأطلب إليه أن يغير ... الأشياء من أجلى أو أن يحدث المعجزات لمصلحتى . وهل كنت وأنا أعشق ... النظام الذى أقامه حكمته وأمسكته قدرته لأريد أن يضطرب هذا النظام لفائدتى ؟ ... فإن هذه الرغبة الخرقاء أجدر بأن تجزى منها بأن تجاب . ولست أطلب إليه أن يقدرنى على عمل الخير فما كان لى أن أطلب إليه ما سبق أن أعطاه لى » .

* * *

لاحظ القارئ من غير شك أن قسيس السافوا وهو رجل من رجال الدين لم يأبه إلا فى كل ما قدم من تعاليمه إلا لوحى الضمير وهدى البصيرة . وهذا ما لاحظه ... فى كتاب روسو ، فسأله رأيه فى الوحى والنبوة والرسالة ، فما لبث أن أطلق انطلاقته الأولى حين مجد الله ورآه فى كل أعماله . لكنه انطلق هنا ينفى الوحى والنبوة والرسالة بمثل تلك القوة والشدة ، وهو لم يكتف بنفيها بل جعلها أساساً لعدم التسامح بين الناس ولما جر إليه عدم التسامح من حروب أريقت فيها دماء وأزهقت فيها أرواح وما لا يزال يجر إليه من فتور علاقات الأخوة الإنسانية ... أن تكون .

قال : « يزعمون وجوب الوحى لتعليم الناس طريق عبادة الله ، ويقدمون ... على زعمهم اختلاف الأديان العجيبة التى أقاموها ، ولا يرون أن هذا الاختلاف ... إلى أذواق أصحاب الوحى ، فمن يوم أراد الناس بالله أن يتكلم استنطقه ... على طريقته وجعله يقول ما يريد هو قوله ، ولو أنهم لم يستمعوا إلا لما ... من قوله لما كان على الأرض إلا دين واحد » .

هذا الدين الواحد هو الدين الطبيعى الذى عرضه القسيس فى سابق تعاليمه . ... الوحى فكثيرة ومتعددة ويدعى كل منها أنه دين الهدى والحق . فإذا ... أصحابه كيف عرفتم أن دينكم دين الهدى والحق أجابوك « كذلك قال الله .

وما أدراك أن الله قاله . . إنه قسيسى وهو به عليم » .

عجب أن تكون تلك لهجة المؤمن روسو ، وهو هذا العجب الذى يدعونا لنفصل هنا بعض الشىء رأيه فى أمر الوحى والنبوة من غير أن نعرض له بنقد أو إقرار ولأن نكثر من ترجمة نصوصه التى أضافت فى هذا الباب إلى الصيغة الخطابية التى يمتاز بها أسلوب روسو صيغة تهكمية قد كان فولتير الملحد الساخر أحرى بها وأجدر .

وإنما دعا روسو لهذه اللهجة القاسية ما رآه وهو نصير حرية العقل والفكر من ضرورة مهاجمة سلطان الكنيسة المستبد مهاجمة عنيفة . ولما كان سلطان الكنيسة قائماً على الاستئثار بكلمة المسيح واحتكار تفسيرها واعتبار التفاسير جزءاً منها وردها جميعاً إلى الله فلم يكن النقد البسيط كافيا لزعزعة تيار مستبد زاده مر القرون ثباتاً وقوة . صحيح أن قيام البروتستانتية فى القرن الخامس عشر وانتشارها بعد ذلك هد من ركن الكثلكة فى بلاد شتى . لكن البروتستانتية كانت مذهباً تعبدياً كالكثلكة وكل ما فيها أنها جعلت للشروح والتفاسير الكنائسية مكاناً ثانوياً إلى جانب الكتاب المقدس . فهى بذلك لم تكن إلا ثورة جزئية على النظام القائم . وهى بذلك لم تزد على أن أضافت فرقة جديدة من الفرق المتدينة المتعصبة لمذهبها المستعدة لأن تريق فى تعزيزه ونشره الدماء وتضحى بالمهج والأرواح . وليس هذا ما يريده روسو المتسامح عدو التعصب والجمود ، فلم يكن بد من قيامته فى وجه ما اعتقده أساس التعصب ، وأساس التعصب هو الانحياز الأعمى لشخص ورفعه عن مستوى البشر وتقديسه ثم تأليهه .

« ولولا بناء الدين على الوحى لما كان شىء من هذا التعصب والجمود . فلننظر الآن لهذا الوحى أساس المجازر والفظائع وإن يك عند أهله مهبط الهدى والحق .

« ماذا عندك يا رسول الحق مما لا حكم لعقلى عليه ؟ لقد تكلم الله فاستمع لوحيه ! ذلك شأن آخر ، لقد تكلم الله ، هذا أمر جلل ، ولمن تكلم ؟ لقد كلم الناس . لم إذن لم أسمع أنا شيئاً ؟ لقد ألقى على رجال آخرين ليبلغوك كلمته . . الآن أرى ؛ هم إذن رجال يلقون إلى بما قاله الله ، إلا أنه أحب إلى أن أسمع الله بنفسى . وما كان ذلك ليشق عليه ، وكنت أنا فى حرز من الضلال . لقد حفظك

منه بما ثبت به رسالة أنبيائه . وبم ثبتها ؟ بالمعجزات . وأين هاته المعجزات ؟ في الكتب . ومن وضع هذه الكتب ؟ . رجال . ومن رأى هذه المعجزات ؟ رجال شهدوا بها عجباً . شهادات رجال دائماً ، رجال ينقلون إلىّ ما نقله إليهم رجال غيرهم ، ما أكثر الرجال بيني وبين الله ، فلننظر على كل حال ولنبحث ولنحقق ولنقارن، أو لو أعفاني الله من كل هذه المشقة كنت تراني أقل إخلاصاً في خدمته .

« لنفرض أن العظمة الإلهية رضيت أن تنحط فتجعل إنساناً واسطة إرادتها المقدسة ، أترى من العقل والعدل أن يفرض على الجنس البشرى كله طاعة هذا الرسول ما لم يبين الله للناس أنه رسوله ، وهل من الحق أن يكون كل ما لديه من دلائل الإقناع بعض مظاهر خاصة يقوم الرسول بها أمام نفر من الناس لا قيمة لهم ، ثم لا يعلم سائر الناس عن هذه المظاهر شيئاً إلا بالتناقل والإشاعة ، ولو أنك صدقت من المعجزات ما يقول الشعب والبسطاء من كل أمة إنهم رأوه لكانت كل طائفة هي طائفة الهدى ولكانت المعجزات أكثر من الظواهر الطبيعية عدداً ثم لكانت كبرى المعجزات انعدام المعجزات حيث يكثر المتعصبون الذين يلقون العنت في دينهم ، تلك سنة الطبيعة لا تبديل فيها وهي تدل على حكمة اليد المدبرة للطبيعة ، فلو أن المستثنيات كثرت لضل بي التفكير فيها ، وإن إيماني بالله لأجل من أن أصدق هذا الجم من معجزات لا تليق بحكمته ولا بكرامته » .

ولو أن الرسول الذي يزعم أنه من عند الله بدَّل سنته فأطلع الشمس من المغرب وأخلف نظام الفلك ودك الجبال وغير معالم الأرض لصدقناه أن أتى في الكون بما لا طاقة لغير مبدع الكون به . أما سخريات السحر فلا معجزة فيها ، أو ما ألقى سحرة فرعون عصيهم كما ألقى موسى عصاه فانقلبت حيات كلها ؟ وهل كان السحرة رسلاً صغاراً أو كان موسى ساحراً كبيراً . وإذا عجزت المعجزة عن إثبات الرسالة فكيف تثبت الرسالة المعجزة ، أم تكون بذلك في حال من التداول لا تدل على شيء .

« يجب أن توسم الرسالة الآتية من عند الله بسيما الألوهية . فليس يكفي أن تستثير بها الأفكار المضطربة التي يلهمها التفكير لأذهاننا . بل يجب أن تعرض علينا عبادة وأدباً وقواعد جديدة لما نتصوره من صفات الله . فإذا هي لم ترشدنا

إلا للأشياء السخيفة غير المعقولة ولم تلهمنا إلا عواطف البغضاء لأمثالنا والجزع من أنفسنا ولم تصور لنا إلا إلها مغضباً غيوراً منتقماً محابياً كارهاً للناس إله حرب وضرب . دائم الاستعداد لأن يهلك ويصعق . لا ينفك يقص أمور العذاب والعقاب ويفخر حتى بمعاقبة الأبرياء « إذن لما مال قلبي إلى هذا الإله الفظيع ولحرصت على الديانة الطبيعية لا أتركها لاعتناق ذلك الدين ما دام لا محيص من الاختيار » .

وهذه الرسالات كلها تزعم أنها على الحق وأن غيرها على الباطل . وتذهب إلى رمي من لم يعتنقها بالكفر وتهديده بعذاب الآخرة الغليظ . هذا على أنك لن تستطيع أن ترد إلى دينه رجلاً ولد في دين من الأديان فاختلطت عقائده بلحمه ودمه ثم ظل في سذاجة ولم يجد من الوقت ومن العرفان ما يمكنه من بحث ألوف المجلدات التي كتبت في الديانات المختلفة ليرى أصلحها . ولو أنه بلغ من العرفان هذا المبلغ لما كفت حياته كلها للوصول إلى هذه النتيجة . أفيترك الناس طرًّا أعمالهم وواجبات حياتهم للقيام بهذا البحث العقيم جرياً وراء ما يسمونه سلام أرواحهم وإن هم فعلوا ذلك أتراهم يصلون إلى شيء من هذا السلام ؟ أم تختلط أمام أفهامهم ألوف الصور المضطربة التي وضعها الروحيون والمتكلمون والفلاسفة والشعراء فيزدادون ضلالاً وينتهي بهم الأمر إلى الجنون .

وما قولك فيمن لم تصل لهم الرسالة ؟ أهم يجزون بعدم علمهم ؟ إن ألوفاً من ملايين البشر يدينون بغير المسيحية وبغير اليهودية وبغير المحمدية ، فهل أرواح هؤلاء جميعاً آوية حتماً إلى سقر . وهاته الأديان الثلاثة ؛ أيها على الحق . وما ذنب من ولد مسلماً بإسلامه وما ذنب من ولد يهودياً بيهوديته ؟ !

على أن الإنجيل يخاطب قلب قسيس السافوا ولا يستطيع له رداً ولو كانت حياة سقراط وموته لحكيم فإن حياة يسوع وموته لإله .

« هذا هو التشكك الذي بقيت فيه على غير إرادتي . لكنه تشكك غير أليم لأنه لا يشتمل خطير مسائل الحياة العملية ، ولأني ثابت اليقين في المبادئ المتعلقة بكل واجباتي . فأنا أعبد الله بقلب ساذج ولا أبحث عن علم مالا يقتضيه سلوكي » .

* * *

تلك تعاليم قسيس السافوا وتلك أسس الديانة الطبيعية . وقد أحدثت رجة

عند نشرها انتهت بالقبض على روسو كما سبقت بنا الإشارة وت... فى فصل مقبل . وهذا الدين هو فى نظر العلماء الواقعيين (الوضعيين) ... العقل التجريدى ومظهر احتضار الإيمان القلبى . ذلك بأنك متى ... ورجعت إلى حكم العقل ورددت إلى الفرد حرية التفكير كنت قد ... فرد أن يبحث ويحكم مادام على البحث والحكم قديراً ، ولن تضـ... نظر الباحثين والعلماء مع نظر قسيس السافوا . أو لم ير قسيس السافـ... فلاسفة عصره كانوا على خلاف فى الرأى معه . أو لم ير من بينهم الملحد... والمادى . فأى ضمان له فى إيمان الجميع بالدين الطبيعى الذى يد... هو مادام قد أطلق العقل من عقال الوهم ورفع عنه سلطان الكنيسة فقد ... له الحرية الطبيعية الكاملة . وما دام حرًّا فلن تكون شعريات قسيس السافوا ... مدى نظره . بل سيخلف قسيس السافوا أوجست كومت وداروين وهربرت سبنسر وبرجسن وغيرهم من العلماء والفلاسفة والمفكرين . وسينادى لدانتك بالإلحاد المطلق وبالنفى ، وسيكون ذلك كله مظهر حرية الفكر التى دعا إليها روسو وستكون هذه الدعوة لذلك سبباً لمطاردة الكنيسة إياه بقية حياته .

* * *

إلى هنا عرف أميل الوجود وما فيه . وعرفه بعد ما تكونت ملكاته تكويناً يمكنه من الحكم عليه ، وإلى هنا انتهى دور الطفولة والتربية ، فهل لم يحن الوقت بعد ليتركه أستاذه لنفسه حرًّا ويعمل حرًّا ويعيش حرًّا .

ذلك رأى الأكثرين من علماء التربية ، ولكن حذار من اتباعه ، إن الشاب فى هذه السن أحوج ما يكون للمرشد المخلص الصدوق ، وإذا كان عقله قد بلغ حد القدرة على حكم الأشياء فإن شهواته الناشئة قد تضل حكمه وتفسد تربيته وتدفع به فى أسوأ السبل ، فى هذه السن تنفتح ينابيع الحياة الجنسية إلى حد قد تجرف معه حياة الشاب ثم تذره خاوياً . وفى هذه السن ينفتح القلب للحب ، فما لم يكن له من أستاذه مرشد يهديه السبيل وسط هذه المخاطر زلت به القدم وسط الجماعات وبين الشباب الذى يقدم له المثل السيئ باندفاعه فى تيار الشهوات وإمعانه فى تحصيل كل ما يستطاع منها .

على أن الذين يميلون للنصح إلى الشباب فى هذه السن يرتكبون شتى الأغلاط

ويدفعون الشباب عن غير قصد إلى حمأة اللهو واللذائذ . وأول ما يرتكبونه من ذلك أنهم يلقون على الشباب من أعلى منابرهم قواعد السلوك وكأنما نسوا أن ما يلقى من أعلى المنابر لا يترك من الأثر إلا بمقدار ما يسمح لأول ظرف ولأول فرصة تصادمه بنسيانه ومؤاتاة ما يناقضه . لأن هؤلاء الخطباء يكتفون بإلقاء الفكرة وتعزيزها بحججهم اللفظية ، أما ظروف الغواية فتجر وراءها جنداً من الآيات التى تغرزها وتؤيدها . وتجر وراءها اللذائذ والشهوات والمثل الفاسد لابسة كلها براق ثوب الجمال والظرف والنعمة والمسرة ، أفترى تلك الحجج إلا متطايرة أمام هذه الدلائل الرقيقة ، وهلا تكفى النظرة الضاحكة والابتسامة البديعة والثغر الحلو ولفظه العذب لتنسى الشاب أبلغ الخطب وأطولها .

لذلك يرى روسو وجوب بقاء الأستاذ مع تلميذه ووجوب ملازمته إياه فى هذه السن ملازمة وثيقة . على أنه ينقله هنا من مركز الأستاذية إلى مركز الصداقة ويجعله مع تلميذه بحيث يتباحثان ويتناقشان فى كل أمر من الأمور ، وهذه الصداقة وتلك الملازمة تضمن ابتعاد الشاب عن الأوساط السيئة وما تقدمه من مثل فاسد كما تضمن أن يظل على خلاق حسن .

كذلك من أغلاط الذين يريدون توجيه الشباب توجيهاً حكيماً يحميه مزالق الشهوة أن يبغضوا إليه الحب وأن يجعلوا مجرد التفكير فيه فى تلك السن جريمة حتى لكأنما كان الحب للعجائز ، « وهذه التعاليم المضلة التى يكذبها القلب لا تقنع أبداً . وترى الشاب تقوده فطرته الأمينة ليضحك سرًّا من هذه التعاليم التعسة وإن أبدى الموافقة عليها وينتظر الفرصة التى يعمل فيها على نقيضها ، وهم فى ذلك إنما يواجهون الطبيعة . أما أنا فأسلك سبيلاً يضاد سبيلهم ثم أصل حتماً إلى الغاية التى يريدون بلوغها . فلست أخشى أن أملق فيه العاطفة الرقيقة التى تملأ جوانحه وإنما أرسمها له كأبدع ما فى الحياة من صور السعادة لأنها هى كذلك القلوب لذة الحسن كنت قد كرهت إليه الفجور وجعلته حكيماً أن جعلته محبًّا .

« وإنما أقول للشاب : إن قلبك يحتاج إلى رفيقة فهلم نبحث عمن توافقه ، وقد لا يكون وجودها بالأمر اليسير ، فإن الفضل الصحيح نادر لكنا لن نتعجل

ولن نيأس ، فليس من شك فى وجود من توافق قلبك وستجدها آخر الأمر أو نجد من تقرب منها » .

ويصف روسو لأميل من يحسبها أوفق من تصلح له ويدعوها صوفيا ويسعى وإياه للبحث عنها ، وفى خلال هذا البحث يذهب روسو بتلميذه إلى المجتمعات غير خاش عليه سوء أثرها أن صار بمنزلة تمكنه من الحكم عليها من غير اندماج فيها ، كما أنه وهو فى بدء الصبا يستطيع أن يعرف أخلاق أهلها ووسائل الأخذ والرد معهم وسبل التصرف فيما يعرض أمامه من أمورهم . ولو أنه غشى هذه المجتمعات صغيراً لتكونت فى نفسه عادات قد لا يكون هيناً عليه أن يتخلص بعد ذلك منها . وإنما خطر هذه المجتمعات ما تزينه للشهوات من خادع المظاهر ، لكن إشراف الأستاذ على تلميذه حصن يقيه هذا الخطر وضمان لبقاء سلطان العقل حاكماً كل سلطان سواه . وسلطان العقل يدعو الشباب فى هذه السن لملاحظة الناس ملاحظة دقيقة ، وليس أفتق للذهن ولا أدعى لدقة الملاحظة من الصالونات الجامعة .

« فإذا درس الناس وأخلاقهم فى المجتمع كما درسهم ودرس شهواتهم من قبل فى بطون التاريخ كانت أمامه مواضع للنظر فيما يستهوى القلب الإنسانى وفيما يصده ، وتلك فلسفة مبادئ الذوق ، وهى أليق الفلسفات به فى هذا الوقت من حياته .

« ومجارة ما بين الجنسين هى التى تجعل الذوق الحسن أو القبيح يتشكل بصورة خاصة . ذلك بأن الذوق نتيجة لازمة للغاية التى ترمى هاته الجماعات لها ، لكن الذوق يفسد إذا تيسرت اللذة فابتذل الدلال ، وعندى أن هذا سبب من الأسباب الواضحة التى تبين لنا تعلق الذوق الحسن بالأخلاق الطيبة .

« وأنما يستشار النساء فى الأمور المادية التى يستطيع الحس الحكم عليها كذلك فإنما يستشار الرجال فى الأمور الأخلاقية المتعلقة بالعقل . ولو أن النساء كن ما يجب أن يكنّ لاقتصرن من الأمور على ما كان من خصائصهن ثم لصح عندئذ حكمهن ، اما من يوم أقمن أنفسهن حكماً فى الأدب وأبحن لأنفسهن تقدير الكتب وأكثرن من تأليفها فقد فقدن كل علم وكل معرفة . وليكن المؤلفون الذين يستشيرون النساء العالمات فى أمر كتبهم على ثقة من سوء المشورة . وليكن الظرفاء الذين يستشيرونهن فى أمر زيهم على ثقة من سوء هندامهم » .

هذه المساءة الصغيرة التى وجهها روسو للنساء ليست إلا مقدمة لما سيكتبه فى القسم الأخير من كتاب التربية عنهن وليست إلا أثراً من اقتناعه السابق الذى عرضناه عند الكلام عن خطاب المناظر .

وسيرى القارئ فيما بعد أن صوفيا ستكون خلواً من كل ثوب للإدعاء لأنها ستكون صورة منمقة مجملة لتريزلفاسير .

* * *

ذهب روسو بتلميذه إلى باريس وطاف وإياه فى الصالونات ودرس وإياه أخلاق النساء والرجال وكل همهما من ذلك البحث عن صوفيا ، وقد استغرق ذلك زمناً كافياً لملاحظة الشاب ما لم يسبق إلى ملاحظته من أخلاق أهل زمانه وعوائدهم ، وهو لم يقابل صوفيا كل هذه الأثناء لأنها كما كان الأستاذ يعلم لم تكن مقيمة فى باريس وإنما أراد روسو أن يعرض صور المدنية على تلميذه المطواع ، وما ندرى كيف ضمن هذا الأستاذ ألا يتعلق قلب أميل بباريسية تقابله فى المجتمعات والصالونات قبل الوقت الذى حدده وقرره لمغادرة باريس إلى حيث تقيم صوفيا ، فإذا تعلق قلبه بباريسية رقيقة فما هى الوسيلة لخلاصه ، وهل يضمن روسو إذا هو انتزعه من ملاكه ليقذف به على الملاك الذى أعده له ألا ينقلب ما يريده من سعادته شقوة وتعساً .

لكن أميل ليس إلا رواية التربية ، وأشخاص الرواية هم من خلق خيال المؤلف ، ولخيال المؤلف أن يصرفهم على ما يشاء .

لذلك كره أميل باريس وعظمتها وضجتها وأخلاق نسائها ورجالها وذهب إلى الريف وقابل صوفيا وكان من حظهما أن تعلق قلبه بها كما تعلق به قلبها وأن أعانت الظروف على تيسير خطبة الفتاة له . ولما اتصل الحب بينهما لم ير روسو أن الوقت قد حان لزواجهما ولم ير أن دوره كمرب قد انتهى ، بل أخذ فتاه فطاف به بلاد العالم سنتين تباعاً تعلم الفتى فى أثنائهما لغتين أو ثلاثاً من اللغات الحية وجاس فيهما خلال الممالك المختلفة دارساً طباع أهلها واطلع فيهما على النظم الحكومية لمختلف الدول . وظل خلالهما يكاتب صوفيا وتكاتبه : وما أكثر ما يضرم البعد من لاعج المحبة والشوق وما أشد ما تفعل المكاتبة فى نفس المغرمين .

هذه ملاحظة نقر عليها روسو . فليس يبدو من محبوبك وهو بعيد عنك

إلا حبه ولا تحمل كتاباته إلا أطهر ما فى نفسه وأحلاه . فإذا جد بك الشوق له فانحدرت من مآقيك دمعة على القرطاس الذى يحمل إليه ملتهب شوقك وحار زفراتك رأيت هذه الدمعات حلت فى نفسه كما حلت فى نفسك روحه فكنت إليه أكثر شوقاً وكان هو إليك أكثر هياماً ووجداً . وكذلك تزيد الفرقة الحب ضراماً وتربط القلبين برابطة الهوى والغرام .

قال روسو : « ليست فكرة خلق الحب فى نفس أميل قبل سياحاته من مبتدعاتى » . « إليك الحادث الذى ألهمنى إياها .

« كنت فى البندقية أزور مربى شاب من الإنجليز . وكنا حول المدفأة اتقاء برد الشتاء . وقد تناول المربى خطاباته من البريد وقرأها ثم تلا واحداً منها على تلميذه ، وإذ كان بالإنجليزية فلم أفهم منه شيئاً ، لكنى رأيت الفتى فى أثناء القراءة يمزق أكمام قميصه الجميلة ويرمى بها فى النار واحداً بعد الآخر ، وقد قام بهذا العمل بكل سكون جاهداً ألا يأخذ أحد منه باله ، فدفعنى عجبى لهذه الفعلة أن أحدق به ، فخلته متأثراً ، فانتظرت بالأستاذ حتى أتم تلاوته ، ثم أشرت إلى معصم تلميذه العارى وقلت : أفيمكن أن أعرف معنى هذا ؟

« فلما رأى الأستاذ ما حدث ضحك ثم قبّل تلميذه قبلة الرضا وشرح لى ما أردت بعد أن حصل على موافقة الشاب . قال :

« إن الأكمام التى مزقها المسيو جون إنما أهدته إياها من زمن قريب إحدى سيدات هذه المدينة . وقد تعلم أن خطبة المسيو جون عقدت فى بلده على فتاة يحبها ، وهى بهذا الحب وبأكثر منه جديرة ، والخطاب الذى تلوته هو من أم الفتاة . وسأترجم لك الموضوع الذى أدت تلاوته إلى ما رأيت من إتلاف :

« إن لوسى لا تترك أكمام لورد جون . وقد جاءت بالأمس مس بتى بولدهام وأمضت ساعة العصر معها وأرادت بكل ما فيها من قوة أن تعمل فيما تعمل لوسى فيه . ولما عرفت أن لوسى قامت مبكرة هذا الصباح فوق عادتها أردت أن أرى ما تصنع فوجدتها مشتغلة بنقض ما صنعته مس بتى بالأمس . ذلك بأنها لا تريد أن يكون فى هديتها غرزة واحدة من يد غير يدها » .

وإنى وإن وافقت روسو على هذه الملاحظة إلا أننى لست فى الحق أدرى إذا كان هذا الحب الملتهب بنار الفراق هو الحب الواجب لسعادة الزواج .

فقد ذكر روسو فى الهلويز أن الحب ليس عماد السعادة فى الزواج . كذلك فإن الفرقة والتخاطب يوحيان إلى كل من المحبين بما يحبه صاحبه من حسن . فإذا رأى كل صاحبه بعد ذلك ورأى الحسن تخالطه صدت لم تكن بادية كانت ثمت خطر الانقلاب . وما أتعس محبين استحال حبهم إلى نقيضه . فلا يحسن إذن أن يكون التعارف بينهما تاماً وأن يطلع كل على كل صور نفس صاحبه وحالاته حتى يكونا فيما بعد بمأمن من كل طارئ .

كنت مسافراً من لوسرن بسويسرا إلى إيطاليا ، وكان معى فى ديوان سكة الحديد شاب وفتاة فى مقتبل العمر . وقد تحدثنا وسألت الشاب عما إذ كان هو وعروسه يقضيان شهر العسل . فابتسم وقال إن من عاداتهم فى أمريكا أن يذهب الشاب ومخطوبته فى سياحة طويلة قبل الزواج ثم يبتان بعدها فى الأمر . وهم يسمون هذه السياحة سياحة التجربة . لأن السفر خير ما يدل على أخلاق الشخص وخير ما ينبئ عن ميوله . فإذا اتفق الخطيبان بعد سياحتهما اقترنا معاً وضمنا زواجاً سعيداً تزيده ذكرى تلك السياحة الطويلة سعادة بما تبعثه إلى نفسيهما من صور وخيالات وأحلام وتأثرات مشتركة . وإلا انبتت الخطبة على خير ما يكون الوئام . . وقد قصصت هذه الحكاية على بعض من عرفت من الفرنسيين فى باريس . فوافق على الفكرة وذكر أن سياحة شهر العسل بعد عقد الزواج كثيراً ما تبين عن أخلاق غير محمودة عند أحد الزوجين ، وكثيراً ما تكون بدء النزاع فى حياة الزوجية . ولست أدرى إذا كان روسو قد وقف على هذه العادة الأمريكية ، ولكنى على يقين من أنه لو وقف عليها لما أقرها ، لا لتطرفها فى الحرية ، بل لأنها تعطى المرأة حق الحكم على الرجل . وهذا ما لا يرضاه لجنس أول واجباته عنده طاعة الرجل والخضوع له .

ولما انقضى الوقت الذى رآه روسو لازماً لسياحات أميل عاد به إلى صوفيا . واقترن الشاب بالفتاة . ومع ذلك ظل الأستاذ على مقربة منهما . « حتى إذا كان بعد أشهر دخل أميل إلى غرفتى وقال وهو يقبلنى : هنئ فتاك يا أستاذ ، إنه يأمل التمتع بشرف الأبوة عما قريب ، ألا ما أكثر ما سيلقى على عاتقنا من صنوف العناية وما أشد احتياجنا إليك . وما أريد علم الله أن أدعك تقوم بتربية الابن بعد ما قمت بتربية أبيه . فما أريد أن يقوم غيرى بهذا الواجب الحلو المقدس حتى لو أتيح لى أن أحسن الاختيار له بمقدار ما حسن الاختيار لى . لكن كن أنت

… لة الشبان . فانصح إلينا ووجهنا وسنكون طوع يدك . إنني سأبقى … لك ما عشت . وأنا اليوم أشد ما أكون لك احتياجاً أن ابتدأت أعمال … أنت . وقد قمت بما عليك . فأرشدني لأسير على سنتك . واسترح … الوقت الذي يحق لك فيه أن تستريح » .

… العبارة هي ختام كتاب التربية . وقد آثرنا ألا نذكر من الكتاب الخامس … روسو لتربية الفتاة إلا ما خص أميل وسنطرح أمام نظر القارئ … ملات على طريقة التربية التي اتبعها روسو مع فتاه ثم نعود إلى تربية … روسو فيها .

* * *

… ثماني سنوات من نشر أميل كتب أحد المهذبين إلى روسو يقول له إنه اتبع … التربية مع تلميذ له فرد عليه روسو يقول : « لئن صح أنك أخذت … التي جاهدت لرسمها في أميل فما أشد إعجابي بهمتك فإن عظيم ذكائك … على أن هذه الطريقة يجب الأخذ بها كلها أو تركها كلها ، وإن خيراً … أن تأخذ بطرائق التربية المعروفة فتصوغ فرداً كالأفراد من أن تأخذ ببعض … الطريقة فلا تصوغ إلا رجلاً خائباً . . وأنت من غير شك لا تجهل المجهود … التي تكفلت به . فأنت مدى عشر سنوات صفر بالنسبة لنفسك ، … ك بكل مواهبك إلى تلميذك . فالعناية والصبر والثبات هي الصفات … التي لا تستطيع أن تتخلى لحظة عنها من غير أن تتعرض لخطر إضاعة … إضاعة تامة . ولحظة قلق أو إهمال أونسيان كافية لتنزع منك ثمرة … عشر سنوات ثم لا يكون لك أن تسترد ما فقدته ولو أجهدت نفسك … أخرى . ولعمري لو أن شيئاً استحق صفة البطولة والعظمة بين أعمال … نجاح مثل ما أقدمت عليه . ذلك بأن قيمة النجاح تتناسب دائماً مع … الحصول عليها من مواهب وفضائل . . . » .

… : « لن يستطيع الإنسان أن يعبر بأحسن من هذا عن أن … بحتة لا تقوم إلا كما تقوم قصور الوهم وهي من سهولة … لا يمكن اعتبارها إلا تصوراً جنونياً ورواية وهمية » .

… أن هذا النقد صحيح في مجموعه . فأين نعثر على هذا المهذب

المتفاني في إخلاصه ، والبالغ من الفضيلة والطهارة أقصى الحدود ، حتى ليقصر جهوده عشر سنوات بل عشرين سنة متوالية على تربية طفل واحد . وهل يستطيع هذا الأستاذ مهما بلغ من حذقه ومهارته أن يغير من طبع الطفل أو أن يحجب الموجودات عن أن تؤثر فيه على غير ما تؤثر في سواه وعلى غير ما تؤثر في الأستاذ نفسه . ألم نر أخوين شقيقين بل ألم نر توأمين أحياناً يسلكان في التربية والتعليم سبيلا واحدة ثم تختلف نتيجة التربية عند أحدهما عن نتيجتها عند الآخر . فكيف بك تنتظر النتيجة التي قدرها روسو لكل تلاميذ روسو مهما اختلفت وراثتهم وطبائعهم وميولهم . كيف تنتج عند النبيه ما تنتج عند البليد وكيف تنتج عند العصبي ما تنتج عند اللمفاوي . ما هو هذا الامتياز السحري الذي يجعلها تسوي بين طبائع البشر وقد أبدعت الطبيعة بينها من صور الاختلاف والتفاوت ما يقصر العقل عن تصور مداه .

ما نشك كذلك في أن طريقة روسو تحوي شتى المتناقضات . فهو يزعم أنه يخلي بين الطفل والطبيعة مدى سني التربية السلبية . وقد رأينا أن ما يلجأ إليه من الوسائل الصناعية يجعل هذه التخلية وهما من الأوهام كما يجعل تربيته أبعد عن الطبيعة من كل تربية سواها . وما ندري بعد ذلك سبباً لفضل وسيلته على غيرها من الوسائل المتبعة عند الطبقات الراقية في البلاد المتمدينة وبخاصة في إنجلترا ؟ ثم لا ندري بعد ذلك ما الجديد فيما كتبه ولم يسبقه إليه مونتني أو الفيلسوف الإنجليزي لوك [1] إلا أن تكون صيغة الكتابة وتعاليم قسيس السافوا وإلا قلب بعض الأفكار قلباً روائياً مدهشاً .

قال فيلمن : « لن ينكر أحد على روسو بلاغته ودقة تحقيقاته عن الطفولة الأولى . لكنه كان أقل نجاحاً في كلامه عما بعد الطفولة . وهو برغم تكراره : انظر كيف يفوق تلميذي تلاميذكم – لا يبين للقارئ ما بين نتيجته والوسائل التي أدت إليها من صلة . صحيح أن ما يعود روسو عليه تلميذه من كثرة الرياضة بالغ في الحسن . لكنا لا نرى بعد ذلك كيف حصل التلميذ على ما يدعيه روسو له من صفات وأخلاق . والحق أن المؤلف ينقض الطرائق المتعارفة بأحسن مما يثبت

(١) راجع كتاب التربية لسبنسر وسر تقدم الإنجليز السكسونيين لدمولان .

به صلاحية طريقته [illegible] طريقة مؤدية حتماً بالتلميذ ليكتشف العلم بدل أن يتعلمه . هذه [illegible] وهي غير ممكنة . وأنت لا تفتأ ترى الأستاذ يوسوس إلى تلميذه [illegible] له . فمن نزهة يضل فيها الطفل لعدم معرفته وجهة السير إلى [illegible] عن التملك » .

لست أرى حقاً [illegible] روسو على ما يدعيه أستاذه من صفات له وأخلاق . بل لقد [illegible] الشك في نجاح طريقة روسو في غير موضع من مواضعها . فكيف [illegible] المسلوب الإرادة إلى الخامسة والعشرين من عمره ذا إرادة قوية بعد [illegible] وكيف يعشق الحرية من بقي مقيداً تهذيبه من أول أيامه لا يرى إلا بعينه ولا [illegible] إلا بأذنه ولا يفكر إلا بعقله ولا يتصور إلا بخياله . ألا تراه متى خرج بعد ذلك إلى [illegible] الحياة وفاجأته شدائدها وغواياتها كان أبعد إيغالاً في الضلال عمن سواه . فإذا هو اتصل بأحد أولئك العصاميين الذين عصرتهم الكوارث من نعومة أظفارهم وخرجوا من بين مخالبها صلباً عودهم قوية شكيمتهم استسلم له وألقى إليه مقاليده فبادره وخاب في الحياة سعيه وكان من الخاسرين .

شرع روسو بعد نشر الأميل في تأليف رواية أسماها (أميل وصوفيا أو المعتزلين) ولم يتمها . على أن ما ظهر منها يدل على شك منه كبير في تفوق طريقته في التربية على الطرائق المتبعة . فقد تزوج أميل من صوفيا وأولدها غلاماً وعاشا زمناً في الريف بين مناظر الطبيعة الساذجة ، ثم انتقلا إلى باريس وخالطا جمعياتها وامتزجا بأهلها . وبعد زمن أبت الزوج على زوجها أن يقربها ، وظلت كذلك شهوراً تقلب هو فيها على [illegible] . ثم ألح على زوجته في المسألة فقالت له : « تنح يا أميل عني فقد [illegible] فراشك وتركني حاملاً . وما كنت لتقربني بعد ذلك ما عشت » . ففر أميل [illegible] اليأس وظل في يأسه زمناً حتى إذا ذكر دروس أستاذه طابت نفسه [illegible] ، وأعجب منها بما بقي لها من فضيلة الصراحة بعد الكبوة فغفر لها [illegible] أخذ فتاه وارتحل حتى نزل عند نجار اشتغل معه آملاً تخفيف آلامه [illegible] وإجهاد قواه . لكن الأم لم تقدر على مفارقة ابنها . فسارت حتى إذا [illegible] المصنع نادت بصوت مستعبر وهي تنظر إلى ابنها الثاني : « كلا إنه لم [illegible] أمك . فتعال نبتعد فليس لنا هنا مستقر » .

عند ذلك ترك أميل لها غلامه وهاجر إلى الجزائر فأخذه الوالي عبداً ثم أدناه منه وكرم مجلسه .

قال حول لمتر : « هنا تقف الرواية فنسائل أنفسنا : ماذا أفاد أميل من تربيته الخاصة إذ كان قد عاش عيش سواه بعد ما جاء إلى باريس . وربما ينكر روسو غرائب طريقته بعد ما وضعها كما أنكر من قبل غرائب خطابيه عن العلوم وعن التفاوت ، وهو يخفف من الحدة التي ظهرت في كتابه ضد طرق التربية المتعارفة كما خفف من حدته ضد المناظر بعد إذ نشر خطابه لدالمبير عن المناظر .

ولم يكن لروسو في الحقيقة بد من هذا الإنكار والتخفيف فقد كان يغلو غلواً غير معقول أول ما تختمر فكرة في رأسه . فإذا واجهه الناس بعقولهم ومعروفهم ارتبك ولم ينجه من ربكته إلا نظام التقهقر أبدع فيه وبرع حتى كان الناس يظنونه في تقهقره منتصراً .

لكنه كان يترك بعض الأفكار الغريبة العزيزة عليه تمر من غير أن يمسها في أثناء تقهقره بسوء . ففكرته في أن يبدع الطفل العلم من غير أن يتعلمه ليست أقل أفكاره غرابة ، وهو مع ذلك بها مدله وعليها حفيظ . وكأنما يريد بكل إنسان أن يبدأ جهود القرون الماضية ليكشف ما كشف الجدود من أسرار الوجود . وبديهي أن هذه الأسرار لم تسلم مفاتحها إلا بعد أن أخذت عنوة وبعد ما تجندل تحت أسوارها ألوف الشعراء والفلاسفة والكتاب والعلماء المنقبين . فكيف يذرها روسو تغلق أبوابها من جديد دون فتاه قانعاً بأن يوسوس له منها بشيء من صور النجوم وظاهرات الطبيعة .

لا يريد روسو أن يجيب عن هذا الاعتراض إلا بما أجاب على ما وجه لخطاب العلوم والفنون من الاعتراضات . وهو بعد ما كتب أميل لا يزال يرى أن السعادة الخالدة في أحضان الطبيعة لا تحوجها العلوم بل هي تقص من أطرافها . وإذا لم يكن من هذه العلوم بد فقليلها يكفي ، أما الفنون فلا .

وأغرب الأفكار العزيزة على روسو فكرته الأساسية . فهو يزعم أن الإنسان طيب بطبعه . وهو يرتب على هذه الطيبة كل نظامه في التربية . يكفي عنده ألا تدع موضعاً ينفذ منه الشر إلى نفس الطفل لتنجو به ولتكون قد كونت رجلاً طيباً .

قال قاسم أمين : «يولد الإنسان شريراً خبيثاً قاسياً محتالا كذوباً . الولد الصغير لا يعرف إلا نفسه ولا يرى إلا نفسه ولا يحب إلا نفسه ولا يألم إلا من نفسه وفيه أثرة هائلة لا حد لها . هذه العيوب تنمو مع الطفل وتبقى فيه حتى يصل إلى سن الرجال فيتعلم كيف يخفيها ، يحسن ظاهره ويستر باطنه . أعظم ما تنتجه التربية الجيدة إذا استمرت بلا انقطاع هو أن تقطع من النفس فروع هذه الشجرة الخبيثة ولكنها لا تستطيع أن تقلع جذورها » .

استغرق النظر فيما إذا كان الإنسان طيباً بطبعه أو خبيثاً بطبعه جهوداً لا تقل عن الجهود التي أنفقت في بحث الخير والشر ومصدرهما ومآلهما . وأثار بحث المسألة من الجدل ما أثار بحث غيرها من المطلقات التجريدية الأخرى . وعندنا أن كل هذا البحث والجدل عقيم . وليس الإنسان طيباً بطبعه وهو ليس خبيثاً بطبعه . وإنما هو ذرة في دائرة الوجود قضى عليها بالحياة الإنسانية ولا تعلم لهذا القضاء سبباً ولا تفهم للحياة غاية ولا تدرك للوجود غرضاً . وهي تعيش حيًّا في انتظام مع غيرها من ذرات الوجود . وكلما زاد انتظامها طابت حياتها . ولذلك كنا نعتبر خير حالات الحياة وأسعدها أكثرها مع حياة مجموع الوجود انتظاماً وأكثرها لها ملاءمة . . صحيح أنا لم نعرف بعد ، وقد لا نعرف أبداً ، ما يجب علينا لكمال الانتظام حتى نبلغ كمال السعادة . ونحن لا نزال نفتش وراء هذه الغاية بالاستفادة مما يكشف العلم عن صلات الأشياء بعضها ببعض وعن صلتنا بالأشياء وباستيحاء إلهامنا الغريزي الناشئ من شعورنا بأثر الأشياء فينا وأثرنا فيها شعوراً لما نعرف مظاهره وأسبابه . فإذا أمكن حصول هذا الانتظام ، وقدر أنه حصل ، يومئذ نكون قد بلغنا غاية التقدم ويومئذ تسترد الإنسانية الفردوس المفقود .

لكنا ولما نصل من التقدم لشيء إلا أن يكون سراباً لا نعرف له وجوداً فإن الخير والشر والحسن والقبح والطيبة والخبث وما إليها من أشباهها لا تزال في حيز المطلقات التجريدية . كل ما عندنا من علم بها ليس إلا حدساً وضعناه على قدر معارفنا الناقصة الضيقة الدائرة ووضعناه بمقدار اقتضته ضرورات الحياة وظروف العيش . قد يكون هذا المقدار النسبي قريباً من الحقيقة المطلقة — إن كان للحقيقة المطلقة وجود — وقد يكون بعيداً عنها ، بل على النقيض منها . ذلك أمر لا نعلمه ولا يستطيع أحد أن يقطع فيه برأي .

من ثم كان بناء التربية على تقدير الطيبة الطبيعية أو الخبث الطبيعي بناء واهن الأساس . وإنما التربية تهيئة الناشئ للعيش في الوسط المحيط به عيشاً يقربه من فكرتنا في السعادة قدر المستطاع . ولما كانت هذه الفكرة مستفادة من العلم بالوجود الخارجي علماً قائماً على الملاحظة والاستقصاء ، ومن الإلهام النفساني فيما لم يحكمه العلم بعد ، فوجب أن نطرح الصور المادية التي كشفت قواعد العلم عنها للإنسانية أمام حس الطفل كي تدخل في دائرة معارفه وكي يكون إلهامه النفساني أقرب إلى مظنة الصواب فيكون هو أقرب إلى السعادة .

سهل بعد ذلك أن يشعر الطفل بأن كثيراً مما يقع تحت حسه إنما كان من عمل الإنسان . وأن مثل هذا الكثير مثل الشجرة الكبيرة يتمتع هو بثمرها وإن كان فضل غرسها لغيره . وسهل كذلك أن يتصور ما أنفق لتحصيل هذه الغاية من الجهود على مر الأجيال . فإذا هو شعر بذلك وتصوره ، قدر ما للإنسانية عليه من فضل ، وشعر بأنه مدين للماضي بسعادته وطمأنينته في الحاضر . ورأى أن أداء هذا الدين الواجب الأداء إنما يكون بمواصلة جهود الماضي لتقريب الإنسانية من تمام الانتظام في مجموع العوالم كي تتحقق غايتها وتتم لها السعادة .

من هنا تنشأ فكرة الواجب . وليس الواجب إلا أداء ما تراه ديناً عليك . وقد ذكر أميل فاجيه أن روسو لم يلهم فتاه هذه الفكرة ولم يرب في نفسه إرادة الوفاء . وقد يكون هذا صحيحاً . قد يكون صحيحاً أن روسو لم يقو إرادة فتاه إطلاقاً وإنه لم يشعره بما للماضي عليه من فضل ودين واجب الوفاء . لكن لروسو عذره . فهو يعتبر جهود الماضي جهوداً ضالة أفسدت الإنسانية ونشرت الشقاء ومكنت للتعس . وهو يرى في السكون إلى الطبيعة والركون إلى الطمأنينة الخالدة وسيلة السعادة . وهو يرى أن تقوم الفضيلة على أساس من الإشفاق والرحمة بالإنسانية المعذبة الدائمة الأنين .

قال : إنما يتكون الجنس الإنساني من سواد الناس . أما ما ليس سواداً فهو من القلة بما لا يحرك العناية لحسابه . . ولو أن الغني كان أكثر من الفقير شقوة وتعساً لما دعا ذلك للإشفاق عليه . فإنما تعسه من عمله وسعادته في يده . لكن شقوة البائس من عمل الأشياء ومن قسوة الحظ الذي يثقل كاهله . ولا سبيل لنزع إحساسه المادي بالتعب والهمود والجوع . ولا تجدى الحكمة ولا يجدى الذكاء

لأوثه من هموم مركزه . . احترم جنسك واذكر أن أساس تكوينه مجاميع السواد وأنت إذا نزعت منه الملوك والفلاسفة فلن يكون لانتزاعهم أثر ولن يتأثر سير الوجود . وبالجملة علم فتاك حب الناس جميعاً وألا يكون من طبقاتهم فى واحدة منها بل فيها جميعاً . وحدثه عن النوع الإنسانى بمحبة وإشفاق . وإياك ولفظ التحقير . فما كان للإنسان أن يثلم شرف الإنسان » .

ظاهر هنا أن روسو جعل الرحمة والمحبة أساس الخلق . وظاهر أنه أوحى للأستاذ بأن يلهمها فتاه على أنها بعض مظاهر الوجود الطبيعية ، لا على أنها قواعد تواضع الناس عليها ، وذلك لكى تنغرس فى نفسه كما تنغرس صور الموجودات المادية التى تقع تحت حسه . ومتى انغرست أنتجت بعد ذلك كل ثمرها حتماً . ومن ثمارها فكرة الواجب على معنى خاص . فإذا لاحظنا مع فاجيه أن فكرة الواجب طبيعية فى الإنسان كان هذا المعنى الخاص توجيهاً لها إلى وجهة قد لا تتفق مع رأى نيتشه Neitche من وجوب تطبيق مبدأ تنازع البقاء على أقسى صورة فى الجماعة الإنسانية ، ولكنها من غير شك تتفق مع النظرية المسيحية نظرية التفانى والإخاء . وما كان لنا مع ما نعلم من شدة إخلاص روسو للمسيحية برغم نفيه النبوة والرسالة أن نطالبه بالأخذ بنظرية غير نظريتها .

وما دام روسو قد أقام أساس الخلق على الرحمة والمحبة فمن الخطأ كذلك رميه بأنه أراد لطفله أن يبقى جاهلا قواعد الخلق حتى الثامنة عشرة من عمره . وهو إنما أراد أن يأخذ الطفل بهذه الظواهر على أنها وسائل الحياة العملية من غير اضطرار للمقاربة بينها ومقارنتها واستنباط القواعد منها حتى لا يكره ذهنه الضعيف على النظر فيما لا يطيق هضمه . فإن الذهن كسائر الأعضاء وكالمعدة إذا أهمل فسد ، فإذا أعطى بمقدار حاجته قوى وطلب المزيد . أما إن أرهقته أتلفته التخمة وقلّ أن يعود إلى شىء من الصلاح . ومقدار حاجة ذهن الناشئ مشاهدة الأشياء وظواهرها ، فإذا هو أحاط بكل منها منفرداً جد فى مقارنتها . فإذا أبدت له المقارنة أوجه الشبه وصور الخلاف بينها فكر فى الاستفادة من هذه الوجوه والصور لوضع قواعد يصدر عنها . وقد لا تستقل هذه العملية الذهنية عن سائرها إبان التدرج من الصغر إلى الشباب . لكنها على كل حال تحتاج إلى المعونة على هذا الترتيب . فقرض المشاهدات ، ثم تقريب المتوافق والمتخالف ، وأخيراً الإعانة

على استنباط القواعد . وهذا ما فعله روسو حين وضع فكرة التربية السلبية ثم الإيجابية ثم الحوار والجدل .

وليس يصح لشاب بحث نظام قواعد يسير فى الحياة إلا فى الحال الأخيرة من حالات التربية . ذلك أنها نتائج المشاهدات والمقارنات استنبطها الذهن بعد بحث وتمحيص . والبحث والتمحيص لا يكونان إلا بعد أن تكمل للذهن قوته . ولو أنك وضعت أمام الذهن هذه القواعد على إطلاقها ولما يتم نضجه إذن لكنت كمن يثقل معدة الرضيع بالغذاء الدسم يريد به أن يسرع إلى النمو فلا يكون من وراء عمله إلا تخمة الطفل تخمة قد تودى بحياته . وما نشك فى أن البله العام الذى يصيب أكثر طبقات الإنسانية إنما سببه ما ألقى على أذهان أهلها ولا تزال فجة ضعيفة من أحمال لا طاقة لها بها . لذلك أصابها الهزال برغم استمرار نمو الجسم وصرت ترى رءوساً كأنها رءوس الرجال تعمرها أذهان لا تزيد قوتها على أذهان الأطفال .

وهذا هو ما حدا بروسو ليترك الفلسفة والدين وقواعد الخلق جانباً لا يلقى بشىء منها إلى فتاة قبل السادسة أو الثامنة عشرة من العمر . تلك كلها مضاربات نظرية اقتضى الوصول إليها جهاد أصحاب الأذهان الناضجة والنبوغ العقلى مدى أجيال كثيرة . وهم لم يصلوا إليها إلا بعد أن كشفوا من دقائق مخبآت الأشياء عما لا يقع تحت حس الطفل . فإلقاء هذه النظريات والدقائق إليه يفسد ذهنه بل يتلفه .

ولما كانت حاجة الطفل لمشاهدة الأشياء هى الحاجة الماسة فى المدة الأولى من طفولته ، ثم لما كانت حاجته لمقارنتها هى الحاجة الماسة بعد ذلك مباشرة ، فإن إضاعة وقت الطفل فى قراءة الكتب صرف له عما يعوزه . إنما تحتوى الكتب صور الأشياء لا حقائقها . وتحتوى منها وجهاً خاصاً قد يكون أقل وجوهها استلفاتاً لنظر الطفل . وفى قصر الطفل على الصور دون الحقائق خطر كبير . فإن مشاهدة الأشياء على حقيقتها تبعث فى النفس نشاطاً لاستجلاء هذه الحقيقة . كما أن المقام بين الصور يجعل الطفل ينمو خيالياً محباً للأوهام متطلعاً إلى ما يرسمه له ذهنه على الورق لا إلى ما تمليه عليه الموجودات من صور الواقع . والحياة واقع لا خيال وحقيقة لا وهم فالتعلق بالخيال والوهم ليس يصلح للحياة . لكن ترك الطفل يشاهد الأشياء زمناً ثم يقارنها زمناً آخر ثم يستنبط القواعد

والأحكام منها بعد أن تتكون عنده ملكة التفكير يحتاج إلى وقت طويل قد لا يتسنى للكثرة المطلقة من الناس الذين يضطرون لكسب حياتهم . هذا اعتراض يوجه إلى مذهب روسو . وهو اعتراض وجيه لا على التربية كمذهب ولكن على التربية كوسيلة لكسب العيش . قال فاجيه : « إذا كان مرمى التربية سرعة كسب وسيلة للعيش كما هو الحال حتماً وضرورة لأغلبيتنا العظمى ، فيجب أن تكون التربية عملية أو إن شئت مادية إلى درجة أكبر . وليس معنى ذلك أن هذه التربية العملية هى التربية الصحيحة أو التربية الحسنة . تلك تربية سيئة بل هى ليست تربية إطلاقاً . إنما هى مران يخلق العامل المتقن ولا يجعل الطفل رجلا . وما دامت الحالة الاستثنائية الطيبة التى اختارها روسو تجعل الطفل غير محتاج لكسب العيش فيكفى أن يحتاط له بتعليمه حرفة يدوية يستطيع الكسب من طريقها إذا ساء حظه . أما ما خلا ذلك فتربية عامة كلها تثقيف الذهن ورياضة العقل ونماء حسن التقدير ورفعة القلب – وأن يكون وسيلة ذلك : الحديث الطويل الجد الدقيق مدى عشرين سنة مع حكيم تعينه. كتب قليلة . وتلك هى التربية الصحيحة ، فليس العلم غرضها وإنما غرضها تفتق الذكاء . يسير عليك بعد ذلك أن تحصّل ما تحتاج إليه أو تشتهيه من علم وأن تحصله سريعاً . صحيح أن هذه التربية لا تؤهلنا لنضال العيش . لكن أصحاب هذا النضال لم يكونوا موضع تفكير روسو »[1] .

ظاهر من كل ما سبق أن مذهب روسو فى التربية مذهب غير ممكن تطبيقه . وظاهر أن فى كتاب التربية آراء تستحق النقد وأخرى خاطئة الخطأ كله . وظاهر كذلك أن مجموع فكرة روسو فى التربية بديع عظيم وأن الكتاب يحتوى من الأفكار ما جعل المسيو مارتن يكتب عنه فيقول : « برغم ما أثارت بعض أجزاء أميل من اعتراضات عليه فالكتاب يكاد يكون أعمق بحث وحد فى لغتنا وفى غيرها من الكتب الحديثة عن الطبيعة الإنسانية . وهو قطعاً أكثر الكتب دفعاً للتفكير فيما لا يكون تفكير المؤلف فيه صواباً . وإنك لفى حل من أن تقول غير مبالغ إن هذا الكتاب كان سفين سلام ألقى بها القدر على أمواج مذاهب التشكك والمادية وإنه جمع بين دفتيه كل العواطف والمبادئ الأساسية للحياة الأخلاقية التى

(١) راجع أميل فاجية « القرن الثامن عشر » ص ٣٦٨ – ٣٦٩ .

كانت على شفا الهاوية . وليتصور الإنسان القرن الثامن عشر خلواً من روسو ثم ليسائل جاداً مخلصاً أبان كان ينتهى سير العقل الإنسانى » .

هذا المقام الكبير الذى اعترف به الكتاب جميعاً لكتاب روسو وتلك الأفكار الجمة التى قررت حقوق الطفل كما قرر العقد الاجتماعى حقوق الإنسان هو الذى أدى بنا لنفيض فى عرض الكتاب كل هذه الإفاضة ولو أن روسو كان دقيقاً فى شأن المرأة دقته فى شأن الرجل كريماً معها كرمه مع أمثاله لعرضنا قسم أميل الأخير مع ما سبق عرضه . لكن روسو كان خصماً لحرية النساء لأنه كان شديد الولع بهن . وخصومته تدعونا لأن نفرد الفصل الآتى للكلام عن الكتاب الخامس من التربية (صوفيا أو المرأة) .

٣

استأثر الرجال كبراً وغروراً بحق الحكم على كل شيء . والمرأة بعض الأشياء التي استخضعوها لحكمهم . فما لها من حق وما عليها من واجب رهن أمرهم وطوع إشارتهم . وقد بالغوا في ذلك حتى بلغوا في بعض العصور أن جعلوا حياتها وحريتها بيد بنيها بل بيد مواليها . وكانوا ولا يزالون في بعض الأحيان يدفنونها حية مع زوجها الميت . وهي لم تصل بعد إلى التمتع بكل الحقوق التي يتمتع بها الرجل قانوناً وفعلا في أي بلد من البلاد . ومن يدري إذا كانت ستصل إلى هذا المقام يوماً من الأيام .

لم هذا ؟ لأن الرجل قوي الساعد والمرأة ضعيفته . وللقوة بحكم الطبيعة حق لا يمكن إنكاره . واستعمال حق القوة يتكيف حسب الأزمنة والأمكنة بصور مختلفة : فحيث الرجل معرض لفتك الأقوى تراه يفتك بالأضعف . وحيث تحول حيلة الرجل دون فتك غيره به تراه يجعل للحيلة حقًّا يقف دون الفتك . ولو ملكت المرأة يوماً من وسائل الحيلة ما يعجز الرجل عن كشفه لخضع الرجل لسلطانها ولأقر لها بحق التحكم فيه .

لكن الرجل في حاجة إلى المرأة . لذلك كان يرعى مع استبداده بها حرمات لها غير قليلة . وكان يرعى جانب الرأفة واللطف ليصل منها إلى غاياته . كذلك فالمرأة أم الرجل وأخته وزوجه ومحبوبته والرجل أبو المرأة وأخوها وزوجها وحبيبها . وهذه صلات تمنع عليه أن يقسو بها إلى الحد الذي يقسو عنده القوي بخصمه الضعيف ، وتقضي عليه حتماً أن يرتب علاقاته معها ترتيباً يضمن لكل منهما سعادة متبادلة من غير أن ينزل القوي عن عرش قوته .

وقد كانت المرأة ولا تزال ترى من الرجال هذا الاستئثار بالحكم ، وكانت ولا تزال تسخر منهم لما هم فيه من باطل الغرور وما هم عليه من كاذب الكبرياء . وهي تسخر منهم لأنها تشعر من جانبها بأن قوتها أبعد من قوتهم أثراً وإن كانت أقل ظهوراً . قوتهم كقوة الحيوان الضخم يجر العربة وهو كلما ثقل حملها اشتد

بنفسه اعتزازاً وإن كان أكثر أمام عربته اهتزازاً . وقوتها كقوة الكهرباء لا تقع عليها العين وهي تهز العوالم وتدك الرواسي وتزعج الآلهة .

ولم يفت الرجال على عظيم تبلدهم أن يشعروا بهذه القوة . وقد خيل إليهم لما أرادوا التخلص منها أن القمع والقسر يخفف من آثارها . فألزموا المرأة عقر دارها ومنعوها من الاختلاط بالعالم مخافة أن يزيد هذا الاختلاط في سلطانها ؛ وحبسوا عنها ما كشفوا من قوى الوجود لتبقى ضعيفة بجهلها . فلم يغن ذلك عما أرادوا شيئاً . إذ رضيت المرأة بالنصيب الذي قدروه لها مقابل أن استخضعتهم لحاجاتها واستذلتهم لشهواتها وجعلت منهم مطى رغائبها وأهوائها . وكذلك كان الفوز في هذا النزال القديم الخالد بين المتحابين المتنافسين لسلطان المرأة الرقيق .

على أن شيئاً من النور قد بدأ يدخل إلى عقول الرجال المتبلدة ، فبدءوا يشعرون بأنهم يزيدون في سلطانهم على المرأة إذا هم تركوها تصادم الوجود وتحتال لنفسها على اتقاء قسوة صدماته . ولما كانت المرأة هي ابنة الرجل قبل أن تكون امرأة ذات وجود مستقل ، فقد فكروا في إعدادها لهذا الصدام كما يعد الرجل ؛ حتى إذا خرجت إلى الصدام فلم تكف نظراتها وبسماتها ودلالها ورقتها لتلين من جلمود قلب الوجود ورأت ألا مفر من الاستعانة بالرجل الغليظ ليشدد من لينها ويقوى من ضعفها أدركت ما له عليها من يد وجميل وراعت القصد فيما كانت تعنته من قبل فيه من حاجاتها وشهواتها ورغائبها وأهوائها .

وبين هذين الموقفين – موقف القسر في عقر الدار وموقف جلاد الوجود – كانت المرأة ولا تزال تتردد .

وأشد الرجال عسفاً بالنساء وأكثرهم حرصاً على إخضاعهن هم أشدهم تعلقاً بهن وأحناهم ضلوعاً عليهن . هؤلاء العشاق للجنس يرون المرأة كالزهرة إن عرضتها للافح الهجير أو قارص الزمهرير ذبلت وزال جمالها . وهم يرونها كالغزال إن قوي أستأسد فزال عنه ما جعل لهم عليه السلطان . وهم يشعرون توهماً ما لها من ذكاء وحيلة فيخشون أن تنقلب الحيلة سياسة توجه بها المرأة الرجل حيث تشاء . وهم يرون لذلك إمكان زوال ملكهم وهم أحرص من أن يرضوا زواله .

وقد رأى القارئ مبلغ تعلق روسو بالنساء وهيامه بهن هياماً دفعه إلى أعمال

الجنون فى شبيبته وفضح مستور حياته فى رجولته . فلا بدع إذن أن يكون رأيه فى تربية النساء فألا فاضحاً فى جنونه . هذا مع الاعتراف بأن للجنون منطقاً لا يقل عن منطق العقل دقة ، وبأن فى اندفاعات الجنون إلهامات حتى لا يصل إليها منطق العقلاء .

يقول أميل فاجيه رداً على اعتراض الذين يذهبون إلى عدم جواز تعليم المرأة إلى حد تتساوى عنده مع الرجل أو تفوقه فيه : (لن يكون تعليمها كذلك شراً بل يكون هو عين الحكمة . فإنما يكفى الرجل أن يتقن حرفة للكسب وأن يحسن أداءها وأن يعمل على حد قول الأمريكيين – لكسب المال لامرأته : أما المرأة فمدبرة للمنزل ، عليها واجب ألا تسرف فى المال . وذلك أشق كثيراً من كسب المال . وهى زوج يجب عليها ألا تضايق زوجها وأن تعمل الذهن لتنشيطه وتشجيعه وأن تقدم له النصيحة الطيبة التى لا يعنى سواها بتقديمها وأن تنجيه من ملال الحرفة بما تتبادله معه من حديث ذكى طريف إن لم يجده فى بيته ذهب إلى النوادى باحثاً عنه فيها . وهى أم مكلفة بأن تدخل إلى نفس أبنائها الأفكار العامة الأولى ذات الأثر الدائم مدى الحياة . فهى من أجل ذلك ولتحسن صنعا يجب أن تكون أذكى بكثير من الرجل وأن تصل من العلم إلى استغلال كل ما يحتويه هذا الذكاء وكل ما كان ممكناً أن يؤديه) .

هذه الكلمة من أميل فاجيه نقدمها ليرى القارئ إلى أى حد يريد أكابر الكتاب أن تصل المرأة . وهى كلمة كتبت فى سنة ١٩٠٩ أى قبل نشوب الحرب العالمية بخمس سنوات . أما بعد إذ رأى العالم ما قدم النساء من جليل الخدم للإنسانية فى حرب دامت رحاها دائرة مدى سنوات أربع بلا انقطاع ولا هدنة ولا ملال فقد أصبحت كلمة فاجيه أكثر من أن توصف بالاعتدال واعترفت الأمم للنساء بحق التقدم حتى فى السياسة إلى مصاف الرجال .

لكن روسو يرى ذلك هذراً وهزواً . إن المرأة لم تخلق للعلم ولا للحكمة ولا للتفكير ولا للفن ولا للسياسة . وإنما خلقت لتكون أماً تغذو أطفالها بلبنها وتتعهد ضعفهم بحسن عنايتها وتسلمهم من بعد ذلك للأب أو للمربى يعنى بهم على نحو ما توحى به الطبيعة . وترجع هى للقيام بوظيفة الأمومة فتضع وترضع وتتعهد لتعود فتضع وترضع وتتعهد من جديد . وهى وأطفالها دائماً فى عنق الرجل يقوم

عليهم ويكد لهم ويربيهم ويهيؤهم للحياة بحسب الإلهام الطبيعى .

إذن فالعانس والأرملة ومن نكبت بزوج آخر : كل أولئك لا يدخلن فى حساب روسو . وربما كان جوابه إذا سئل عنهن إنهن خرجن على نظام الطبيعة فلا مكان عنده لهن .

وما دامت الأمومة هى الوظيفة الطبيعية للمرأة ثم ما دامت فى عناية الرجل وقوامته . وما دامت الطبيعة قد جعلت بذلك بينهما من الفروق ما يجعل الكلام فى المساواة بينهما سخافة مضحكة . ما دام ذلك « فإن المرأة الكاملة والرجل الكامل لا ينبغى أن تتشابه أذهانهما إلا كما تتشابه وجوههما .

« والجنسان فى اجتماعهما يعملان للغرض المشترك ولكن لا على طريقة واحدة . ومن هذا الخلاف ينشأ الفرق الأول المميز للعلاقات الخلقية بين واحد الجنسين والآخر . فيجب أن يكون أحدهما ناشطاً قوياً والآخر مستسلماً ضعيفاً كما يجب أن يريد أحدهما ويقدر على حين يكفى الآخر بعض الشىء من المقاومة .

« ومتى استقر المبدأ ترتب عليه أن المرأة خلقت خصيصاً لتسر الرجل فإذا وجب على الرجل أن يسرها بعد ذلك فتلك ضرورة أقل ظهوراً . فإنما فضل الرجل فى قدرته وهو إنما يسر المرأة بقوته » .

وما دام هذا الاختلاف الطبيعى قائماً فمن خطل الرأى سلوك سبيل واحدة فى تربيتهما . إنما التربية تنمية الملكات الغريزية التى أوجدها القدر لملاءمة الوجود ووجود المرأة ليس هو وجود الرجل فملكاتهما الغريزية تختلف وإذن فيجب أن ينمى فى كل ما يعاونه على الحياة التى أعد لها والتى تختلف جد الاختلاف عن حياة الآخر .

« بل إن كل الملكات المشتركة بين الجنسين ليست موزعة بينهما على نسبة واحدة وهما فى المجموع يتعاوضان . فالمرأة أحسن كامرأة منها كرجل . وهى كلما أرادت أن تتمتع بحقوقها كان لها الفضل . فإذا أرادت أن تغصب حقوقنا بقيت دوننا . ولن يستطيع الإنسان أن يعترض هذه الحقيقة العامة إلا بمستثنيات يعتمد عليها أصحاب المصلحة من أنصار الجنس الجميل » .

وإنك لترى مصداق ما تقدم فيما تلاحظه من ميول كل من الجنسين أول ما يبدأ التمييز عندها . فترى الفتاة ميالة للزينة تمضى كل نهارها حول عروستها .

تغير مئات المرات من ملابسها وتدأب فى البحث عن صور جديدة من زينتها سواء أكانت هذه الصور قبيحة أم حسنة . وهذه العناية التى تبذلها الفتاة فى تجميل لعبتها ليست إلا مظهراً لكمين ما فى نفسها من ميل للزينة لا تستطيع رده على نفسها فتخلعه على تلك اللعبة التى تتصرف فيها . فإذا بلغت من العمر حداً يجعلها تقدر على تجميل نفسها رأيت عنايتها وقد انصرفت رويداً رويداً عن عروستها ورأيتها أنفقت كل ما أوتيت من ذكاء وجهد لتبدو فى أجمل مظهر تمكنها الطبيعة من الظهور فيه .

وقد يسهل عليك بعد ذلك أن تستنتج ما تقدم من أن المرأة خلقت لمسرة الرجل ، كما ترى أن وجود المرأة خاضع لحكم الجماعة عليها لا لاعتباراتها الخاصة ولا لآثارها الشخصية . فهى مهما وجدت فى تجميل ذاتها من السخرية ومن إضاعة الوقت لا تستطيع أن تهمل جمالها ، وإلا بدت فى حال من الكآبة يمجها معها الناس جميعاً . وهى كلما أضافت إلى جمالها زاد الناس إعجاباً بها وتقديراً لها .

إلا أن وظيفة الأمومة هى الوظيفة الطبيعية للنساء جميعاً . وهى لا شك فى حاجة إلى تجميل المرأة نفسها حتى يعنى بها الرجل الذى أعدته الطبيعة لها . ولكن ثمة إلى جانب كمال الجمال ما تحتاج إليه حياة الزوجية والأمومة من معارف . وإدارة البيت ليست بالأمر الهين لذاته . فيجب أن يعنى بصحة المرأة حتى تنشأ قوية على احتمال مشاق الأمومة كما يجب أن تتعلم ما تحتاج إليه تلك الإدارة من معلومات ومن صنائع . فإذا أتقنتها تعين عليها أن تعرف الموسيقى والرقص تسر بهما زوجها وتدخل بهما إلى بيتها من معانى النعمة ما لا غنى عنه .

لكن التعليم الذى يريده روسو للمرأة لا يتعدى درجات المعرفة الأولية البسيطة . لقد رأيته فى تربية أميل يطعن على الكتب وعلى العلوم وعلى الفنون ويريد فتاه شاباً قوى البناء سليم الجسم حسن الإدراك قديراً على معرفة الأشياء وحسن تقديرها من غير حاجة لدرس علم خاص أو التبحر فى بحث شيء من الأشياء . وقد رأيته يعتبر المرأة مخلوقاً ضعيفاً مستسلماً وجد فى الحياة متاعاً للهو الرجل ومسرته . وخلق ضعيف العقل كما خلق ضعيف البدن . فهو لن يرى بعد ذلك فى تعليم المرأة إلا سخافة وسخرية .

« يقولون : إنه لا يجدر بالرجل ذى التربية أن يتصل بامرأة لا تربية عندها . إلا أن فتاة بسيطة فجة التربية لأحب إلى من فتاة عالمة ذات ذكاء وخاطر تجىء فتقيم فى بيتى سوق أدب تجلس هى على رأسه . فإنما الفتاة ذات الذكاء والخاطر وباء زوجها وأبنائها وأصدقائه وخدمه ووباء الناس جميعاً . ذلك بأنها وهى فى سماء نبوغها الرفيع تحتقر كل واجباتها كامرأة وتبدأ تريد أن تكون رجلا . فينظر الناس إليها بعين الزراية ويوجهون إليها مر النقد عن حق . ولن يسلم إنسان من النقد ما خرج عن الدائرة التى هيأ القدر له المكان فيها ليدخل إلى دائرة لم يتهيأ بها . وكل هاتيك النسوة ذوات الملكة والموهبة الكبيرة لا احترام لهن إلا عند الغفل البلهاء . فالناس يعرفون دائماً من هو الفنان أو الصديق الذى يمسك بالقلم أو بالريشة حينما يعملن . فإذا كان للمرأة مواهب حقة دنس غرورها مواهبها . فإنما كرامة المرأة أن تبقى مجهولة ومجدها فى احترام زوجها ومسراتها فى سعادة أسرتها . وإنى إليك أيها القارئ أحتكم . إذا أنت دخلت إلى غرفة امرأة فأى الأمرين أحسن عندك أثراً وأدعى بك لاحترامها . أن تراها عاكفة على أعمال جنسها معنية بأمور بيتها محاطة بملابس أبنائها أو أن تلقاها تكتب الشعر على منضدة زينتها تحيطها كتب من كل الأنواع وتذاكر نقشت على كل لون ؟ ألا لو كان الناس جميعاً عقلاء لوجب أن تبقى كل فتاة متعلمة فتاة طول حياتها » .

وما للمرأة والعلم . « إن البحث وراء الحقائق المطلقة والنظرية ووراء قواعد العلم وكل ما يرجى لنشر الأفكار ليس من خصائص المرأة . إنما يجب أن تقتصر معلوماتها على ما يحتاج إليه العمل . وهى المكلفة بتطبيق ما يجده الرجل من المبادئ . أما خواطر النساء فيما لا يمس واجبهن فيجب أن تنصرف إلى معرفة الرجال أو إلى المعلومات الرقيقة التى تتعلق بالذوق وتقتصر عليه . وذلك بأن مظاهر النبوغ تتعدى مدى مرميهن . وأن ليس لديهن من الدقة والانتباه ما يكفل النجاح فى العلوم الدقيقة . كذلك فن المعارف الطبيعية أو المادية هى من متناول أكثر الجنسين عملا وأكثرهما مراناً وأحوطهما بالأشياء نظراً وأشدهما قوة وأقدرهما لقوته استعمالا يزن بها ما بين الكائنات الحسة وقوانين الطبيعة من صلات وروابط » .

ليس للمرأة من العلم إذن فائدة . والمرأة مخلوق أوجده القدر للهو الرجال ومسراتهم فيجب لذلك أن تعنى بدرس الرجال . ويجب أن تتفنن فيما يجلب للرجال

المسرة ويملق ذوقهم ويجب أن تنظر للأشياء وأن تتصل بها وأن تمارسها بمقدار ما يرضى الرجال – فإذا هى نجحت فى ذلك فقد أدت الواجب الذى خلقت له . وأما إن هى تعدته وجعلت لنفسها شخصية مستقلة وأرادت أن تتصل بالعالم والكائنات عن غير طريق الرجال فقد ضلت سواء السبيل .

وماذا يرضى الرجال . إن الإجابة عن هذا السؤال غير ميسورة . لأن للرجال فى كل زمان ومكان ميولهم وأذواقهم وشهواتهم . وقد وهبت الطبيعة المرأة ملكة لا تراها عند الرجل إلا لدرجة قليلة . تلك هى دقة الملاحظة . فإذا أنت رضت هذه الملكة فيهن من نعومة أظفارهن رأيتهن سريعات إلى معرفة ميول الرجال وأذواقهم وشهواتهم سريعات إلى إرضاء هذه الميول والأذواق على طريقة تبلغ من الدقة عند المرأة الكاملة ما يخلق بينها وبين الرجل أرق العواطف وأرق الإحساسات

وما دام رضا الرجل هو غاية تربية المرأة فيجب أن تسلك معها سبيلا غير الذى سلكته فى تكوين أميل . وقد رأيت أن أميل لا يجب أن يكون ثرثاراً وأن يقصد إلى الفائدة من عمله . ورأيت أنه يجب عليك لتسكت الفتى أن تسأله : ما الفائدة من ذلك . أما الفتاة فلا يصح إسكاتها . إنما تسأل عن الأثر الذى يحدثه كلامها . ويجب أن تعود الكلام الرقيق والرد الدقيق وحسن العبارة وجميل الإشارة وما إلى ذلك مما يجذب قلب الرجال فيكرسون حياتهم لفخر المرأة المحبوبة ولسعادتها .

كذلك « ما دام سلوك المرأة خاضعاً لرأى المجموع فيجب أن تخضع عقيدتها للسلطان العام بأن تعتنق كل فتاة دين أمها وكل امرأة دين زوجها . ولو أن هذا الدين الذى تعتنقه كان لغواً فإن خضوع الأم والأسرة طائعين لحكم الطبيعة يمحو ما فى الخطأ من ذنب عند الله » .

وليس القصد من اعتناق الفتاة دين أمها أو زوجها أن تجعل الدين موضع بحثها وإنما القصد أن يحل محل العقيدة منها لهدايتها وإرشادها . « ويجب لذلك أن تحتفظ ببناتك فى أضيق حدود قواعد الخلق وأن تدخل إلى نفوسهن أن ليس لشىء مما نتعلمه فائدة إلا ما دلنا على الوسيلة لفعل الخير ، وألا تجعل من بناتك متكلمات منطيقات وألا تعلمهن من أمور السماء إلا ما يفيد الحكمة الإنسانية وأن تعودهن الشعور دائماً بأنهن بمرأى من الله ومسمع ، وأن يتخذنه شهيداً على

أعمالهن وأفكارهن وفضائلهن ولهوهن ، وأن يعملن الخير غير مترددات لأنه يحبه ، وأن يحملن الضر قانتات فلهن عنده جزاؤه ، وأن يكن فى كل يوم من أيام حياتهن مطمئنات لما قدمن وأن هن تقدمن له . تلك هى الديانة الحقة ، وهى وحدها البعيدة عن كل غلو وضلال وتعصب ، ومهما دعا الداعون إلى ما يحسبونه أرقى من ذلك وأسمى فهى عندى الوحيدة التى أقر بها وأعترف » .

لكن روسو كان قد رأى ألا تعرض على أميل أية عبارة عن الدين قبل الثامنة عشرة من عمره . وكان قد علل ذلك بأنه قبل هذه السن لا يستطيع فهم قواعد الدين . فكيف به وهو يرى المرأة أضعف من الرجل عقلا يسارع إلى تلقينها عقيدة أمها وزوجها ويطالبها بالوقوف عندها والإيمان بها .

وقد رد روسو على هذا الاعتراض الواضح بقوله : « من الجلى أنه إذا قصر باع الذكران من الأطفال عن أن يكونوا لأنفسهم فكرة صحيحة عن الدين فأحر بالفكرة أن تكون فوق متناول تصور الفتيات . ولنفس هذا السبب أرى أن أحدثهن عنها فى سن متقدمة . ذلك بأنه لو وجب أن ينتظر بهن حتى يستطعن مناقشة هذه المسائل العميقة مناقشة ضيقة فقد يبقى الإنسان أبد الدهر ثم لا تحين هذه الفرصة » .

على أن الاعتراض السابق ورد روسو عليه يثيران مسائل شتى . فكيف يتأتى أن تعرض مسائل الدين على الفتاة وتحجبها عن الفتى . وهو إذا سمع أمه تخاطب أخته عن الدين أو رآهما تصليان لم يستطع أن يمنع نفسه من النظر فيما يفعلان فإن أنت حاولت منعه وإلزامه الطاعة فإنك تدخل إلى نفسه أحد إحساسين : إن الدين من السخافات التى وضعت للنساء فلا يصح الأخذ به ، أو أن فى متناول أخته ما لا يستطيع هو إدراكه . وفى الحالين تكون قد هيأت متاعب للمستقبل قد لا يسهل اجتيازها .

لكنك إذا غرست قواعد الدين فى نفسه من نعومة أظفاره عرضت نفسك إلى خطر آخر فهو إما أن يتعصب لما عرفه من الدين لأنه عرفه ولما يستطع فهمه . وإما أن ينزل عنه يوم يبلغ أشده أن يرى فيه شيئاً لا يقره عقله .

ومن هنا تنشأ صعوبة يتخطاها روسو ولا يعيرها كبير اعتبار . وهى عندنا صعوبة خلقها روسو بوضعه المرأة فى مستوى منحط عن مستوى الرجل بكل هذه

المراحل. ولو أنه لم يتأثر بادعاء السيدات دعيات الأدب والفلسفة فى عصره ونظر فى الأمر نظرة أكثر رفقاً وأعلى حكمة ولم يعمه عشقه النساء لرأى أن الفارق بين المرأة والرجل ليس بمقدار ما خيل إليه وأن اختلاف وظائفهما فى الحياة التناسلية لا يقتضى كل هذا التفريق فى طرائق تربيتهما . وهو ما دام قد قرر وجوب تربية الشاب والفتاة تربية جسمية متينة واعترف بضرورة إعدادهما لمعرفة ما فى العالم فإن أدوات التربية الجسمية كأدوات المعرفة متعادلة للجنسين . وإنما هو استعدادهما الذى يوجه كلا بعد ذلك فى طريقه .

وهل يحسب روسو أن الفتيان جميعاً من نوع واحد فى الاستعداد . أو لو عالج غيره الموسيقى إلى سن الأربعين كنت تراه يفشل فشله . وهل من يعالج التحرير والأدب من نعومة أظفاره ينجح نجاحه وهو لم يعالجهما إلا بعد الأربعين . ولكن روسو عاش فى عصر كان للمطلق وجود فيه . فبحث هو عن المطلق من ناحيته وخيل إليه أنه وجده فى تلك الأفكار الضئيلة الضيقة التى شغلته مدى حياته فنسج حولها من بدائع الأدب ما بقى ليخلد على حين تلاشت تلك الأفكار مع تلاشى المطلق أمام تقدم النظر العلمى .

من هذا المطلق اعتقاده أن المرأة خلقت لمسرة الرجل ولهوه . وأنها لذلك مكلفة أن ترتب حياتها لتنال رضاه . ولسنا ندرى مبلغ صحة هذا الرأى أمام ما أثبته العلماء من أن الذكور من أنواع الحيوان تسعى لاستغواء الإناث برائع جمالها . ويشتد بها هذا السعى إبان فصل النتاج . فذكر الطير يباهى بريشه وبرخيم صوته . وذكر الوحش يباهى بقوته وجماله . وتضعف الأنثى أمام الاستغواء وتخضع له ويكون التناسل نتيجة هذا الضعف والاستغواء .

على أن روسو لم يلاحظ شيئاً من هذا . بل أمعن فى رأيه من أن المرأة متاع الرجل . وأن الفتاة يجب لذلك أن تراض على الخضوع من أول أمرها . « فإنما الخضوع شأن النساء بحكم الطبيعة حتى ليشعر الفتيات إنما خلقن والطاعة أول واجباتهن . وإذن فلا حرج على المربى فى إكراههن وقمع حريتهن . ولا جناح عليه إذا عاقبهن . وإن من نتائج هذا القمع ما نرى فى النساء من مرونة هن فى حاجة إليها فى حياتهن . فهن دائماً فى قوامة رجل وهن دائماً طوع حكم الرجال . وليس لهن أن يضعن أنفسهن فوق حكم الرجال » .

ومجمل الأمر عند روسو أن المرأة تابع من توابع الرجل يجب أن تأخذ الصورة التى ترضى الرجل ، وروسو يجعل نفسه مقياس هذا الرجل الذى يجب أن ترضيه كل امرأة . فهو يضع أمام نظره ما مر به من تحكم النساء فى أمره وتسلطهن عليه وعجزه أمامهن ويريد من المرأة التى تربى على ما يريد ألا تكون مثاراً لشىء من هذا التحكم ولا ذلك السلطان وألا تعرض الرجل أياً كان لما تعرض له روسو من ألوان الألم والعبث .

وقد مر بك ما لاقاه روسو من النساء . مر بك مبلغ حبه لهن وعجزه أمامهن ومبلغ استخفافهن به مع عطفهن عليه استخفافاً وعطفاً كان ينتهى به إلى كراهيتهن والفرار منهن واحدة بعد الأخرى . فهو لم يطق مدام دبناى ولا مدام دودتو ولا مدام دلكسمبور ولا واحدة من السيدات ذوات النبل والكرم وصاحبات الفضل عليه . كلا بل لم يطق « أمه » وخليلته مدام دفارانس . لأن هاتيك جميعاً كن متعلمات وكن يجعلن من حياته موضعاً للعبث به . لذلك يجب أن ينتقم لنفسه من جنسهن . ويجب أن تكون النساء جميعاً من صنف تريزلفاسير جهالة وغباء لأن تريزلفاسير وحدها هى التى استحقت تفضيل روسو على رغم ما كان يجده فى غبائها وبلهها من عجب وبرغم ما كانت تفتن فيه أمها من أساليب الخداع للاحتيال على سلب ما يكسبه هذا البائس العظيم من المال القليل .

فأنت ترى أن روسو كان ذاتياً صرفاً حين معالجته موضوع تربية المرأة . وشأنه فى ذلك شأن المغرمين بالنساء جميعا. فكل مغرم بالنساء إلى حد الهيام ، أو إن شئت فقل مع أميل فاجيه إن الكثرة المطلقة من هؤلاء المغرمين الهائمين ليسوا من أنصار النساء . فهم لا يريدون أن تحصل المرأة على أى صفة من صفات الرجولة وإنما يريدونها مخلوقاً خاضعاً متعلقاً بهم ضعيفاً الضعف كله محتاجاً لأن يسر الرجل غير محتاج إلا لأن يسره . وذلك أمر طبيعى ، فالمغرم بالنساء إنما يقصد إلى غاية واحدة هى امتلاك المرأة امتلاكاً بالفعل . وامتلاك المرأة عسير إذا كانت ذكية عالمة عارفة بشئون الحياة قادرة نفسها حق قدرها شاعرة بأن لها وجوداً مستقلا عن وجود الرجل وإنها فى حل من أن تنافسه فى الحياة إذا هو أراد أن يدخل معها ميدان المنافسة . مثل هذه المرأة القوية النفس لن تسمح لأحد بامتلاكها . بل لعلها تسعى هى لامتلاك الرجل أو لعلها تريد أن تساويه وأن تكون وإياه فى مستوى

واحد فهي صاحبته وصديقته ما دام وفيًّا مخلصاً وما دام بينهما من تبادل الحب والاحترام ما يديم المحبة والصداقة ، وهي غنية عنه غير مبقية عليه إذا انقطع الوفاء أو ذبل الإخلاص . وما كان لهذا المدنف المدله أن ينصح الناس ليجعلوا من المرأة هذا المخلوق العسير الامتلاك . ولا كان له أن يخلق أمام أهوائه وشهواته صعاباً وعقبات قد لا يتغلب عليها وبخاصة إذا كان حيًّا عاجزاً ضعيف الحيلة بمقدار ما كان روسو . فلتكن المرأة إذن جاهلة ساذجة ولتكن رقيقة مطواعة حتى يتيسر لهذا الأحمق روسو أن يمتلكها وحتى يأمن عبثها به وحتى يستطيع إن أراد أن يحبسها في صومعته فلا تشكو الحبس ولا تطلب الحرية التي أباحها الله للناس ليتمتعوا باستجلاء محاسن خلقه وليشاركوا الوجود مشاركة حرة تزيد حياتهم وحياة الوجود قوة ونماء .

* * *

أترى الناقد لرأي روسو في هذه المسألة يرى أن يؤخذ في تربية الفتاة بما يؤخذ به في تربية الفتى . أتراه يذهب إلى وجوب تدريب الفتاة على جلاد الوجود حتى إذا صارت امرأة كان لها أن تقف من الرجل الموقف الذي تختاره هي وألا تخضع لما يقسرها الرجل عليه . لعل الجواب ليس من السهولة بحيث يكتفي فيه عن نقد رأي بالأخذ بنقيضه . وهل كان إنكار الشيء اعترافاً بضده إلا عند العقول الساذجة البسيطة . إن إنكارك على شيء أنه أسود لا يقتضي أن يكون هذا الشيء أبيض . فإن بين السواد والبياض من مختلف الألوان ما يجعل التحديد عسيراً وإن كان الإنكار يسيراً . ونفيك أن أمراً وقع ليلا لا يقتضي حتماً أنه وقع نهاراً . فساعات السحر وساعات الشفق تشارك الليل في ظلمته والنهار في نوره . فإذا كان ذلك هو الشأن في أمر المرئيات التي تقع تحت حسّنا فما بالك بغير المرئيات من متناول الأفهام . بل ما بالك بمسألة كالتربية ليس يكفي فيها الحس وليس يكفي فيها التفكير ولا تقطع فيها التجربة برأي ما دام معنى التربية البلوغ بالإنسان إلى خير حال يتلاءم فيها مع الوجود الذي خلق فيه ملاءمة تجعله أكثر ما يمكن متاعاً بالوجود وسعادة في الحياة من غير أن يكون متاعه وسعادته حملا على الوجود ولا عيالا على أهل هذا الوجود .

ما بالك بمسألة كالتربية يختلف النظر إليها من زمن إلى زمن ومن قطر

إلى قطر ، تتأثر بالطقس وبالجو وبالمصادفات السعيدة أو التعسة التي توجد فيها أمة من الأمم بل بالمصادفات السعيدة أو التعسة التي يوجد فيها الفرد . أليس من الحق أن يقال في التربية ما قيل في الطب : ليس ثمة أمراض وإنما ثمة مرضى . كذلك ليس ثمة تربية وإنما ثمة أشخاص يجب تربيتهم .

من المتعذر إذن أن تضع قاعدة مطردة للتربية عامة وأصعب منه أن تضع قاعدة لتربية الفتاة . ذلك بأن المرأة كجنس لم تصل بعد إلى موقف محدد في أمر ما لها وما عليها . وإذا كان الرجال لا يزالون يتوقعون صوراً من التطور في شئونهم فهم يرسمون لهذه الصور حدوداً وهم يقدرون لهذه الحدود مواقع . وفي مقدور الفكر أن يتوسم إمكان حدوث هذه الصور أو استحالتها . وأن يتوسم مدى هذا الإمكان وأن يرتب عليه نتائجه . ولكن التطور في شأن المرأة لا يزال على حال تجعل قرار الفكر عنده عسيراً . لأن الفكر لا يقر على غير مستقر إلا حدساً . فإذا رأيت الكتاب يرسمون قواعد لتربية المرأة فلا تحسبنهم واقفون عندها إلا الزمن الذي يقتضيه انتقال المرأة إلى طور جديد . وقد يطول هذا الزمن وقد يقصر . لكن عسيراً على كل حال أن تعرف ما ستكون علاقة المرأة بالرجل في هذا التطور الجديد . وعلاقتها بالرجل وحظها إلى جانبه من الحرية ومقدار تعلقها به أو استقلالها عنه ، ذلك هو ما يجعلها توجه تربيتها إلى خير ما يصلح للرجل ولها .

ونحن نحسب مع ذلك أن خير ما يضمن تطور المرأة إلى الخير أن تربى حرة مطلقة الإطلاق كله . فهي إذا عودت مكافحة الوجود طفلة استطاعت كفاح الاجتماع امرأة . وهذه القوة النفسية التي أراد روسو أن يمتلئ بها فؤاد أميل يجب أن تغرس في نفس الفتاة . لأن المرأة أضعف بنية من الرجل . وكل أنثى أضعف بنية من الذكر . فهي في حاجة لأن تكون قوية النفس حتى لا يجتمع عليها ضعفان . ضعف الجسم وضعف الفؤاد .

لقد انصرفت جهود الرجال في الماضي ليزيدوا المرأة ضعفاً وليشعروها بأن لا سبيل لسعادتها ولطمأنينتها في الحياة إلا عطفهم عليها وبرهم بها . وهم يبيعونها هذا البر وذلك العطف في مقابل خضوعها لهم . لذلك فسدت ملكاتها ولجأت إلى الخديعة والحيلة . ولو أنهم جعلوها تدرك دائماً أن قوة النفس تعدل قوة الجسم لكان لها أن تقف وإياهم في ميدان الحياة تعاونهم أضعاف ما تعاونهم

اليوم – فإذا أرادوا الاعتداء عليها جزتهم عن العدوان عدواناً . وليس أحفظ للسلام من تعادل القوى . كما أنه ليس أحفظ للدولة من العدل بين أفرادها .

انظر كم بلغ فساد المرأة بسبب عسف الرجل بها وإضعافه نفسها إلى حد انحطت معه عن الحيوان . إن أنثى الحيوان لا تسلم نفسها للذكر إلا لتلد . أما المرأة فتسلم نفسها للرجل لتنال عطفه . وأنثى الحيوان لا تتملق الذكر ولا تتزين له – لأن نفسها أقوى من شهواتها . وذكر الحيوان هو الذى يملق الأنثى ويتزين لها فينفش شعره أو ينشر ريشه أو ينشدها أغانيه الرخيمة . أما المرأة فهى التى تملق الرجل وتتزين له وهى التى تحرك فيه ضعف نفسه ليعطف على ضعفها .

أما تعليم المرأة فأمر يرجع الرأى فيه إلى البيئة التى تنشأ فيها وإلى مبلغ حاجاتها من العلم . ولست أدرى لم نحصر الفتاة فى دائرة ضيقة من المعارف . إنما العلوم التى يتلقاها الناشئ إبان شبابه وسيلة لكشف ما فى الحياة من جمال ولاستغلال ما فى الوجود مما يزيد الحياة قيمة . فلم لا نضع هذا السلاح فى يد الفتاة . لم لا نمهد لإدراكها السبيل لكشف مختلف ما فى الحياة من صور الحياة . وهى بعد ذلك متوجهة حتما إلى ما تسوقها طبيعتها الخاصة إلى التوجه له من هذه الصور . وما دمت قد حصنت نفسها وأزحت عن ذهنها ذلك الستر الذى يحجب ما كشف عنه العلم فقد أيقنت أنك لم تفعل إلا خيراً .

قد يكون صحيحا أن المرأة تدرك من العالم ما لا ندرك . ويفوتها منه كثير مما ندرك . لكن العلم الذى كشف من شئون العالم لم يكن من وضع الرجال وحدهم . ولم يكن من وضع النساء وحدهن . وإنما هو شركة لكل فيها نصيب . ولكل منها حظ . وقد تفيد امرأة ما لا يفيده رجل . وقد تكون المرأة التى تكتب عن تربية المرأة أكثر توفيقاً من روسو إذا هى أفادت من العلم ما يمهد لها سبيل التفكير والكتابة .

على أنا وإن نقدنا رأى روسو فى تربية المرأة فإنا لانمل تكرار ما سبق لنا ذكره . . إن فى صحائف (صوفى) من الأوصاف والملاحظات ما يستحق الإعجاب . وإن الأسلوب فيها لهو دائما أسلوب روسو . ذلك الأسلوب الموسيقى البالغ فى تجاوبه حدود الإبداع .

° ° °

وظهر كتاب التربية فكان ظهوره بدء متاعب روسو وشقوته . لاقى بسببه من العنت ما مر بك فى الجزء الأول من هذا الكتاب . قرر برلمان باريس القبض عليه فاضطر للفرار من فرنسا . وأصدرت حكومة جنيف مثل هذا القرار فى شأنه . وصادره السوربون وطعن عليه أسقف باريس وحرمه البابا . وكان فراره من فرنسا مقدمة حياة التجوال التى عاد إليها والتى انتهت به إلى الجنون ووقفت به على حافة هاويته .

وقد أعان روسو على الفرار من باريس ما كان باقياً لديه من بعض ما كسبه من كتاب العقد الاجتماعى ، وما أعانه به جماعة باللكسمبور . وفيما هو فى فراره وانتقالاته بين البلاد المختلفة فى سويسرا رد على أسقف باريس بكتاب وجهه إليه ، وعلى حكومة جنيف بخطابات الجبل . وسنعرض لهذه الردود وللعقد الاجتماعى وللاعترافات وللأحلام فى الفصول الباقية التى تضمنها الجزء الأخير من هذا الكتاب .

الجزء الثالث

بين جان جاك روسو

وأسقف باريس*

ا

كان ظهور كتاب التربية بعد الهلويز والعقد الاجتماعي بدء متاعب روسو . فقد صدر قرار من برلمان باريس بالقبض عليه في ٩ يونيو سنة ١٧٦٢ وصدر قرار من حكومة جنيف بالقبض عليه أيضاً في ١٨ يونيو . وأنكر السوربون المؤلف على أثر ذلك . ثم طعن عليه المسيو دوبومون أسقف باريس بمنشور أذاعه في ٢٠ أغسطس . وطعنه قرار من البابا . وقضى عليه أمر صادر من حكومة هولاندا . واضطرته هذه المطاردة من كل جانب للارتحال إلى سويسرا ثم إلى إنجلترا ثم إلى فرنسا . وكان لا يكاد ينزل بأرض يحسب أنه في حل من المقام بها حتى يصدر إليه الأمر بمغادرتها . وكان لا يكاد يصل بينه وبين رجل بصداقة حتى يضطر إلى إنكارها . وظل ذلك شأنه بقية أيامه . اجتمع عليه المرض والمطاردة وإنكاره الناس وإنكار الناس إياه . واجتمع ذلك كله عليه في أقسى مظاهره وأشد صوره . ومع ذلك ظل نشاطه الفكرى والأدبى متدفقاً تياره . فكتب يرد على منشور

(*) «يعلم القراء أن المؤلف قد نشر جزأين من هذا الكتاب وأن آخر فصل في الجزء الثاني تناول بحث كتاب روسو عن التربية ، وفي هذا الكتاب الذي هو أكبر كتب روسو وأعمقها بحثاً وتفكيراً عرض المؤلف للعقيدة الدينية المسيحية وانتهى إلى تقرير ما سماه الديانة الطبيعية . وجاء بذلك على لسان «قسيس السافوا» . وقد أحدث ما كتبه من ذلك ضجة كبرى انتهت إلى إصدار برلمان باريس ، الذي كان يقوم بأمر القضاء فيها ، أمراً بالقبض عليه . وعلى أثر ذلك فر روسو من باريس وظل متجولا بقية حياته إلى أن أصدرت الهيئات القضائية والسياسية الأخرى قرارات بعدم قبوله في أراضيها . ومما طعن به روسو في هذا الظرف منشور أذاعه أسقف باريس المسيو كريستوف دوبومون . وبالرغم من أن روسو لم يتحرك للرد على كثيرين ممن طعنوا عليه فقد رد على الأسقف بخطاب مطول يقع في نحو ٢٠٠ صفحة . والمنشور والخطاب آيتان في القوة والبلاغة . وهذا الفصل من كتاب «جان جاك روسو : حياته وكتبه» متعلق بمنشور الأسقف وخطاب روسو (من السياسة الأسبوعية في ١٠ فبراير سنة ١٩٢٧) .

أسقف باريس وعلى قرار حكومة جنيف . ثم كتب الحوار يدافع فيه عن نفسه ثم كتب «الاعترافات» . و«أحلام المتنزه المنفرد» . وكان خلال ذلك كله لا يضن بمكاتبة الكثيرين ممن آمنوا بآرائه وقدسوا شخصه ، وزادهم ما حل به من ظلم إيماناً وتقديساً . وهذه الرسائل والأحلام والاعترافات والحوار وخطابات الجبل والرد على أسقف باريس يستغرق آلاف الصحف . وله من جمال الأسلوب وروعته ومن دقة التفكير وسعة الأفق حظ عظيم .

وما كان روسو لينتج هذه الثمرات الشهية العظيمة القدر لو أنه لم يطارد ولم يشعر إلى أعمق غور نفسه بظلم أهل عصره . وما كانت روحه لترفرف على الثورة الفرنسية وتغذوها بكل ما غذتها به من حياة لو أن أهل عصره كانوا أكثر تسامحاً وعدلا . لكن الظلم يحمل فى طياته جراثيم موته . وحياة الوجود تنتقم لنفسها من كل من يطمع فى البغى عليها . ونوابغ الرجال أعلام الهدى هم أداة هذا الانتقام . لأن نفوسهم المملوءة بمعنى العدل تظهر الظلم أمام الناس فى أبشع صوره فيستفز فى قرارة نفوسهم ذلك القبس من نور الحق ، إن أخفته مصالح العيش حيناً فإنها لن تستطيع القضاء عليه ولن تستطيع قتله .

على أن ظلم الإنسان للإنسان هو أبداً تافه كـكل شئون الإنسان . والأسباب التى تؤدى إليه أدنأ منه وأتفه . فماذا يبغى الظالمون من ظلمهم غير المتاع من مصالح العيش بالبسطة فى الرزق والجاه . وما بسطة رزق العيش وجاهه إلى جانب عظمة الحياة ومجدها . أليست تافهة فى كمها تفاهة الفرد منا إلى جانب الوجود العظيم . مع ذلك فهى التى تحرك الأكابر وذوى السلطان وتوجههم فى أعمالهم وتعبد لهم سبلهم وتدفعهم للمحافظة بكل ما لديهم من الوسائل على النظام القائم الذى يمكن لهم من هذه البسطة ولمحاربة كل جديد يخشى منه عليها .

وهذا ما دعا كل أولئك الذين حاربوا روسو لمحاربته وما دفعهم للتألب عليه ومطاردته وهذا هو ما استثار الجيل الذى جاء بعدهم للاعتراف بفضله وإقرار مجده .

وليس يدلك على ذلك أكثر من أنك لا تجد من خصوم روسو من يؤنبه على خطأ جوهرى من أخطائه التى نراها اليوم ونلمسها ونسخر منها وتبلغ بنا الدهشة كيف وقع فيها . لكنك تراهم يحاربون من آرائه ما يحسبونه مهدداً للنظام القائم أو منبهاً إلى ما فيه من فساد وضعف .

لذلك كانت الحرب بينه وبينهم على أشدها بعد ظهور كتاب التربية مشتملا تعاليم قسيس السافوا . ولذلك كانت هذه التعاليم أساس الحرب بين الفريقين ، فقد هدم روسو قاعدة الكثلكة حين أنكر سلطان الكنيسة ، واستخف بالمعجزات وأباح الاجتهاد بأوسع معانيه . وهدم مكانة رجال الدين حين دعا إلى التسامح ، فأقر للأديان جميعاً مكانتها السامية واعترف للأنبياء جميعاً بالعظمة والقداسة واعتدى على مصالح أهل العصر حين أبان فساد التربية التى ينشأ الأبناء عليها . ثم هو لم يكتف بنقد الحاضر وإنكاره بل تخطى ذلك إلى وضع دين جديد هو الدين الطبيعى ، ونظام جديد هو نظام الجمهورية ، وإلى دعوة الناس لاتباع دينه ونظامه بحرارة وقوة يمكن أن تتحرك لها قلوب الناس .

ولم ينكر برلمان باريس فى قراره ولا أسقف باريس فى منشوره أن ذنب روسو عندهم خروجه فيما كتب على النظام القائم ودعوة الناس إلى الخروج عليه . ذلك أن للنظام القائم فى كل جيل مكانته عند أهل هذا الجيل ، ومهما يكن فيه من فساد ومهما يعترف كل إنسان بهذا الفساد فهو عند الناس جميعاً بمثابة السياج الواقى للحياة الاجتماعية من الانهيار . وليس على أحد بأس من الدعوة لإصلاح ما فى هذا السياج من فساد فى رفق وتؤدة وليس على أحد بأس من التعرض للإبانة عن هذا الفساد ولو كان ذلك فى غلو وتطرف . فأما الطعن على أسس هذا النظام والدعوة لنقضها والخروج عليها فتلك هى الثورة التى يخشاها الناس أشد خشية ويقفون فى وجهها بكل ما أوتوا من قوة .

هذا هو ما يدفع بعض الكتاب للدفاع عن قرار برلمان باريس ومنشور الأسقف . فقد اعتبرت المملكة الفرنسية من عهد لويس الرابع عشر نفسها حارس المذهب الكاثوليكى . ورأت لذلك ألا يكون فى المملكة إلا مذهب واحد كما أنها ليس فيها إلا قانون واحد وملك واحد وسبيل واحدة لعبادة الله هى السبيل التى يسلكها الملك . وهذه الفكرة ، فكرة وجوب وحدة العقيدة لقيام الوحدة القومية ، هى التى كانت تجعل من كل مفكر حر ومن كل بروتستانتى ومن كل شخص غير كاثوليكى خارجاً على الدولة . فكان طبيعياً إذن أن تحارب الحكومة القائمة هؤلاء الخوارج لتحفظ على الدولة أمنها ونظامها . والمحافظة على الدين فى مقدمة ما يجب عند أهل ذلك العصر للمحافظة على النظام

والأمن . وما دام روسو قد عرّض النظام والدين للشبهات فمن حق برلمان باريس – وهو سلطة ذلك العصر القضائية – أن يأمر بالقبض عليه .

على أن برلمان باريس لم ينس حين أصدر قراره أن روسو كان برغم طعنه على النظام الديني القائم وبرغم دعوته إلى نظام اجتماعي جديد ، مؤمناً ثابت الإيمان ، وأن جماعة الفلاسفة من معاصريه كانوا أشد منه على الدين طعناً . ثم كانوا مع ذلك ينزعون إلى الإلحاد نزعة صريحة ، كما أن منهم من كان يطلب إصلاح دستور الحكم . ولم ينس البرلمان كذلك أن روح العصر لم تكن من الحرص على النظام والدين بمقدار ترى معه قرار القبض بعين الرضا والطمأنينة . لذلك ذهب يتلمس المعاذير لقراره . فلم يجد إلا أن روسو خالف مألوف أدباء ذلك العصر وكتابه بأن أمضى كتبه . فذكر في أسباب حكمه ما نصه :

« وبما أن مؤلف هذا الكتاب لم يخش أن يصرح باسمه فقد وجب الإسراع في مقاضاته .

« وبما أنه قد عرّف عن نفسه فيهم العدالة أن تتدخل فتجعل للناس مثلا من المؤلف ومن يثبت اشتراكهم في طبع هذا الكتاب أو توزيعه » .

قال مسيو موجرا في تبرير هذا التصرف :

« لا شك أنه نفي في سنة ١٧٦٢ من فرنسا وجنيف وبرن . ولكن ذلك كان أمراً عالقاً بأخلاق العصر . فهل تسمى مطاردة ما قانوناً عاماً . وأي رجل من رجال الأدب لم يكن معرضاً لمثل هذا الخطر ولما هو أقسى منه إذا كتب مثل هذه الكتب . . ولو أنه أراد أن يفر من تشريع العصر فلم لم يقلد كل أولئك الكتاب العظماء الذين كانوا يكتفون بنشر كتبهم من غير وضع أسمائهم عليها . وهل لإنسان أن يشكو من المطاردة إذا كان في مقدوره تجنبها ثم هو مع ذلك يندفع إليها » .

وهذا الرأي هو كذلك رأي أومر جول وهو رأي لا ينفر منه فاجيه Faguet ولا جول لمتر Jules Lemaitre . ولا تحسب رجال القضاء في أي عصر ينفرون لأن القضاء يطبق القانون الذي يحتوي قواعد العدالة كما يفهمها المجموع لا كما يفهمها الخاصة وأولوا العلم . والمجموع هو القوة التي باسمها ينفذ القانون وأحكام القضاء ، فيجب أن تكون الأحكام وأن يكون القانون في متناول

فهمها . فأما الخاصة وأما أولوا العلم فيجب أن يطمئنوا إلى حظهم من النعمة بالسعادة الداخلية التي يحسونها ولا يشعر بها غيرهم . ولذلك لا يقدرها ولا يقيم لها من الوزن إلا بمقدار ما يكون لها من أثر براق في الخارج .

أصدر برلمان باريس حكمه ومن رجاله من يود ألا ينفذ وألا يقبض على روسو . لأن هذا القرار صدر ضد أجنبي وكانت عليه مطاعن شكلية شتى . ثم إن ما كان رجال الحكم يخشونه من أن يجر القبض على روسو إلى التحقيق مع دوق ودوقة لكسمبرج ومع المسيو مالرب ومع أمثالهم من ذوي السلطان في ذلك العصر جعلهم جميعاً يمهدون لروسو وسيلة الفرار ويطمئنون تمام الطمأنينة لفراره على نحو ما مر بك في الفصل التاسع من هذا الكتاب .

هذا ، وأما منشور أسقف باريس فلم يعن بالشئون الشكلية ولم يتأثر بما لجماعة اللوكسمبرج ولمسيو مالرب بالكتاب من صلة . وما للأسقف ولهذه الشئون والصلات ، ومنشوره لا يتعدى الطعن على روسو وتفنيد آرائه ولا يقصد لغير المحافظة على إيمان الناس بسلطان الكنيسة وتعاليمها بعد ما حاول روسو أن يضع نظاماً للتربية وقاعدة للعقيدة غير قواعد التربية وأسس العقيدة التي وضعها رجال الدين ، وبعد ما استعان في محاولته هذه بكل ما لديه من معارف ، وبما أوتي من بلاغة وسحر بيان . فإذا ترك وشأنه صح أن تنمو فكرته وتجد من الناس أنصاراً لها وعاملين على نشرها . وفي هذا ما فيه من التأثير على سلطان الكنيسة وفي مصالح رجالها . والناس ، في متعارف الحياة ، لا يحفزهم شيء للنضال كالخوف على مصالحهم . فأما الذين يدافعون عن الحق لأنه الحق ويرضون ضنك العيش وسوء الحال حرصا على سؤدده وانتصاره فأولئك هم المختارون الذين أسبغت عليهم الطبيعة من المزايا ما يهون عليهم شهوة الحاضر ومتاعه ويجعل منهم جنود الحقيقة الخالدة .

انبرى إذن أسقف باريس بمنشوره للرد على روسو . والحق أنه دل به على قوة بيان وروح جدلية جديرة بالإعجاب . ولو أنك وقفت عند قراءته من غير أن تقرن في نفسك رد روسو عليه لما وسعك إلا أن تتهم روسو بالمروق وبالإلحاد . لكن صاحب دين الطبيعة كان ملهماً في رده متفوقاً في مناقشته إلى حد سما به إلى أقصى مما سما في تعاليم قسيس السافوا ، وجعل أسقف باريس يبدو أمام النظر متعصباً ظالماً إلى حد كبير .

بدأ أسقف باريس رده بالطعن على فلسفة الإلحاد التى كانت فاشية فى ذلك العصر واعتبرها بعض أعلام الساعة التى أشار إليها القديس بولس . ثم وصف روسو وصفاً يستوقف النظر لما يظهر عليه من الدقة وحسن التحليل ، قال : « وهذا – الإلحاد – بنوع خاص هو ما يظهر أن بعضهم رمى إليه فى كتاب حديث عنوانه : أميل أو التربية . فقد نشأ فى حظيرة الخطيئة رجل ينتحل لغة الفلاسفة من غير أن يكون فيلسوفاً حقاً . إنما هو ذهن أفعم من المعلومات بجم لم ينره ، وبعث بالظلمات إلى أذهان أخرى ، وطبع مولع بغرائب الآراء وطرائق السير فى الحياة جمع بين بساطة الخلق وترف الفكر وبين الشغف بقواعد الأقدمين وشهوة إقامة المحدثات وبين خفية العزلة والرغبة فى أن يعرفه الناس جميعاً . رأى يناهض العلوم التى يتعهدها ، ويقرر كمال الإنجيل ثم يهدمه من أصوله ، ويصف جمال الفضائل ثم يمحوها من نفوس قرائه . وأقام نفسه مهذباً للنوع الإنسانى كى يضله ، ومرشداً عاماً ليغوى الناس جميعاً ، وهادى العصر ليفسد عليه أمره . ففى رسالته عن التفاوت نزل بالإنسان إلى مرتبة الحيوان . ودس فى كتاب آخر سموم الشهوة زاعماً أنه يحاربها . واستبد فى هذا الكتاب ، كتاب التربية ، ببنى الإنسان الأولى ليقيم سلطان الإلحاد » .

بعد هذا التصدير الذى قدم به الأسقف روسو إلى القراء بهذه الصورة التى تبدو كأنها الحقيقة والتى لخصت فى أسطر قلائل مطاعن كتاب العصر على مؤلف كتاب التربية وعلى رسائله وكتبه جميعاً انتقل بمنشوره إلى كتاب التربية أو إن شئت فقل إلى تعاليم قسيس السافوا ، فهى المقصودة بالذات عنده وعند برلمان باريس وعند غيرهم من القساوسة والحكومات . وأما عن أن هذه التعاليم صادرة من بروتستانتى وقائمة على قواعد هذا المذهب من مذاهب المسيحية ، فقد تجاهل الأسقف الأمر ونظر إلى ما خطته يد روسو بعين كاثوليكية بحتة . ولكنه كان مع ذلك حازماً كيساً فقد أراد أن يظهر روسو خارجاً على المسيحية ومذاهبها جميعاً منكراً للرسالة وللأديان كلها عاملا على ترويج الإلحاد مع ادعاء الإيمان والتدين مخفقاً فى دعوته هذه إخفاقاً ظاهراً ، فقال : « على أن مؤلف أميل برغم عدم اعترافه بأى دين من الأديان يدل من غير قصد على السبيل التى تؤدى إلى الدين الحق . فقد قال : نحن الذين لا يريدون التحكم ولا يريدون أن يعلموا أميل شيئاً لا يفهمه من تلقاء نفسه حيثما

وجد من بقاع الأرض – ترانا فى أى دين ننشئ تلميذ الطبيعة وبأى مذهب نلحقه ؟ إنا لن نلحقه بهذه ولا بتلك وإنما نحن نصل به إلى مقام يمكنه من اختيار أيها أرشد إلى خير حكم للعقل . ولقد تم تفضل الله هذا الغرض . ولو أن المؤلف وصل بتلميذه إلى مقام يتمكن معه من أن يختار من بين الأديان جميعاً ذلك الذى يهدى إليه خير حكم للعقل ، إذن لكان قد أعده حتماً لاختيار قواعد المسيحية . فإن النور الطبيعى يهدى إلى النور الإنجيلى ، والدين المسيحى هو لا شك دين العقل ، وإن شئت فالأسقف يقول إن المسيحية دين الفطرة » .

مجهود روسو إذن ضائع ودعوته للخروج على قواعد العصر ثورة طائشة لا نتيجة ولا أثر لها . فما دامت تعاليمه وما دامت قيامته فى وجه الدين ومساعيه لتربية الطفل تربية جديدة لن تخلق خلقاً جديداً ولن تجعل الناس إلا أكثر حرصاً على المسيحية وتمسكاً بها ، فمن الحمق اتباعه ، ومن الجريمة عدم الوقوف فى وجهه .

وأبلغ دليل على عبثه وعدم إنتاجه عقم حججه جميعاً فحجته فى فساد التعليم الدينى عقيمة ، وإنكاره المعجزات عقيم ، وشكه فى وحدانية الله عقيم وكل ما عرض له فى تعاليم قسيس السافوا عقيم . وإن شئت أن تعرف كيف كان ذلك فاستمع إلى هذه المقتطفات من منشور مسيو دوبومون وتمهل قليلا فى الحكم لها أو عليها حتى تقرأ مناقشة روسو إياها .

قال الأسقف دفاعاً عن التربية المسيحية :

« يقول مؤلف أميل أيضاً : كل طفل يؤمن بالله وثنيا كان أو هو يخلق الله على صورة الإنسان . ولو أن هذا الطفل كان وثنياً لآمن بآلهة عدة ولنسب الطبيعة الإلهية إلى أوهام غير مُحَسّة . ولو أنه كان « تصويرياً » لجعل للإله الحق ، حين اعترافه به ، جسداً . ولن يرضى الإنسان هذه أو تلك لطفل نشأ فى تعاليم المسيحية . ولو أن التربية الحالية كانت فاسدة من هذا الوجه لكان من فاحش الظلم أن ننسب إلى الدين ما ليس منه وما هو من خطأ الذين يسيئون تعليمه » .

وقال مناقشاً روسو فى أمر الخلق ووحدة الله :

« والمؤلف نفسه يأخذ بمبدأ الشك فى أمر الخلق ووحدة الله . فهو يضع على لسان الشخص الذى اتخذ منه أداته ، ما يأتى : أعرف أن العالم تصرفه إرادة قادرة حكيمة . ذلك أراه ، أو بالأحرى أشعر به ، وذلك يعنينى علمه . ولكن هذا

العالم أخالد هو أم مخلوق . وهل للأشياء أصل واحد . وهل لها أصلان أو أكثر .
ما هي طبائعها . ذلك ما لا أعرفه وما لا يعنيني . ولذلك أذر جانباً هذه المسائل
الهمة التي قد تحرك أثرتي من غير أن يكون منها فائدة لسلوكي . على أنها أسمى
من إدراكه عقلي . فماذا يريد هذا المؤلف المجازف أن يقول . هو يعرف أن العالم
تحركه إرادة قادرة حكيمة . وهو يعترف بأن معرفة ذلك تعنيه . وهو مع ذلك
يقول إنه لا يعلم إن كان للأشياء أصل واحد أو أكثر . ويزعم أن معرفة ذلك لا تعنيه .
فإذا كانت ثمة إرادة قادرة حكيمة هي التي تصرف العالم فهل يليق ألا تكون هي
الأصل الوحيد للأشياء . وهل يمكن أن يكون العلم بأحد الأمرين أجل خطراً من العلم
بالأمر الآخر . ما هذه العبارة المتناقضة . وهو يزعم أنه لا يعلم طبيعة الله ثم لا يلبث
أن يقر بأن هذا الموجود الأسمى له الذكاء والقدرة والإرادة والطيبة . أليست هذه
فكرة عن الطبيعة الإلهية . . ووحدة الله تبدو له مسألة تافهة تسمو على عقله !
كأن تعدد الآلهة ليس سخفاً أعظم من كل سخف » .

ولقد شعر روسو أن حقيقة التنزيل المسيحي ثابتة بالوقائع . ولما كانت المعجزات
هي الأدلة الأساسية على التنزيل وكانت هذه المعجزات قد بلغتنا عن طريق
البشر ، صاح عجباً : شهادات رجال دائماً ، رجال ينقلون ما نقله رجال غيرهم ،
ما أكثر الرجال بيني وبين الله ! !

قال الأسقف :

« ولكن . . بأية وسيلة أخرى غير شهادات الرجال عرف المؤلف إسبرطة
وروما . وهي التي يتغنى كثيراً وعن ثقة بقوانينها وأخلاقها وأبطالها . كم من
الرجال بينه وبين الحوادث التي تمس تأسيس هذه الجمهوريات القديمة
وأصحابها . وكم من الرجال بينه وبين المؤرخين الذين احتفظوا بذكر هذه
الحوادث . فشكه هنا ليس قائماً إذن إلا على ما يمليه عليه إلحاده » .

وانتقل الأسقف من الكلام عن الله وعن وحدانيته إلى ما تعرض به روسو
للنظام القائم . فقد قال روسو في التربية ما سبق إليه في الكتب الأخرى من أن
الملوك تتكون من سواد الناس والعاملين بينهم ، وإنك لو انتزعت الملوك من بينهم
ما شعر بانتزاعهم أحد . لكن المجموع يضحى دائماً على مذبح فائدة العدد
الأقل والمصلحة العامة تضحى للمصلحة الخاصة . وهذا العدد الأقل لا يتغنى

باسم العدل والنظام إلا لفائدته وعلى حساب المجموع . كذلك يقول روسو .
وقد رد عليه الأسقف بما يأتي :

« وكذلك يتهجم الإلحاد لانتقاد مقاصد من تحكم الملوك بأمره ، ويتبجح
بتسميم قواعد السعادة العامة بما يوسوس به من قواعد لا نتيجة لها إلا الفوضى وما تجره
وراءها من شقاء وتعس . أما الدين فيأمر بخشية الله وباحترام الملك . . وبأن يخضع
كل إنسان لأولى الأمر . فمن الله تستمد كل سلطة . هو الذي أنشأها في الأرض
جميعاً فمن قاومها قاوم أمر الله فحقت عليه لذلك لعنته » .

ويرتب الأسقف على ذلك كله وجوب البدء بتربية الطفل من أول حياته
تربية دينية خالصة .

وقد تناول منشور الأسقف مسائل أخرى كخطيئة آدم وما إليها من شئون
الدين مما يطول شرحه وليس هذا مقام عرضه .

أذيع منشور أسقف باريس في ٢٠ أغسطس سنة ١٧٦٢ ، وكان روسو
يومئذ مقيماً بموتييه ترافير من أعمال نيو شاتل . وكانت المطاعن لا تفتأ توجه إليه من
خصومه في نشرات مطبوعة وفي نشرات غير مطبوعة . لكنه لم يكترث لها وفكر
في الابتعاد عن الأدب ومنازعاته . أما منشور الأسقف فحركه ليمسك القلم
من جديد . قال :

« اعتقدت أن من حق على نفسي أن أجيب . وكنت أستطيع هذه الإجابة
من غير مساس بكرامتي . فقد كانت هذه المسألة مشابهة جد المشابهة لمسألة
ملك بولونيا . وأنا ما أحببت قط المجادلات العنيفة على طريقة فولتير . ولست
أعرف القتال إلا في كرامة ، لذلك أريد دائماً من مهاجمي ألا يدنس ضرباتي
كي أنزل حتى للدفاع عن نفسي . ثم إني ما شككت في أن هذا المنشور كان
من صنع اليسوعيين وبرغم أنهم كانوا يوم ظهوره بائسين فقد عرفت فيه مذهبهم :
مذهب القضاء على البائسين . وقد استطعت من أجل ذلك أن أسير أنا أيضاً
على مذهبي القديم فأبجل المؤلف وأنسف المؤلَف . وأحسبني بلغت فيما فعلت من ذلك
حظاً من النجاح » .

ونحسبه نحن أيضاً قد بلغ في رده هذا حظاً من النجاح . بل نحسبه قد وفق
إلى كل النجاح . وهذا جول لمتر على ما كان من حنقه على روسو لم ينكر عليه

.. الأسقف « كان آية فى الجدل وبدعة من بدائع المناقشة الدقيقة
.. ..مة » . فقد سلك روسو فيه مسلكاً جمع بين الكياسة والحزم .
.. الشكوى » ثم أظهر عظيم احترامه للأسقف وإجلاله إياه ، ثم
..الة فى المتانة انتهى منها إلى أن المنشور ظالم مشبع بمعانى القسوة
.. بعيد كل البعد عن الحق الذى يجب أن يكون غاية رجال
.. امه .

* * *

..ء الرد مائتى صفحة وعنوانه « من جان جاك روسو مولى جنيف
..بومون أسقف باريس ودوق سان كلو ومن أشراف فرنسا وحامل
..القدس ومراقب السوربون إلخ . . وأوله اعتذار من روسو إلى الأسقف
.. « فلو أنك لم تطعن إلا على كتابى لتركتك تقول ما شئت .
.. كذلك على شخصى . وكلما كنت أنت أعظم بين الناس سلطانا
..لا من السكوت عما أردت تدنيسى » .
.. لوصف حاله وما لقيه من الناس . واستطرد من ذلك إلى الكلام
.. باريس وعن مطاردته من بلد إلى بلد ومن دار إلى دار ، وعن قرار
..جنيف ألا ينزل فيها . وتلك صحيفة من صحفه الخالدة بلاغة وقوة
.. كمقدمة للرد بديعة فى تهيئتها ذهن القارئ للعطف على صاحبها

.. مولى جنيف يد لقضاة ظالمين معتدين اتهم عندهم باطلا فقرروا
.. غير أن يستدعوه . وما دام لم يدع للحضور فليس ما يضطره
.. إلى القوة ضده فتحاشى القوة وغادر تلك الأرض المضيافة التى
.. ظلم الضعيف ويقيد فيها الأجنبى بالأغلال من غير أن يسمع
.. يعلم إن كان العمل الذى اتهم به معاقباً عليه وإن كان قد

.. العزيزة عليه آسفاً ، وفر من أصدقائه ولم يكن له غيرهم نعماً
.. ضعفه رحلة طويلة خيل إليه فى نهايتها أنه يتنفس فى أرض

الحرية ، ووصل إلى وطنه الذى طالما فاخر به وأعزه وأكرمه ، وصر وكله الأمل أن يجد فى مقابلة أهله ما يهون عليه مصابه . ماذا ترانى سأقول . ينقبض قلبى وترتجف يدى ويسقط منها قلمى . يجب على أن أسكت فلا أحتذى جريمة شام . ألا ليتنى أستطيع أن أسيغ فى خفية أشد آلامى مضاضة ومرارة .

« ولم كل هذا . أنا لا أسأل عن سببه وإنما أسأل عن الدم إليه . إنهم يجترئون على رمى بالإلحاد غير ذاكرين أن الكتاب الذى يبحثون فيه عن هذه التهمة موجود بين يدى الناس جميعاً . ألا ما أكثر ما تجود به نفوسهم لو أنهم أتيح لهم إعدام هذا السند ليدعوا بعد ذلك أنه يحتوى كل ما زعموه فيه . لكنه سيبقى برغم ما يصنعون . وسيرى الخلف عند البحث فيه عما يعزى إلى مؤلفه من الآثام أن ليس فى أغلاط هذا المؤلف ذاتها إلا خطأ صديق من أصدقاء الفضيلة .

« وسأتجنب التحدث عن المعاصرين فما أريد بأحد ضراً . لكن الملحد سبينوزا كان يعلم الناس مذهبه مطمئناً ، وكان لا يعوقه عن طبع كتبه عائق ، وكانت هذه الكتب يتجر فيها علناً . وحضر إلى فرنسا فاستقبل استقبالا حسناً ، وكانت الممالك كلها مفتوحة أمامه ، وكان يجد الأمن بل الحماية فى كل مكان ، وكان يحظى من الأمراء بكل إجلال ، وكانوا يعرضون عليه منابر الدرس . فعاش راضياً ومات مرضياً بل موقراً . أما اليوم وفى هذا العصر الذى يزدهى بأنه عصر الفلسفة والحكمة والإنسانية فلأن رجلا عرض فى احتياط وباحترام وبدافع من محبة بنى الإنسان بعض شكوك أملى بها مجد الموجود الأسمى ترى هذا المدافع عن دين الله محروماً من الماء والدفء فى كل أوربا مهيناً منبوذاً يطرد من مملكة إلى مملكة ومن ملجأ إلى ملجأ من غير رعاية لفقره ولا إشفاق على ما يعانى من أمراضه ويطارد بقسوة لم ير مثلها أثيم ولا تجوز إلا عند الهمج حتى لو أنها عومل بها رجل وهو فى قوته وصحته . ولكى يستطيع البقاء مطمئناً بين الجبال يجب لذلك حزم مجيد كبير وعناية أمير مستنير ، ولو أنه ظل تحت رحمة مطارديه أوّل ما أصاب الهذيان تلك الحكومات لقضى بقية أيامه التعسة فى الأغلال ولغلب أن يلفظ نفسه الأخير فى سعير العذاب .

« ونجا من أيدى الجلادين لتتلقاه أيدى القساوسة . ولست أذكر هذا على أنه عجيب . ولكن رجلا ذا فضل وأسقفاً عظيماً له من شرف النفس مثل ما له

من شرف المولد أباح جبنهم وكان حقاً عليه أن يصده ، ولم يخجل من أن يسحق مظلوماً طحنه الهم فى حين أوجب عليه مركزه كقسيس التألم لحظ كل مظلوم . ثم إذا سائر رجال هذا الأسقف يسارعون يريدون سحق عدو يحسبونه قد قضى . ويشترك الأكابر والأصاغر منهم فى هذا حتى لترى أحقر واعظ وأحط ملقن يسعى لينال مجد القضاء على هذا العدو بأن يضربه بقدمه الضربة الأخيرة .

« وهل تراك تظن أحداً يحسب أنك كنت لكتابى أقل عداوة لو أن البرلمان لم يعرض له . قد يكون لبعضهم أن يظن هذا أو أن يقوله . فأما أنت ولا طاقة لضميرك باحتمال الكذب فلن تقوله . فلقد انتشر كتابى عن التفاوت فى أسقفيتك ولم تدع عنه منشوراً . وانتشرت هلويز الجديدة فى أسقفيتك ولم تدع عنها منشوراً . ولقد قرأت هذه الكتب حتى حكمت عليها . مع ذلك فكلها تجرى فيها مبادئ واحدة ، وطريقة التفكير فيها جميعاً ليست أقل خفاء . وإذا كان المقام فى كل منها لم يسمح بالتوسع فى عرض الآراء فقد كسبت هذه الآراء بذلك من القوة بقدر ما فقدته من تفصيل ، وفيها يرى الإنسان عقيدة المؤلف أوضح عبارة وأقل توارياً مما هى فى قسيس السافوا . فمالك لم تقل يومئذ شيئاً . أو كان قطيعك يا مولاى أقل كرامة يومئذ عليك ، وهل كان أقل قراءة لكتبى أو أقل لها ذوقا ، أم كان أقل عرضة للخطأ . كلا . لكنك لم يكن أمامك يومئذ من اليسوعيين من تحاربهم ، ولم يحطنى الخونة يومئذ بأحابيلهم . ولم تكن كلمة أولاء جميعاً قد عرفت . فلما عرفت كان الجمهور قد اطمأن إلى ما فى كتبى ، وكان وقت إحداث الضجة قد انقضى . فرأيتم أن تتمهلوا وتؤجلوا وأن تنتظروا الفرصة وترتقبوها . ثم انتهزتموها بما طبع عليه المتعصبون من تهييج . فلم يكن فى أفواهكم إلا حديث الأغلال والنيران وجعلتم من كتابى صيحة الحرب على الفوضى والنفير العام ضد الإلحاد ، ومن المؤلف مريداً يجب سحقه ويدهش الناس لبقائه كل هذا الزمن على قيد الحياة . بإزاء هذا التهييج العام خلجت أنت أن تظل صامتا وفضلت اجتراح عمل من أعمال القسوة على أن ترمى بضعف حماستك للدين ، وأن تخدم أعداءك لتسكتهم على أن ترد مطاعنهم عليك . هذا يا مولاى هو الدافع الصحيح لمنشورك وأنت به أعلم . وذلك على ما أرى تضافرٌ بين وقائع غريبة تجعل مآلى عجبا » .

بعد هذا العرض لحاله جعل روسو يفند حجج أسقف باريس حجة بعد حجة

ولعله لم يجئ بجديد فى هذه الحجج غير ماجاء فى الهلويزوفى أميل . فقد أعاد مبدأه العزيز عليه : مبدأ الطيبة الطبيعية . ورتب عليه من النتائج ما رتب عليه فى سائر كتبه . لكن طريقته فى الجدل والمناقشة بالغة فى هذا الخطاب أسمى حدود الدقة والإبداع . وإلى القارئ مثلا من جدله ردا على قول الأسقف : « هو يزعم أنه لا يعلم ما طبيعة الله ثم لا يلبث أن يقر بأن هذا الموجود الأسمى له الذكاء والمقدرة والإرادة الطيبة . . أليست هذه فكرة عن الطبيعة الإلهية » . وعلى قوله « ووحدة الله تبدو له مسألة تافهة تسمو على عقله كأنما تعدد الآلهة ليس ليس سخفاً أعظم من كل سخف » .

قال روسو رداً على اعتراض القسيس عن الطبيعة الآلهية :

« **لله الذكاء ، ولكن ما ذكاؤه ؟ فذكاء الإنسان فى التفكير . أما الذكاء الأقدس ففى غير حاجة إلى أن يفكر . ليست لتفكيره مقدمات ولا نتائج ولا فروض . إنما هو ذكاء ملهم يرى ما كان وما يكون ويرى الحقائق كلها فكرة واحدة كما يرى الأماكن كلها نقطة واحدة والأزمنة لحظة واحدة . وللقوة الإنسانية وسائل تعمل بها ، أما القوة الإلهية فتعمل بنفسها . والله يقدر لأنه يريد ، فإرادته قدرته . والله خير لا ريب . وخير الإنسان حبه لأمثاله . أما الخير الذى لله فى النظام الذى يمسك به الكائنات ويربط به كل جزء منها مع كلها . والله لا ريب عادل ، وذلك بعض آثار خيره . وظلم الإنسان من عمل الإنسان لا من عمل الله . واضطراب الروح الذى يجنح الفلاسفة من طريقه لإنكار قدرة الله يزيد هذه القدرة أمامى ظهوراً ووضوحاً . وعدل الإنسان فى أن يرد إلى كل ذى حق حقه ، وعدل الله فى أن يحاسب كلا عما وهبه .**

« هذه صفات استنبطتها تباعاً من طريق منطق العقل وتتبع النتائج من غير أن يكون لها فى نفسى معنى مطلق . فأنا أؤكدها ولا أدركها وذلك يعدل أنى لا أؤكد شيئاً . فعبثاً أقول لنفسى ذلك هو الله . وعبثاً ألمسه وأثبته فى فؤادى فذلك لا يزيدنى علماً لم كان الله كذلك .

« ثم إنى كلما حاولت فهم كنهه كنت لهذا الكنه أقل تصوراً . وكفانى ذلك به إيماناً . فإنى كلما كنت له أقل تصوراً كنت به أشد تعلقاً وله أكثر عبادة . أمامه أعنو قائلا : وجودى منك يا كائن الكائنات وكلما أدمت الفكرة

فيك سموت بنفسي إلى أصلها . وفنائي فيك خير ما يعمله عقلي . فإنما يبهر فؤادي وقوة ضعفي أن تأخذ بلبي عظمتك » .

وقال رداً على التوحيد والتعدد :

« ومن ذا قال بتعدد الآلهة . ويحي عليك يا سيدي الأسقف . ألا لو أنك أردت بي أن أقول أمثال هذه الحماقات لما كلفت نفسك ولا ريب مئونة إذاعة منشورك ضدي .

« أنا لا أعلم لم كان ما هو كائن وكيف كان . وكثيرون غيري ممن يوهمون معرفته ليسوا أكثر به مني علماً . على أني لا أرى غير سبب واحد هو مبدأ كل حركة ، ذلك بأن كل ما في الوجود ظاهر تعاونه في الاتجاه إلى غايات متفقة . لذلك أعرف إرادة واحدة عليا بيدها تصريف كل شيء . هذه القوة وتلك الإرادة أعزوهما إلى كائن واحد لما هنا عليه من تمام الاتفاق ، ولأن تصورهما في واحد خير منهما في اثنين . فالتعدد لا يجوز لغير سبب ولا علة . وإن ما نرى من شر ليس شراً مطلقاً وهو لا يحارب الخير مباشرة بل يتعاون وإياه لتمام نظام العالم » .

وبعد هاتين النقطتين الأساسيتين في مذهب روسو عن الديانة الطبيعية أراد أن يبرر نشره تعاليم قسيس السافوا . ومن هذا التبرير يرى القارئ أن روسو إنما كان يقصد إلى تأييد البروتستانتية ويذهب إلى أكثر من تبريرها بالسعي لتوسيع أفقها وتدعيم نظرية حق كل فرد في البحث الحر . وهو في هذا مبدع إبداعه في سائر ما احتواه هذا الرد على أسقف باريس . قال :

« وإني لذاكر لك السبب الذي حملني على نشر تعاليم القسيس . لماذا أراها على الرغم من كل ما أثير حولها من ضجة خير كتاب أخرج للناس في العصر الذي نشرتها فيه . ولن تغير النيران ولن تغير القرارات من لغتي ولن يجعلني اللاهوتيون كاذباً إذ يأمرونني بالتواضع ، ولن يدفعني الفلاسفة إلى إعلان الإلحاد باتهامهم إياي بالنفاق . بل سأعلن ديني لأن لي ديناً . وسأعلنه عالي الصوت لأن لدي شجاعة إعلانه . ولشد ما كنت أرجو أن تكون هذه الشجاعة للناس جميعاً حرصاً على فائدة بني الإنسان .

« أنا يا مولاي مسيحي ، ومسيحي بإخلاص على مذهب الإنجيل . وأنا مسيحي لا كتلميذ للقساوسة ولكن كتلميذ ليسوع المسيح ، وأستاذي قل تدقيقه

في النصوص وكثر تنبيهه للواجبات . وقواعد الإيمان التي أمر بها أقل ما أمر م[ن] مؤاتاة الخير وصالح العمل وهو لم يأمرنا أن نؤمن إلا بما وجب الإيمان به لنكون أخياراً . ولما لخص سنن الأنبياء لخصها في أعمال الفضل أكثر مما لخصها في أبواب الإيمان . وقد قال بنفسه ثم قال قديسوه إن من أحب أخاه قام بما فرض عليه » .

ثم أضاف :

« لم يتح لي دائماً أن أسعد بالعيش منفرداً فقد خالطت رجالا من كل صنف ورأيت أناساً من كل الأحزاب ومؤمنين من كل المذاهب ومفكرين بأنفسهم من كل الطوائف . ورأيت عظماء وأصاغر ماجنين وفلاسفة ، وكان لي أصدقاء حميمون كما كان لي من هم أقل من هؤلاء في مراتب الصداقة وأحاط بي جواسيس ومسيئون . وفي العالم كثيرون يكرهونني بسبب ما ألحقوه بي من أذى . هؤلاء جميعاً أدعوهم ليعلنوا على الملأ ما يعرفونه من عقيدتي في ديني . هل رأوني يوماً غير ما أنا سواء في تجارة الحياة أو في الصداقة المرفوعة الكلفة وحين لهو الحديث على الطعام أو في السر والنجوى . هل رأوا حججهم أو سخرياتهم زعزعت من إيماني لحظة حين أرادوا المناقشة أو السخرية . هل تبينوا يوماً أني تغيرت عواطفي أو بدأت أخفي في دخيلة قلبي ما لا أظهر الجمهور عليه . هل علموا علي يوماً شبهة كذلك أو نفاقاً . ليقولوا ما يعرفون ويعلنوه ليكشفوا ستري . أنا بذلك راض بل أنا أرجوهم أن يفعلوا وأعفيهم مما توجبه الصداقة من كتمان . فليرفعوا الصوت لا بما يريدونني أن أكون ولكن بما توحيه ضمائرهم عني . إني أئتمنهم على شرفي غير خائف ، وأعد بأني لا أعترض منهم أحداً » .

هو إذن مؤمن ثابت الإيمان . لم تزعزع عواطف الإلحاد التي كانت ثائرة يومئذ عقيدته ولم تدخل سخريات فولتير ومنطق مدرسته شيئاً من الشك إلى نفسه . وهو يرى كلمة السيد المسيح على ما يفهمها خير صورة تعبر عن إيمانه . لكنه لا يقر لذلك بأن السيد المسيح رسول من عند الله وإن أقر له وللأنبياء طراً بالعظمة والقداسة . وهو في هذا يخالف فولتير ومدرسته ويناصبه العداوة ، ذلك بأن فولتير نظر إلى الأديان على ما كانت في عصره بعد ما أدخل إليها القساوسة ورجال الدين من الخرافات ما زعموه جزءاً منها لا يتجزئ وشطراً منها غير منفصل ، وبعد ما نسبوا هذه الخرافات إلى الرسل الذين نشروا دعوة الله في الناس . وعلى أساس هذه

... جعل فولتير يبين ما فى التعاليم التى ينشرها رجال الدين من متناقضات
...امات ويلقى عبء مسئولية ذلك على أصحابها الأولين . ولذلك سمى الرسل
... وكذبة ونسب إليهم ما يستطيع رجل أن ينسبه لرجل من التهم ، ورأى
... من أفاقين ساقتهم مطامعهم فى الدنيا وفى حكم الناس إلى ادعاء الرسالة . أما روسو
...م الإيمان ويفهم لذلك عظمة الذين أقروه فى الأرض ودعوا الناس إليه ،
...همه لأنه يحسه فى قلبه ويراه فى كل ما حوله . يرى الله فى الأرض والسماء
...اه فى السراء والضراء ولا يزعزع من إيمانه به أنه لا يدرك مداه وكنهه ، بل يزيده
ذلك إمعاناً فى التفكير فيه وفى تقديسه . وعلى شعوره يقيس شعور الأنبياء والرسل
... لهم العذر عما قالوا من أنه أوحى إليهم من عند الله . فكذلك كانت روح
...هم . ثم إنهم رأوا هذه الحقائق العليا التى فتح عليهم بإدراكها أسمى مما يصل
إليه عقل الإنسان عادة ، فلم يخالجهم شك فى أن القوة المدركة المدبرة للكون
والتى امتلأت قلوبهم إيماناً بها — مثلما امتلأ قلب روسو — هى التى أوحت إليهم
بهذه الحقائق وكشفت عن عيونهم غشاء الباطل فرأوا النور الذى لم يره غيرهم ،
وصار لزاماً عليهم ممن أضاء لهم بهذا النور أن ينشروه فى الأرض وأن يدخلوه إلى نفوس
من أخذتهم الحياة القصيرة ببهرجها الخداع وهم لذلك يستحقون كل احترام
وتبجيل . وذلك ما دعا إليه روسو حين قال :

« أحترم جميع الذين وضعوا الأديان والمذاهب لقد كان لهم جميعاً نبوغ
عظيم وفضائل كبرى . وذلك محترم أبداً » ولقد قالوا إنهم رسل من عند الله .
وذلك ممكن أن يكون وألا يكون . والجماعة لا تستطيع أن تتفق فى الحكم عليه أن
... أدلته فى متناول الكل على سواء . على أنهم لو لم يكونوا رسلا فليس ذلك
... إلى اتهامهم فى خفة بأنهم كذبة دجالون . فمن يدرى إلى أى حد يصل
... المستمر فى الإلهيات والتناهى فى الحرص على الفضيلة من أرواحهم حتى
... عليها المنطق ونظامه ويجعلها تتعلق بشىء من أفكار العامة ، فعند التناهى
... سمو يدور الرأس ولا يرى الإنسان الأشياء على طبائعها » .

ولكن ما قول روسو فى المعجزات المثبتة للرسالة . لقد صاغ اعتراضه على
... فى صيحته : « عجباً . شهادات رجال دائماً . رجال ينقلون إلىّ ما نقله
... غيرهم . ألا ما أكثر الرجال بينى وبين الله » . فرد الأسقف صيحته فى

عبارته هذه التى مرت بك : « ولكن . . بأية وسيلة أخرى غير شهادات الرجال
عرف المؤلف إسبارطة وأثينا وروما وهى التى يتغنى كثيراً وعن ثقة بقوانينها وأخلاقها
وأبطالها . كم بينه وبين الحوادث التى تمس تأسيس تلك الجمهوريات القديمة
وما أصابها . . إلخ » ، فما دام روسو يقبل شهادات الرجال حجة على حوادث
بينه وبينها زمان طويل فإنكاره المعجزات الثابتة بالتواتر عنت يبرر رمى الأسقف إياه
بالإلحاد . لكن روسو لا يترك هذا الاعتراض من غير أن يدفعه بالقوة التى دفع
بها غيره من الاعتراضات . قال :

« لو أن المسألة كانت أقل خطراً وكنت أنا لك يا مولاى أقل احتراماً
لهيأت لى هذه الطريقة فى التدليل الفرصة لأنبر مرح قرائى . ولكن حاشا الله أن
أنسى اللهجة الواجبة للموضوع الذى أعالج وللرجل الذى أحدثه . ويكفينى
ولو ثقل قولى أن أبين مبلغ خطئك .

« أرجوك أن تذكر أن من المعقول تماماً أن تثبت شهادات الناس ما صنع
الناس وأن ليس لإثباته بغير ذلك سبيل . فلست أستطيع أن أعرف أن إسبارطة
وروما كانتا إلا لأن مؤلفين عاصروهما خبرونا عنهما . ويجب أن يكون الوسطاء بينى
وبين رجل عاش أو يعيش بعيداً عنى . ولكن أى حاجة إلى هؤلاء الوسطاء بينى
وبين الله . وأى حاجة إلى أن يكون هؤلاء نائين نأياً يحتاجون معه إلى شهادة كثيرين
غيرهم . وهل طبيعى وبسيط أن يبحث الله عن موسى ليكلم جان جاك روسو .

« ثم إن أحداً ليس مكلفاً أن يؤمن بوجود إسبارطة أو تحل عليه اللعنة .
ولن يحرق أحد أو يخلد فى السعير لشكه فى أمرها . فكل حادث لسنا نحن له
شهوداً لا يثبت إلا بالدليل المعنوى . وكل دليل معنوى يحتمل أن يكون راجحاً
أو مرجوحاً إلخ .

« ولو أنى رأيت المعجزات بعينى لرفضت أن أؤمن بمذهب سخيف غير معقول
يراد أن يدعم بها . وأهون على أن أصدق بالسحر من أن أرى كلمة الله فيما لا يصدقه
العقل » .

إذن فحكم العقل وحده هو الذى يجب اتباعه . وكل ما خالف العقل
لا قيمة له ولو نسب إلى الوحى أو الرسالة . على أنه لو اقتصرنا على ما ألهمه الرسل

وجدنا فيه كل هذا الذى أدخله القساوسة عليه – فى رأى روسو – من أوهام
مات . وهل جاءت الأديان إلا هدى للناس من غير أن تمس تفاصيل حياتهم .
للأديان وشئون الدنيا وهى إنما توجه الناس كافة إلى الخير وإلى المحبة على
مهمونها . وهذا ما يستطيع الناس أن يبلغوه لو أنهم لم يتقيدوا بما يتقيدون به اليوم
صور رسمها لهم القساوسة ومن أوضاع ابتدعوها لفائدتهم ثم صارت هى الدين
نظرهم وصار ما كان الدين يأمر به فى المكان الثانى بالنسبة لها .

« وإذا صرف المرء النظر عن واجبات الإنسان واكتفى بالاشتغال بآراء
القساوسة وشحنائهم التافهة أصبح لا يعنيه أن يسأل المسيحى إن كان يخشى الله
إنما يعنيه أن يسأله إن كان سنياً (أرثوذكسياً) . وكفاه أن يستمضبه نماذج
مسائل لا جدوى لها وهى غالب الأمر غير مفهومة . فإذا وقع أفلح ولم يسأل
ذلك شيئاً ، وصار له أن يعيش كما يحلو له . ولم يعد سلوكه يهم أحداً
دام قد سلّم بالمذهب . أى خير تجنى الجماعة من الدين الذى نزل إلى هذا
الدرك . وما فائدته للناس وهو على هذه الحال . وإنما يقف يومئذ أثره عند إثارة
المنازعات والقلق والحروب على مختلف صورها ، وأن يدفع الناس للتناحر حول
الألفاظ ، وخير يومئذ ألا يكون دينٌ من دينٍ ذلك مدى شره . فلنحل دون تدهوره
إلى هذا الدرك إن استطعنا إلى ذلك سبيلا ولنكن يومئذ واثقين برغم الأغلال والنيران
أن لنا على الإنسانية من أجل ذلك حقًّا وكرامة » .

« وهب الناس سئموا هذه المعارك التى تمزق الإنسانية فاجتمعوا لإنهائها
بالاتفاق على دين يكون دين الشعوب طراً . لا شك سيبدأ كل واحد منهم باقتراح
على أنه وحده الحق والمعقول والثابت أنه وحده المرضى من الله الصالح للناس .
عدم توازن براهينه فى هذا الباب مع اقتناعه – فى نظر أهل المذاهب الأخرى
الأقل – يجعل كل طائفة يقف رأيها عند أهلها فيتفق الكل ضدها . ذلك
لا ريب فيه . وتسير المداولة على هذه الصورة فيقترح واحد ويرفض الآخرون .
هذه وسيلة الاتفاق . وقد يمكن بعد ضياع وقت غير قليل فى مداولات صبيانية
يبحث الرجال ذوو الحكمة عن وسيلة للتوفيق فيقترحوا من أجل ذلك أن يبدأ
رجال الدين من بين الجماعة . ولا يصعب عليهم أن يبينوا ضرورة هذه الخطوة
ضرورة محتومة . فإذا تم هذا الأمر الصالح قالوا للناس : مالم تتفقوا على

مبدأ فلا سبيل بينكم إلى التفاهم . فقول أيكم لصاحبه إنك مخطئ لأنى مصيب
حجة لم تقنع يوماً أحداً .

وبين روسو بعد ذلك أن الديانة الطبيعية التى وضحها فى تعاليم قسيس
السافوا هى المبدأ والدين الذى يمكن أن يتفق المسيحى واليهودى والمسلم وكل ذى
دين عليه . فهى نتيجة التفكير ليس غير . وهى لا تلزم أحداً أن يؤمن بما لا يستطيع
عقله قبوله . وهى لذلك سند للبروتستانتية ودعوة إلى إطلاق حرية الفكر .
وهذا ما جعل أسقف باريس وغيره من الكثالكة يطعنون عليها وينحون باللائمة
على صاحبها ويعتبرونها خروجاً على قواعد الدين ويتهمون روسو من أجلها بالإلحاد .
لكن العجيب أن هذه الدعوة لم تنل رضا الرؤساء البروتستانتيين فى جنيف مما دعاهم
إلى إصدار أمر كالذى أصدرته الحكومة الكاثوليكية الفرنسية يحظر عليه
الدخول إلى وطنه ، وعلة ذلك أن هؤلاء الرؤساء يرون فى نظرية روسو الدينية
وفى نظرياته السياسية والاجتماعية ما يقضى بزوال امتيازهم على غيرهم من الطوائف
وبانهيار سلطانهم وحقهم فى الحكم . وفى رأى كثيرين من الكتاب والمؤلفين
أن الملوك والأشراف ورجال الدين فى الملل المختلفة لا يتحركون حركة للدفاع
عن الدين مالم تكن مصالحهم مهددة أو مالم يرتجوا من وراء هذه الحركة فائدة
لسلطانهم ومصالحهم . فأما الدين كعلاقة بين العبد وربه فلا يدخل لأحد منهم
فى حساب . ولو أنك كشفت عن طواياهم لوجدتهم أكثر تذبذباً فى عقائدهم
من سائر الطوائف .

وبعد أن فند روسو أقوال أسقف باريس ختم خطابه بهذه العبارة :

« ما أيسر ما تتحدثون أنتم الذين رفعتم إلى مقام الكرامة . فأنتم ، ولا تعرفون
حقوقاً غير حقوقكم ولا قوانين غير ما تلزمون الناس به ، لا يكفيكم أن تعفوا
أنفسكم من واجب العدالة بل ترون أنكم غير ملزمين كذلك بما توجبه العواطف
الإنسانية . فأنتم تظلمون الضعيف فى كبرياء من غير أن يسألكم عن ظلمكم أحد .
وإهانة الناس لا تكلفكم أكثر مما تكلفكم القسوة بهم . وأنتم تكسحوننا أمامكم
كسح التراب كلما عنت لكم أقل غاية أو مصلحة . فمنكم من يعدم أو يحرق ،
ومنكم من يقذف ويطعن من غير حق ومن غير سبب ومن غير احتقار . بل من غير
غضب وبغير موجب إلا أن ذلك يوافق مصلحتكم ولأن البائس وجد فى طريقكم .

فإذا قذفتمونا بلا مبرر فليس مسموحاً لنا أن نرفع صوتاً بالشكوى . فإذا أثبتنا براءتنا وخطأكم اتهمتنا بالخروج على موجب الاحترام .

« مولاى . لقد طعنت علىّ علناً . وها قد أثبت لك أنك سببتنى . ولو أنك كنت رجلا من عامة الناس مثلى فاستطعت أن أخاصمك إلى قضاء عادل وحضرنا أمامه معاً أنا بكتابى وأنت بمنشورك لما كان ثمة ريبة فى اعتباره إياك مذنباً وحكمه عليه بالتعويض علنا بقدر ما كان الإثم علنا . ولكنك من صف يعفى صاحبه من أن يكون عادلا ولست أنا شيئاً . على أنك وأنت تعلم الإنجيل ووظيفتك أن تدل الناس على واجبهم تعرف الواجب عليك فى حالتنا هذه . ولقد قمت بواجبى ولم يبق لى ما أقول ولذلك أسكت .

وتفضل يا مولاى بقبول عظيم احترامى .

• • •

أتحسب هذا الرد البديع المقنع غير من نظر الحكومات إلى روسو ؟ وهل تحسبه بعد نشره إياه ظفر من العطف العام بما أتاح له بعض السكينة فى حياته ؟ . كلا . بل بقيت متاعبه تزداد وتزيد عبء مرضه عليه ثقلا . وبقى مشرداً طريداً يتنقل من بلد إلى بلد ومن مملكة إلى مملكة مما ضاعف عقيدته المرضية بأن الناس جميعاً يناصبونه العداوة . وهل تحسب أن هذا الرد البديع المقنع أسكت خصومه عن مجادلته ومناقشته فى مبادئ دين الطبيعة . كلا . بل نشر النائب العام ترونشان بجنيف خطابات الريف التى رد عليها روسو بخطابات الجبل فازداد فيها سمواً وقوة وزادت سلطانه فى عالم الأدب رفعة وخلوداً .

على أن الجدل بين روسو وأسقف باريس هو كما قدمنا صفحة من صفحات الأدب البالغة غاية السمو دقة أسلوب ومتانة حوار وإبداعاً فى المناقشة . ولقد ظهر روسو فيها كما ظهر بعد ذلك فى خطابات الجبل وكما ظهر من قبل فى رده على دلمبير محاوراً ماهراً يستطيع أن يتراجع إن شاء . لكنه فى رسالته إلى أسقف باريس وفى خطابات الجبل لم يتراجع قيد أنملة . ذلك بأنه كان يدافع عن إيمانه الثابت وعقيدته الراسخة . وفى سبيل هذا الإيمان احتمل على مرضه وعلى فقره مالم يحتمله غيره من ذوى الثروة الطائلة والجاه العريض والقوة والفتوة . وكثيراً ما صهر الألم النفوس فنقاها وعلا بها إلى سماوات لا تعرفها نفوس المترفين والسراة ومن حجبت

عنهم الضغينة مراقى الرفعة . ولئن دعا الناس الجاه والمال والسلطان سموًّا فما هو إلا سمو زائل ما يلبث أن يتبخر تبخر السحاب وأن يتهدم إلى الأرض ويختلط بالتراب .

ولئن أنكر من دفعتهم مصالحهم إلى إنكار قوة رسالة روسو إلى أسقف باريس فقد أقبل أهل عصره من السواد الذين كانوا خاضعين لبطش الحاكمين وجبروتهم عليها أيما إقبال ، ثم كانت إبان الثورة الفرنسية . وكانت كتاباته بعض إنجيل هذه الثورة ، ثم بقيت وستبقى أثراً خالداً من آثار التفكير الإنسانى .

الفهرس